فهم القرآن الحكيم

التفسير الواضح حسب ترتيب النزول

القسم الأول

محمد عابد الجابري

فهم القرآن الحكيم

التفسير الواضح حسب ترتيب النزول

القسم الأول

محمد عابد الجابري

الإيداع القانوني رقم : 2008/0480
ردمك 2 - 3083 - 0 - 9954
طبع بدار النشر المغربية - الدار البيضاء - المغرب
الطبعة الأولى : 2008

فهم القرآن الحكيم

التفسير الواضح

حسب ترتيب النزول

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾

ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا

ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

مقدمة

كيف نفهم القرآن؟

سؤال يستعيد، على مستوى آخر، السؤال الذي كنا طرحناه في مستهل مقدمة كتابنا الأخير "مدخل إلى القرآن الكريم" الذي خصصناه لـ"التعريف بالقرآن ". كنا قد صغنا ذلك السؤال كما يلي: "هل يحتاج القرآن إلى تعريف"؟ ومع أن هذا السؤال كان بمثابة تحد لأمر واقع، وهو اعتقاد معظم الناس بأن القرآن لا يحتاج إلى تعريف لكونه أشهر من أن يعرَّف به – عند قراء العربية على الأقل– فإن الاهتمام الذي أثاره ما كتبناه في ذلك "التعريف" قد كشف فعلا عن الحاجة إلى استئناف القول في هذا الموضوع.

كان طرح السؤال حول "التعريف بالقرآن" ينطوي، كما قلنا، على نوع من التحدي لأمر واقع، وبالتالي كان يحتاج إلى نوع من المغامرة، أعني إلى الجرأة التي تفرضها الفلسفة على من ينتسب إلى حقلها، بوصفها "البحث عن الحقيقة". أما الإجابة عنه فقد كانت سهلة –على المؤلف– لأنه لم يجد نفسه مطالبا بالبحث عن حقيقة مجهولة أو ضائعة، بل كل ما وجد نفسه مطالبا به هو إعادة طرح أسئلة سبق أن طرحت من قبل، واستعادة مناقشات واجتهادات تنقل النظر إلى أبعد من سياج "العادة" المجمدة الرؤية، لتستحث الفكر المتقاعس على العمل لاكتساب رؤية جديدة أكثر استجابة لروح العصر.

أما السؤال الذي نستعيده هنا، كـ"ارتفاع" بسؤال "المدخل/التعريف"، فهو يقع على مستوى آخر. إنه لا ينطوي كسابقه على أي تحد لأي واقع، باعتبار أن "فهم القرآن" مهمة مطروحة في كل وقت ومطلوبة في كل زمان. وقد يكفي التذكير بأن اقتناعنا بأن القرآن يخاطب أهل كل زمان ومكان يفرض علينا اكتساب فهم متجدد للقرآن بتجدد الأحوال في كل عصر. وإذن، فطرح السؤال بصيغة "كيف نفهم القرآن؟" لا ينطوي على أية مغامرة؛ لكن الإجابة عنه، على ضوء معطيات العصر الذي نعيش فيه، هي المغامرة الكبرى.

ذلك لأن سؤال "فهم القرآن" يستعيد، كما قلنا، سؤال "التعريف بالقرآن"، بكل حمولته وآفاقه. وهكذا فكما وجدنا أنفسنا مطالبين، في السؤال

الأول، بـ"إعادة طرح أسئلة سبق أن طرحت، واستعادة مناقشات واجتهادات" الخ، فإننا في سؤال "الفهم" مطالبون كذلك بالمهمة ذاتها، وهي هنا أشق وأثقل بما لا يقاس. إننا لن نتعامل مع القرآن كنص على بياض، نكتب على هوامشه وحواشيه ما تلهمنا به العبارة والمثل والقصة والوعد والوعيد الخ، وما يسعفنا به الخيال وتدفعنا إليه الميول والرغبات الخ، لا. إن المنهج الذي اتبعناه على مستوى "التعريف" يفرض نفسه علينا على مستوى "الفهم" كذلك.

لقد أوضحنا في "التعريف" كيف أن "القرآن" ليس هو مجرد كم من الصفحات ينتظمها غلاف "المصحف"، بل هو نص اجتاز مسار الكون والتكوين خلال مسيرة تجاوزت عشرين سنة، ما بين ابتداء الوحي حتى وفاة متلقيه ومبلغه، صلوات الله وسلامه عليه؟ وإلى مثل هذا كان يطمح ما كنا نفكر في الكتابة عنه على مستوى الفهم. لقد كنا نطمح إلى أن نوضح كيف أن "فهم القرآن" ليس هو مجرد نظر في نص مُلئت هوامشه وحواشيه بما لا يحصى من التفسيرات والتأويلات بل هو أيضا "فصل" هذا النص عن تلك الهوامش والحواشي، ليس من أجل الإلقاء بها في سلة المهملات، بل من أجل ربطها بزمانها ومكانها، كي يتأتى لنا "الوصل" بيننا، نحن في عصرنا، وبين "النص" نفسه كما هو في أصالته الدائمة [1].

وما نقصد بـ"أصالة النص" ليس النص كما نزل، فهو معطى بكامل أصالته في "المصحف" الذي بين أيدينا، إذ "هو/هو" منذ أن جُمع في زمن الخليفة عثمان، بل المقصود بـ"الأصالة" هنا، على صعيد الفهم، هو هذا النص مجردا عن أنواع الفهم له، التي دونت في كتب التفسير باختلاف أنواعها واتجاهاتها. إن الأمر يتعلق هنا أساسا بعزل المضامين الإيديولوجية لتلك الأنواع من الفهم. أما المحتوى المعرفي في كتب التفسير فلأنها، في الجملة، يكرر بعضها بعضا فإنه يمكن الاستغناء عن كثير منها والاقتصار على المؤلفات المؤسِّسة: مثل التفاسير التي ألفها بعض علماء اللغة، وبعناوين لغوية الطابع مثل "مجاز القرآن" و"معاني القرآن"، والتفسيرين اللذين يمكن اعتبارهما بحق عمدة التفاسير اللاحقة لهما وهما "جامع البيان في تفسير القرآن"، الذي كتبه

1- بخصوص مفهوم "الفصل والوصل" كما نستعمله هنا، انظر كتابنا "نحن والتراث"، المدخل العام فقر 4: ب- فصل المقروء عن القارئ... مشكلة الموضوعية. ج- وصل القارئ بالمقروء... مشكل الاستمرارية.

"العالم، الفقيه، المقرئ، المؤرخ، اللغوي، المفسر"، محمد بن جرير الطبري (225-310 هـ)، وتغلب فيه المرويات حتى إنه يكاد يستقصيها من جهة، و"الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" لأبي القاسم جار الله محمد بن عمر بن محمد الزمخشري (467-538هـ) من جهة أخرى، والذي يمكن وضعه على رأس التفاسير "البيانية"، أعني التي اعتمدت المنهج البياني العربي. أما التفاسير الأخرى التي لا يكرر بعضها بعضا كحلقات متفرعة عن سلسلة الطبري أو الزمخشري، فهي في الغالب تتحرك، بوضوح وسبق نية، في إطار مذهب من المذاهب التي عرفها تاريخ الفكر الإسلامي. ومع أننا لم نقص هذه من اهتمامنا إقصاء، فإننا قد تجنبنا صحبتها لما يغمرها من "مياه" إيديولوجية متدفقة.

***

وبعد، فلعل القارئ يتذكر أننا قد صرحنا في السطور الأولى من *التقديم* الذي صدرنا به "المدخل إلى القرآن الكريم" بأن هدفنا منه هو أن "يلقي بعض الأضواء على ما نعتقد أنه الخلفية التي تؤطر" ذلك الكتاب، فحكينا، بل كررنا حكاية توالد وتناسل الأجزاء الأربعة لكتابنا "نقد العقل العربي" منذ الإعلان عنه في "نحن والتراث" (1980) إلى صدور جزئه الأخير "العقل الأخلاقي العربي" (2001). وتشاء الأقدار أن يتكرر نفس التوالد والتناسل مع "المدخل إلى القرآن" نفسه!

لقد كانت النية متجهة إلى كتابة جزء ثان له، في "فهم القرآن" على غرار "التعريف بالقرآن". وكما تطلب مني "التعريف" الرجوع إلى جميع ما أمكنني الحصول عليه من المؤلفات السابقة في الموضوع، ومعظمها تقع تحت الاسم الجامع "علوم القرآن"، فقد كان علي هنا الرجوع إلى جميع ما أمكنني الحصول عليه من المؤلفات السابقة التي لها علاقة بـ "فهم القرآن"، ويقع جلها تحت عنوان "التفسير". والتفاسير كثيرة جدا: منها الطويل والوسيط والوجيز، ومنها السني والشيعي والصوفي، ومنها الذي يغلب عليه الاعتماد على المأثور ومنها الذي يغلب عليه الرأي، ومنها الذي يهيمن فيه المنظور الفقهي، ومنها الذي يستهوي صاحبه الجدل "الكلامي" (نسبة إلى علم الكلام)؛ كما أن منها من ليس تفسيرا للقرآن بالمعنى الاصطلاحي بل حديثا تحت ظلاله، أو اجتهادا على ضوء مناره الخ، الخ.

لقد خرجت من مصاحبة هذه التفاسير مدة من الزمن، مستعينا بالحاسوب وما يرتبط به من مكونات ووسائل تمكن مستعملها من الجولة في الكتب بسهولة، مهما كبر حجمها وتعددت مجلداتها، والقيام بعمليات البحث والضبط والتجميع والتأليف والتفريق والتصنيف في ثوان معدودات، أقول: خرجت من مصاحبة جميع التفاسير المتوفرة، ككتب على الورق أو كنصوص على الأقراص أو على الانترنيت، بنتيجة عامة وهامة: وهي أن كتابة الجزء الثاني الذي وعدت به في "التعريف بالقرآن"، ليكون موضوعه "فهم القرآن"، لن يرقى إلى مستوى الرؤى والآفاق التي طرحها هذا الأخير، ما لم يتجاوز مجرد الاقتصار على جملة موضوعات في القرآن، إلى فهم للقرآن ككل، إلى تفسير.

لقد عمق هذا الشعور في نفسي "كلام" وجيز ولكنه عميق جدا، قرأته للشاطبي في "الموافقات" التي عدت إليها في إطار الجولة التي أشرت إليها قبل، "كلام" بدا لي كأنني أقرؤه لأول مرة مع أني "مررت" عليه مرارا، ولكني لم "أسمعه" بنفس القوة التي سمعته بها هذه المرة. أما نص هذا "الكلام" -الذي استهل به الشاطبي المسألة الحادية عشرة من المسائل التي تكلم فيها عن "الكتاب" بوصفه الدليل الأول في "الأدلة الشرعية"[2]- فهو كما يلي، قال: "المدني من السور ينبغي أن يكون منزَّلاً في الفهم على المكي، وكذلك المكي بعضه مع بعض والمدني بعضه مع بعض على حسب ترتيبه في التنزيل وإلا لم يصح"[3]، (والضمير يعود على "الفهم" في قوله : منزَّلا في الفهم). ومع أني كنت أكدت في "*التعريف*" على ضرورة الاهتمام بترتيب النزول، إلا أن ما سمعته من الشاطبي هذه المرة، وهو يتكلم عن "الكتاب"، قد ولد في شعورا عميقا بأن "فهم القرآن" يعني فهم "الكتاب". لقد تحدثت في "التعريف" عن "القرآن/الكتاب"[4] وأكدت على أهمية فعل "القراءة" (التلاوة) في تسمية القرآن قرآنا، ولكنني لم أكن أعي بما يكفي من العمق "الحكمة" من إطلاق اسمين على مسمى واحد. أما الآن فقد غدا من السهل علـيَّ القول إننا نستطيع أن نتعامل مع أية سورة أو أية مجموعة من آيات القرآن المتلو، ولا نحتاج في التواصل

2- التي هي: القرآن السنة والإجماع والقياس، وتسمى أيضا أصول التشريع في الإسلام.
3- أبو إسحاق الشاطبي. الموافقات ج3. ص406
4- الفصل السادس، خصوصا الفقرة رقم 4، وخلاصة الفصل.

معها سوى إلى مقرئ يجيد التلاوة. ذلك لأن معنى القرآن المتلو يكون "أصل انفجاره من القلب"، كما يقول الشاطبي في معرض كلامه عن الفهم الصوفي والباطني للقرآن، أما معنى القرآن المكتوب فيتطلب فهمه تتبع ترتيبه ككتاب، فيه السابق واللاحق، على أساس- ولا ضير في تكرار كلام الشاطبي- أن: "المدني من السور ينبغي أن يكون منزلا في الفهم على المكي، وكذلك المكي بعضه مع بعض والمدني بعضه مع بعض، على حسب ترتيبه في التنزيل وإلا لم يصح" الفهم.

إن انبثاق "فهم الكتاب الحكيم" في العقل، يتطلب، من "الجهد الذهني"، ربما أكثر كثيرا مما يتطلبه "انفجار القرآن الكريم" في القلب من "فراغ الذهن". ذلك لأن الجهد المطلوب في عملية الفهم، بالنسبة لعملنا هنا، جهد مضاعف: سيكون علينا في البداية التأكد من مصداقية أي ترتيب للنزول نأخذ به، وذلك يعني إعادة بناء الترتيب الذي تعطيه اللوائح المروية على أساس الأخذ بالاعتبار المرويات التي تتحدث عن تاريخ نزول هذه السورة أو تلك، أو عن مناسبات نزول بعض آياتها، سواء وافق ذلك ترتيب اللوائح أو خالفه. هذا فضلا عن أن إعادة النظر في ترتيب النزول يجب أن تنطلق أولا من الفصل في مسألة المكي والمدني من السور والآيات ... ومع أن المادة في هذا المجال موجودة بغزارة، في التفاسير المطولة وكتب علوم القرآن وكتب الحديث وكتب التاريخ الخ، إلا أن كثيرا منها يطرح مشكلة التوافق مع السياق ومع مبدأ "القرآن يشرح بعضه بعضا"، وسنرى في صفحات هذا الكتاب، بأقسامه الثلاثة، أمثلة كثيرة؛ مزعجة حقا!

لنقل إذن إن النتيجة العامة والعملية التي خرجت بها من مصاحبة التفاسير الموجودة هي أن المكتبة العربية الإسلامية تفتقر إلى تفسير يستفيد في عملية "الفهم" من جميع التفاسير السابقة ولكنه يعتمد ترتيب النزول [5]، ويسلك طريقة في "الإفهام" ألصق بالطريقة التي تعتمد اليوم في الكتابة مع

5- هناك محاولتان في هذا الموضوع: محاولة المستشرق الفرنسي ريجس بلاشير الذي قام بترجمة معاني القرآن إلى الفرنسية (1947-1950) على أساس " ترتيب النزول" الذي وضعه المستشرق الألماني نلدكه، وقد عدل عنه في الطبعة الثانية لكتابه فرجع إلى ترتيب المصحف، ثم محاولة الدكتور محمد عزة دروزة، "التفسير الحديث" 1961-1964. وقد تحدثنا عن هاتين المحاولتين وأبدينا رأينا فيهما في "المدخل إلى القرآن الكريم" (التعريف). الفصل العاشر: ثانيا، فقرة 2 و 3

الاستفادة مما يقدمه الحاسوب من إمكانيات على مستوى التنظيم والتصنيف واستعمال العلامات الخ.

* * *

كانت الكتابة إلى وقت قريب سجينة فقر هائل على مستوى "أدوات الإفهام"، أفقر كثيرا مما كان متوافرا على مستوى الكلام. كان المتكلم والخطيب والمجادل الخ، وما يزال، يستعين، في عملية الإفهام، بالإشارة بيده وعصاه ورأسه وحاجبيه، بابتسامته وعبوسه وضحكه وبكائه. كان جسمه كله مجندا في عملية الإرسال، وكان المتلقي يتلقى تلك الإشارات فتسد لديه ثغرات الصوت وتقطعه وارتجاجه... أما الكاتب فلم يكن يملك سوى أن يبدأ من أقصى نقطة في الورقة (على اليمين إن كانت اللغة تبدأ من اليمين، أو على اليسار إن كانت بالعكس)، راصًّا الحروف والكلمات جنبا إلى جنب، حتى إذا انتهت الورقة انتقل إلى أخرى واضعا علامة يفهم منها ما يفهم من كلمة "يتبع"، ثم يستمر هكذا. وإذا ما هو شعر بأن ما سيكتب لا يشكل جزءا من الكلام الصامت الذي ينقله إلى "الخط" وضع كلمة "فصل"، إشعارا بأن ما سيخط في تلك اللحظة، منفصل عما مضى وعما سيأتي.

هذا الأسلوب في الخط والكتابة هو نفسه ما كان يجري به العمل في "التفسير". يبدأ المفسر –بعد البسملة– بكلمة من سورة يخطها، مميزة بعض التمييز عن كلامه هو، ثم يستمر في شرحها بإيجاز لا "يسمن ولا يغني من جوع" إن كان يكتب تفسيرا موجزا؛ أما إن كان تفسيره من الطوال فهو يبدأ بذكر نوع "القراءة" أو القراءات التي قرئت بها الكلمة ثم يأتي بما قاله فيها أهل اللغة والنحو والصرف قبل أن ينتقل إلى إيراد مرويات ترافقها استطرادات الخ، ليتحول بعد ذلك إلى اللفظ التالي من ألفاظ السورة بعد أن يكون قد مر كمٌّ هائل من الكلام عن اللفظ السابق، وهكذا... بعض المفسرين يسلك طريقة مختلفة، طريقة "التفسير بالجملة" بدل "التفسير بالتقسيط"، فيورد عدة آيات أو سورة بكاملها من المفصل، ثم ينطلق في الشرح والتعليق والاقتباس والاستشهاد والرد. مفترضا أن ألفاظ الآية أو السورة "محفوظة في صدر" القارئ –وقد كان الأمر كذلك لأن من ينتقل إلى "التفسير"، قراءة أو كتابة كان يحفظ القرآن في الأغلب الأعم. وغني عن البيان القول إن هذا الفقر الهائل الذي عانت منه الكتابة –عندنا وعند غيرنا– قد عمق الهوة بين الناس وبين ممارسة عملية

الفهم لنصوصهم الدينية، وذلك إلى درجة انتقلت معها قداسة النص الديني إلى ما كتب عليه. وأمام غياب الفهم وانتشار الأمية صار المقدس ليس هو النص مستقلا عن المكتوب فيه، بل هو المكتوب فيه نفسه، تماما كما أن الاحترام للشخص المتوفى ينتقل منه، ككائن حي، إلى قبره وضريحه.

وفي المقابل من ذلك كله، يجب استحضار ذلك المجهود الكبير الذي بُذل بتقنيات عالية في تجهيز القراءة في المصحف. لقد كانت الكتابة العربية زمن النبي (ص) والخلفاء الراشدين تخط بدون نقط وبدون شكل وبدون ترقيم للآيات، حتى إن الفصل بين سورة وأخرى كان بكتابة "بسم الله الرحمن الرحيم" بينها... ولكن لم يمر وقت طويل حتى صار المصحف يكتب بالنقط والشكل مع ترقيم الآيات، مجهزا بعلامات خاصة بالقراءة والتلاوة والتجويد، وهكذا انتقل إلى كلمات المصحف ما كان يخزن في جهاز الصوت عند المقرئ، فصارت طريقة قراءة القرآن رموزا مسجلة في النص، لا بد من مراعاتها عند التلاوة.

لكن هذا المجهود التقني الذي بذله المختصون في "تلاوة القرآن" منذ وقت طويل لم يبذل مثله في مجال "التفسير"، رغم تطور الكتابة وأدوات "الإفهام". نقصد بذلك ما نجهز به نصوصنا اليوم من علامات تعين على الفهم وتقوم في الكتابة مقام "علامات التلاوة" في المصحف وأيضا مقام "إشارات" المتكلم والخطيب. من ذلك الرجوع إلى أول السطر عند اكتمال التعبير عن الفكرة والانتقال إلى فكرة جديدة، ووضع نقطة عند اكتمال الجملة، والفاصلة بين الكلمات عندما يتعلق الأمر بعملية تعداد، أو للفصل بين أجزاء الجملة، للتمييز فيها بين ما هو أساسي وما هو فضلة، ووضع نقطة فاصلة بين جملتين مستقلين ولكن مترابطتين، ووضع علامة للاستفهام وأخرى للتعجب، واستعمال المزدوجتين عند الاقتباس أو عند تسجيل نوع من التحفظ، والهلالين للتفسير أو العزل وما أشبه، والمعقوفتين عند إضافة المحقق أو المقتبس كلمة أو عبارة إلى النص الأصلي، عند شعوره بسقوط تلك الكلمة أو العبارة...

بهذه العلامات يتم التغلب في الكتابة المعاصرة على كمٍّ هائل من الصعوبات التي كانت تعترض القارئ في الماضي، سواء في اللغات التي تحتاج الكتابة فيها إلى "الشكل" لإبانة المعنى أو في التي تكتب فيها علامات الشكل مع حروف الكلمات؛ فبتلك العلامات يتم التمييز في النص بين أجزاء الكلام المكتوب، مشكولا أو غير مشكول.

إن استعمال "علامات الإفهام"، هذه، يشكل جزء أساسيا مما ندعيه من الوضوح لهذه المحاولة في التفسير، التي لم نتردد في تسميتها بـــ" التفسير الواضح". ذلك أنه فضلا عن دور تلك العلامات في عملية الإفهام، كما بينا أعلاه، فإنها تمكننا من جعل القارئ يرافق باستمرار نص القرآن وهو يقرأ، بين هلالين وبخط مختلف، معنى اللفظ أو العبارة من غير انتقال إلى خارج ذلك النص للبحث عن المعنى الذي قد لا يجده في التفاسير المكتوبة بالطريقة القديمة، خاصة المطولة منها، إلا بمشقة؛ أعني بعد استعراض صفحة أو صفحات يعود بعدها إلى "مكانه" مشتت الذهن، تعب البصر. وقد تمكنا في الوقت نفسه من اعتبار تموجات المعنى، باستعمال علامات الفهم والإفهام، والحفاظ في الوقت نفسه على حدود الآيات بكتابة أرقامها بحجم مصغر فوق آخر حرف من الآية، وذلك كي لا تختلط بالأرقام التي تحيل إلى الهوامش والتي ميزناها هي الأخرى بوضعها بين هلالين مرفوعة بحجم مختلف.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى عمدنا، توخيا لأكبر قدر من الوضوح، إلى تنظيم ما تورده التفاسير -من نقول ومعلومات واجتهادات متداخلا متراكما في الغالب- تنظيما مبنيا على طبيعة الموضوع. وهكذا وزعنا مادة "التفسير" في كل سورة إلى ثلاثة أقسام : تقديم، وهوامش، وتعليق.

1- أما التقديم فقوامه عرض مختصر، صدرنا به كل سورة، خصصناه لأهم المرويات التي وردت حولها كسورة، أو حول بعض آياتها، مما يعتبر من "أسباب النزول" أو ما هو مجرد مرويات تعين على الفهم أو على تحديد تاريخ نزول السورة أو ظروف نزولها الخ، مع التخفيف من سلاسل السند إلى أقصى حد؛ إذ ما الفائدة من ذكر السند لغير المختص فيه؟ أما المختص فله مراجعه ومقاييسه. كما استغنينا عن ذكر المصدر، والجزء، ورقم الصفحة، والطبعة الخ، بالاكتفاء بذكر مؤلف التفسير (مثل الطبري، الزمخشري، الرازي الخ)، لأن تفاسيرهم معروفة، ولأن الطريق إلى النص الذي نحيل إليه تقود إليه الآية ورقمها، مهما كانت الطبعة. وفي أحيان كثيرة نكتفي بعبارة "يقول المفسرون" وما في معناها لأن الأمر يتعلق برواية موجودة لدى معظمهم، والغالب ما يكفي فيها الرجوع إلى الطبري، فجل المفسرين، إن لم يكن جميعهم، عالة عليه في المرويات.

2- أما الهوامش أسفل الصفحات فقد أدرجنا فيها الشروح أو التعليقات التي نحتاج من حين لآخر إلى تسجيلها لكونها تُطلع القارئ على رأي خاص بمفسر معين، أو على مرويات أو ملاحظات يتعذر إدراجها بين الهلالين داخل النص، بسبب طولها أو عدم وجود علاقة مباشرة بينها وبين النص.

3- وكما صدرنا كل سورة بتقديم خاص بها، ختمنا تعاملنا معها بتعليق نستعيد فيه أهم القضايا التي تناولتها في شكل خلاصة مركزة، مع إبداء الرأي في هذه المسألة أو تلك.

وقبل ذلك وبعده، لا بد من الإشارة إلى أننا ميزنا في تسلسل السور حسب ترتيب النزول بين مراحل، راعينا فيها التطابق، النسبي على الأقل، بين مسار التنزيل ومسيرة الدعوة، وسيلمس القارئ بنفسه أن ما قمنا به في هذا المجال لا يعدو أن يكون مجرد وضع عناوين لكل مرحلة. وهكذا نتبين بكل وضوح أنه، مع أن القرآن نزل منجما وخلال أزيد من عشرين سنة، فإن تسلسل سوره -حسب ترتيب النزول- يباطنه تسلسل منطقي سرعان ما نكتشفه عندما ننتبه إلى الموضوع الذي تركز عليه هذه المجموعة من السور أو تلك في تسلسلها؛ وبالرجوع إلى وقائع السيرة نكتشف أن ذلك المنطق، الذي يباطن تسلسل السور داخل كل مجموعة، يتطابق في مضمونه مع تسلسل هذه الوقائع؛ الشيء الذي نتبين منه بوضوح أن مسار التنزيل مساوق فعلا لمسيرة الدعوة[6].

6- وهذا مصداقا لقوله تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً! كَذَٰلِكَ، لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا؛ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا" (الفرقان 32-33). فالحكمة من تنزيله مفرقا هو تثبيت فؤاد النبي عليه السلام بالجواب في الحين وفي كل مرة على اعتراضات قريش واستهزاءاتهم وإحراجاتهم واعتداءاتهم. وهذا التنزيل المفرق قد جاء "مرتلا ترتيلا" أي متتابعا شيئا فشيئا، منضدا مرتبا. وهكذا فما من مثل يضربه مشركو مكة لتعزيز اعتراضاتهم وتقوية حججهم إلا ويأتي الرد عليه من القرآن بما هو أوضح بيانا للحق وأحسن تفسيرا، وهذا جعل مسار التنزيل مساوقا أصلا لوقائع السيرة النبوية. وهذه الآية نفسها نزلت ردا على قريش عندما استصغروا من شأن القرآن وقالوا ما هو إلا أقاويل يأتيها محمد من حين لآخر. قالوا: فلو كان نبيا حقا لجاء مجموعا، مثل كتاب موسى، غافلين أو متغافلين عن أن التوراة كتبها موسى (بعدما أخذ الألواح التي أعطاه الله) يحكي فيها قصة الخليقة بهدف الوصول إلى نشوء بني إسرائيل وتقلبات الأحوال والظروف بهم، وقصة شيوخهم الأولين، إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب (واسمه الأصلي إسرائيل)، وقصة التحاق هذا الأخير بابنه يوسف في مصر حيث تكاثروا، ثم خروجهم منها بعد أربعمائة سنة=

وهكذا ميزنا في مسار التنزيل ومسيرة الدعوة، خلال العهد المكي، بين ست مراحل :

- المرحلة الأولى : في النبوة والربوبية والألوهية.
- المرحلة الثانية: في البعث والجزاء ومشاهد القيامة.
- المرحلة الثالثة: في إبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام.

وهذه المراحل الثلاثة هي التي تشكل محتوى هذا القسم الأول الذي يضم اثنتين وخمسين سورة : من سورة العلق ("اقرأ باسم ربك" وهي أول سورة نزلت)، إلى سورة يوسف التي ختمنا بها هذا القسم. أما السور الأخرى الباقية من القرآن المكي فتضمها المراحل، الرابعة والخامسة والسادسة، وهي موضوع القسم الثاني من الكتاب. أما القرآن المدني فسيستقل به القسم الثالث. وكما صدرنا كل مرحلة باستهلال، موجز في الغالب، ختمناها باستطراد استشرافي، طويل في الأغلب الأعم، قدمنا فيه ما يناسب المرحلة من بيانات إضافية تتعلق بموضوع من الموضوعات التي ركزت عليه سور المرحلة.

ولا بد من الإفصاح هنا عن مدى شعورنا بالرضى والتوفيق ببناء هذا التفسير على أساس ترتيب النزول، ليس فقط على مستوى ما عبرنا عنه في "التعريف بالقرآن" بمسار "الكون والتكوين"، ونعبر عنه هنا بـ"مسار التنزيل"، بل أيضا على مستوى مسيرة الدعوة المحمدية والسيرة النبوة. والواقع أنه إذا كان من الضروري التعبير، في كلمات معدودة، عن جوهر ما دشنا القول فيه بهذا العمل، فنحن لا نتردد في ادعاء أننا نشعر بالتوفيق في "قراءة القرآن بالسيرة وقراءة السيرة بالقرآن". ذلك أن هذا النوع من القراءة المزدوجة قد مكنني من التعرف على حقيقة ذلك السر الذي أشرت إليه في نهاية خاتمة "المدخل إلى القرآن" عندما كتبت أقول : "وعلي أن أعترف الآن أن هناك سرا لم يستطع عقلي اكتناه حقيقته: إنه هذا الذي عبرنا عنه بـ "العلاقة الحميمية" بين الرسول محمد بن عبد الله وبين القرآن الحكيم".

***

بقيادة موسى الذي كلفه الله بذلك الخ. أما القرآن فهو كتاب دعوة إلى الله موجهة إلى قوم أعرضوا عنها وحاجوها وقاوموها فكان الرد عليه مفرقا تفرق رد فعلهم إزاءها الخ.

كلمة أخيرة بصدد أقسام هذا الكتاب : لقد كانت النية متجهة في الأصل إلى كتابة جزء ثان لـ"المدخل" كما أعلنا عن ذلك، لكن عندما قادنا البحث إلى مشروع كتابة "تفسير"، حسب ترتيب النزول، بديلا عنه، قررنا جعله جزأين: الأول في القرآن المكي ومحوره العقيدة والأخلاق، والثاني في القرآن المدني ومحوره الأحكام والتشريع للدولة. واشتغلنا على هذا الأساس. غير أن طول الجزء الأول الذي كان من المفترض أن يكون بين يدي القارئ الآن بكامله، جعلنا نفضل جعله قسمين الأول هو هذا الذي بين يدي القارئ، والثاني سيليه، إن شاء الله، بعد نحو شهرين أو ثلاثة. أما القسم الثالث الذي سيكون خاصا بالقرآن المدني فأملنا أن يكون بين أيدي القراء مع نهاية السنة.

عسى أن أكون دائما عند حسن الظن. وما توفيقي إلا بالله.

الدار البيضاء فاتح يناير 2008

محمد عابد الجابري

المرحلة الأولى

النُّبوّة والربوبية والألوهية

استهلال

تتميز السور الأولى في لائحة ترتيب النزول بقصرها وقصر آياتها وأسلوبها الخاص؛ كما يتوجه الخطاب فيها أساسا إلى النبي عليه الصلاة والسلام، ويكاد مضمونها يختص به : إما بالحديث إليه أو عنه، وإما بالرد على خصومه المكذبين برسالته. ومن أبرز ما تتميز به هذه السور، بالنسبة لموضوعنا هنا، استعمال اسم الرب: "اقرأ اسم ربك" (العلق)، "وربك فكبر" (المدثر)، "سبح اسم ربك" (الأعلى)، "ابتغاء وجه ربه" (الليل)، "كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ" (الفيل)، "إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ" (الفجر)، "ما ودعك ربك وما قلى" (الضحى) الخ؛ والملاحظ أن اسم الجلالة (الله) لم يستعمل إلا ابتداء من سورة "الإخلاص" السورة الثانية والعشرين وما بعدها (حسب ترتيب النزول المعتمد، 19 حسب ترتيبنا)[1]، أما قبل ذلك فالخطاب القرآني كان يتحرك على مستوى النبوة والربوبية. وسيتوسع بعد ذلك من خلال الاتصال والحوار، ثم الجدل، مع قريش لإبراز جانب الألوهية في الربوبية، ليطرح بعد ذلك اسم الرحمان كاسم من أسماء الله الحسنى.

النبوة والربوبية والألوهية ثلاثة محاور يتحرك فيها الخطاب القرآني فيما نطلق عليه هنا المرحة الأولى من مسار الخطاب القرآني المكي بتساوق مع وقائع السيرة النبوة، التي اتسمت خلال هذه المرحلة بنوع من "السرية"؛ كانت الدعوة المحمدية خلالها تقتصر أو تكاد على الاتصالات الفردية في إطار من الثقة يحميها الكتمان والتستر. أما عدد السور التي نزلت خلال هذه المرحلة فهو سبع وعشرون سورة، من سورة العلق (اقرأ باسم ربك) إلى سورة قريش، حسب ترتيب النزول المعتمد (27 حسب ترتيبنا).

تبتدئ هذه المجموعة بسورة "العلق" كما قلنا. وما نعنيه بـ"السورة" هنا، ليس السورة بكاملها بل الآيات الأولى منها فقط (وسنعيِّنها). يصدق هذا على سورة العلق وسورة المدثر اللتين تحتلان المرتبة الأولى والثانية في لائحة ترتيب النزول، حسب أشهر الأقوال وأقواها. أما بقية هاتين السورتين فقد نزلت في مرحلة لاحقة.

---

1 - سنوضح فيما بعد الفارق بين الترتيبين.

وحفاظا على "وحدة السورة"، لكونها توقيفية، سنذكر هاتين السورتين مرتين : نشرح في المرة الأولى الآيات التي نزلت في هذه المرحلة، مرجئين بقيتها إلى المكان الذي نرى أنه أنسب، سواء بترجيح من مضمونهما أو بتعزيز مما ورد في شأنهما من أخبار.

1- سورة العـــلــق

- تقديـــم

تبدأ سورة "العلق" (1) بعبارة "اقرأ باسم ربك"، والمعنى: ابدأ القراءة بذكر "اسم ربك"، تيمنا وتبركا. وهذا يجري مجرى عادة العرب في التبرك بذكر واحد من آلهتهم. فكانوا يقولون باسم اللات، باسم العزى... وفي الحديث أنه عندما أخذ النبي عليه السلام يملي على علي بن أبي طالب نص وثيقة صلح الحديبية قائلا: "اكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"، اعترض ممثل قريش وقال: "مَا نَدْرِي "مَا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ". وَلَـكِنِ اكْتُبْ مَا نَعْرِفُ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ". وتعني : باسمك يا الله؛ وقد احتفظ الإسلام بهذا التعبير، ففي القرآن: "دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ" (يونس 10)، وأيضا: "قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ" الآية (آل عمران 26). كان العرب يستعملون هذا التعبير لأنهم كانوا يعرفون الله، ويؤمنون به، ولكنهم كانوا يشركون معه وسطاء من الملائكة والكواكب والنجوم والأصنام، معتقدين أن هؤلاء الوسطاء يقربونهم إلى الله ويشفعون لهم الخ.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

"اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ[1]: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ[2]؛ اقْرَأْ. وَرَبُّكَ (هو) الْأَكْرَمُ[3] الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ[4]، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ[5]".

بقية السورة (وسنعود إليها لاحقا)

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (7) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (8) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (10) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (12) أَرَأَيْتَ

1- وقد سميت بهذا الاسم لورود كلمة "العلق" فيها. وبالمناسبة ننبه إلى أن أسماء السور لا تدل بالضرورة على موضوع السورة ولا على مضمونها، والغالب ما يكون السبب في حملها اسما معينا هو -فقط- ورود ذلك الاسم فيها.

إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (14) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (15) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19).

- تعليق :

ما يلفت النظر في هذه الآيات الخمس أنها تقرر العقيدة الإسلامية من خلال التركيز على مبدأين اثنين: خَلَق-عَلَّم، وربطهما أولا بمحور واحد هو الإنسان الشخص، والمقصود هنا هو محمد (ص) بالذات، ثم ربطهما ثانيا بمعطيات التجربة اليومية للإنسان المفهومة من قوله: "علم الإنسان بالقلم". والمعنى : تبرَّكْ يا محمد باسم ربك، واعلم أن هذا الرب الذي يوحي إليك هو الذي خلقك من دم علِقٍ برحم أمك، تحولت إليه نطفة من أبيك. واعلم كذلك أنه هو نفسه الذي علّم بالقلم، وعلّمك ما لم تكن تعلم.

وما يرجح لدينا هذا المعنى هو أن حديث القرآن عن الخلق قد ورد على ثلاث مستويات : 1) خلق الإنسان الشخص من علق، 2) خلق الإنسان النوع (آدم) من طين، 3) خلق الكون (السماوات والأرض من دخان) كما سيرد ذلك مفصلا. أما العلق فجمع علقة، وهي الدم الجامد، "سميت بذلك لأنها تعلَق لرطوبتها بما تَمُر عليه، فإذا جفت لم تكن عَلَقَة". ونحن نرى أنه لا معنى لاستنتاج القرطبي[2] من كون الآية استعملت "العلق"، بالجمع، أن المراد هو "الإنسان الجمع"، يعني بني آدم". ذلك أنه لا معنى لمقولة "الإنسان الجمع". فالإنسان إما شخص مشار إليه (مفردا أو جمعا) وإما نوع (نوع الإنسان، أي مفهومه). وفي القرآن : الإنسان النوع الذي هو آدم قد خلقه الله من طين، أما الإنسان الشخص وهو متعدد (بنو آدم) فقد خلقه من علق. أما الإنسان الشخص الواحد غير المتعدد فلا وجود له. يشهد بالصحة لما قلناه قوله تعالى: "وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى، مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى". والخطاب هنا عن الإنسان الشخص، هو حسب الروايات، شخص معين وهو الوليد بن المغيرة "الَّذِي تَوَلَّى وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى" (النجم 33-46)، ومثل ذلك قوله: "أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى، أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى، ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى" (القيامة 36-39)، فالخطاب فيه عن أبي جهل بن هشام.

2- سنقتصر على ذكر المفسرين بأسمائهم المشهورة مثل (القرطبي، الزمخشري، الرازي...)، وواضح أنه فيما يخص التفسير فالمرجع هو السورة ورقم الآية وبالتالي لا حاجة إلى ذكر رقم الصفحة ولا الطبعة.

وأما قوله تعالى: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ" (المؤمنون 12-14)، فالمقصود به الإنسان الشخص كذلك، والمخاطب هنا متعدد، هم كفار قريش (وهم من سلالة آدم). أما عندما يتعلق الأمر بالبشرية جمعاء فالقرآن يستعمل في الغالب عبارة "بني آدم" مثل قوله تعالى: "أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (يس-60).

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هنا هو التالي: كيف نفهم هذا الربط بين "الخلق من علقة"، و"التعليم بالقلم"؟ والجواب في نظرنا يجب أن يكون مقيدا بالمفكر فيه زمن النبوة، أعني معهود العرب آنذاك. وبناء عليه يمكن صياغة الجواب كما يلي: إنه كما خلق ربك الإنسان من قطعة من دم متجمد، جعل الكتابة والقراءة وسيلة لتعليمه. وهذه العلاقة بين "اقرأ" و"القلم"، بين القراءة والكتابة، يشرحها حديث النبي عليه السلام عن ابتداء نزول الوحي عليه، حيث قال: "جاءني جبريل، وأنا نائم (في رؤيا المنام)، بنمط (وعاء) من ديباج (ثوب فارسي مزركش) فيه كتاب، فقال: اقرأ! قال (النبي): ما أقرأ؟ (وفي رواية أخرى ماذا أقرأ، وفي أخرى ما أنا بقارئ"؟). إن قوله عليه السلام إن جبريل جاءه : "بنمط من ديباج فيه كتاب" يحتمل معنيين: إما أن جبريل أراد منه أن يقرأ في ذلك الكتاب (وقد سبق أن أثبتنا أنه صلى الله عليه وسلم كان يعرف القراءة والكتابة)[3]، وإما أن جبريل جاء يحمل إليه "كتابا"، أي الوحي الذي سيسمى أولا بـــ "القرآن"، ثم بـــ"الكتاب"[4]. وفي كلتا الحالتين يكون الوحي الذي سينزل على محمد (ص) هو المقصود بـــ "علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم". كما قررنا أعلاه. وعلى هذا يكون الخطاب، في الآيات الخمس التي نحن بصددها، موجها كله إليه وحده : اعلم يا محمد، أن ربك الذي خلقك من علق، هو الذي أكرمك بالوحي الذي سيصير كتابا، والذي ستعلم من خلاله ما لم تكن تعلم. هناك عدة آيات تسند هذا المعنى، منها قوله تعالى: "رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ". (البقرة-129)، وقوله: "وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا" (النساء-113) الخ.

---

3 - انظر <u>التعريف بالقرآن</u> : الفصل الثالث. (من الآن فصاعدا سنحيل على "مدخل إلى القرآن" باسمه الخاص: "<u>التعريف بالقرآن</u>"، تجنبا للخلط).

4 -نفس المرجع.

2- سورة المـــدثـــر

- تقديـــم

وردت هذه السورة في الرتبة الرابعة في لوائح ترتيب النزول مع أن معظم المفسرين والرواة يعتبرونها في الرتبة الثانية، أي مباشرة بعد سورة "العلق". ونحن نرجح أنها فعلا ثاني سورة نزلت، أعني الآيات العشر الأولى منها على أكثر تقدير. وأنها السورة الأولى التي نزلت بعد سورة العلق، عقب انقطاع الوحي مدة من الزمن قدرها بعضهم بخمسة عشر يوما، وقال آخرون إنها دامت سنتين، والمشهور أنها دامت أربعين يوما[1]. وخلال هذه المدة كان خبر اتصال جبريل بالنبي عليه السلام قد شاع في أوساط قريش، وقد اكتسى رد فعلهم نوعا من السخرية غير جارح، في البداية، مراعاة منهم للعلاقات القبلية، التي كان لها دور كبير في المجتمع المكي آنذاك. يتجلى هذا من خلال ما يمكن اعتباره أول رد فعل تهكمي أثار احتجاجا لم يكن الدافع إليه شيئا آخر غير النعرة القبلية. يروى أن النبي (ص) مر على أبي جهل وأبي سفيان[2] وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال : "هذا نبي بني عبد مناف!". فغضب أبو سفيان، وهو بعد خصما للدعوة المحمدية، وقال مستنكرا : "أتنكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي"؟

1- تجد التفاصيل في التعريف بالقرآن: الفصل الرابع فقرة 3

2- أما أبو جهل فقد كان أحد رجالات قبيلة بني مخزوم المنافسة لبني عبد مناف (بنو هاشم وبنو أمية معا)، وكان يكنى بـ"أبي الحكم" واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة، -ونظرا لشدة خصومته للدعوة المحمدية كني بـ"أبي جهل"- وهو أخو الوليد بن المغيرة الذي كان عميد المخزوميين زمن الرسول، ومن كبار "الملأ من قريش" (خصوم الدعوة المحمدية) ولكنه لم يكن في قساوة أخيه أبي جهل. وأما أبو سفيان فقد كان عميد بني أمية من أبناء عمومة النبي عليه السلام، وكان من خصوم الدعوة المحمدية، وزعيم قريش بعد وفاة أبي طالب عم النبي (ص). وقد انتهى به الأمر إلى أن فاوض النبي عليه السلام بواسطة عمه العباس على الدخول إلى مكة ففتحت بدون حرب، وكان قد أسلم. وكان ابنه معاوية من كتاب الوحي لدى الرسول (ص)، ثم صار عاملا على دمشق، ثم مؤسس الدولة الأموية بعد حربه مع علي بن ابن أبي طالب وانتزاع الخلافة منه.

ومن جملة ما استهزأ به خصوم الدعوة المحمدية لما فتر الوحي قولهم: "لو كان من عند الله لتتابع"، فشق ذلك على الرسول عليه السلام فأخذ يتردد على جبل حراء والجبال المجاورة لعله يسعد بلقاء جبريل ثانية. لكن جبريل أبطأ أكثر مما كان ينتظر، فحزن لذلك حزنا بليغا دفعه إلى الصعود إلى قمم الجبال ليلقي بنفسه من هناك على الأرض. لكنه كان بمجرد ما يصل قمة جبل يتبدى له جبريل ليقول: "يا محمد، إنك رسول الله حقا"، فيسكن لذلك جأشه وتقرُّ نفسه، فيرجع". وتكرر المشهد عدة مرات دون أن يصحبه نزول الوحي. وأخيرا قرر الرجوع إلى بيته، وهو في حالة من الفزع والخوف. وتضيف الرواية على لسان النبي (ص): "فقلت زمّلوني زمّلوني، فدثروني"(3).

ولعل ورود كلمة "زملوني" في هذا الحديث هو ما جعل واضعي لوائح ترتيب النزول يصنفون سورة "المزمل" قبل المدثر، مضيفين إليها سورة "القلم". ونحن نرى أن سورتي المزمل والقلم لا تنتميان إلى هذه المرحلة المبكرة. ذلك أننا لو قارنا بين ما نزل من سورة المدثر، في هذه المرحلة، مع سورتي القلم والمزمل اللتين رتبتا الثانية والثالثة على التوالي في لوائح النزول، لتبين بسهولة أن ما نزل من هاتين السورتين لا يتناسب مع ظروف هذه المرحلة من النبوة ولا حتى مع ردود فعل خصومها. ذلك أن هاتين السورتين تتحدثان من موقف الرد على منكري النبوة المحمدية بمضمون لا يستقيم مع ما نزل قبلهما من آيات سورة "العلق". فنحن نقرأ في الآيات الأولى من سورة "القلم" قوله تعالى: "ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ، مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ، وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ، إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ، فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ، بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" (القلم 1-7). وأول ما يلاحظ هو أن استعمال القسم في فواتح السور لم يبدأ إلا في مرحلة لاحقة، عندما كانت قريش تتهم النبي عليه السلام بالجنون والكهانة والسحر الخ، كما أن توجيه التهديد والوعيد من جانب القرآن إلى قريش لم يبدأ هو الآخر إلا في مرحلة لاحقة.

---

3 - البخاري. باب التعبير. وقد تناقل مؤلفو التفاسير هذه الرواية. غير أن هناك روايات أخرى أقرب في نظرنا من حيث اللفظ إلى القول بأولوية المدثر، منها رواية جابر بن عبد الله، مفادها أن النبي عليه السلام قال وهو يحدث عن بداية الوحي: "فبينا أنا أمشي سمعت صوتا من السماء فنوديت، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر شيئا، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجئت منه رُعبا فأتيت خديجة فقلت: دثّروني فدثروني" وفي إحدى الروايات إضافة "وصبّوا عليَّ ماء باردا".

ومثل سورة المزمل في ذلك مثل سورة القلم. فنحن نقرأ في مستهلها قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ، قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا، نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا، إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا، إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا، إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا، وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا، رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا، وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا" (المزمل 1-10). فقوله تعالى "رتل القرآن ترتيلا" يقتضي أن يكون قد نزل منه ما يكفي لترتيله طول الليل أو قسم منه، والحال أن كل ما كان قد نزل هو بضع آيات.

هذا على مستوى المضمون، أما على مستوى الروايات فالسورتان محل خلاف كبير : بعضهم يقول إنهما مكيتان جملة وتفصيلا وبعضهم يقولون إنهما بالعكس مدنيتان الخ. أما الرواية المنسوبة إلى ابن عباس حول سورة القلم فتوزعها كما يلي: "من أولها إلى قوله تعالى: "سَنَسِمُهُ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ": مكيّ. ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى: "أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ" : مدنيّ". ومن بعد ذلك إلى قوله: "يَكْتُبُونَ": مكي. ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى: "ٱلصَّالِحِينَ" : مدنيّ، وما بقي مكيّ" (القرطبي)! وهذا التجزيء المنسوب إلى ابن عباس يلغي السياق تماما...

أما عن سورة المزمل فتذكر الروايات أن عائشة زوج النبي عليه السلام قالت : "إن الثوب الذي كان الرسول متزملا به حين خاطبته السورة ("يأيها المزمل") كان عبارة عن "مرطٍ (كساء من صوف) طوله أربعة عشر ذراعاً، نصفه عليّ وأنا نائمة، ونصفه على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يصلّي". يقول القرطبي وهذا القول من عائشة دليل على أن السورة نزلت في المدينة-لأن النبي إنما دخل عليها فيها، وليس في مكة". ومن جهة أخرى روي عن سعيد بن جبير أنه قال: "مكث النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه عشر سنين يقومون الليل، فنزل بعد عشر سنين: "إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ" (المزمل الآية 20) فخفف الله عنهم". ومعنى ذلك أن السورة نزلت في العهد المكي، حوالي السنة العاشرة من النبوة.

كل هذه المعطيات تسمح بتعديل رتبتي هاتين السورتين، على لائحة ترتيب النزول، بوضعهما في المرحلة التي تناسب مضمونهما وما ورد عنهما من أخبار على لسان الصحابة. وبالتالي فالسورة التي تأتي بعد سورة العلق هي سورة المدثر.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

"يا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ[1] (المتدثر بثيابه المستلقي على الفراش)، قُمْ فَأَنذِرْ[2] (بلغ ما يوحى إليك)، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ[3] (جاعلا ربك أكبر من كل رب)، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ[4] (مما قد

يكون لصق بها من تراب أو غبار عندما كان يتنقل بين الجبال)، **وَٱلرِّجْزَ** (القلق والاضطراب)[4] **فَٱهْجُرْ**[5]، **ولا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ**[6] (لا تستكثر ما تعاني منه فتمنن به)، **وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ**[7] (وفي سبيل الله فاصبر على ما تلقى من المكاره والمتاعب). **فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ**[8] (نفخ في الصور: صيحة القيامة)، **فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ**[9]، **عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ**"[10].

بقية السورة :

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا(11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا(12) وَبَنِينَ شُهُودًا(13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا(14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ 15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا 16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا 17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ 18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(20) ثُمَّ نَظَرَ(21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ(22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ(23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ(24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ(25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ(26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ(27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ(28) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ(29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ(30) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

4- كنا قد فسرنا "الرِّجز" في التعريف بالقرآن بـ"الأصنام" سيرا مع ما ارتآه معظم المفسرين. أما الآن وقد تتبعنا مضمون هذه الآيات حسب سياق نزولها وترتيبه، فقد اتضح لنا أن معنى "الرجز" في هذه الآية هو نفسه المعنى اللغوي الأصلي، أي" الاضطراب". قال في مقاييس اللغة : "رجز: الراء والجيم والزاي، أصل يدل على اضطراب"، وفي لسان العرب: "والرَّجَز: أن تضطرب رجْل البعير أو فخذاه إذا أراد القيام... ثم أضاف : "قال أبو إسحاق: قرئ والرجز والرُّجز، بالكسر والضم، ومعناهما واحد، وهو العمل الذي يؤدي إلى العذاب". أما الطبري فقد ميز بينهما، فقال: "والرُّجز فاهجُرْ : اختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأه بعض قرّاء المدينة وعامة قرّاء الكوفة: «والرِّجْز» بكسر الراء، وقرأه بعض المكيين والمدنيين: والرُّجْز بضم الراء، فمن ضمّ الراء وجهه إلى الأوثان، وقال: معنى الكلام: والأوثان فاهجر عبادتها، واترك خدمتها، ومن كسر الراء وجّهه إلى العذاب، وقال: معناه: والعذاب فاهجر، أي ما أوجب لك العذاب من الأعمال فاهجر". قلت: وهذا المعنى يتفق تماما مع ظروف نزول الآية، أعني انقطاع الوحي وما تعرض له الرسول عليه السلام من اضطراب وقلق. هذا من جهة ومن جهة أخرى ذهب المفسرون في معنى قوله تعالى: "وثيابك فطهر" مذاهب شتى، وجلهم مع القول بأن المقصود الطهارة من المعاصي. أي لا تلبس ثيابك على معصية، ثم اختلفوا في "المعصية" (انظر الطبري والقرطبي). أما نحن فنرى أن المعنى الذي يعطيه السياق هو غسل الثياب التي على جسمه كما شرحنا في النص، باعتبار أنه جاء إلى بيته مضطربا من التجربة التي كانت له في الجبال المحيطة بمكة بسبب انقطاع الوحي، التجربة التي ذكرنا بها قبل وفصلنا القول فيها في التعريف بالقرآن. المعطيات السابقة. فقرة 3ب.

وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ)31) كَلَّا وَالْقَمَرِ32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ34) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ35) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ36) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ37) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ41) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ46) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ47) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ48) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ51) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً52) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ53) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ54) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ55) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ56).

- تعليق :

ونعود إلى الآيات العشر الأولى من سورة المدثر التي تنتمي إلى أوائل ما نزل من القرآن. ولا شك أن القارئ قد لاحظ بنفسه الفرق بين مضمونها وأسلوبها وبين مضمون وأسلوب بقية آياتها التي سنعود إلى الكلام عنها لاحقا. وكما سبق أن ذكرنا قبل، هناك من الرواة من يقول إن سورة المدثر كانت أول سورة نزلت، ولكن الاتجاه العام يجعلها بعد سورة العلق.

هناك تأويلات عدة للآيات العشر التي شرحنا تبتعد في نظرنا عن الإطار الذي نزلت فيه. من ذلك أن بعضهم يفسر "المدثر" بمعنى "اللابس لباس النبوة"، وبعضهم يفسر "وثيابك فطهر" بدعوته إلى "تطهير نفسه" الخ-مثل هذه التأويلات تعبر عن اتجاه صاحبها أكثر مما تعبر عن الحقيقة التاريخية. وإنما قلنا إنها لا تعبر عن الحقيقة التاريخية لأنها تبتعد عن الواقع الملموس الذي نزلت فيه، واقع انقطاع الوحي وحزن النبي (ص)، ثم استئنافه. إن عبارة "لباس النبوة" وكذا "طهارة النفس" من العبارات التي لم تكن تنتمي إلى المجال التداولي عند ابتداء نزول الوحي، إنها تعكس معطيات مجال آخر سيظهر فيما بعد مع تيارات التصوف وما أشبه.

لقد استؤنف الوحي لينتقل من "اقرأ باسم ربك" إلى "قم فأنذر"، من الإشعار بالنبوة إلى الأمر بالتبليغ. من مستوى البدء في عرض "العقيدة" إلى مستوى الشروع في "الدعوة" إليها. والمسألة التي يمكن أن تثار هنا هي اقتصار السورة على دعوته (ص) إلى "الإنذار"، بينما تقوم رسالته على التبشير والإنذار معا، وقد وصف الله رسوله بأنه "بشير ونذير" في غير ما آية ؟!

الواقع أن معظم المفسرين قد تجاوزوا هذا السؤال، من الطبري والمفسرين الأوائل الذين نقل عنهم إلى الذين جاءوا من بعده، بمن فيهم الزمخشري والرازي

والقرطبي! أقصد إغفالهم لفت الانتباه إلى أن أول أمر حمله جبريل إلى النبي (ص)، بعد "اقرأ"، هو "الإنذار" (قم فأنذر!). والإنذار هو التخويف والتوعد بالسوء، أو على الأقل التحذير من الوقوع في مكروه. وهو عكس "التبشير". وقد أثار بعض المتأخرين هذه المسألة. ففي تفسير الألوسي: "ولم يقل هنا "وبشر" لأنه كان في ابتداء النبوة، والإنذار هو الغالب إذ ذاك. أو هو اكتفاء بأن الإنذار يلزمه التبشير". أما صاحب "أضواء البيان" فقد لاحظ أن الإنذار "قد يكون للكافرين، كما في قوله تعالىٰ: "وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً" (مريم 97) : تخويفاً لهم، "وقد يكون للمؤمنين، لأنهم المنتفعون به كما في قوله: "إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ" (يس-10)، وقد يكون للجميع أي لعامة الناس كما في قوله تعالىٰ: "أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءامَنُوٓاْ" (يونس-2). وأما المنذَر به فهو ما يكون يوم القيامة". ثم أضاف بصدد إنذار "من اتبع الذكر وخشي الرحمان بالغيب" : "إن إنذاره صلى الله عليه وسلم محصور في الذين يخشون ربهم بالغيب، وأقاموا الصلاة و[قد جاء] هذا الحصر الإضافي لأنهم هم المنتفعون بالإنذار، وغير المنتفع بالإنذار كأنه هو والذي لم ينذر سواء، بجامع عدم النفع في كلّ منهما". وهذا التأويل في نظري بعيد، ذلك أن "الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة" لم يكونوا موجودين حين نزول قوله تعالى "يأيها المدثر قم فأنذر"، فلم يكن قد آمن به آنذاك غير زوجته خديجة، وقد نضيف ابن عمه علي، وقد كان طفلا، ومولاه زيد ابن حارثة". وعبارة "الذين يخشون ربهم بالغيب" معناها : المؤمنون الذين لم يطالبوا مقابل إيمانهم بأن يأتيهم الرسول بشيء ملموس يدل على نبوته على غرار معجزات الأنبياء السابقين. ومثل هذا الطلب والرد عليه أو استحضاره لم يكن من المفكر فيه ولا القابل للتفكير فيه أثناء نزول هذه الآيات.

على أن هذا الإشكال لا تطرحه صيغة "الحصر"، بل هو مطروح في آيات أخرى لا حصر فيها مثل قوله تعالى: "وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ" (الأنعام-51). وقوله: "يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِي" (النحل-2). والظاهر من هذه الآيات ومن مثيلاتها أن المقصود بـ"الإنذار" هو مجرد الإعلام والتبليغ، وهذا -فيما يبدو- هو المعنى الأصلي للكلمة. ففي لسان العرب "وأنذرَه بالأمر إنذارا ونُذْرا ..: أعلمه". وأيضا: "ويقال: أنذرت القوم سير العدو إليهم فنَذِروا أي أعلمتهم ذلك فعلموا وتحرزوا". ومع أن معنى التخويف والتحذير مفهوم من "الإنذار" كما يشير إلى ذلك صاحب لسان العرب فإن هذا الأخير يؤكد في نهاية شرحه أن "أصل الإنذار : الإعلام. يقال أنذرته، أُنذره، إنذارا، إذا أعملته. فأنا منذر

ونذير، أي معلِّم ومخوِّف ومحذِّر". والحق أن استحضار هذا المعنى، المتدرج من مجرد الإعلام، إلى التخويف والتحذير، هو الذي ترتفع معه الإشكالات التي يمكن أن تثار في هذا الصدد.

وعلى هذا فليس من الضروري أن يفهم هنا لفظ "أنذر" وما اشتق منه على أنه عكس "بشر" وما اشتق منه. ذلك أنه إذا كان "الإنذار" يحيل في بادئ الرأي إلى ما هو شر، بينما يحيل "التبشير" إلى ما هو خير، فقد يحدث أن يستعمل فعل "بَشَــر" للإخبار بما هو شر، مثل قوله تعالى: "إنَّ الَّذِينَ يَكفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَيَقتُلُونَ النَّبِيِّينَ بغَيْرِ حَق وَيَقتُلُونَ الَّذِينَ يَأمُرُونَ بالْقِسْطِ مِنْ النَّاس فَبَشِّرْهُمْ بعَذَاب أليم" (آل عمران 21)، وقوله : "وَبَشِّرْ الَّذِينَ كَفَرُوا بعَذَاب أليم" (التوبة 3)، ونظيره قوله تعالى : "إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ" (يس-10).

وبهذا المعنى المزدوج خاطب القرآن النبي (ص) بقوله: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا" (الإسراء 105). والحصر هنا يدل على أن مهمته تنحصر في الإعلام والتبليغ، على الأقل في المرحلة المكية. يبقى أن نضيف أن القرآن قد اقتصر في أول الأمر على ربط الدعوة بـ"الإنذار" فقال "قم فأنذر" ولم يقل مثلا: "قم فبشر وأنذر". وما يفسر ذلك في نظرنا هو أن المخاطبين وهم أهل مكة كانوا جميعا في موقع "الإنذار" بوصفهم مشركين يعبدون الأصنام لم يسبق أن جاءهم رسول من قبل ولذلك وصفوا بـ"الأميين". وهذا المعنى قد صرح به القرآن في مرحلة لاحقة كما في قوله تعالى: "لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ" (القصص-46)، وقوله: "لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ" (يس6).

3- سورة المسد:

- تقديـــم

رُتِّبت سورة المسد، في لائحة الترتيب المعتمد، في الرتبة السادسة بعد سورة الفاتحة (الخامسة). وهناك اختلاف كبير بين المفسرين والرواة حول الفاتحة : من ذلك اختلافهم هل هي مكية أم مدنية؟ هناك من قال إن نصفها مكي والنصف الآخر مدني. ومنهم من يرى أنها دعاء وليست جزءا من القرآن، مستندين في ذلك إلى كون عبد الله بن مسعود لم يثبتها في مصحفه، كما لم يثبت المعوذتين (الفلق، والناس) اعتقادا منه أنهما دعاءان تعوذ بهما النبي (ص)، وأنهما ليستا من القرآن". ولم ترد سورة الفاتحة كذلك في مصحف أبي بن كعب، وهو من كبار كتاب الوحي وكان على رأس اللجنة التي كلفها عثمان بجمع القرآن في مصحف واحد. (انظر ترتيب مصحف عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب في الإتقان للسيوطي). كما لم تدرج في ثلاث لوائح من لوائح ترتيب النزول هي: لائحة البيهقي عن عكرمة والحسين بن أبي الحسن، ولائحة قال ابن الضريس إنها عن ابن عباس، ولائحة الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن" وقد اعتمد فيها على "الثقات" كما قال. ويؤكد بعض العلماء، ومنهم الطبري في تفسيره، أنها نزلت عند فرض الصلاة، فقرأ المسلمون بها في الصلاة عند فرضها باعتبار أن لا صلاة بدون الفاتحة. وقد فرضت الصلاة ليلة الإسراء. وتاريخ هذه الليلة مختلف فيه، بعضهم يجعله في السنة الخامسة للنبوة وجلهم يقول إنه حصل في التاسعة أو العاشرة للنبوة. وفي كلتا الحالتين فالفاتحة لا تنتمي إلى المرحلة التي نحن بصددها هنا الآن. ولابد أنها نزلت بعد سورة الإخلاص وبعد سورة الرحمان -على أقل تقدير- كما سنبين ذلك في حينه.

أما سورة المسد التي نحن بصددها فقد اختلف المفسرون والرواة حول تحديد تاريخ نزولها وسببه: هناك رواية تذكر أن أبا لهب [1] قال للنبي عليه السلام: "ماذا أعطَى يا محمد إن آمنت بك؟ قال: "كمَا يُعطَى المُسلِمُونَ"، فقال: مالي عليهم فضل؟ قال: وأيِّ شَيْءٍ تَبْتَغِي؟ قال: "تبا لهذا من دين تبا، أن أكون أنا وهؤلاء (المسلمون وكانوا من الفقراء والموالي والعبيد) سواء! فأنزل الله: "تَبَّتْ يَدَا أَبِي

1- واسمه: اسمه: عبد العزّى وهو عم النبي (ص).

لَهَب" (الطبري وغيره). وفي رواية أخرى "أن امرأة أبي لهب كانت تلقي الشوك في طريق النبي (ص)، فنزلت "تبت يدا أبي لهب" إلى قوله" "وامرأته حمالة الحطب". ومما يعزز هاتين الروايتين رواية تذكر -إذا صحت- أنه لما نزلت: "تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ"، قيل لامرأة أبي لهب إن محمدا يهجوكِ، قالت: علامَ يهجوني؟ هل رأيتموني كما قال محمد أحمل حطبا (كما في السورة: "فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ")؟ فمكثت، ثم أتته (بعد أن أبطأ الوحي عليه أياما)، فقالت: إن ربك قلاك وودّعك، فأنزل الله: "وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى". ووفقا لهذه الروايات الثلاث تكون هذه السورة قد نزلت في المرحلة التي نتحرك فيها فعلا، وتكون الرتبة الثالثة، في ترتيب النزول، مناسبة لها. ويمكن لقائل أن يقول إن لهجتها الحادة ضد أبي لهب لا تناسب هذه المرحلة، وهذا اعتراض يمكن دفعه بكون الدعوة كانت في ذلك الوقت محدودة وسرية وأن طول المدة الفاصلة بين نزول سورة العلق وسورة المدثر، وهي مدة انقطاع الوحي لمدة يقدرها بعضهم بأزيد من سنتين سادت فيها الاتهامات والسخرية يمكن أن تبرر لهجة هذه السورة. وما يجري على هذه السورة لا يمكن تعميمه على سورتي المزمل والقلم -اللتين أخرنا ترتيبهما- لأن مضمون هاتين السورتين وشكل الخطاب فيهما وحجمهما الخ، كل ذلك يرجح نزولهما في مرحلة لاحقة كما سيتضح بعد.

نعم، يميل معظم المفسرين إلى اعتبار الرواية التي تقول إنه لما خاطب الله تعالى في سورة الشعراء رسوله الكريم قائلا: "وأنذر عشيرتك الأقربين"، بادر إلى الاستجابة فصعد الصفا ونادى قومه، وخطب فيهم فأخبرهم بأنه رسول الله. وعندما انتهى قال له أبو لهب -وكان من أشد خصوم الإسلام-"تبا لك ألهذا جمعتنا"؟ (2) فنزلت سورة المسد في موضع الرد عليه. أما نحن فنميل إلى مضمون الروايات السابقة، بمعنى أن هذه السورة هي من أوائل السور. أما سورة الشعراء التي تضم الآية السابقة ("وأنذر عشيرتك الأقربين") فهي من السور الطوال التي نزلت في مرحلة متأخرة عن المرحلة التي نتحرك داخلها، وهي مصنفة في لوائح ترتيب النزول في رتبة 47/46. ومن المحتمل جدا أن يكون النبي (ص) قد قرأ سورة المسد ردا على ما قاله أبو لهب، بعد أن كانت قد نزلت من قبل، وليس بمعنى أنها نزلت في تلك اللحظة. وإذا نحن أخذنا بعين الاعتبار ق وله تعالى في هذه السورة: "مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ" رجحت الرواية الأولى التي ورد فيها أن أبا لهب قد عَيَّر أتباع النبي (ص) بكونهم من الفقراء الخ.

2- سنفصل القول في هذا الموضوع عند شرحنا لسورة الشعراء.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

"تَبَّتْ (خسرت) يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ[1]، مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ[2]، سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ[3]، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ[4]، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ"[5](3).

- تعليق

أبو لهب واسمه عبد العزى بن عبد المطلب (عم النبي) هو الشخص الوحيد الذي ذكره القرآن بالاسم من بين خصوم الدعوة المحمدية. كان ذا مال ونفوذ في الوسط المكي، وبالتالي عضوا بارزا في "الملأ من قريش" (كبراء ووجهاء وأغنياء). وهناك آخرون كانوا يؤذون النبي (ص) مثل أبي لهب بالأقوال والأفعال وقد رد القرآن عليهم ولكن دون ذكر أسمائهم، وقد احتفظت لنا كتب السيرة بأسمائهم وبما نزل فيهم من القرآن، وسنشير إلى بعض ذلك في حينه.

ومما يجدر ذكره هنا ما أورده ابن إسحق عن أبي لهب وكان أحد جيران الرسول عليه السلام. قال : كان من بين "النفر الذين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته : أبو لهب، والحكم بن العاص بن أمية، وعقبة بن أبي معيط، وعدي بن حمراء الثقفي، وابن الأصداء الهذلي؛ وكانوا جيرانه، لم يُسلِم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص: فكان أحدهم يطرح عليه صلى الله عليه وسلم رحم الشاة وهو يصلي، وكان أحدهم يطرحها في بُرْمته (قِدْر من حجر) إذا نُصبت له، حتى اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حجرا يستتر به منهم إذا صلى، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا طرحوا عليه ذلك الأذى ... يخرج به (ص) على العود، فيقف به (بالعود وعليه الأذى) على بابه، ثم يقول : يا بني عبد مناف، أي جوار هذا! ثم يُلقيه في الطريق".

على أن أبا لهب كان رغم عداوته الشديدة للرسول (ص) يراعي القرابة التي تربطه به، فهو عمه، وكان أبو طالب أخوه هو الذي يجير النبي ويحميه. وهكذا فعندما توفي أبو طالب في السنة العاشرة للنبوة شددت قريش أذاها على الرسول

3- اختلفوا في معنى "حمالة الحطب" فقال بعضهم: "كانت تجيء بالشوك فتطرحه في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليدخل في قدمه إذا خرج إلى الصلاة". وقال آخرون: "قيل لها ذلك: لأنها كانت تحطب الكلام، وتمشي بالنميمة، وتعير رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفقر" الخ. هذا والسورة كاملة، ليس لها بقية.

عليه السلام حتى إنه يروى عنه أنه كان يقول: "ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه ــ أي أشد الكراهة ــ حتى مات أبو طالب"، وأنه عليه السلام قال مستذكرا أبا طالب لما رأى قريشاً تهجموا عليه ذلك الهجوم، قائلا : "يا عم ما أسرع ما وجدتُ فَقدك". ويضيف ابن إسحق : "ولما بلغ أبا لهب ذلك، قام بنصرته أياماً وقال له: "يا محمد امض لما أردت وما كنت صانعاً إذ كان أبو طالب حياً فاصنعه. لا، واللات والعزى، لا يوصَل إليك حتى أموت". غير أن هذا الوعد لم يدم طويلا. ذلك أنه بمجرد ما علمت قُرَيش به حتى سارع رجالها إلى أبي لهب وقالوا له : "أفارقت دين عبد المطلب؟ (أبوه) فقال: "ما فارقت دين عبد المطلب، ولكن أمنع ابن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد. قالوا: قد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم؟ ويضيف ابن إسحاق: "فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك أياماً لا يتعرض له أحد من قريش، وهابوا أبا لهب، إلى أن جاء أبو جهل (ألد خصوم الرسول وهو من بني مخزوم منافسي عشيرة النبي) وعقبة بن أبي معيط إلى أبي لهب فقالا له : أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك (عبد المطلب؟ يعني: هل هو في الجنة أم في النار)، فلما سأل الرسول قائلا: "يا محمد أيدخل عبد المطلب النار" ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نعم! ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار". فقال أبو لهب: لا برحت لك عدواً (لا أرد عنك أذى) وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار". فاشتد عليه هو وسائر قريش.

4- سورة التكوير

- تقديـــم

صنفت هذه السورة في لوائح ترتيب النزول في الرتبة السابعة، أي بعد العلق والمدثر، ثم القلم والمزمل والفاتحة والمسد. وقد تحدثنا عن القلم والمزمل والفاتحة ودواعي تأخير رتبتها. أما هذه السورة، أعني سورة التكوير، فلم يرد عنها ما يشير إلى مناسبة نزولها ولا إلى أي خلاف حول رتبتها. كل ما ذكرته مصادرنا لا يتعدى رواية تقول: "لما نزل قوله تعالى في هذه السورة : "لمن شاء منكم أن يستقيم"، قال أبو جهل بعدها: "ذاك إلينا، إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم"، فأنزل الله "وما تشاءون إلا أن يشاء الله ربّ العالمين". وهذا نموذج من نماذج كثيرة من روايات "أسباب النزول"، حيث تقتطع آية واحدة، وأحيانا جزء من آية، ليؤتى لها بسبب نزول يخصها بمفردها من غير اعتبار لما قبلها وما بعدها، ولا للسياق الذي تنتمي إليه. والحق أن النموذج الذي بين أيدينا هنا أخف من نماذج كثيرة، لأنه يتعلق بآخر آية من السورة. الشيء الذي يسمح بافتراض أن السورة كانت قد ختمت أصلا بقوله تعالى: "لمن شاء منكم أن يستقيم". ثم كان تعليق أبي جهل، ثم جاء الرد عليه. ولو فرضنا أن أبا جهل لم يتدخل لكانت السورة قد ختمت بهذه الآية. أعني قوله تعالى : "لمن شاء منكم أن يستقيم". لكن هذا لا يغير من الأمر شيئا، فقد وردت آيات بهذا المعنى، أي دون استدراك، مثل قوله تعالى: "نَذِيرًا لِلْبَشَرِ، لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ" (المدثر 36-37) وقوله : "كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ" (عبس 11-12)، وقوله : "وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ" (الكهف 29). كما وردت آيات أخرى مصحوبة باستدراك مماثل للسابق كقوله تعالى: "كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ، وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ" (المدثر 56). وإذن فإقحام رواية تدخل أبي جهل هنا فضل وزيادة. ونحن إنما أثرناها هنا لأننا لا نستبعد أن تكون هذه الرواية وضعت تحت تأثير الخلاف الحاد الذي نشب بين المعتزلة من جهة وأهل السنة والأشاعرة من جهة أخرى حول مسألة الجبر والاختيار. أما هذه المسألة بذاتها فهي تتطلب قولا مفصلا سيأتي في حينه.

- نص السورة

1- إذا الشمس كورت ... علمت نفس ما أحضرت.

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ[1] (أظلمت)، وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ[2] (تناثرت)، وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ[3] (وقعت على الأرض)، وَإِذَا الْعِشَارُ (الإبل) عُطِّلَتْ[4] (أهملت)، وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ[5] (جُمعت واختلطت)، وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ[6] (فُجِّرت وفاضت)، وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ[7] (مع أجسادها من جديد حين البعث)، وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ (المدفونة حية) سُئِلَتْ[8] (قرئ سأَلت)، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ[9]، وَإِذَا الصُّحُفُ (سِجِّل أعمال الناس) نُشِرَتْ[10]، وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ[11] (طويت)، وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ[12] (أُحميت)، وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ[13] (قُرِّبت)، عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ"[14] (ما عملته في دنيا من خير أو شر وما سيكون مصيرها: الجنة أم النار. وهذا جواب القسم)

2- إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ[15] (النجوم)، الْجَوَارِ الْكُنَّسِ[16] (تجري في مداراتها فتكنس–تختفي–في النهار وتظهر في الليل)، وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ[17] (أدبر)، وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ[18] (أقبل)، إِنَّهُ (أي القرآن) لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ[19] (هو جبريل، وهذا جواب القسم)، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ (الله) مَكِينٍ[20]، مُطَاعٍ ثَمَّ (في السماء: تطيعه الملائكة) أَمِينٍ[21] (على وحي الله). وَمَا صَاحِبُكُمْ (محمد) بِمَجْنُونٍ[22]، وَلَقَدْ رَآهُ (رأى جبريل) بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ[23]، وَمَا هُوَ (جبريل) عَلَى الْغَيْبِ (الوحي الذي كلف بتبليغه إلى محمد) بِضَنِينٍ[24] (ببخيل به عليه)، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ[25] (مطرود من السماء فلا يستطيع استراق السمع)، فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ[26] (بتكذيبكم هذا الوحي)؟ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ[27] : لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ[28]، وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ"[29].

- تعليق

في هذه السورة قَسَمان كما هو واضح: الأول قسَم بالظواهر الكارثية التي تدل على قيام القيامة –وتسمى أشراط الساعة– وجوابه "علمت نفس ما أحضرت" أي

أن كل نفس ستحاسب على ما جاءت به في سجل حسناتها وسيئاتها، والمقصود إثبات البعث والحساب. أما القسَم الثاني -والمُقسَم به هنا هو النجوم التي تجري في مداراتها، وما ينشأ عن ذلك من تعاقب الليل والنهار- وجواب القسَم هو أن محمدا (ص) ليس بمجنون وأن القرآن ليس من تأثير الجن بل هو من عند الله : ذكرٌ للعالمين يُـــريهم طريق الرشاد والاستقامة.

والجمع بين القسمين في هذه السورة يشير إلى أن الإفلات من العقاب والجحيم الذي أكده القسَم الأول ممكن بسلوك الطريق المستقيم الذي هو التصديق بنبوة محمد والإيمان بما جاء في القرآن الذي يوحيه الله إليه بواسطة جبريل. أما مسألة القسَم في القرآن فسنتناولها لاحقا في تعليق خاص.

وإذا نحن ألقينا الآن نظرة إجمالية إلى الآيات السابقة من سورتي العلق والمدثر، فإننا سنتبين فيها بسهولة أنها أفصحت -مع ابتداء نبوة محمد عليه السلام- عن ركنين أساسيين من أركان العقيدة الإسلامية هما : الرب الخالق المعلم، والرسول الأمين المبلغ عنه (مع الرد على المكذبين)، وهو ما عبرنا عنه في عنوان هذه المرحلة بـــ"النبوة والربوبية". أما السورة الحالية (التكوير) فتشكل نوعا من الجسر بين السورتين السابقتين والسور الثلاث التالية لها (الأعلى، والليل، والفجر) من حيث إنها طرحت، من خلال القسَم الذي استعملته في القِسْم الأول منها، مسألة البعث (والحساب والجزاء: الجنة أو النار)، وهو ركن آخر في العقيدة الإسلامية يطلق عليه في اصطلاح المتكلمين اسم "المعاد".

هناك مسألة أخرى يجب التنبيه إليها وردت في القِسْم الثاني من السورة التي نحن ضيوف عليها، هي مسألة "الرؤية" في قوله تعالى : وَلَقَدْ رَآَهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ"! فعلى من يعود الضمير هنا؟ وبعبارة أخرى: من رأى الرسول بالأفق المبين؟ هل جبريل أم الله؟ وكيف كانت هذه الرؤية : هل هي رؤية بصرية أم رؤيا منامية؟ لقد رجحنا في النص أن يكون الضمير يعود على جبريل. أما نوع الرؤية فسنعرض له لاحقا.

5- سورة الأعلى

- تقديـــم

لم يرد حول هذه السورة وظروف نزولها ما يستحق الذكر، ولذلك سننتقل مباشرة إلى محتواها. في هذه السورة ثلاثة أقسام:

قسم ينتمي إلى محور "الربوبية" يتوجه فيه الخطاب إلى النبي عليه السلام، يطلب منه أن يعظم ربه الذي خلق الأشياء وقدر نظامها، وأرشد إلى طرق الاستقامة وجعل لكل شيء نهاية.

وقسم ينتمي إلى محور "النبوة" وفيه يطمئنه ربه بأنه سيقرئه القرآن فلا ينسى منه إلا ما شاء الله، وأنه سيهديه للسبيل الأسهل لتبليغ رسالته، وأن عليه أن يذكر الناس بعظمة ربه ويبلغهم رسالاته.

أما القسم الثالث فينتمي إلى محور "المعاد" وفيه بيان أن الناس إزاء النبوة سيكونون فريقين: فريق يخشى فيؤمن فيذكر اسم ربه ويدعوه، ومصيره الحياة الهينة الدائمة: الجنة. وفريق يكفر فيشقى، ومصيره نار جهنم. أما مشركو مكة فهم يفضلون الحياة الدنيا بينما الآخرة خير ولا تفنى. وهذا قد جاءت به الرسل من قبل وموجود في صحف إبراهيم وموسى.

وهكذا يتبين أن الغرض الذي تريد السورة تأكيده هو وقوع البعث والحساب، ثم المصير إما إلى الجنة وإما إلى النار. إذن ها هنا انتقال، دون انفصال أو انقطاع، من النبوة إلى الربوبية إلى المعاد. وسنلاحظ في كثير من السور هذا النوع من المزاوجة بين هذه المحاور الثلاثة، وغالبا ما يستعمل القرآن المماثلة في البرهان عليها، كما في الفقرة الأولى من السورة، التي ربطت بين "خلق فسوى"، و"قدر فهدى"، و"أخرج المرعى" "فجعله غثاء أحوى" (يابسا، ميتا، ثم يؤتي بالمطر فيخرجه مرعى ثانية: البعث بعد الموت) [1].

1- وهذا وفق السلسلة التي تتكرر في القرآن والتي تستعمل في العادة الاستدلال بالشاهد على الغائب لإثبات التوحيد وتنتهي صراحة أو ضمنا بالاستدلال عن طريق المماثلة على البعث والقيامة: المعاد. وسنشرح هذين المنهجين لاحقا

- نص السورة

1- خلق فسوى.. قدر فهدى. أخرج المرعى أخضر، ثم جعله يابسا!

بسم الله الرحمن الرحيم

"سَبِّحِ (عظم ونزّه) اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى[1] الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى[2] (خلق الأشياء فسوّى خلقها)، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى[3] (قدر نظام الأشياء وبين سبيل الخير وسبيل الشر)، وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى[4] (أخضر)، فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى[5] (يابسا أسود).

2- سنقرئك فلا تنسى ... فذكّر إن نفعت الذكرى...

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى[6] إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى[7]؛ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى[8] (لما هو أسهل) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى[9]. سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى[10]، وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى[11] الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى[12] (الذي مصيره جهنم)، ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا[13] (لا هو حي ولا هو ميت).

3- قد أفلح من تزكى ... والآخرة خير وأبقى!

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى[14] (اتبع الطريق المستقيم)، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى[15] (وحّد الله ودعاه، وأنتم أيها المشركون لا تتزكون) بَلْ تُؤْثِرُونَ (تفضلون) الْحَيَاةَ الدُّنْيَا[16]، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى[17]. إِنَّ هَذَا (الذي ذكرنا حول مصير من يتزكى ومن لا يتزكى) لَفِي الصُّحُفِ (الكتب السماوية) الْأُولَى[18] ، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى[19] (لم يذكر عيسى لأنه لم يكن له كتاب).

- تعليق

فلا تنسى!

إن أكثر ما اختلف حوله المفسرون، في معاني آيات هذه السورة، هو قوله تعالى: "سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ". والمسألة تدور كلها حول نفي النسيان عن الرسول في التبليغ. بمعنى أن النسيان مطلقا ليس مما يدخل في عصمة الأنبياء (عند كثيرين من أهل السنة بخلاف الشيعة الذين يقول بعصمة الأنبياء والأئمة مطلقا : أئمتهم). أما أهل السنة فيجوزون أن تنسى الرسل في حدود أقل ما ينسب إلى البشر من النسيان. ولكن لا يمكن أن ينسب إليهم النسيان فيما كلفوا بتبليغه عن الله.

وعلى هذا الأساس اختلفوا في تفسير الآية المذكورة. ومركز الاختلاف هو قوله تعالى "إلا ما شاء الله". منهم من قال إن الرسول لا ينسى (من القرآن) "إلا ما شاء الله أن ينسى، فإنه ينسى ثم يتذكر بعد ذلك"، ويروُون، لتأييد قولهم هذا خبرا يفيد أن الرسول قد ينسى ولكنه يتذكر ما ينسى فلا يكون نسيانه مطلقا. ومن هذا القبيل ما ذكر من أن النبي (ص) "أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحَسِبَ أُبَيُّ (جامع القرآن) أنها نسخت، فسأله، فقال: نسيتها". ومنهم من قال : إن الرسول لا ينسى "إلا ما شاء الله أن ينسيه، ويكون المراد من الإنساء ههنا نسخه"، كما قال تعالى: "مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا" (البقرة 106)، فيكون المعنى إلا ما شاء الله أن تنساه على الأوقات كلها، فيأمرك أن لا تقرأه ولا تصلي به، فيصير ذلك سبباً لنسيانه، وزواله عن الصدور". ومنهم من ارتأى: أن يكون معنى قوله "إلاّ مَا شَاء اللّهُ": القلة والندرة، ويشترط أن لا يكون ذلك القليل من واجبات الشرع، بل من الآداب والسنن، فإنه لو نسي شيئاً من الواجبات ولم يتذكره أدى ذلك إلى الخلل في الشرع، وإنه غير جائز". وهناك من خرج عن هذا النطاق فقال إن "معنى النسيان في هذا الموضع: الترك وقالوا: معنى الكلام: سنقرئك يا محمد فلا تترك العمل بشيء منه، إلاّ ما شاء الله أن تترك العمل به، مما ننسخه". أما الطبري الذي أورد كثيرا من الأقوال في الموضوع فيقول: "والقول الذي هو أولى بالصواب عندي، قول من قال: معنى ذلك: فلا تنسى إلاّ أن نشاء نحن أن نُنسيكه بنسخه ورفعه"، ويضيف: "وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأن ذلك أظهر معانيه".

أما نحن فقد نؤيد الطبري في قوله "ذلك أظهر معانيه". ولكننا نرى أن هناك حاجة إلى التدقيق في النص. فمن جهة، قوله تعالى : "سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى"، غير ظاهر منه أن المفعول الثاني لــ "سنقرئك" هو القرآن. إن اللفظ الذي يستعمله القرآن بكثرة في هذا المجال هو الوحي: "أوحينا إليك". وعلى كل حال فالضمير في "سنقرئك" لا يعود بالضرورة على القرآن، ولا على شيء معين من أمور الشرع، فالباب مفتوح: فما قبل هذا القول (أي القسم الأول من السورة) يتعلق بــ "المعاد" كما أشرنا إلى ذلك في الشرح، أما ما بعده، أعني قوله : "إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى" فمعناه أن الله يعلم ما تذكره ولم تنسه (أي ما تجهر به منه) كما يعلم "ما يَخفى"، أي ما لم تجهر به لنسيانك إياه. ويأتي قوله تعالى" وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى" كإشارة إلى أن النسيان، وعدم النسيان، كلاهما يمكن أن يكون وسيلة للتيسير، حسب مقتضى الأحوال.

ما نريد تأكيده هنا هو ضرورة التفكير في آي الذكر الحكيم بعيدا عن الأفكار المسبقة، مثل فكرة العصمة التي اكتست طابعا مذهبيا سياسيا في الفكر الإسلامي :

لأهل السنة رأي، وللمعتزلة رأي، وللشيعة رأي وهكذا. والغالب ما يقول صاحب المذهب برأي في مسألة من المسائل، ليس لأنه عنصر في أصل مذهبه، بل لكون هذا الرأي يدفع به احتمال أن يؤيد به رأي خصمه.

يبقى القسم الثالث من السورة وهو نوع من التكملة والشرح للقسم الثاني على صعيد المضمون. لقد طلب تعالى من نبيه الكريم في القسم الثاني من السورة أن يُذكِر بالقرآن وأخبره أن الناس سيكونون فريقين إزاءه: فريق سيُقبل على القرآن و"يخشى" به، ولكن لم يبين جزاءه، وفريق سيعرض عنه وسيشقى وقد بين مصيره وهو جهنم التي "لا يموت فيها ولا يحيى". ويأتي القسم الثالث من السورة ليبين مصير الفريق الأول الذي يقبل على القرآن و"تزكى"، أي اتبع الطريق المستقيم وذكر اسم ربه وصلى.

لنختم إذن بما ختمت به السورة، وهو أن الناس (والخطاب إلى قريش) يفضلون الحياة الدنيا على الأخرى مع أن هذه خير وأبقى، كما أوضحت ذلك "الصحف الأولى" أي الكتب السماوية منذ إبراهيم موسى. وهكذا تختم السورة بالتذكير بـ "المعاد" بعد أن بدأت بالنبوة والربوبية. وتلك هي الأركان الرئيسية في العقيدة المحمدية.

6- سورة الليل

- تقديـــم

رتبت هذه السورة، في لوائح ترتيب النزول، مباشرة بعد السورة السابقة (الأعلى)، وكذلك الشأن في السور التالية، التي سنتناولها حسب رتبها في لائحة ترتيب النزول المعتمد[1]، وإذا كان هناك تعديل فسنشير إليه في حينه.

تبدأ السورة بالقسَم بظاهرة الاختلاف في الكون: فقد خلق الله الليل بظلامه، والنهار بنوره، كما خلق بني آدم نوعين: الذكور والإناث. وهذا الاختلاف الذي يعم ظواهر الكون وأنواع المخلوقات يتبدى أيضا في سلوك الإنسان وأعماله. فمنها أعمال تستهدف الخير وأخرى تستهدف شيئا آخر. ومن هنا كان ما سيكون عليه الإنسان في الآخرة متوقفا على نوع سعيه وعمله، وبالتالي يكون هناك نوعان من الجزاء : الثواب (الجنة)، والعقاب (النار).

ووفق هذا المنظور الذي تُرى الأشياء من خلاله "أزواجا" ينقسم الناس إلى أغنياء وفقراء. وكما أنه ليس ثمة انقطاع بين الليل وظلامِه والنهار وضيائه فكذلك يجب أن لا يكون هناك انقطاع بين الفقراء والأغنياء، والعلاقة بينهما يجب تكون علاقة بذل وعطاء. ومن هنا كان السبيل المؤدي، في الدنيا، إلى الحياة الهينة في الآخرة هو البذل للفقراء والمحتاجين، أي جعل الحياة هينة عليهم، والتصديق بأن وعد الله للمحسنين وعد سيتحقق. أما البخل وإهمال الفقراء والانصراف إلى طلب الغنى وعدم التصديق بوعد الله فذلك طريق الشقاوة، الطريق إلى النار.

1- "الترتيب المعتمد" هو الترتيب المعمول به في الأزهر وغيره من المعاهد الإسلامية السنية. وهو المنقول عن أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي. وهو لا يختلف عن لائحة الجعبري ولائحة ابن الضريس ولائحة البيهقي ولائحة الزركشي إلا في ترتيب سور محدودة، ولا يرقى الاختلاف إلى أكثر من رتبة أو رتبتين. ويبدو أن مصدر جميع هذه اللوائح هي "دائرة ابن عباس"، أعني المحيطين به والآخذين منه. وكيفما كان الحال فترتيب سور القرآن مسألة اجتهاد. وإذا كان ترتيب المصحف قد تم على يد الصحابة زمن عثمان فصار نهائيا فإن ترتيب النزول بقي مفتوحا.

- نص السورة

1- إن سعيكم لشتى ... وكذلك المصير!

بسم الله الرحمن الرحيم

"**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى**[1] (يغطي الأفق بظلمته)، **وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى**[2] (طلع وأضاء)، **وَمَا خَلَقَ** (الله من) **الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى**[3]، **إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى**[4] (جواب القسم : عملكم ليس واحدا: هناك عمل المؤمن، وهناك عمل الكافر).

2- من أعطى من ماله ... ومن بخل واستغنى.

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى (من ماله) **وَاتَّقَى**[5]، (ولم يعتد ولم يظلم)، **وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى**[6] (لم يكذب بوعد الله الحسن)، **فَسَنُيَسِّرُهُ** (نهيئه) **لِلْيُسْرَى**[7] (للمصير الأسهل). **وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ** (بماله) **وَاسْتَغْنَى**[8] (استقل به واكتفى)، **وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى**[9] (بوعد الله الحسن)، **فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى**[10] (للمصير الأصعب). **وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى**[11] (مات وكان مصيره جهنم).

3- النار للأشقى ... وسيتجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى[12] (الإرشاد إلى طريق الخير) **وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى**[13] (الدنيا)، **فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى**[14] (تتوهج)، **لَا يَصْلَاهَا** (يحترق بها) **إِلَّا الْأَشْقَى**[15] **الَّذِي كَذَّبَ** (بالقرآن) **وَتَوَلَّى**[16] (أعرض عن العطاء). **وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى**[(17)] (الذي يعمل بما يأمر به الله) **الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى**[18] (يتصدق من ماله، فيتطهر من ذنوبه). **وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى**[19] (وهو يفعل ذلك ليس ردا لجميل أُسْدِيَ إليه من أحد)، **إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى**[20] (بل إنما يفعله طلبا لمرضاة الله)، **وَلَسَوْفَ يَرْضَى**[21] (وسوف ينالها).

- تعليق

نحن هنا، في هذه السورة، أمام خطاب واضح مباشر حول البعث والحساب (المعاد). وهي تشبه في تركيبها ونظمها سورة التكوير (أعلاه) : أولا من حيث إنها تؤسس لخطاب القرآن حول مسألة المعاد، وثانيا من حيث إنها تتناول –وهذا لأول

مرة- محورا آخر جديدا، يتعلق هذه المرة بالمسألة الاجتماعية : الإحسان إلى الفقراء والمحتاجين.

لقد بدأت سورة التكوير بذكر الظواهر الكارثية التي تحدث عند قيام القيامة لتنتقل بعد ذلك إلى طرح مسألة الحساب والجزاء، ثم إلى محور النبوة الذي تنتظم حوله هذه المجموعة من السور القصيرة، لتؤكد على صحة نبوة محمد عليه السلام، من خلال بيان علاقته بالملاك جبريل الذي ينقل إليه الوحي.

أما هذه السورة (الليل) فتنتقل من القسَم بتعاقب بعض الظواهر الطبيعية، عبر أنماط من الحركة، مختلفة متنوعة، إلى ربطها بنمط آخر من الحركة هو أفعال الإنسان، لا من حيث هي مجرد حركة بل من حيث هي أعمال هادفة يترتب عنها جزاء عند المعاد. وهذه الأعمال المنوه بها هنا ليست من قبيل العبادات الموجهة إلى الله، بل هي فعل اجتماعي موجه إلى التخفيف من الفقر والحرمان اللذين يعاني منهما كثير من الناس في معاشهم. وهكذا يمكن أن نسجل أن أول عبادة يقررها القرآن هي "التزكي"، أي التطهر بأداء مسؤولية الأمانة التي جعلها الله في عنق الإنسان، مسؤولية الغنى والثروة، وذلك بالبذل والعطاء للفقراء والمحتاجين.

7- سورة الفجر

- تقديـــم

تتألف هذه السورة من أربع فقرات تشكل سياقا واحدا، توظف فيه ثلاثة عناصر أساسية، من العناصر التي يعتمدها الخطاب القرآني في البيان والإقناع:

1) التنبيه إلى نظام الكون وأنه من الإتقان والاطراد بحيث يرتفع إلى الدرجة التي تجعل صاحب العقل المستنير يراه أهلا لأن يقسم به. والقسَم يكون بالأمور العظيمة كما هو معروف.

2) التذكير بالعقاب الذي نزل باطراد كذلك على الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم، والذين طغوا وأكثروا من الفساد، وكيف أن الله كان لهم بالمرصاد.

3) التنبيه إلى سلوك الملأ من قريش -الذين كان الواحد منهم إذا ما اختبره ربه بالغنى والثروة فرح وقال "ربي أكرمني"، وأما إذا اختبره بالفقر والحاجة فهو يشتكي ويقول : "ربي أهانني". وترد السورة بأن هذه الإهانة في الدنيا لا تأتيهم بدون سبب، بل هي جزاء لهم على بخلهم على الفقراء والمساكين وأكلهم أموال اليتامى وانشغالهم التام بجمع المال.

4) هذا في الدنيا، أما عندما تقوم القيامة ويحين وقت الحساب ويؤتى بجهنم لتستقبل أصحابها فحينئذ يستولي الندم على أولئك الذين غلب عليهم حب المال فيتذكرون الشره الذي تصرفوا به في الدنيا، ويتمنون لو أنهم قدّموا في حياتهم ما ينفعهم في آخرتهم حيث لا ينوب أحد عن أحد في الحساب. أما الذين لم يستسلموا لشهوة المال ولم يتوانوا في فعل الخيرات فستأتي نفوسهم مطمئنة راضية بالثواب مرضية عند ربها، فتنضم إلى الذين وعدهم الله بالجنة، وتصير من أهلها.

- نص السورة:

1- قسم لذي حجر...

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْفَجْرِ[1]، وَلَيَالٍ عَشْرٍ[2]، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ[3]، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ[4] (إذا ذهب)، هَلْ (إن) فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ[5] (لصاحب عقل: جواب القسم)

2- أقوام كذبوا رسلهم فأهلكوا...

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ[6] (قوم النبي هود سكان مدينة) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ[7]، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ (لم ينشأ) مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ[8] (العربية)، وَثَمُودَ (قوم النبي صالح) الَّذِينَ جَابُوا (قطعوا) الصَّخْرَ بِالْوَادِ[9] (وادي القرى، وصنعوا منها قصورهم)، وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ[10] (فرعون وأركان جيشه وكبراء دولته) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ[11]، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ[12]، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ[13] (عذاب السوط)، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ[14].

3- جشع الإنسان : أكل مال اليتيم وعدم الاهتمام بالفقراء...

فَأَمَّا الْإِنسَانُ (قريش) [(1)] إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ : رَبِّي أَكْرَمَنِ[15]. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ[16]! كَلَّا! بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ[17]، وَلَا تَحَاضُّونَ (لا يحض بعضكم بعضا) عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ[18]، وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ (ميراث اليتامى) أَكْلًا لَّمًّا[19] (تلمونه لا تتركون لهم منه شيئا)، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا"[20].

4- البعث والحساب: الجنة أو النار

كَلَّا! إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا[21]، وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا[22]، وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ: يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى[23]! يَقُولُ: يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي[24] (ما ينفعني في آخرتي)؛ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ"[25]، وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ"[26]. يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ[27] (التي لم تأكل مال الغير...): ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً[28]، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي[29] (المرضيين) وَادْخُلِي جَنَّتِي"[30].

- تعليق

الأشياء الخمسة المقسم بها هنا لابد أن تكون معروفة عند العرب قبل الإسلام. بعض المفسرين يقولون إن المقصود بها هو ما يجري فيها من مناسك الحج، وهذا لا يصح – من الناحية المبدئية- إلا إذا كانت هذه المناسك متطابقة مع ما

---

1 – ذلك ما يعطيه السياق على سبيل العموم. وروي أن المقصود أشخاص من قريش ذكروا أسماءهم. وعندما يذكر الإنسان في مثل هذا السياق فالمراد به في الغالب خصوم الدعوة المحمدية.

كان العرب يفعلونه قبل الإسلام. وجواب القسم هو : إن هذه المناسك -المفروض أنها موروثة من زمن إبراهيم عليه السلام- تستحق في نظر العاقل العارف بأصلها ومصدرها أن يقسم بها قسما عظيما. هذا التفسير كان سيكون مقبولا لو أن السورة نزلت بعد أن فرضت فريضة الحج بمضامينها الإسلامية. ولكن هذا غير وارد. وإنما ذهب المفسرون إلى هذا المنحى في التفسير لأنهم يتبعون ترتيب المصحف فيبدؤون بالبقرة متتبعين القرآن المدني ليعودوا بعد ذلك القهقرى مع القرآن المكي من أواخر ما نزل منه إلى أوائله. والسورة التي نحن بصددها من الأوائل. ولكنها عندما يأتي دورها في التفسير ضمن الأواخر فهي تفسر على ضوء ما مضى، ومنها تُفهم مناسك الحج كما أقرها القرآن والسنة. وهذا النوع من القلب يطال كتب التفسير كلها، أعني أن عملية التفسير تتعامل مع القرآن مقلوبا. نعم ينتبه المفسر من حين لآخر إلى زمن نزول الآية، ولكن ذلك لا يحصل -في الغالب- إلا عندما يتعلق الأمر بآيات الأحكام؟ من أجل ما تقدم، وبسببه، لا نرى في تفسير الموضوعات الخمسة المقسم بها ما يبرر القسم بها، خصوصا ومناسك الحج في الجاهلية كانت مناسك وثنية قد اختلطت مع عبادة الأصنام، وبالتالي لم تكن قد اكتست بعد ما أضفاه عليها القرآن من خلفية إسلامية. ولذلك نرى أن الأنسب هو القول إن المقصود بالأشياء المقسم بها هو تعاقبها كظواهر طبيعية تدل على خالقها وعلى بديع صنعه : تعاقب الليل والنهار، وتعاقب الشفع والوتر، وتعاقب "الليالي العشر" (المفترض أنها معروفة عند العرب). وهذا التعاقب يستحق أن يكون قسما عظيما، لأنه قانون يجري في الكون كما يجري في التاريخ : بيان ذلك تقرير السورة لما فعل الله بأقوام تعاقبت، كذّبت رسلها وطغت : عاد، ثمود، فرعون... لقد كان الله لهم بالمرصاد، يراقبهم فعاقبهم بأن سلط عليهم سوط العذاب، كما في السورة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى تأتي سورة الفجر هذه لتؤكد ما قررته السورة السابقة، من طريق آخر سيعرض هنا لأول مرة. لقد كان بيان القرآن معتمدا حتى الآن على التنبيه إلى الدرس الذي يجب استخلاصه من انتظام الظواهر الكونية كالشمس والنجوم والظلام والفجر، وتعاقب الليل والنهار الخ، لإقناع قريش بصدق نبوة محمد (ص) وبالبعث والجزاء. أما هنا فنحن أمام نوع آخر من البيان القرآني، نصادفه لأول مرة، هو الدعوة إلى استخلاص العبرة مما جرى للأقوام الماضية الذين كذّبوا رسلهم وانشغلوا ببناء القصور ومارسوا الطغيان، وكانوا أكثر قوة من قريش كما يدل على ذلك ما بقي من آثارهم التي يعرفها تجار قريش معرفة جيدة لأنهم يمرون عليها في أسفارهم، ويتوارثون أخبارهم وقصصهم. وأخيرا لابد من الإشارة إلى أن هذه السورة ترتبط بالسورة السابقة، وبصورة مباشرة، بطرحها للمسألة

14- سورة الماعون

- تقديـــم

وهاهنا نص قرآني آخر اختلف المفسرون في شرحه لوجود مسافة بين مبناه ومعناه يعمرها ما تراكم في ذهن المفسر من تصورات تستمد وجودها ومفعولها من مراحل متأخرة عن زمن النص. إن الأمر يتعلق بقراءة نص بما لم يكن قد تقرر بعد. ومع أن جل المفسرين ينتبهون، وينبهون، إلى ضرورة الاستعانة بـ "أسباب النزول" إلا أن ميلهم إلى ربط كل آية بسبب نزول خاص، حتى ولو كانت هذه الآية مرتبطة بما قبلها مندرجة تحت سبب نزوله، قد أوقع الكثيرين منهم تحت طائلة النظرة التجزيئية، التي كثيرا ما تؤدي إلى مآزق يصعب الخروج منها، كما هو الحال في تعاملهم مع السورة التالية.

- نص السورة

1- الذين يظلمون اليتيم ولا يحضون على طعام المسكين ...

بسم الله الرحمن الرحيم

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ[1] (هل عرفت يا محمد الذي يكذّب بثواب الله وعقابه، فلا يطيعه في أمره ونهيه) ؟ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ[2] (إنه الذي يظلم اليتيم ويقهره)، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ[3] (ولا يحثّ على إطعام المحتاج إلى الطعام).

2- ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون...

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ[4]، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ[5]، الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ[6]، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ[7].

- تعليق

يذهب معظم المفسرين إلى أن المقصود في هذه السورة، خصوصا منها القسم رقم 2، هم المنافقون : فهم "الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ"، أي لا يحافظون على أوقات الصلاة بل يتشاغلون عنها، وإذا صلوا فعلوا ذلك بصورة تلفت انتباه الناس لهم ليروهم يصلون: "الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ". وإذا جاءهم فقير أو مسكين يطلب الصدقة، أو محتاج يطلب إناء أو آلة للانتفاع بها، يمتنعون عن تلبية طلبه: "وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ". هؤلاء يَعِدُهم القرآن بـ "الويل" وهو واد في جهنم.

وواضح أن هذا التأويل لا يستقيم إلا بافتراض أن هذه السورة نزلت في المدينة، لأن الأوصاف المذكورة هي أوصاف المنافقين، "فهم الذين جمعوا الأوصاف الثلاثة: ترك الصلاة، والرياء، والبخل بالمال". غير أن ظاهرة "المنافقين" لم تبرز إلا في المدينة وهذه السورة مكية بامتياز: إن أسلوبها وموقعها في لوائح ترتيب النزول (تقع ما بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة)، يجعلانها تنتمي إلى المرحلة التي نحن بصددها، خصوصا وهي ترتبط بنفس السياق الذي يجمع السور السابقة بانتمائها، على مستوى الموضوع والأسلوب، إلى المسألة الاجتماعية كما طرحت لحد الآن (اليتيم، المسكين).

وبما أن قوله تعالى: "فويل للمصلين" لا يمكن أن يكون المقصود به -في نظر بعضهم- هم المؤمنون، قالوا إن القسم الأول من السورة (أرأيت الذي يكذب بالدين الخ) نزل بمكة والقسم الثاني (ويل للمصلين الخ...) نزل في المنافقين بالمدينة. وبالتالي خصوا كلا من القسمين بسبب نزول: قالوا عن القسم الأول: "كان أبو سفيان بن حرب ينحر كل أسبوع جزورين فأتاه يتيم فسأله شيئاً فقرعه بعصا فأنزل الله تعالى "أرأيتَ الَّذي يُكَذِّبُ بالدين فَذَلكَ الَّذي يَدُعُّ اليَتيمَ". وقالوا عن آيات القسم الثاني إنها "في المنافقين أشبه، وبهم أَخْلَق" الخ. هذا بينما ذهب بعضهم إلى تفسير "الماعون" بفريضة الزكاة! (انظر: الطبري، القرطبي...).

أما نحن فنرى أن السورة كيان واحد لا يمكن الفصل فيه بين ما بعد قوله "فويل للمصلين" وبين ما قبله، وذلك لوجود فاء العطف التي تفيد الترتيب والتعقيب والمشاركة، كما تفيد علاقة السببية بين السابق واللاحق، بين المعطوف والمعطوف عليه، مثل "رمى الصياد الطائر فقتله". هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا شيء في السورة يصرف معنى الصلاة إلى المعنى الاصطلاحي الشرعي، خصوصا والصلاة والزكاة لم تكونا معروفتين بهذا المعنى الشرعي في المرحلة التي نزلت فيها هذه السورة. كل ذلك يحملنا على اعتبار المعنى اللغوي وحده، أعني الزكاة بمعنى

الصدقة. أما الصلاة فيمكن أن يكون المقصود بها في السورة هو الدعاء أو العبادة على العموم أو الصلاة كما مورست في العهد المكي (مرتان في اليوم)، وبالتالي يكون قوله تعالى "فويل للمصلين" عبارة عن وعيد للمتعبدين الذين هم عن "عبادتهم" ساهون أي غافلون. والغفلة هنا لا تعني عدم أدائها في وقتها فحسب، بل تعني، بالأولى والأحرى، عدم مراعاة المضامين الاجتماعية في العبادة التي من بينها الرأفة باليتيم والحض على طعام المسكين والتواضع وعدم المراءاة وابتغاء ما ينفع الناس الخ. هذا مع العلم أن "الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر" ("اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (العنكبوت 45)، وبالتالي فـ"الذين عن صلاتهم ساهون" يمكن تفسيره على ضوء هذه الآية بالذين يسهون عن اجتناب الفحشاء والمنكر. وهذه الآية مكية ولو أنها نزلت في مرحلة لاحقة فإنها تتحرك في مجال المفكر فيه في مكة، أعني قبل الهجرة وظهور فئة المنافقين.

15- سورة الكافرون

- تقديـــم

ذكر ابن إسحاق في "السيرة" أن رجالا من كبار قريش اعترضوا الرسولَ صلى الله عليه وسلم، وهو يطوف بالكعبة فقالوا: "يا محمد، هلمَّ فلنعبد ما تعبدُ، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد، كنا قد أخذنا بحظِّنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد، كنت قد أخذت بحظِّك منه".

وهذه الرواية، إن صحت، والغالب أنها صحيحة، تنسجم مع سياق السور السابقة فضلا عن أنها تعكس فعلا "عقلية" كبار قريش التجارية: لقد كانوا تجارا وكانوا يمارسون ديانتهم بوصفها جزءا من تجارتهم. فما كان يهمهم من الأصنام هو المنافع الاقتصادية التي كانوا يجنونها من حج القبائل العربية إلى مكة وتقديم الهدايا إلى أصنامها.

وكان الرسول يعرف ذلك، أعني أن ما يهم الملأ من قريش هو مصالحهم الاقتصادية، وأنهم لن يتخلوا عن أصنامهم ما دامت تلك المصالح مرتبطة بها، ولذلك استهدف هذه المصالح في غزواته عندما هاجر إلى المدينة.

هناك رواية أخرى يربطها المفسرون بأسباب نزول هذه السورة ومؤداها أن كبار قريش عرضوا على النبي عليه السلام المال والملك والتزويج الخ، قبل أن يعرضوا عليه "المشاركة" في العبادة.

وهذه الرواية لا تستقيم مع المرحلة التي رتبت ضمنها هذه السورة. ذاك أنها تذكر أنهم طلبوا كمقابل أن "يكف عن شتم آلهتهم"! والرسول عليه السلام لم يكن قد بدأ بعد في التعرض لآلهتهم، فهذه السورة خالية من ذلك كالسور السابقة، وإنما سيبدأ في التعرض إلى أصنامهم في مرحلة لاحقة.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ[1](1): لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ[2] (الآن)، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ[3] (الآن). وَلَا أَنَا عَابِدٌ (في المستقبل) مَا عَبَدْتُمْ[4]، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ (في المستقبل) مَا أَعْبُدُ[5]. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ"[6] (لا مجال للمساومة).

- تعليق

واضح أن هذه السورة لا تتعرض لأصنام قريش لا بالمدح ولا بالذم. كل ما تقرره هو أن الرسول يرفض بشكل قاطع أن يعبد ما تعبد قريش من أصنام، تماما كما يعرف أنها لن تعبد هي ما يعبد هو. ذلك أن "الحل الوسط" الذي طرحته عليه قريش مغشوش من أساسه، بمعنى أن قريشا هي التي ستستفيد منه وحدها. فإذا عبَد الرسول ما تعبد قريش فمعنى ذلك أن عليه أن يتخلى عن دينه الذي لا يعترف بإله آخر غير الله. أما إذا عبدت هي "الله" مع الحفاظ على عبادتها لأصنامها الذين تعتبرهم شفعاء إلى الله، فهي لن تخسر شيئا. بل ستحافظ على دينها كما كان. لأن دينها لا يستغني عن الله وإنما يضع معه شركاء.

هذا المنطق التجاري المكشوف أرادت قريش أن تمرره بحمل النبي على تبني موقفها الانتهازي، عندما قالت له: "فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد، كنا قد أخذنا بحظِّنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد، كنتَ قد أخذت بحظِّك منه". ما يهم قريش، هو ما سيكسبون في الدنيا بواسطة الدين. ولذلك جاء الرفض قاطعا، رفض ما تعبد قريش في الحاضر والمستقبل. وقد حاول النبي عليه السلام استمالتهم من هذا الجانب في مناسبة أخرى –سنتحدث عنها في حينه– وذلك عندما حاولوا مفاوضته عند عمه أبي طالب، فأكثروا من الإغراءات المادية، فرفض. ولما طلبوا منه أن يقول لهم ما يريده منهم –إحراجا له–رد عليهم بقوله : إنها ""كلمة"واحدة" تملكون بها العرب والعجم، يقصد : "شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله"، ففهموا... وانصرفوا يائسين.

1– يميزون في الكفر بين جحود النعمة، وجُحُودُ الوَحْدَانِيَّة أو النُّبُوَّةِ وهذا هو المقصود هنا.

16- سورة الفيل

- تقديـــم

تتصل هذه السورة بالتي سبقتها؛ ذلك أن العرض الذي قدمه الملأ من قريش للرسول عليه السلام في السورة السابقة، والذي كان الدافع إليه الحفاظ على مصالحهم الاقتصادية، يبرر تذكيرهم بقضية لم يكن قد مر عليها وقت طويل، وهو ما تعرضت له مكة من هجوم صاحب الحبشة بهدف استتباعها والسيطرة عليها بوصفها موقعا استراتيجيا اقتصاديا دوليا، وأن الذي أنقذها ليس أصنامهم بل التدخل الإلهي، كما تشرح السورة.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ[1]؟ **أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ**[2] (أفسد كيدهم: هدم الكعبة)، **وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ**[3] (متتابعة تأتيهم من كلّ جهة)، **تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ**[4] (من طين. قيل: إذا أصاب أحدهم خرج به الجُدَرِيّ)، **فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ**[6]؟ (كتبن أكلته الدواب فصار روثا تدوسه بأقدامها).

- تعليق :

حملة أبرهة على مكة

لفهم عبارات هذه السورة نورد هنا ملخصا لقصة "أصحاب الفيل"، كما احتفظت بها ذاكرة القرشيين وهي التي خاطبتها هذه السورة :

كانت لمكة أهمية خاصة قبل الإسلام، ففضلا عن أنها كانت من أهم المركز الدينية في الجزيرة العربية، إن لم تكن أهمها على الإطلاق، كانت أيضا مركزا تجاريا إقليميا وموقعا استراتيجيا بالغ الأهمية مما جعلها تتعرض لمحاولات غزو من القوى الكبرى قبل الإسلام. وعندما قامت الدعوة المحمدية كانت ذكرى الحملة التي تعرضت

لها مكة من طرف أبرهة، عامل ملك الحبشة على اليمن، ما تزال حية في مخيال قريش. لقد وقعت في نفس السنة التي ولد فيها محمد (ص)، وهي السنة المعروفة بـ "عام الفيل (570 ميلادية). ومع أن الحملة كانت ترمي أساسا إلى التخلص من تحكم مكة في التجارة الدولية بين اليمن والشام، بنقلها إلى يد اليمنيين، وبالتالي إلى الحبشة حليفة بيزنطة، فإن تحقيق هذا كان يتطلب القضاء عليها كمركز ديني. ومن هنا استهدفت حملة أبرهة هدم الكعبة وتحويل حج العرب إلى "القليس" (الكنيس، الكنيسة؟) وهو معبد أقامه أبرهة في اليمن.

اتجه أبرهة وجيشه إلى مكة ومعه الفيل، "فعسكر خارجها. ولما علمت قريش بما يريد بعثت إليه كبيرها يومئذ وهو عبد المطلب جد النبي محمد (ص) مصحوبا بسيد بني بكر وبني هذيل لمفاوضته : "فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة (المنطقة المحاذية للبحر من مكة إلى اليمن) على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم... وانصرف عبد المطلب إلى قريش فاخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعاب الجبال (المواضع الخفية بين الجبال)... فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وعبّي جيشه". غير أن الحملة فشلت : أصيب أبرهة في جسده، وفر هو وجيشه وعادوا إلى صنعاء حيث مات. قال ابن إسحاق الذي اعتمدناه في هذا الملخص: "حدثني يعقوب بن عُتبة أنه حُدِّث: أن أولَ ما رُؤيت الحصبةُ والجُدَري بأرض العرب ذلك العام، وأنه أول ما رُؤي بها مرائر الشجر: الحرمل والحنظل والعُشَر ذلك العام".

17- سورة الفلق

- تقديـــم

قيل: إن سبب نزول المُعَوِّذَتَيْن (سورة الفلق وسورة الناس) أن قريشا كلفوا أحد المشهورين عندهم بـ "الإصابة بالعين" أن يصيب النبي(ص) بعينه فنزلت السورتان. وإذا صح لجوء قريش إلى ذلك، فإنه سيكون بمثابة رد فعل منهم إزاء رفض النبي عليه السلام عرضهم السابق. وقد سميت هاتان السورتان بـ"المعوذتين" لكون النبي قد تعوذ بهما حسب بعض الروايات. أما قول بعضهم إن سبب نزولهما مرتبط -كما زعموا- بما تعرض له النبي (ص) من سحر من طرف اليهود في المدينة فيقتضي أن تكونا مدنيتين، وهذا بعيد لأن حجم السورتين وأسلوبهما يدلان على مكيتهما، هذا فضلا عن ورودهما في لوائح ترتيب النزول في نفس الرتبة (19-20) الشيء الذي يعني أنهما من أوائل القرآن المكي. هذا واشتهر عن عبد الله بن مسعود أنه كان ينكر أن تكون هاتان السورتان من القرآن، وأنه قال: "إنما أُمِر رسول الله أن يتعوذ بهما، ولم يؤمَر بأنهما من القرآن". وقد رُدَّ عليه بأن الصحابة كانوا يقرءونهما في الصلاة مما يدل على أنهما من القرآن وليستا مجرد دعاء. كما روى أن النبي قرأهما في صلاته.

- نص السورة:

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ (ألجأ وأحتمي) **بِرَبِّ الْفَلَقِ**[1] (الصبح، فلق النهار)، **مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ**[2]، **وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ**[3] (الليل إذا أظلم)، **وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ**[4] ("الساحرات اللائي ينفثن في عُقَد الخيط)، **وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**[4].

تعليق : السحر

لن نعلق هنا على حقيقة السحر من منظور الفكر العلمي المعاصر، بل نفضل أن ننقل هنا للقارئ وجهة نظر فقهية في السحر مما كتبه القرطبي في تفسيره.

والقرطبي فقيه من متشددي أهل السنة، وتفسيره محكوم بنظرته الفقهية. قال: "قيل: السحر أصله التمويه بالحيل والتخاييل، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعاني فيُخيّل للمسحور أنها بخلاف ما هي به، كالذي يرى السراب من بعيد فيُخيّل إليه أنه ماء، وكراكب السفينة السائرة سيراً حثيثاً يُخيّل إليه أنّ ما يرى من الأشجار والجبال سائرة معه. وقيل: هو مشتقّ من. سَحرتُ الصبيَّ إذا خدعته، وكذلك إذا عللته. والتسحير مثله (...). وقوله تعالى: "قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ" (الشعراء 153). يقال: المُسَحَّر الذي خُلِق ذا سحر؛ ويقال من المعلّلين أي ممن يأكل الطعام ويشرب الشراب. وقيل: أصله الخفاء، فإن الساحر يفعله في خفية. وقيل: أصله الصَّرف؛ يقال: ما سَحَرك عن كذا، أي ما صرفك عنه؛ فالسّحر مصروف عن جهته. وقيل: أصله الاستمالة؛ وكلُ مَن استمالك فقد سحرك. وقيل في قوله تعالى: "لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ" (الحجر 15) أي سُحرنا، فأزلنا بالتخييل عن معرفتنا. وقال الجوهري: السِّحر الأُخْذة؛ وكلُ ما لَطُف مأخذه ودَقّ فهو سحر. وقد سحره يسحره سِحراً. والساحر: العالم. وسحره أيضاً بمعنى خدعه. وقال ابن مسعود: كنّا نُسَمِّي السحر في الجاهلية العِضَة.. والعِضَهُ عند العرب: شدّة البَهْت وتمويه الكذب" (...).

واختُلف هل له حقيقة أم لا؛ فذكر الغَزْنَويّ الحنفي في عيون المعاني له: أن السحر عند المعتزلة خدع لا أصل له، وعند الشافعي وسوسة وأمراض. قال: وعندنا أصله طِلّسم (حرز) يُبنى على تأثير خصائص الكواكب؛ كتأثير الشمس في زئبق عِصيّ (سحرة) فرعون، أو تعظيم الشياطين ليسهّلوا له ما عَسُر.

قلت: وعندنا (القرطبي: أهل السنة) أنه حقّ وله حقيقة يخلق الله عنده ما شاء، على ما يأتي. وأضاف: "ذهب أهل السنّة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة. وذهب عامّة المعتزلة وأبو إسحاق الاسترابادي من أصحاب الشافعي إلى أن السحر لا حقيقة له، وإنما هو تمويه وتخييل وإيهام لكون الشيء على غير ما هو به، وأنه ضَرْب من الخفّة والشَّعْوَذة؛ كما قال تعالى: "قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى" (طه 66) ولم يقل تسعى على الحقيقة، ولكن قال "يُخَيَّلُ إِلَيْهِ". وقال أيضاً: "قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ" (الأعراف 116). وهذا لا حجة فيه؛ لأنا لا ننكر أن يكون التخييل وغيره من جملة السحر، ولكن ثبت وراء ذلك أمور جوّزها العقل ووَرَد بها السمع. فمن ذلك ما جاء في هذه الآية من ذكر السحر وتعليمه، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه، ولا أخبر تعالى أنهم يعلّمونه الناس، فدلّ على أن له حقيقة. وقوله تعالى في قصة سَحَرة فرعون: "قَالَ أَلْقَوْاْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُوا بِسِحْرٍ

عَظِيمٍ". وعلى هذا أهل الحلّ والعقد الذين ينعقد بهم الإجماع، ولا عبرة مع اتفاقهم بحُثَالة(؟) المعتزلة ومخالفتهم "أهل الحق"!. ولقد شاع السِحر وذاع في سابق الزمان وتكلّم الناس فيه، ولم يَبْدُ من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله. وروى سفيان عن أبي الأعور عن عكرمة عن ابن عباس قال: عُلِّم السحر في قرية من قرى مصر يقال لها: "الفَرَما" فمن كذّب به فهو كافر، مكذِّب لله ورسوله، منكرٌ لما عُلم مشاهدةً وعِياناً".

وأضاف: "قال علماؤنا: لا يُنكر أن يظهر على يد الساحر خَرْق العادات مما ليس في مقدور البشر من مرض وتفريق وزوال عقل وتعويج عضْو، إلى غير ذلك مما قام الدليل على استحالة كونه من مقدورات العباد. قالوا: ولا يبعد في السحر أن يستدِق جسم الساحر حتى يتولّج في الكُوّاتِ والخوخات والانتصاب على رأس قصبة، والجَرْي على خيط مستدق، والطيران في الهواء والمشي على الماء وركوب كلب وغير ذلك. ومع ذلك فلا يكون السحر موجباً لذلك، ولا علّةً لوقوعه ولا سبباً مولداً، ولا يكون الساحر مستقلا به، وإنما يخلق الله تعالى هذه الأشياء ويُحدِثها عند وجود السّحر؛ كما يخلق الشبع عند الأكل، والرّي عند شرب الماء. روى سفيان عن عمار الذّهبي أن ساحراً كان عند الوليد بن عُقْبة يمشي على الحبل، ويدخل في استْ الحمار ويخرج من فيه؛ فاشتمل له جُنْدُب على السيف فقتله. (...) أجمع المسلمون على أنه ليس في السحر ما يفعل اللـــه عنده إنزال الجراد والقُمّل والضفادع وفلق البحر وقلب العصا وإحياء الموتى وإنطاق العجماء (التي لا تتكلم)، وأمثال ذلك من عظيم آيات الرسل عليهم السلام. فهذا ونحوه مما يجب القطع بأنه لا يكون ولا يفعلــه الله عند إرادة الساحر. قال القاضي أبو بكر بن الطيّب: وإنما منعنا ذلك بالإجماع ولولاه لأجزناه".

ويواصل القرطبي: "في الفرق بين السحر والمعجزة: قال علماؤنا السحر يوجد من الساحر وغيره، وقد يكون جماعة يعرفونه ويمكنهم الإتيان به في وقت واحد. والمعجزة لا يمكن اللـــه أحداً أن يأتي بمثلـــها وبمعارضتها. ثم الساحر لم يَدّع النبوّة فالذي يصدر منه متميِّز عن المعجزة، فإن المعجزة شرطها اقتران دعوى النبوّة والتحدّي بها. واختلف الفقهاء في حكم الساحر المسلم والذّمي؛ فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفراً يُقتل ولا يُستتاب ولا تُقبل توبته، لأنه أمرٌ يستَـــسِـــرّ به كالزنديق والزاني، ولأن الله تعالى سَمّى السحر كفراً بقوله: "وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا

هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" (البقرة 102) ... وهو (قتل الساحر) قول أحمد بن حنبل وأبي ثور وإسحق والشافعي وأبي حنيفة. ورُوي قتل الساحر عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وأبي موسى وقيس بن سعد وعن سبعة من التابعين. ورُوي عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم: "حَدُّ الساحر ضَرْبَةُ بالسيف"، خرّجه الترمذي وليس بالقويّ (...). قال ابن المنذر: وإذا أقرّ الرجل أنه سحر بكلامٍ يكون كفراً وجب قتله إن لم يَتُب، وكذلك لو ثبتت به عليه بيّنة ووصفت البينة كلاماً يكون كفراً. وإن كان الكلام الذي ذكر أنه سَحَرَ به ليس بكفر لم يجز قتله، فإن كان أحدث في المسحور جناية توجب القصاص اقتُصّ منه إن كان عَمَد ذلك؛ وإن كان مما لا قصاص فيه ففيه دِيَة ذلك. (القرطبي في تفسيره لقوله تعالى "وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ" (البقرة 102).

وبعد، فكيف نفهم هذا الاختلاف في وجهة نظر القرطبي: تارة ينفي وجود السحر ويورد مواقف فقهية بوجوب قتل الساحر، وتارة يقول بوجود السحر ويهاجم نفاته ومنكريه! الجواب هو: أن أصل هذا التناقض في موقف القرطبي ومن ذهب مذهب الأشاعرة عموما يرجع إلى المسألة التي عبر عنها المعتزلة بـ"خلق الأفعال"، أي إثبات القدرة للإنسان على إتيان أفعاله بحرية وإرادة، وهدفهم من ذلك إثبات المسؤولية، وبالتالي سريات الوعد والوعيد. وهذه مسائل سنوضحها لاحقا، كل في المكان المناسب له.

18- سورة الناس

- تقديــــم

في السورة السابقة كان العياذ بـــ "رب الفلق"، والفلق كما قلنا هو الصبح، والصبح يفيد طلوع النهار: نهار الحقيقة، نهار العدل والحق! والعياذ كان من الشر، شر المخلوقات : من الإنسان والشيطان والهوام إلى شر الظلام إذا عم الكون، ومنه الظلمة في القمر حين الكسوف، إلى شر الساحرات، إلى شر الحساد... وإذن فالتركيز هناك في سورة الفلق كان على ما منه كان العياذ والهروب، أي من الشر بكلمة واحدة. أما هنا في سورة الناس فالتركيز واقع على الذي وقع العياذ به، أي اللجوء إليه، وهو: رب الناس، ملك الناس، إله الناس. والمتعوذ منه هو وسواس الشيطان، شيطان الإنس وشيطان الجن. كان اللجوء في سورة الفلق إلى "رب الفلق"، الرب الذي يفلق ظلام الليل ويأتي بالنهار، الرب الذي يأتي بالفرج إلى المنعم عليه، الرب الذي يربي ويرعى ... أما هنا فاللجوء إلى رب الناس، ملك الناس، إله الناس. الرب هنا هو الملك، الإله، القادر على كل شيء، على قهر وسوسة الإنسان ووسوسة الشيطان.

هذا إذا نظرنا إلى سياق السورة من خلال التي سبقتها. أما إذا نظرنا إليها من خلال السورة التي بعدها فإننا ستتبين شيئا آخر: إنه لفظ "الله" الذي سيبرز كاسم آخر للرب كما سنرى.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ[1]، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَهِ النَّاسِ[3]، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ[4] (من طبعه أنه يختفي) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ[5]، مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ[6]" (شيطان الجن وشيطان الإنس).

- تعليق :

الوسواس

وقع التركيز في السورة السابقة على السحر، أما هنا فالتركيز على الوسواس. وكما فعلنا في التعليق السابق فلن ننقل رأي الفكر المعاصر في الوسواس، ولا حكم الدين فيه كما يقرره الفقهاء، فالوسواس ليس فيه حكم فقهي لأنه ليس من أفعال الإنسان الإرادية بل هو ظاهرة بشرية. ولذلك رأينا أنه من الأنسب في هذه المسألة إطلاع القارئ على تحليل الفكر النظري "العلمي الفلسفي الديني"، كما كان في أوج الحضارة العربية الإسلامية. يتعلق الأمر أساسا بوجهة نظر "متكلمين متفلسفين" أشعريين هما الفخر الرازي (صاحب التفسير) وأبو حامد الغزالي (صاحب إحياء علوم الدين).

الوسوسة من الشيطان. هذا ما يقرره القرآن. يبقى "الكلام" في 'كيف يقوم الشيطان بالوسوسة" في نفس الإنسان. قال الرازي: "ذكروا أنه (الشيطان) يغوص في باطن الإنسان ويضع رأسه على حبة قلبه، ويلقي إليه الوسوسة. واحتجوا عليه بما روي من أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: "إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم، ألا فضيقوا مجاريه بالجوع". وقال عليه السلام: "لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات".

ثم يضيف الرازي: "ومن الناس من قال: هذه الأخبار لا بد من تأويلها، لأنه يمتنع حملها على ظواهرها، واحتج عليه بوجوه: الأول: أن نفوذ الشياطين في بواطن الناس محال؛ لأنه يلزم إما اتساع تلك المجاري أو تداخل تلك الأجسام. الثاني: ما ذكرنا من أن العداوة الشديدة حاصلة بينه وبين أهل الدين. فلو قدر على هذا النفوذ فلم لا يخصهم بمزيد الضرر؟ الثالث: أن الشيطان مخلوق من النار (قصة إبليس في القرآن)، فلو دخل في داخل البدن لصار كأنه نفذ النار في داخل البدن، ومعلوم أنه لا يُحَس بذلك. الرابع: أن الشياطين يحبون المعاصي وأنواع الكفر والفسق، ثم إنا نتضرع بأعظم الوجوه إليهم ليظهروا أنواع الفسق فلا نجد منه أثراً ولا فائدة، وبالجملة فلا نرى لا من عداوتهم ضرراً ولا من صداقتهم نفعاً".

ذلك ما احتج به منكرو وسوسة الشيطان. "وأجاب مثبتوها عن السؤال الأول: بأنه على القول بأنها نفوس مجردة فالسؤال زائل، وعلى القول بأنها أجسام لطيفة كالضوء والهواء فالسؤال أيضاً زائل، وعن الثاني: لا يبعد أن يقال: إن الله وملائكته يمنعونهم عن إيذاء علماء البشر، وعن الثالث: أنه لما جاز أن يقول الله

تعالى لنار إبراهيم "قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاَمَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ" (الأنبياء: 69) فلمَ لا يجوز مثله ههنا؟ وعن الرابع: إن الشياطين مختارون، ولعلهم يفعلون بعض القبائح دون بعض".

ذلك "تحليل للمسألة" من زاوية ما ورد في الأخبار (الأحاديث). أما من ناحية "الرأي" فالرازي يورد أولا ما قاله الغزالي في هذا الشأن ثم يدلي فيه برأيه. قال: "قال (الغزالي): القلب مثل قبة لها أبواب تنصبُّ إليها الأحوال من كل باب، أو مثل هدف ترمى إليه السهام من كل جانب، أو مثل مرآة منصوبة تجتاز عليها الأشخاص، فتتراءى فيها صورة بعد صورة، أو مثل حوض تنصب إليه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة. واعلم أن مداخل هذه الآثار متجددة في القلب ساعة فساعة: "إما من الظاهر كالحواس الخمس، وإما من البواطن كالخيالِ والشهوة والغضب والأخلاق المركبة في مزاج الإنسان؛ فإنه إذا أدرك بالحواس شيئاً حصل منه أثر في القلب، وكذا إذا هاجت الشهوة أو الغضب حصل من تلك الأحوال آثار في القلب، وأما إذا منع الإنسان عن الإدراكات الظاهرة فالخيالات الحاصلة فيُ النفس تبقى، وينتقل الخيال من شيء إلى شيء، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال، فالقلب دائماً في التغير والتأثر من هذه الأسباب، وأخص الآثار الحاصلة في القلب هي الخواطر، وأعني بالخواطر ما يعرض فيه من الأفكار والأذكار، وأعني بها إدراكات وعلوماً إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر. وإنما تسمى خواطر من حيث أنها تخطر بالخيال بعد أن كان القلب غافلاً عنها. فالخواطر هي المحركات للإرادات، والإرادات محركة للأعضاء. ثم هذه الخواطر المحركة لهذه الإرادات تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر، أعني إلى ما يضر في العاقبة، وإلى ما ينفع، أعني ما ينفع في العاقبة، فهما خاطران مختلفان، فافتقرا إلى اسمين مختلفين: فالخاطر المحمود يسمى إلهاماً، والمذموم يسمى وسواساً. ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر أحوال حادثة فلا بدّ لها من سبب، والتسلسل محال، فلا بدّ من انتهاء الكل إلى واجب الوجود" (الله). قال الرازي "وهذا ملخص كلام الشيخ الغزالي بعد حذف التطويلات منه".

بعد هذا ينتقل الرازي إلى "تحقيق الكلام فيما ذكره الغزالي" فيذكر ست مقدمات "منطقية" لا حاجة لنا بها هنا، خصوصا وهو يعود فيلخص نتائجها فيما يلي، قال : "إذا عرفت هذا فاعلم أن نفاة الشيطان ونفاة الوسوسة قالوا: ثبت أن المصدر القريب للأفعال الحيوانية هو هذه القوى المذكورة في العضلات والأوتار، فثبت أن تلك القوى لا تصير مصادر للفعل والترك إلا عند انضمام الميل والإرادة إليها، وثبت أن تلك الإرادة من لوازم حصول الشعور بكون ذلك الشيء لذيذاً أو مؤلماً، وثبت أن حصول ذلك الشعور لا بدّ وأن يكون بخلق الله تعالى ابتداء أو بواسطةٍ مراتب، شأن

كل واحد منها في استلزام ما بعده على الوجه الذي قررناه، وثبت أن كل واحد من هذه المراتب ترتب على ما قبله، أو لازم لزوماً ذاتياً واجباً، فإنه إذا أحس بالشيء وعرف كونه ملائماً مال طبعه إليه، وإذا مال طبعه إليه تحركت القوة إلى الطلب، فإذا حصلت هذه المراتب حصل الفعل لا محالة، فلو قدرنا شيطاناً من الخارج وفرضنا أنه حصلت له وسوسة كانت تلك الوسوسة عديمة الأثر؛ لأنه إذا حصلت تلك المراتب المذكورة حصل الفعل سواء حصل هذا الشيطان أو لم يحصل. فإن لم يحصل مجموع تلك المراتب امتنع حصول الفعل سواء حصل هذا الشيطان أو لم يحصل. فعلمنا أن القول بوجود الشيطان وبوجود الوسوسة قول باطل، بل الحق أن نقول: إن اتفق حصول هذه المراتب في الطرف النافع سميناها بالإلهام، وإن اتفق حصولها في الطرف الضار سميناها بالوسوسة، هذا تمام الكلام في تقرير الإشكال" وهذا رأي نفاة الوسواس والشياطين.

"والجواب (على الرأي السابق، رأي نفاة الوسوسة والشياطين) هو (يقول الرازي): "إن كل ما ذكرتموه حق وصدق، إلا أنه لا يبعد أن يكون الإنسان غافلاً عن الشيء، فإذا ذكره الشيطان ذلك الشيء تذكره، ثم عند التذكر يترتب الميل عليه، ويترتب الفعل على حصول ذلك الميل، فالذي أتى به الشيطان الخارجي ليس إلا ذلك التذكر، وإليه الإشارة بقولــه تعالى حاكياً عن إبليس أنه قال: "وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاّ أن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي" (إبراهيم: 22). إلا أنه بقي لقائل أن يقول: فالإنسان إنما قدم على المعصية بتذكير الشيطان، فالشيطان إن كان إقدامه على المعصية بتذكير شيطان آخر لزم تسلسل الشياطين، وإن كان عمل ذلك الشيطان ليس لأجل شيطان آخر، ثبت أن ذلك الشيطان الأول إنما أقدم على ما أقدم عليه لحصول ذلك الاعتقاد في قلبه، ولا بدّ لذلك الاعتقاد الحادث من سبب، وما ذاك إلا الله سبحانه وتعالى. وعند هذا يظهر أن الكل من الله تعالى، فهذا غاية الكلام في هذا البحث الدقيق العميق" (الرازي في سياق تفسيره لسورة الفاتحة. ج1 ص27)

هذا ولابد من الإشارة إلى أنه باستثناء ما ورد من تدخل الشيطان وما له علاقة بالقرآن والحديث فيما ذكر، أقول باستثناء ذلك فإن ما ذكره الغزالي والرازي مأخوذ من شروح الفارابي وابن سينا على نظرية النفس عند كل من أفلاطون وأرسطو. وإذن فالأساس العلمي لما ذكر هو علم النفس الأرسطي أما الباقي فمن الشراح والمفسرين. لقد حلل أرسطو النفس البشرية تحليلا خاليا من أي رغبة، غير الرغبة في المعرفة، ففرق في النفس بين النفس الشهوانية والغضبية والعاقلة والنزوعية الخ مما بسطنا القول فيه في "بنية العقل العربي" و"العقل الأخلاقي العربي": الجزء الثاني والرابع من كتابنا "نقد العقل العربي".

19- سورة الإخلاص

- تقديـــم:

تدشن هذه السورة الانتقال من استعمال لفظ "الرب" كاسم للإله الذي تبشر به الدعوة المحمدية إلى استعمال اسم آخر هو "الله" مع الاحتفاظ بالأول[1]. وتقول أشهر رواية في موضوع "سبب نزول" سورة "قل هو الله أحد" : إن أناسا من قريشٍ قالوا للنبي صلى الله عليه وسلّم: "انْسُبْ لنا ربك"! فنزلت : "قل هو الله أحد إلى آخرها". وعلى هذا تكون هذه السورة مكية، وقد رتبت في لوائح ترتيب النزول في رتبة 22 أو قريبا منها (وفي ترتيبنا تقع في رتبة 19 بسبب تأجيل سور المزمل والقلم والفاتحة، وهذا يهم السور السابقة كلها).

هناك روايات أخرى تفيد أن سورة الإخلاص نزلت بالمدينة، فقد ذكروا "أن عامر بن الطفيل وأرْبَد بن ربيعة (أخا لبيد) أتيا النبي صلى الله عليه وسلّم، فقال عامر: "إلامَ تدعونا" (يا محمد)؟ قال: "إلى الله"، قال: "صفه لنا : أمن ذهب هُو، أم من فضة، أم من حديد، أم من خشب؟ (ومن هذه المواد كانوا يصنعون آلهتهم) فنزلت هذه السورة". وفي رواية أخرى أن اليهود سألوه، فقالوا له: "هذا الله خلَق الخلْق، فمن خلق الله؟ فأُنزلت جوابا لهم" (الطبري).

1-أما عبارة "باسم الله"، ومعناها "أبدأ بتسمية الله وذِكره قبل كل شيء"، فقد ـرت هي الأخرى في الخطاب القرآني. من ذلك قوله تعالى: "فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ" (الأنعام 118)، وقوله: "ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا" (هود 41). والمعنى "متبركين" باسمه. وقد "ندب الشرع إلى ذكر البسملة في أوّل كل فعل؛ كالأكل والشرب والنحر والجماع والطهارة وركوب البحر، إلى غير ذلك من الأفعال" (القرطبي)، وفي الحديث : "كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر". أما البسملة (باسم الله الرحمان الرحيم) فقد اختلف المفسرون في شأنها: هل هي جزء من كل سورة أم أنها مجرد فاصلة بين السور وضعت زمن جمع القرآن على عهد عثمان، وعلى هذا الرأي تكون آية فقط في قصة سليمان بسورة النمل وذلك في مطلع رسالته إلى بلقيس ملكة سبأ، حيث نقرأ: "إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ" (النمل 30-31). وابتداء سورة العلق بقوله تعالى: "اقرأ باسم ربك" يمكن الاستناد إليه لتعزيز موقف القائلين بأن البسملة ليست جزاء من كل سورة، لأنها إذا اعتبرت كذلك فستكون تكرارا لقوله "اقرأ باسم ربك" لأن المعنى واحد والقصد واحد وهو التبرك.

ونحن نرى أن الروايات التي تفيد أن هذه السورة نزلت في المدينة وليس في مكة لا تستقيم مع ورود اسم "الله" في القرآن المكي مرات عديدة، هي من الكثرة بحيث لا تكاد تحصى، وبالتالي فمن المستبعد أن يسأل النبي عنه في المدينة. ثم إن اسم الله" كان معروفا عند العرب وكانوا يؤمنون به، والفرق بين معتقدهم فيه وبين الإسلام أنهم كانوا يجعلون له شركاء من الملائكة والأصنام. أما اليهود فلا يعقل أن يسألوه ذلك السؤال المنسوب إليهم لأنه مردود عليهم. على أن سؤال "من خلق الله" كان مطروحا خارج اليهود(2).

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ[1] (لا أحد يشاركه في الألوهية)، اللَّهُ الصَّمَدُ[2] (المصمت، لا جوف له كالأصنام) (3)، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ[3] (ليس هو كآلهة العرب التي يجعلونها بنات الله)، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ[4] (لا يماثله أو يكافئه أحد فيما خلق).

- تعليق:

أفاض المفسرون القول في كلمات هذه السورة. فن كلمة "قل" إلى "كفوًا أحد"، مواقف مختلفة متنوعة بعضها يكرر بعض الخ. فبخصوص كلمة "قل" التي هي أول كلمة في السورة كما هي مدونة في المصحف، هناك من يثبتها ومن يحذفها: فقد روي أن أبي وابن مسعود قرءا السورة بغير "قل" هكذا: " هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ..."، وروي أن النبي قرأ "الله أحد" بغير "قل هو". وهناك من قرأ: "قل هو الله الواحد".

2- في رواية عن أبي هريرة قال: "قال رسول الله تسألون حتى تقولوا هذا الله خلقنا فمن خلق الله، قال أبو هريرة فوالله إني لجالس يوما إذ قال لي رجل من أهل العراق هذا الله خلقنا فمن خلق الله، قال أبو هريرة فجعلت أصبعي في أذني ثم صحت صدق رسول الله، الله الواحد الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. وبإسناد عن عائشة قالت قال رسول الله إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلقك؟ فيقول من خلق السموات والأرض؟ فيقول الله، فيقول من خلق الله؟ فإذا وجد أحدكم شيئا من ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله".

3- كان العرب يصنعون أصنامهم مجوفة يدعونها للتبرك بها فتجيبهم من أجوافها كما يزعمون! من ذلك ما روى عن عبد اللـــه بن ساعدة الـــهذلي أنه قال: كنا نعبد صنماً يقال لــــه سُواع، وكانت لي غنم فجَربت فسُقتُها إليه وأدنَيتُها منه أرجو بركته، فسمعت منادياً من جوف الصنم يقول...

واختلفوا في "أحد" هل هو بالتنوين أم بغيره. وعلق الرازي على هذا الاختلاف فقال: "اعلم أنهم أجمعوا على أنه لا بد في سورة "قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ" من "قل" وأجمعوا على أنه لا يجوز لفظ قل في سورة: "تـبـت يدا "، وأما في هذه السورة فقد اختلفوا"، وأضاف: "فمن أثبت قل" قال: السبب فيه بيان أن النظم ليس في مقدوره، بل يحكي كل ما يقال له، ومن حذفه قال: لئلا يتوهم أن ذلك ما كان معلوماً للنبي عليه الصلاة والسلام". بمعنى أن إثبات "قل" لازم لأن النبي (ص) ليس في مقدوره تعديل أو تغيير نظم الكلام في القرآن لأنه وحي كله، معنى ولفظا. أما عدم إثباتها فمن أجل أن لا يتوهم السامع أن النبي لم يكن يعرف أن "الله أحد ..." قبل نزول هذه السورة".

واختلفوا في معنى "الصمد" فقال بعضهم هو "السيد الذي يُصْمَد إليه في النوازل والحوائج". وقال آخرون هو "الدائم الباقي"، ومنهم من قال: "الصَّمَد: هو السيد الذي قد انتهى سُودَدُه في أنواع الشرف والسُّودَد"، وآخرون قالوا: "إنه المستغنِي عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد". ومنهم من قال: إنه "المقصود في الرغائب، والمستعان به في المصائب". وآخر قال : "إنه الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد". وآخر قال: إنه "الكامل الذي لا عيب فيه". وغيره قال : "الصمد معناه لا يقبل التغير في ذاته".

وفي معنى "أحد" قال بعضهم "الأحد والواحد سواء"، وقال غيره "الأحد الذي لا يدخل في العدد، والواحد يدخل في العدد، لأنك تقول للواحد ثانياً، وبمعنى آخر: "الأحد يستوعب جنسه والواحد لا يستوعبه لأنك لو قلت فلان لا يقاومه أحد لم يجز أن يقاومه اثنان ولا أكثر فالأحد أبلغ من الواحد".

وأما قوله "لم يلد ولم يولد" فقد انصرفت الشروح إلى أنه ليس أبا لابن، ولا ابنا لأب، كما تقول المسيحية". وكذلك قوله "ولم يكن له كفؤا أحد" اتفقوا على أنه بمعنى "ليس كمثل شيء".

أما نحن فقد فضلنا استقاء المعنى من نفس ما كان يعتقده مشركو مكة زمن النبي من معتقدات أضافوها إلى اعتقادهم في الله. وبعبارة أخرى فضلنا فهم السورة من موقع أن الإسلام يشترك مع قريش في الاعتراف بالله ولكنه ينفي عن فكرة الله كل ما أضافوه لها. وقد عبر القرآن عن هذا المعنى بالإيجاب باستعمال لفظ "الحنيف" الذي جاء مقرونا في أغلب الأحيان بسلب "الشريك"، مثل قوله تعالى: "وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (يونس 105).

20- الفاتـــحة

- تقديــــم

لسورة الفاتحة أسماء متعددة أشهرها: فاتحة الكتاب على غرار "مقدمة الكتاب"، ويقال إن الرسول (ص) هو الذي سماها بهذا الاسم، ووضعها في مكانها كأول سورة تقرأ في الكتاب/القرآن. وقد روي عن النبي أنه سماها كذلك باسم "أم القرآن" أو "أم الكتاب" بمعنى "مبدؤه ومفتتحه"، وقيل إنه سماها أيضا بـ"السبع المثاني" بمعنى أنها سبع آيات تتكرر في الصلاة، إذ تقرأ في كل ركعة" [1]. واختلفوا في مكان نزولها: أفي مكة أم المدينة؟ معظمهم قال إنها مكية، وأنها "نزلت عند فرض الصلاة فقرأ المسلمون بها في الصلاة عند فرضها"[2]. وقال آخرون إنها مدنية، بينما ذهب بعضهم إلى أنها نزلت مرتين : مرة في مكة ومرة في المدينة. وهناك من قال إنها ليست من القرآن، فعبد الله بن مسعود لم يثبتها في مصحفه، كما لم يثبت المعوذتين، لكونه اعتبرهما دعاء كان النبي يتعوذ به. لكن الذي عليه جمهور المفسرين أنها نزلت في مكة. وقد رتبت الخامسة في ترتيب النزول المعتمد وترتيب جابر بن زيد؛ أما الزركشي فقد رتبها السادسة والثمانين قبل البقرة، على غرار ترتيبها في المصحف. ولم ترتب في لائحة البيهقي ولا في لائحة ابن الضريس. ونحن قد رتبناها حسب مضمونها، بعد سورة الإخلاص. ذلك لأنه لما كانت هذه الأخيرة قد نزلت، كما رأينا، جوابا على سؤال قريش للنبي عليه السلام : "انسب لنا ربك"، فإن سورة الفاتحة هي أقرب السور إلى تكملة جواب "قل هو الله أحد" من حيث إنها تدشن مثل سورة الإخلاص استعمال لفظ الجلالة "الله" إلى جانب اسم "الرب"، وقد بينت أن الاسمين هما لمسمى واحد: "الحمد لله رب العالمين". وواضح أن هذا الترتيب لا ينال من كونها فاتحة الكتاب حسب ترتيب المصحف، وعملا بهذه السنة صدرنا بها هذا الكتاب. وقد ذهب جمهور القراء والمفسرين إلى أنها سبع آيات، "ولم يشذ عن ذلك إلا الحسن البصري فقال: هي ثمان آيات، وإلا الحسين الجعفي فقال: هي ست=

1- سنعود إلى هذه المسألة في مرحلة لاحقة.

2 - ومعلوم أن الصلاة فرضت في مكة وكانت ركعتين في الصباح وركعتين في المساء.

آيات، وقال آخرون هي: تسع آيات. والذين قالوا هي سبع آيات يتعين عليهم القول حينئذٍ بأن البسملة ليست من الفاتحة. ومن عدّ البسملة آية أدمج الآيتين الأخيرتين"، كما في المصحف الذي اعتمدنا.

ويلخص الزمخشري موقف الفقهاء في الموضوع فيقول: "قرّاء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها على أنّ التسمية ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وإنما كتبت للفصل والتبرك بالابتداء بها، كما بدىء بذكرها في كل أمر ذي بال، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه اللـه ومن تابعه، ولذلك لا يجهر بها عندهم في الصلاة. وقرّاء مكة والكوفة وفقهاؤهما على أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة، وعليه الشافعي وأصحابه رحمهم اللـه، ولذلك يجهرون بها. وقالوا: قد أثبتها السلف في المصحف مع توصيتهم بتجريد القرآن، ولذلك لم يثبتوا "أمينّ". فلولا أنها من القرآن لما أثبتوها".

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم[1]، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[2] (الله ملك المخلوقات بجميع أنواعها، كل نوع عالَم). الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ[3] (3)، مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ[4] (القاضي يوم القيامة) (4). إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ[5]، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ[6]، (وهو) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ[7] (معظم الرواة على أن "المغضوب عليهم" و"الضالين" أنهم اليهود والنصارى على التوالي) (5).

3- من جملة ما يستدل به على كون البسملة ليست آية من الفاتحة أنها لو كانت كذلك لكان ورود عبارة "الرحمن الرحيم" هنا تكرار.

4- قال الزمخشري: قُرئ: ملِك يوم الدين، ومالك وملك بتخفيف اللام. وقرأ أبو حنيفة: مَلَكَ يومَ الدين، بلفظ الفعل ونصب اليوم، وقرأ أبو هريرة: مالكَ بالنصب. وقرأ غيره: مَلَك، وهو نصب على المدح؛ ومنهم من قرأ: مالكٌ، بالرفع. وملِك: هو الاختيار (اختيار الزمخشري)، لأنه قراءة أهل الحرمين، ولقولـــه: "لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ" (غافر: 16)، ولقولـــه: "مَلِكِ النَّاسِ" (الناس: 2)، ولأن المُلك يعم، والمِلك يَخص. ويوم الدين: يوم الجزاء.

5- يقول الزمخشري معللا كون المغضوب عليهم "هم اليهود لقولـــه عز وجل: "مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ" (المائدة: 60 والضمير يعود على اليهود). والضالين: هم النصارى؛ لقوله تعالى: "قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ" (المائدة: 77 والضمير يعود عليهم). ومعنى غضبُ الله: "هو إرادة الانتقام من العصاة، وإنزال العقوبة بهم".

- تعليق :

اهتم معظم المفسرين بذكر فضائل بعض السور والآيات ورووا في ذلك أحاديث وأخبارا، من ذلك سورة الفاتحة وسورة الإخلاص الخ. غير أن فريقا من أيمة الدين لا يرون مبررا لتفضيل بعض القرآن على بعض. وفيما يلي نورد ما ذكره القرطبي عن وجهة نظر هذا الفريق. قال: "اختلف العلماء في تفضيل بعض السُّوَر والآي على بعض، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى الحسنى على بعض؛ فقال قوم: لا فضل لبعض على بعض؛ لأن الكل كلام الله، وكذلك أسماؤه لا مفاضلة بينها. ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعري، والقاضي أبو بكر بن الطيب، وأبو حاتم محمد بن حِبان البُستي، وجماعة من الفقهاء. ورُوي معناه عن مالك. قال يحيى بن يحيى: تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ؛ وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردّد دون غيرها. وقال عن مالك في قول الله تعالى: "مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (البقرة: 106) قال: محكمة مكان منسوخة. وروى ابن كنانة مثل ذلك كله عن مالك. واحتج هؤلاء بأن قالوا: إن الأفضل يُشعر بنقص المفضول؛ والذاتيّة في الكل واحدة، وهي كلام الله، وكلام الله تعالى لا نقص فيه".

21- سورة الرحـــمان

- تقديـــم

صنفت سورة الرحمان في لوائح ترتيب النزول مع القرآن المدني، بناء على القول إنها مدنية. غير أن هذا القول يتناقض مع روايات عديدة تثبت وتؤكد أن هذه السورة نزلت في مكة، وعلى هذا الرأي جمهور الصحابة والتابعين. ففي رواية عن عُرْوة بن الزبير قال: "أوّل من جهر بالقرآن بمكة (بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم) ٱبن مسعود"؛ وذلك أن الصحابة قالوا: "ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط،! فمَن رجل يُسمِعْهُمّوه؟ فقال ٱبن مسعود: أنا؛ فقالوا: إنا نخشى عليك، وإنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه [1]، فأبى، ثم قام عند المقام (مقام إبراهيم) فقال: "بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ، ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ"، ثم تمادى رافعاً بها صوته وقريش في أنديتها، فتأملوا وقالوا: "ما يقول ٱبن أمِّ عَبْد"؟ قالوا: "هو يقول الذي يزعم محمد أنه أنزل عليه"، ثم ضربوه حتى أثّروا في وجهه". وتلتقي مع هذه الرواية رواية عن أسماء بنت أبي بكر ورد فيها أنها قالت: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي نحوَ الرُكن قبل أن يصدَع بما يؤمر، والمشركون يسمعون يقرأ: "فبأي آلاء ربكما تكذبان. وهناك رواية ثالثة تقول إن سورة الرحمان "نزلت جواباً لأهل مكة حين قالوا: إنما يعلِّمه بشر وهو رحمان اليمامة؛ يعنون مسيلِمة الحنفي، فأنزل الله تعالى: "ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ".

وإذا أخذنا بهذه المعطيات فإنه سيكون من المبرر تماما القول إن أول صورة من صور الانتقال من "المرحلة السرية" في الدعوة إلى مرحلة الجهر قد بدأت

1- كان عبد الله بن مسعود حليفا لبني زهرة وقد أسلم في وقت مبكر قبل عمر ابن الخطاب، وربما كان من العشر الأوائل الذين أسلموا: "أسلَمَ بمكة قديماً، وهاجرَ الهجرتين، وشهدَ بدْراً والمشاهدَ كلّها مع رسول الله. وهو صاحب نَعْل رسول الله. كان يُلبسهَ إياها إذا قام، فإذا جلس أدخلها في ذراعِهِ". توفي حوالي سنة 32هـــ وعمره يزيد عن اثنين وستين.

بسورة الرحمان، وأن أول صحابي تلا القرآن جهرة في المسجد الحرام وكبراء قريش في نواديها بالكعبة يسمعون هو عبد الله بن مسعود. وبما أن هناك روايات تفيد أن أول سورة قرأها الرسول عليه السلام في المسجد جهرة هي سورة النجم - كما سنرى وكان ذلك بعد قراءة "الرحمان" من طرف عبد الله بن مسعود- وبما أن رقم ترتيب سورة النجم في لوائح ترتيب النزول يتحرك بين 21 و23 فإن رتبة سورة الرحمان ستكون قبل رتبة سورة النجم ولذلك وضعناها هنا في الرتبة 21.

- نص السورة

1- مقدمة: الرحمان ... علم القرآن.. علم البيان!

بسم الله الرحمن الرحيم

الرَّحْمَانُ[1]، **عَلَّمَ** (محمدا) **الْقُرْآنَ**[2]، **خَلَقَ الْإِنسَانَ**[3]، **عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**[4] (النطق والتعبير).

2- الكون قائم على التوازن .. فلا تخسروا الميزان!

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ[5] (يجريان بحركات محسوبة منتظمة)، **وَالنَّجْمُ** (النبات الذي لا ساق له) **وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ**[6] (بتمايلها مع الريح: وهنا مقابلة بين الشمس والقمر في السماء، والنجم والشجر في الأرض)، **وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا** (إلى أعلى) **وَوَضَعَ الْمِيزَانَ**[7] (في الأرض، كأنه معلق في السماء)، **أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ**[8] (لا تخلوا الوزن في البيع والشراء وغيره)، **وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ** (بالعدل) **وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ**[9] (بالزيادة أو النقصان).

3- الأرض وما ينبت فيها خلقهما للكائنات الحية، فهل تنكرون ذلك؟

وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ[10] (كل ما فيه نفس، للكائنات الحية) [2]، **فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ**[11] (وعاء في وسط جريد النخلة فيه حبات التمر قبل نضجها)، **وَالْحَبُّ** (كحبة الشعير) **ذُو الْعَصْفِ** (الساق والأوراق وما يصير منهما

2- ربما تكون هذه الكلمة معربة من "أنيما" anima التي تعني باللاتينية واليونانية "النفس"، أو مبدأ الحياة" أي ما يجعل موجودا ما ينتمي إلى "الكائنات الحية". وما زال هذا المعنى حاضرا في اللغات الأوروبية.

تبنا تعصف به الريح) وَالرَّيْحَانُ[12] (النبات الذي لا يؤكل لكن له رائحة طيبة)، **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[13] (تلك نعم من ربكم، فأيها يمكنكم تكذيبها)؟ (3). **خَلَقَ الْإِنسَانَ** (آدم) مِنْ **صَلْصَالٍ** (طين يابس) **كَالْفَخَّارِ**[14]، **وَخَلَقَ الْجَانَّ**

3- اختلف المفسرون في تفسير خطاب التثنية هنا : بعضهم صرف المعنى إلى الإنس والجن، مع أن التثنية لم تذكر قبل. يقول الطبري في هذا الصدد: "فإن قال لنا قائل: وكيف قيل: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكما تكذّبان فخاطب اثنين، وإنما ذكر في أوّل الكلام واحدا، وهو الإنسان؟ قيل: عاد بالخطاب في قوله: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكما تكذّبانِ إلى الإنسانِ والجانّ. ويدل على أن ذلك كذلك فيما بعد هذا من الكلام، وهو قوله: خَلَقَ الإنسانَ مِنْ صَلْصَالٍ كالفخار وخَلَقَ الجانَّ مِنْ مارجٍ مِنْ نار. وقد اعترض فريق على هذا التأويل بكون الضمائر في العربية تعود على ما قبلها وليس على ما بعدها". من أجل هذا ذهب آخرون إلى اعتبار التثنية هنا جارية على عادة العرب في مخاطبة المفرد بصيغة المثنى أو بصيغة الجمع، مثل قولهم: خليليَّ وصاحبيَّ، وقِفَا وأسْعِدَا،" وقد ورد ذلك في آيات أخرى من الذكر الحكيم، مثل قوله تعالى " وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ، أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (ق. 23-25) وذلك بناء على أنه خطاب منه تعالى للسائل والشهيد بناء على أنهما اثنان لا واحد جامع للوصفين أو للملكين من خزنة النار. أما الزمخشري فقد اكتفى بالقول "والخطاب في "رَبِّكمَا تكذِّبَانِ" (الآية الآتية بعد 31) للثقلين بدلالة الأنام عليهما" في الآية التالية وقولـه: "سَنَفْرُغ لكمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ" باعتبار أن الثقلين هما الإنس والجن، لكن الملاحظ أن أنه أغفل كون الخطاب موجها لهما بصيغة الجمع إذ استعمل لفظ "لكم" وليس "لكما". وقد ذهب الرازي في تفسير التثنية هنا مذهبا آخر فقال: "التكذيب قد يكون بالقلب دون اللسان ، كما في المنافقين، وقد يكون باللسان دون القلب كما في المعاندين وقد يكون بهما جميعا، فالكذب لا يخرج عن أن يكون باللسان أو بالقلب فكأنه تعالى قال: يا أيها القلب واللسان فبأي آلاء ربكما تكذبان فإن النعم بلغت حدا لا يمكن المعاند أن يستمر على تكذيبها"! ونحو نرى أن المسألة هنا ربما يجب النظر إليها من زاوية نظم الكلام. ذلك أن حرفي الفاصلة في آيات السورة، ابتداء من "الرحمان علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان... " هما الألف والنون (آن)، وهما بمثابة القافية في الشعر. فاقتضى نظم الكلام استعمال نفس الحرفين في مخاطبة الإنسان في قوله تعالى "فبأي آلاء ربكما تكذبان"، ولو استعمل المفرد لاختل ميزان الكلام، خصوصا وهذه العبارة تتكرر، وتكرارها عنصر أساسي في البناء الذي شيدت عليه السورة. على أن في السياق ما يفيد أن المخاطب هم قريش لكون عبارة "فبأي آلاء ربكم تكذبان" جاء بعدها خطاب بلفظ الجمع (سنفرغ لكم أيها الثقلان أي المثقلون بالمعاصي والذنوب، بالكفر والشرك الخ)، أضف إلى ذلك أن من خصائص الخطاب القرآني استعمال الأزواج : السماء والأرض، الشمس والقمر، الليل والنهار، الذكر والأنثى الخ، ونادرا ما يذكر أحد الأزواج دون أن يذكر بعده الزوج الثاني المقابل له، والمقابل لـ"لإنس" هنا هو "الجن". وهذه مسألة سنخصصها بقول لاحقا. وعلى أساس هذه الخاصية القرآنية يمكن القول إن ذكر الإنس اقتضى ذكر زوج له وهو الجن، لا أن الخطاب موجه إلى الجن أصالة، بل هو موجه إلى قريش.

(إبليس) مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ[15] (خليط أظهر شيء فيه: النار)، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[16]. رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ[17] (مشرق الشمس والقمر ومغربهما)، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[18].

4- بالتوازن تستقر البحار ويتكون اللؤلؤ والمرجان وتجري السفن.

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ[19] (أطلقهما بدون حواجز، فهما يلتقيان)، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ (فاصل) لَا يَبْغِيَانِ[20] (لا يعدو أحدهما على الآخر). فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[21]. يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ[22] (4). فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[23]. وَلَهُ الْجَوَارِ (السفن) الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ[24]، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[25].

5- بفساد التوازن تقوم الساعة ويفنى كل شيء .. ويبقى الله وحده.

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ[26]، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ[27] (5). فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[28]. يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ[29] (6)، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[30]. سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ[31] (من في السماوات والأرض) (7). فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[32]. يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا (أن تهربوا من قضائي) مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا، لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ[33] (ومن أين لكم بهذا السلطان؟). فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[34]. يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ (لهب) مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ (دخان) فَلَا تَنْتَصِرَانِ[35] (فلا

4- ربما تكون الإشارة هنا إلى نهر الفرات (بحر حلو) ومصبه في الخليج العربي (بحر مالح)، يرجح ذلك ذكر اللؤلؤ والمرجان...

5- وجه ربك: الزمخشري: "والوجه يعبر به عن الجملة والذات، ومساكين مكة يقولون: أين وجه عربي كريم ينقذني من الهوان". وقد كان هذا الموضوع مجال خلاف كبير بين المعتزلة القائلين بالتنزيه المطلق وأهل السنة الصفاتية وغيرهم من الفرق المشبهة والمجسمة. وسنخص هذا الموضوع بقول مفصل لاحقا.

6- الزمخشري: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه تلاها فقيل له: وما ذلك الشأن؟ فقال: "من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا، ويرفع قوما ويضع آخرين".

7- الخطاب هنا جاء بالجمع"سنفرغ لكم". والسياق المباشر يقتضي ما ذكرنا: ويمكن أن يكون المقصود الإنس والجن أو هما وغيرهما، ممن يسألون السؤال المذكور (يسأله من في السماوات والأرض). على أن في قوله: "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ" الخ تخصيص.

تستطيعان الاختراق، والهروب من المصير، من جهنم). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[36].

6- حينئذ تنشق السماء وتنكشف الذنوب، والمصير الجنة أو النار.

فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ (عند قيام الساعة) **فَكَانَتْ وَرْدَةً** (حمراء) **كَالدِّهَانِ**[37] (جلد أحمر). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[38]. **فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ**[39] (لأن ذنوبهم كتبت يوم اقترفت). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[40]. **يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ** (بسواد وجوههم) **فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ**[41] (يؤخذ كل منهم من الرأس والرجلين ويلقى به في جهنم). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[42]. (يقال لهم) **هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ**[43]. **يَطُوفُونَ بَيْنَهَا** (جهنم) **وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ**[44] (ماء حار بلغ شدة حره). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[45]. **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ** (مقامه عند ربه) **جَنَّتَانِ**[46] (بستانان). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[57]. **ذَوَاتَا أَفْنَانٍ**[48] (أشجار كثيفة). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[49]. **فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ**[50]. **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[51]. **فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ**[52]. **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[53]. **مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ** (ديباج)، **وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ**[54] (ثمار أشجار البستانين قريبة متدلية). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[55]. **فِيهِنَّ** (في الفرش) **قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ** (نساء يقصرن النظر على أزواجهن) **لَمْ يَطْمِثْهُنَّ** (لم يجامعهن) **إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ**[56]. **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[57]. **كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ**[58]. **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[59]. **هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ**[60] (جزاء من أحسن في الدنيا هو أن يحسن إليه في الآخرة). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[61]. **وَمِنْ دُونِهِمَا** (أسفل الجنتين المذكورتين) **جَنَّتَانِ** (أخريان)[62]. **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[63]. **مُدْهَامَّتَانِ**[64] (مخضرتان). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[65]. **فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ**[66] (فوارتان). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[67]. **فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ**[68]. **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[69]. **فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ** (نساء) **حِسَانٌ**[70]. **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[71]. **حُورٌ** (بياض أعينهن ناصع، وسوادها شديد) **مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ**[72] (مستورات فيها). **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[73]. **لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ**[74]. **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[75]. **مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ** (فضول الفرش) **خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ** (ثياب منقوشة تبسط) **حِسَانٍ**[76]. **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**[77].

7- خاتمة: تبارك اسم ربك ...

تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ (الرحمان) ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ[78].

- تعليق

لنسجل بدئ ذي بدء التشابه بين هذه السورة وبين الآيات الخمس الأولى التي كانت أول ما نزل من القرآن (انظر سورة العلق رقم 1). فتلك الآيات تبتدئ بفكرتين: "اقرأ باسم ربك الذي خلق" من جهة، و"علم الإنسان ما لم يعلم" من جهة أخرى. وتأتي سورة الرحمان لتعبر عن الفكرتين بطريقة أخرى: "الرحمان علم القرآن" (لـــمحمد عليه السلام، كما في: "علم بالقلم")، و"خلق الإنسان علمه البيان" (خلق محمدا وعلمه ما لم يكن يعلم، أي القرآن وبيانه). وابتداء من هذه السورة ستستقر بنية السور فتبتدئ بمقدمة وتنتهي بخاتمة تستعيد المقدمة كما هو واضح هنا في هذه السورة. أما أسلوبها فهو نموذج في البلاغة والبيان، كما أن استعمال الفاصلة "آن" قد أضفى عليها وضعا بيانيا خاصة.

بعد المقدمة تنتقل السورة إلى أغراضها التي سنتعرف عليها بعد أن نشير إلى أنها استعادت في آخرها فكرة "اقرأ باسم ربك" بصيغة أخرى مناسبة حيث نقرأ قوله تعالى: تَبَارَكَ (علا) اسْمُ رَبِّكَ (الرحمان) ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ".

يمكن أن نضيف إلى الشبه بين سورة العلق وسورة الرحمان شبها آخر بين هذه من جهة وسورة الإخلاص من جهة أخرى، وذلك من حيث أن كلتيهما تجيبان عن سؤالين ذي مضمون واحد: "فقوله تعالى: قل هو الله أحد..." كان جوابا عن طلب قريش من النبي عليه السلام، الذي كان يتكلم باسم "الرب" وحده، أن ينسب ربه، فجاء الجواب بـــ "قل هو الله أحد..."، فصار الرسول عليه السلام يبلغ عن الله ويتوجه إليه بالدعاء إلى أن سمِعه أحد رجال قريش يدعو الله بـــ اسم "الرحمان" فسألوه : "وما الرحمان"، فكان الجواب: "الرحمان علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان" الخ. إذن، فالرب الذي خلق وعلم (هناك في سورة العلق) هو نفسه الرحمان الذي خلق وعلم (هنا في سورة الرحمان).

بعد هذا تنتقل السورة إلى التعريف بـــ الرحمان" بقول مفصل: الرحمان هو الذي خلق الظواهر الطبيعية كالشمس والقمر والعشب والشجر الخ ورتبها ترتيبا منظما بحيث يخدم الواحد منها الباقي ولا يتعارض معه ولا يتصادم؛ والرحمان هو الذي جعل الأرض وما عليها من خيرات لفائدة الإنسان. ومن هنا الاستفهام الإنكاري الموجه لخصوم الدعوة المحمدية الذين أنكروا على النبي عليه السلام الدعاء باسم

"الرحمان" بعد أن اعتادوا منه الدعاء باسم الله. إن عبارة "فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ"؟ التي تتكرر مع ذكر أصناف النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، واستعمال التثنية هنا مكان المفرد فيه إشعار بأن اسم الله واسم الرحمان هما لذات واحدة. كما بينت آية أخرى هي قوله تعالى: "قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى" (الإسراء 110).

22- سورة النجم

- تقديـــم

يمكن اعتبار سورة النجم أول سورة -حسب ترتيب النزول المعتمد- تعرض فيها عليه السلام للأصنام، ورتبتها في ذاك الترتيب 23، وقد نزلت حوالي السنة الخامسة للنبوة. وحسب رواية عبد الله بن مسعود فهذه أول سورة قرأها النبي عليه السلام بمكة وقريش يستمعون.

على أن أهمية سورة النجم تتمثل بالنسبة لعملنا هذا ليس فقط في كونها أول سورة قرأها الرسول عليه على مسامع قريش، مِما يجعلها تسجل بداية مرحلة الجهر في الدعوة المحمدية[1] بل تتمثل أهميتها كذلك في كونها تعرض للأركان الأساسية في العقيدة الإسلامية (النبوة، التوحيد، المعاد)، الأركان التي يعترض عليها كفار قريش ويُمانعون في التصديق بها، والتي سيتوالى الجدال حولها معهم إلى أن تم فتح مكة؛ وتتمثل أهميتها كذلك في كونها طرحت لأول مرة وبعبارات قوية واضحة، وردت بالقصد الأول، قضية أساسية في العقيدة الإسلامية، سيحتدّ الجدال حولها مباشرة إثر الفتنة الكبرى (الحرب بين علي ومعاوية)، جدال سرّعان ما سيفضي إلى قيام "علم الكلام" (وموضوعه الجدل بين المسلمين حول قضايا العقيد). هذه القضية التي طرحت لأول مرة (حسب ترتيب النزول) هي تلك التي ستتسمى في علم الكلام بـ "مسألة المشيئة"، وهي المعروفة في الفكر الفلسفي بقضية الجبر والاختيار. وسنفرد لها قولا خاصا.

يدور الخطاب في سورة النجم، إذن، حول المسائل الأربعة التالية:

1-التأكيد على نبوة محمد (ص) وعلى أن القرآن وحي من الله إليه بواسطة جبريل، والرد على المكذبين.

2-التأكيد على وحدانية الله ونفي الشريك عنه، والتعرض للأصنام. في ثلاثة أمور: أولا لقد رأى النبي عليه السلام مشهد جبريل وهو ينقل إليه الوحي، فماذا رأى مشركو قريش في أصنامهم التي تمثل "الملائكة": آلهتهم؟ هم يتمنون شفاعة

1- راجع ما قلناه في هذا الموضوع في التعريف بالقرآن. الفصل العاشر: ثانيا.

الملائكة؟ كلا، لا أحد يشفع إلا بإذن الله. سموا الملائكة تسمية الأنثى فجعلوها بنات الله! كيف يعبدونها وهم لا يرحبون بالمولود إذا جاءهم أنثى.

3-التأكيد على وجود حياة أخرى بعد الممات يكون فيها الثواب والعقاب على ما قدم الإنسان في الدنيا من الأعمال.

4-التأكيد على أن كل ما يحدث فبمشيئة الله يحدث، مع التذكير بما آلت إليه مصائر الأقوام الذين كذبوا رسلهم فدمر الله مدنهم وانمحى وجودهم ولم يبق إلا بقايا آثارهم وأخبارهم.

- نص السورة

1- مقدمة: ما ضل صاحبكم وما غوى، وهذا مشهد تلقي الوحي!

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى[1] (تحرك في السماء نحو الأفق)، **مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى**[2] (ما حاد صاحبكم -محمد- عن الحق)، **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى**[3] (وما ينطق محمد بهذا القرآن عن هواه)، **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**[4]، **عَلَّمَهُ** (لمحمد) **شَدِيدُ الْقُوَى**[5] (جبريل)، **ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى**[6] (صاحب قوة استوى مرتفعا)، **وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى**[7]، **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى**[8] (اقترب جبريل وتدلى نحو محمد)، **فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**[9] (على مسافة ذراع أو ذراعين منه)، **فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى**[10] (فأبلغ جبريل إلى محمد ما أوحى الله إليه).

2- هذا مشهد تلقي الوحي؟ أخبرونا عما ترون في أصنامكم!

مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى[11] (لم يشك في حقيقة الذي رآه بقلبه). **أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى**[12] (أفتجادلونه في ذلك)؟، **وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى**[13] (رأى جبريل مرة أخرى)، **عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى**[14] (شجرة الأنوار في السماء العلا)، **عِنْدَهَا** (هناك حيث) **جَنَّةُ الْمَأْوَى**[15] (مآل المؤمنين)، **إِذْ يَغْشَى** (يغطي) **السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى**[16] (من الأنوار)، **مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى**[17] (ما انحرف بصر محمد ولا تجاوز حدوده)، **لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى**[18]. **أَفَرَأَيْتُمْ** (أخبرونا أنتم يا قريش عما ترون في) **اللَّاتَ وَالْعُزَّى**[19]، **وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى**[20]؟ (آلهتكم التي تعتبرونها بنات الله)! **أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى**[21] (تفضلون الذكور وتخصون الله بالإناث)، **تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى**[22] (غير عادلة)، (آلهتكم تلك) **إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ! إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ، وَلَقَدْ**

جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى[23] (مع أن الحق جاءهم مع القرآن). أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى[24] (هل تنال قريش ما تتمنى من شفاعة الأصنام؟ لا...) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (الدنيا)[25]. وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى[26]. إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى[27] (بينما الملائكة جمع ملك، وهو مذكر)، وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا[28].

3- ذلك مبلغهم من العلم، وسيعرفون الحقيقة يوم الجزاء...

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا[29]، ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى[30]. وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى[31]: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ (الكفر) وَالْفَوَاحِشَ (الزنا) إِلَّا اللَّمَمَ[(2)]، إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ. هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ، فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى[32].

4- لا تزر وازرة وزر أخرى... ليس للإنسان إلا ما سعى...

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى[33] وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى[34] [(3)] (ثم توقف عن العطاء)، أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى[35] [(4)]، أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى[36] وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى[37]: أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى[38] (لا أحد يَنوب عن أحد في تحمل

2- "قال المفسرون "اللمم ما دون الوطء: من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة". وفي البخاري ومسلم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله كتب على ابن آدم حظّه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة: فزنى العينين النظر وزنى اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدّق ذلك أو يكذّبه". والمعنى: "أن الفاحشة العظيمة والزنى التام الموجب للحدّ في الدنيا والعقوبة في الآخرة هو في الفرج، وغيرهُ له حظ من الإثم. (عن القرطبي).

3- ذُكر أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة من أجل أنه عاتبه بعض المشركين، وكان قد اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم على دينه، فضمن له الذي عاتبه إن هو أعطاه شيئا من ماله، ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الآخرة، ففعل، فأعطاه أياما ثم بخل وتوقف. وقيل: "نزلت في عثمان بن عفان كان يتصدق وينفق في الخير فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبي سرح: ما هذا الذي تصنع؟ يوشك أن لا يبقى لك شيئا. فقال عثمان: إن لي ذنوبا وخطايا، وإني أطلب بما أصنع رضا الله وأرجو عفوه. فقال له عبد الله: أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها، فأعطاه وأمسك عن بعض ما كان يصنع من الصدقة.

4 - أيعلم الغيب هذا الذي وعده صاحبه أن يتحمل عنه عذاب الآخرة، فصدقه ووثق به؟

مسؤولية فعله)، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى[39] وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى[40]، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى[41]، وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى[42]. وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى[43]، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا[44]، وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى[45] مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى[46]، وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى[47]. وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى[48] (أغنى الأغنياء ومنحهم أملاكهم وقنياتهم). وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى[49] (نجم كان يعبده بعض العرب في الجاهلية). وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى[50] (5) (قوم النبي هود)، وَثَمُودَ (قوم النبي صالح) فَمَا أَبْقَى[51]، وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى[52]، وَالْمُؤْتَفِكَةَ (قرى قوم لوط) أَهْوَى[53] (خسف بها الأرض)، فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى[54] (علاها ركام الهدم من حجارة وغيرها)! فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى[55] (ترتاب وتشك يا ابن آدم)؟ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى[56] (ورد في الصحف الأولى)، أَزِفَتِ الْآزِفَةُ[57] (اقتربت الساعة)، لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ[58] (الله وحده يعلم).

5- خاتمة: أفمن هذا الحديث تعجبون..؟

أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ (القرآن) تَعْجَبُونَ[59]، وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ[60]، وَأَنتُمْ سَامِدُونَ[61] (لاهون غافلون). فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا[62].

- تعليق

مما يتصل بموضوع هذه السورة ما يعرف بقصة "الغرانيق"(6) وذلك في سياق تعرضها لأصنام قريش، اللات والعزى ومناة، وهي أهم الأصنام عندهم، وكانوا يقولون إنها "بنات الله" وبالتالي يرجون شفاعتها. وقد أورد كثير من المؤرخين، وفي مقدمتهم الطبري في تاريخه وتفسيره وابن سعد في طبقاته، روايات عن هذه القصة تختلف في بعض ألفاظها ولكنها ذات مضمون واحد تقريبا. وفيما يلي الرواية التي ذكرها الطبري في تاريخه. تقول الرواية: "لما رأى رسول الله تولي قومه عنه، وشق عليه ما يرى من مباعدتهم ما جاءهم به من الله، تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه، وكان يسره -مع حبه قومه وحرصه عليهم- أن يلين له بعض ما قد غلظ عليه من أمرهم حتى حدَّث بذلك نفسه وتمناه وأحبه(7) فأنزل الله

---

5 - يميزون بين عاد الأولى التي أهلكت بريح صرصر وبين بقية منهم لم تهلك.

6- الغرانيق جمع غُرْنُوق، وهو طائر أبيض من طيور الماء؛ مثل الكراكي.

7- في ابن سعد: "رأى الرسول (ص) من قومه كفا عنه فتمنى ...

عز وجل سورة "والنجم إذ هوى"، فلما انتهى إلى قوله "أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى" ألقى الشيطان[8] على لسانه ما كان يُحَدِّث به نفسَه ويتمنَّى أن يأتي به قومَه فقال: "تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لتُرتَجَى" [9]. فلما سمعت ذلك قريش فرحوا وسرهم وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم فأصاخوا له ... فلما انتهى إلى السجدة منها وختم السورة سجد فيها، فسجد المسلمون ... وسجد من في المسجد من المشركين من قريش وغيرهم لِمَا سمعوا من ذكر آلهتهم ... ثم تفرق الناس من المسجد وخرجت قريش وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم يقولون: قد ذَكر محمد آلهتَنا بأحسن الذكر"[10].

ويقول المفسرون والمهتمون بأسباب النزول إنه نزلت بعد ذلك آيات في عتاب النبي عليه السلام على ما فعل، منها قوله تعالى: "وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا، وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا، إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (الإسراء 73-75). وبعضهم يقول إن الآية التي نزلت في الموضوع هي قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ. وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (الحج 52-53). لكن مؤرخين ومفسرين آخرين يشككون في هذه الروايات ويطعنون في رواتها. ونحن، من جانبنا، نرى أن قصة الغرانيق هذه مختلقة تماما. ذلك لأن سورة النجم لابد أن تكون قد نزلت قبل الهجرة إلى الحبشة، لأن هذه الهجرة إنما كانت بسبب اضطهاد قريش للمسلمين بعد أن أخذ النبي (ص) يتهجم على آلهتهم، هذا في حين أن القصة المذكورة مبنية على كون سورة النجم نزلت بعد الهجرة إلى الحبشة، وبالتالي فالمفروض أنها سبقتها سور فيها تعرض لآلهة قريش، وهذا ما لم يحدث، فالسور التي سبقتها -حسب ترتيب النزول- ليس فيها مثل هذا التعرض. فها هنا إذن تناقض داخلي في الرواية التي تتحدث عن الموضوع. وفضلا عن ذلك فإن سورة النجم وحدة متكاملة قوية اللهجة تنبئ عن موقف قوة وليس عن موقف

8- ومن هنا اسم رواية سليمان رشدي: "الآيات الشيطانية".

9- في رواية أخرى : "«تلك الغرانيق العُلَى، وشفاعتهن ترجى، مثلهن لا يُنسى»، وفي أخرى: "إن تلك الغرانيق العلى، منها الشفاعة ترتجى»، وفي أخرى "شفاعتهن ترتضى". الطبري تفسير آية 52 سورة الحج.

10- جاء في الرواية التي ذكرها ابن سعد أنهم قد "قالوا: قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده. وأما إذ جعلت لها نصيبا فنحن معك"!

ضعف. وحتى لو فرضنا أنه ورد معها القول بأن "شفاعتهم لترتجى"، فيمكن أن يحمل ذلك على أن هذا القول وصف لواقع حال، أي حكاية لمعتقدات قريش، مع تعجب واستهزاء! أما القول بأن مشركي مكة قد سجدوا مع النبي (ص) عندما بلغ موضع السجدة في قراءته للسورة، فإنه إن صح لا يدل بالضرورة على أنهم فعلوا ذلك استجابة للقرآن، فهم كانوا يسجدون لأصنامهم. على أن قضية سجود قريش فيها نظر! ذلك أن موضع السجدة يقع في خاتمة السورة أي بعد أن تعرضت إلى آلهتهم بالطعن والهجوم وبعد أن أنكرت شفاعتها وبعد أن أسهبت في النقد والتقريع لبعض رجال قريش، وكل ذلك لا يتفق مع القول إن قريشا سجدت مع النبي (ص).

أما المناسبة التي حيكت حولها هذه القصة، وهي رجوع بعض المسلمين من الحبشة بعد أن وصلهم خبر هذه القصة وما قيل من أن قريشا تصالحت مع الرسول بعد أن ذكر آلهتهم بخير واعترف لها بالشفاعة، فيمكن أن يكون لذلك – لرجوع بعض المسلمين من الحبشة– أسباب أخرى تلاقت مع سورة النجم إذ لا يعقل أن يعود المسلمون المهاجرون بعد شهرين فقط لمجرد سماعهم إشاعة تقول بحدوث مصالحة بين النبي (ص) وقريش، خصوصا وقد كانوا في الحبشة في وضع مريح. أما السبب الذي جعل فريقا من المهاجرين إلى الحبشة يعودون إلى مكة بعد شهرين فقط من هجرتهم فلا بد أن يكون شيئا أكبر من مجرد إشاعة بحدوث المصالحة بين محمد (ص) وقريش. ويمكن أن يكون السبب الفعلي في رجوعهم هو خوفهم على أنفسهم من الثورة التي كانت قد نشبت ضد النجاشي ملك الحبشة، ويمكن أن يكون السبب شيئا آخر.

أما ما ورد من روايات حول ارتباط الآيات أعلاه (الإسراء 73-75، الحج 52-53)، بهذه القصة فلا دليل عليه، خصوصا ورواة "أسباب النزول" يذكرون لها مناسبات متعددة.

23- سورة عبس

- تقديـــم

روي من جهات متعددة أن هذه السورة نزلت عتابا للرسول عليه السلام على موقفه من رجل أعمى جاء يطلب منه أن يُقرئه القرآن. أما الرجل فهو ابن أم كلثوم الأعمى، ابن خالة خديجة زوجته، جاء النبي في وقت كان مشغولا فيه بالحديث إلى أحد كبار قريش يحاول استمالته "فجعل رسول الله (ص) يعرض عنه (عن الأعمى) ويقبل على الآخر فيقول له : أترى بما أقول بأسا" ؟

وكما جرت عادة رواة أسباب النزل" في التماس سبب نزول لكل آية فقد أضيفت إلى الرواية المذكور رواية أخرى تقول إن قوله تعالى في هذه السورة: "قتل الإنسان ما أكفره" نزلت في عتبة بن أبي لهب حين قال : كفرت برب النجم. أما قوله "لِكُلِّ امرِيءٍ مِنهُم يَومَئذٍ شَأنٌ يُغنيهِ". فقيل إنه نزل عندما سألت عائشة النبي قائلة : "أنحشر عراة" قال: نعم. قالت: واسوأتاه"!

ومهما كان من أمر صحة هذه الروايات فهي، كسائر روايات أسباب النزول، تعكس في هذه المرحلة، جوانب من واقع الدعوة المحمدية، وعلاقتها بقريش. إنها علاقات تبدو سلمية في الغالب، إما علاقات حوار يحاول كل طرف فيه استمالة الطرف الآخر، وإما ردود أفعال "سلمية" من قبيل التعجب أو الاستفسار أو اتخاذ موقف مضاد ولكن دون عدوان في الغالب. هذا يعنى أنه لم يكن الصدام قد بدأ بعد، فالرسول لم يبدأ بعد في التعرض لأصنام قريش وما ورد في سورة النجم لا يرقى إلى مستوى الشجب والإبطال، خصوصا وقد ورد في سياق شرح ظاهرة النبوة وليس في سياق شجب الشرك. وما نريد إبرازه هو أن القرآن قد اقتصر، طوال هذه المرحلة الأولى من مسار التنزيل بارتباطها مع وقائع السيرة، على طرح قضيا العقيدة (النبوة والتوحيد والمعاد) طرحا مخففا من دون المس بالأصنام ولا انتقاد للشرك بالصورة التي تستثير قريش وتؤدي إلى القطيعة كما سيحدث لاحقا. ومع أن لهجة بعض السور السابقة كانت ترتفع لتمارس نقدا لاذعا، أحيانا ضمنيا وأحيانا صريحا، من خلال طرح تساؤلات كما في سورتي الرحمان والنجم، فإنه يمكن القول إجمالا إن الاستمرارية هي السائدة، بمعنى أنه لم تكن ثمة بعد قطيعة. وفي هذا الإطار تندرج السورة التي نحن ضيوف عليها الآن؛

1- تبدأ السورة بعتاب النبي (ص) عتابا جاء في صورة استفسار: انشغلت برجل من الأغنياء تريد استمالته، وما يضيرك أن لا يتطهر من كفره؟ أما من جاءك يطلب القرآن وهو يخشى الله فقد صرفته منشغلا بذلك الرجل الغني! لا تَعُد إلى فعل مثل ذلك؟ هذه تذكرة، فلتكن عبرة لك ولغيرك! إنها تذكرة مكتوبة بأيد ملائكة بررة في صحف مكرمة في السماء.

2- بعد هذا العتاب الموجه إلى النبي تتجه السورة إلى بيان حقيقة ذلك الرجل الغني المعتد بنفسه الذي لم يستجب للرسول: إنه مجرد بشر خلقه الله من نطفة ثم هيأ له سبيل الخروج من بطن أمه والعمل في الحياة حتى كبر فأعطاه أموالا وبنين، لكن نهايته ستكون: القبر. وهكذا سيبعث، وسجله خال مِما أوصى الله به من النفقة والإحسان إلى الفقراء الخ. ألا ينظر هذا الإنسان إلى سنة الله في الكون، إلى الكيفية التي أجرى بها ظواهر الطبيعة وشؤون الإنسان؟ لينظر مثلا إلى طعامه الذي يلتذ به! إنه لم يأته عفوا ولا من دون تخطيط وتدبير. لقد كان لابد من مطر ينزل من السماء، ولابد من شق الأرض وحِرثها، ولا بد من نباتات وأشجار تنتج غذاء للإنسان، وأيضا غذاء للأنعام التي منها يتغذى الإنسان وعليها يسافر للتجارة وغيرها.

3- غير أن جميع هذه المشاغل الدنيوية ستفقد كل قيمتها حين يأتي الإعلان بقيام القيامة. حينها سينصرف كل إنسان إلى نفسه وحدها لا يهتم بولده ولا بأبيه ... ولا بِمن كانوا له في الدنيا ندماء. سينقسم الناس حينئذ إلى صنفين: فريق وجوههم مشرقة، مستبشرة خيرا، وفريق وجوههم كالحة عابسة مظلمة، ومن هؤلاء ذلك الرجل الذي كنت تريد استمالته فأعرَض وفضل البقاء على كفره وفجوره.

- نص السورة

1- مقدمة: تعرض عن الفقير الأعمى.. وتنشغل بمن استغنى!

بسم الله الرحمن الرحيم

عبَسَ (الرسول) وتَوَلّى[1] (بسبب) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى[2] (يطلب معرفة الدين)! وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى[3] (يتطهر من ذنوب الكفر) (1) أَوْ يَذَّكَّرُ (يتعظ) فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى[4] ؟ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى[5] (صاحب الغنى والمال) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى[6]

1- لنلاحظ أن لفظ "مسلم" و "مؤمن" لم يستعملا بعد، فلا زال فعل "تزكى" يقوم مقامهما.

(تستقبله وتنصت إليه)! وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى[7] (ماذا عليك إن لم يسلم، إنما عليك البلاغ)؟ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى[8] وَهُوَ يَخْشَى[9] فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى[10] (تتشاغل)؟!

2- هذا الذي تريد استمالته معاند كافر، لا يرى نعم الله عليه!

كَلَّا (لا تعد إلى مثل هذا السلوك) إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ[11]: فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ[12]؛ (وقد سبق التنبيه إلى مثل هذه الأمور) فِي صُحُفٍ (رسالات سماوية) مُكَرَّمَةٍ[13] مَرْفُوعَةٍ -مُطَهَّرَةٍ[14]- بِأَيْدِي سَفَرَةٍ[15] كِرَامٍ بَرَرَةٍ[16] (ملائكة تنقل الوحي إلى الرسل). قُتِلَ الْإِنْسَانُ (هذا الذي تريد استمالته) مَا أَكْفَرَهُ[17] (ما أشد عناده وكفره)! مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ[18] (الله)؟ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ[19] ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ[20] ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ[21] ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ[22] (أحياه بعد موته). كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ[23] (لم يقم في حياته بما أمره الله، من ترك الشرك وعبادة الأصنام! وهو لا يؤمن بالبعث مع أن أطوار الحياة تقتضيه، وللتأكد من ذلك) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ[24] (كيف مر بأطوار): أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا[25] (أنزلنا المطر)، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا[26] (لتخرج البذور)، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا[27] وَعِنَبًا وَقَضْبًا[28] (وأغصانا) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا[29] وَحَدَائِقَ غُلْبًا[30] (كثيرة الأشجار) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا[31] (وكلأ)، مَتَاعًا (منفعة) لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ[32] (والبقية مفهومة: ثم موت يليه خلق جديد: تخرجون من القبر كالنبات تخرج بذوره من الأرض، ثم تتجهون إلى الحساب).

3- خاتمة: سيندم عندما تقوم الساعة ويكون الجزاء ...

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ[33] (صيحة القيامة)، يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ[34] وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ[35] وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ[36]، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ[37] (يشغله عن غيره: جواب إذا). وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ[38] (مشرقة) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ[39]، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ[40] (غبار)، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ[41] (تغشاها ظلمة). أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ[42].

- تعليق

موضوع السورة يخص ليس الدعوة بالذات بل ما يمكن التعبير عنه بأخلاقية الدعوة. الرسول مكلف بالتبليغ للناس جميعا وبالتي هي أحسن. والدعوة تدعو إلى العدل والمساواة، فعلى المكلف بها أن يطبق العدل والمساواة مع جميع الناس عند ممارستها. فلا تفضيل للغني على الفقير. نعم قد يكون وزن الغني إذا أسلم أكبر من وزن الفقير، ولكن مبدأ المساواة يقتضي التعامل مع الناس بدون تمييز. خصوصا ولا

أحد يعلم هل سيلبي الغني الدعوة أم سيرفض وماذا سيكون منه من بعد، خصوصا ومن مبادئ الدعوة إنصاف الفقراء، لأن لهم في أموال الأغنياء حقوق. ذلك لأن أموالهم لم يصنعوها من لا شيء، لم يهيئوا لها الأسباب بل الله هو الذي فعل ذلك. وكمثال على هذا وجود الإنسان ذاته: فقد خلقه من نطفة ثم دبر أمره عبر أطوار حياته الخ، ويسر له السبل... ولكن ما ينساه الإنسان هو أن هناك نهاية هي الموت، وأن بعد هذه النهاية بعث وحساب وعقاب.

وهكذا فمن خلال هذا المثل تعرض السورة لأركان العقيدة : 1) النبوة بالحرص على ربطها بالعدل والمساواة، أي المسألة الاجتماعية، وذلك بطرح ظاهرة الغنى وما عليه تقوم من أسباب. 2) التوحيد ببيان أن أسباب الغنى هي من الله فهو الخالق وهو المدبر عبر سلسلة الأسباب. 3) بعد ذلك تستحضر السورة مسألة المعاد كخاتمة.

وهكذا يتبين كيف أن السورة تشكل وحدة نصية: فالعتاب ليس من أجل العتاب بل من أجل التأسيس للعقيدة: شجب الاستغناء والاستعلاء، الاهتمام بالمستضعفين. الله هو الذي هيأ الأسباب للغنى، تماما كما أجرى نظام الطبيعة لفائدة الإنسان (المطر، النبات ...)، وأخيرا البعث والحساب: إما السعادة (الجنة) وإما الشقاء (النار).

24- سورة الشمس

- تقديـــم

مباشرة بعد الدرس الذي أعطته سورة عبس من خلال نمطين من البشر: رجل استغنى ولم يستجب للدعوة، ورجل جاء يسعى إليها، تأتي سورة الشمس لتؤكد هذا الانقسام في الطبيعة نفسها: ضياء النهار وظلمة الليل، وارتفاع السماء وانخفاض الأرض، والنفس الفاجرة، والنفس التقية، والسعادة لمن طهرها، والشقاء لمن تركها على هواها. كان الانتقال في سورة عبس من ذات الإنسان (خلقه ومساره) إلى عالمه الخارجي المباشر (غذائه ومسار تكونه ونضجه)، أما هنا، مع سورة التكوير، فالانتقال سيكون من نظام الطبيعة وثنائيته إلى سير التاريخ ومعارجه. وهكذا، فكما أن الطبيعة نهار وليل الخ، فكذلك صيرورة التاريخ: أنبياء وأقوام مكذبون : قوم ثمود طغوا فجاءهم النبي صالح يريد هدايتهم فطلبوا منه آية (علامة، معجز) فقال لهم هذه الناقة التي منها تغتذون اقتسموا معها الماء: يوم لكم ويوم لها وستعطيكم ما يكفيكم من الحليب، فكذبوه، وجاء أشقى رجل فيهم فعقرها برضاهم، فكان العقاب أن أهلكهم الله جميعا، ولا لوم في ذاك على نبيهم صالح، وإنما هو جزاء على ما اقترفوا من ذنوب (سترد تفاصيل القصة في سور أخرى)

- نص السورة

1- القسم بنظام الطبيعة...

بسم الله الرحمن الرحم

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا[1]، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا[2]، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا[3] (أظهر الشمس) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا[4] (سترها) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا[5] (وبنائها ورفْعِها) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا[6] (وبسطِها)، وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا[7] (وتسوية طبعها وخلْقِها) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا[8]، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا[9] (سعد من طهرها) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا[10] (أهملها وتركها على هواها).

2- ثمود: نظام التاريخ المقدس

كَذَّبَتْ ثَمُودُ (الرسل) بِطَغْوَاهَا[11] (بطغيانها، جواب القسم)، إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا[12] (ليعقر الناقة)، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ (صالح هذه) نَاقَةَ اللَّهِ [(1)] وَسُقْيَاهَا[13] (ذروها وموردها، يوم لكم ويوم لها، تعطيكم فيه الحليب بدل الماء)، فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ (أهلكهم) بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا[14] (سوى الدمدمة فيهم فهلكوا جميعا)، وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا[15] (تلك عاقبة تكذيبهم رسولهم، ولا لوم على صالح فقد أنذرهم).

- تعليق

هذه أول سورة (حسب ترتيب النزول) ذكرت فيها فصول من وقائع القصص القرآني. ففي هذه السورة نجد بعض التفاصيل عن قصة ثـمود في سياق يستعيد نفس القضايا التي أبرزناها في سورةُ الفجر (رقم 7) : جشع الإنسان، البعث والحساب؟ ومع أن المؤلفين في أسباب النزول وكذلك المفسرون لا يذكرون مرويات حول هذه السورة فإن في مرويات أخرى ما يلقي بعض الضوء على ظروف نزولها. فقد روي أن النبي (ص) سئل عن المقصود بـ "أشقاها" في قوله تعالى في هذه السورة "إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاها" فأجاب عليه السلام : "انْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عارِمٌ، مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ، مِثْلُ أبِي زَمْعَةَ". وفي رواية ذكرها الطبري أن عظماء المستهزئين بالنبي (ص) كانوا خمسة نَفَر من قومِه، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم يأتي على رأسهم الأسود بن المطلب أبو زَمْعة من بني أسد بن عبد العُزّي بن قُصَيّ، "وكان رسول الله صلى الله عليه وسلّم فيما بلغني -يقول الطبري- "قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه، فقال: "اللهمّ أعم بصره، وأثْكِلْهُ وَلَدَهُ". إذن يمكن القول إن سورة الشمس لها علاقة بواحد من كبار قريش هو المذكور قبل، تماما مثلما أن السورة التي قبلها لها علاقة، ليس فقط بالأعمى ابن أم كلثوم، بل أيضا وفي الدرجة الأولى بعضو آخر من كبار قريش هو عُتبة بن أبي لهب، الذي كان النبي يحاول استمالته. وإذن فالسورتان متصلتان مضمونا وسياقا.

وهكذا فبعد أن نزعت سورة النجم من الأصنام أي قدرة على الشفاعة لمن يعبدها تمهيدا لشجبب الشرك الذي يمارس من خلالها، وبعد العتاب الذي وجهه

1- سترد قصة هذه الناقة مفصلة في سورة أخرى، مع بيان مناسبة تسميتها بهذا الاسم. انظر أيضا التعريف بالقرآن: قسم القصص. المرحلة الثانية. فقرة 3-ب

الخطاب الإلهي إلى الرسول عليه السلام بسبب طمعه في استمالة أحد أغنياء قريش على حساب الاستجابة الفورية لأحد الفقراء، وبعد التذكير بالبعث و الحساب والجزاء الخ، تأتي سورة الشمس لتتعرض ضمنيا لأحد كبار قريش الذين مارسوا الطغيان على الرسول وصحبه مشبهة إياه بطغاة قوم ثمود، لافتة نظر تجار قريش إلى مساكن هؤلاء القوم –المهدمة– والتي يمرون عليها في أسفارها إلى الشام. وقصة هؤلاء القوم هي من قصص "أهل القرى" التي افتتح الله بها قصص القرآن، وهي غير موجودة لا في التوراة ولا في الإنجيل، ولكن العرب يتناقلونها جيلا بعد جيل، فهي أقرب من غيرها إلى موروثهم الحاضر في مخيالهم التاريخي الشعبي. وثمود هم سكان مدينة الحجر[2]، وقد سميت بها سورة في القرآن كما سنرى لاحقا.

2- انظر معلومات معاصرة حول مدينة الحجر في: التعريف بالقرآن . القصص المكي. المرحلة الأولى. هامش رقم 2

25- البروج

- تقديـــم

ومن قصة قوم ثمود الذين حدثتنا عنهم سورة الشمس باقتضاب، تنتقل بنا السورة التالية لها (سورة البروج) من شمال الجزيرة إلى جنوبها، من قصة "ناقة الله" إلى قصة "أصحاب الأخدود". وقد وردت قصة هؤلاء في كتب التفسير بصيغ مختلفة. وأقرب رواية إلى ظروف نزول هذه السورة، وإلى ما ذكرناه في السورتين السابقتين، رواية أوردها الطبري منسوبة إلى النبي (ص)، سنوردها في "التعليق" أسفله، لما تحمله من مغزى.

بدأت السورة بمقدمة مناسبة للقصة: القسم بالسماء ذات البروج وهي تبدو للناظر وكأن فيها حفرا وأخاديد، وبيوم القيامة حيث يشهد الشهود (من الناس أو الملائكة) على المشهود عليهم، مؤمنين ومشركين، فيختلف وضع الناس في ذلك المشهد كما يختلف مشهد السماء ببروجها وأخاديدها. ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى هدفها لتقرر أن من يفتن المؤمنين اليوم (كفار قريش) سيكون مصيرهم كمن فتنوا المؤمنين بالأمس: جهنم. أما المؤمنون اليوم (المسلمون) فمصيرهم الجنة كالمؤمنين بالأمس (نصارى اليمن). وكما هو واضح فالقرآن يسوي هنا بين المؤمنين بالنصرانية وبين المؤمنين بالإسلام، باعتبار أنهم جميعا يؤمنون بالله. وقد سبق من قبل التأكيد على أن ما يقرره القرآن موجود في صحف إبراهيم وموسى. وتأتي الخاتمة لتؤكد للمكذبين بأن هذا الذي قصه القرآن قصة يعرفونها، وليست مما يستطيعون تكذيبه.

- نص السورة

1- مقدمة: قسم مناسب للمشهد...

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ[1] (منازل مرتفعة عالية في السماء، وهي اثنا عشر برجا حسب علم الفلك القديم)، وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ[2] (يوم القيامة، الموعود للفصل،

للجزاء ثوابا وعقابا)، وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ[3] (شاهد يشهد على ما فعل الناس ومشهود يسمع حسابه!).

2- يحرقون المؤمنين ويتفرجون ...

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ[4] (لعنوا، لقد حفروا حفرة : جواب القسم) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ[5] (أشعلوا فيها النار)، إِذْ هُمْ (بجانبها) عَلَيْهَا قُعُودٌ[6] وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ(1) شُهُودٌ[7] (وأخذوا يلقون فيها المؤمنين ويتفرجون)، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ[8] الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَاللَّهُ عَلَى كل شَيْءٍ شَهِيدٌ[9].

3- بطش ربك شديد لمن بقي على عناده .. وإلا فهو الغفور الودود

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ[10] (2). إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ[11]. إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ[12] (انتقام ربك يا محمد من قريش سيكون شديدا)، إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ[13] (سيعيد عليهم ما بدأه مع أصحاب الأخدود)، وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ[14]، (لمن تزكى منهم)، ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ[15]، فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ[16].

4- خاتمة: أقوام الرسل كذبوا، وقريش تكذب القرآن! إنه محفوظ.

هَلْ (قد) أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ[17] (الذين تجندوا لمحاربة رسل الله)، فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ[18]. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ[19] وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ[20] (الكفار في الحاضر كما في الماضي يكذبون أنبياءهم، وعلم الله محيط بما يقولون). بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ[21] فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ[22] (وهذا رد مباشر على قريش التي كذبت برسالة محمد : فالقرآن الذي يكذبون به هو عالي المنزلة وهو مصان ومكنون في اللوح المحفوظ من طرف الملائكة في السماء).

1- هنا بدأ استعمال لفظ "المؤمنين" مع الفعل "يؤمنوا" وكانت المرة الأولى التي استعمل فيها هذا الفعل -حسب ترتيب النزول- في سورة "العصر" (إلا الذين آمنوا).

2- هذا تنبيه لقريش إلى أنهم إذا أخذوا يفتنون المؤمنين فسيكون مصيرهم هو نفس المصير الذي لقيه أمثالهم في الماضي والذين لم يعد في إمكانهم الاستفادة من التوبة بعد أن ماتوا على كفرهم. وإذن فبإمكان قريش أن يتجنبوا نفس المصير إذا هم تابوا الآن قبل أن يفوت الأوان. وإذا هم استجابوا وتابوا الآن فإن الله سيقبل منهم : فهو الغفور الودود.

- تعليق

إن أحسن صياغة لمضمون قصة "أصحاب الأخدود" الصياغة التالية التي رواها الطبري في تفسيره منسوبة إلى النبي عليه السلام، وقد جاء فيها قوله عليه السلام : "كانَ فِيمَنْ كانَ قَبْلَكُمْ مَلِكٌ وكانَ لَهُ ساحِرٌ، فأَتى السَّاحِرُ المَلِكَ، فَقالَ: قَدْ كَبِرَتْ سِنِّي، وَدَنا أَجَلِي، فادْفَعْ لي غُلاما أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ. فَدَفَعَ إِلَيْهِ غُلاما يُعَلِّمَهُ السِّحْرَ، فَكانَ الغُلامُ يَخْتَلِفُ إلى السَّاحِرِ، وكانَ بَينَ السَّاحِرِ وَبَينَ المَلِكِ رَاهِبٌ، فَكانَ الغُلامُ إِذَا مَرَّ بالرَّاهِبِ قَعَدَ إليْهِ، فَسَمِعَ مِنْ كَلامِهِ، فأُعْجِبَ بِكَلامِهِ فَكان الغُلامُ إذَا أَتى السَّاحِرُ ضَرَبَهُ وَقالَ: ما حَبَسَكَ؟ وَإِذَا أَتى أَهْلَه قَعَدَ عِنْدَ الرَّاهِبِ يَسْمَعُ كَلامَهُ، فإِذَا رَجَعَ إلى أَهْلِهِ ضَرَبُوهُ وَقالُوا: ما حَبَسَكَ؟ فَشَكا ذلك إلى الرَّاهِبِ، فَقالَ لَهُ الرَّاهِبُ: إِذَا قالَ لكَ السَّاحِر: ما حَبَسَكَ؟ قُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا قالَ أَهْلُكَ: ما حَبَسَكَ؟ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَما هُو كَذلكَ إِذْ مَرَّ في طَرِيقٍ، وَإِذَا دَابَّةٌ عَظِيمَةٌ فِي الطَّرِيق قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ لا تَدَعْهُمْ يَجُوزُونَ! فَقالَ الغُلامُ: الآنَ أَعْلَمُ: (هل) أَمْرُ السَّاحِرِ أَرْضَى عِنْدَ اللّهِ أَمْ أَمْرُ الرَّاهِبِ؟ فأَخَذَ حَجَرا، وَقالَ: اللَّهُمَّ إنْ كانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَاحِرِ فإِنِّي أَرْمِي بِحَجَرِي هَذَا فَيَقْتُلُهَا (الدابة) ويَمُرُّ النَّاسُ. فَرَماها فَقَتَلَها، وَجازَ النَّاسُ فَبَلَغَ ذلكَ الرَّاهِبَ. وأَتاهُ الغُلام فَقالَ الرَّاهِبُ للْغُلامِ: إِنَكَ خَيْرٌ مِنِي، وَإن ابْتُلِيتَ فَلا تَدُلَّنَّ عَلَيَّ. وكانَ الغُلامُ، يُبْرِىءِ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ، وَسائِرَ الأَدْوَاءِ. وكان للْمَلِكِ جَلِيسٌ فَعَمِيَ، فَقِيل له: إنَّ هاهُنا غُلاما يُبْرِىءُ الأَكمَهَ والأَبْرَص وَسائِرَ الأَدْوَاءِ، فَلَوْ أَتَيْتَهُ؟ فاتَخَذَ لَهُ هَدَايا ثُمَّ أَتاهُ فَقالَ : يا غُلامُ إنْ أَبْرَأتَنِي فَهذِه الهَدَايا كلُّها لَكَ، فَقال: ما أَنا بِطَبِيب يَشْفِيكَ، وَلَكِنَّ اللّهَ يَشْفِي، فإِذَا آمَنْتَ دَعَوْتُ اللّهَ أَنْ يَشْفِيَكَ، فَآمَنَ الأَعْمَى، فَدَعا (الغُلام) اللّهَ فَشَفاهُ. فَقَعَدَ الأَعْمَى إلى المَلِكِ كمَا كانَ يَقْعُدُ، فَقالَ لَهُ المَلِكُ: أَلَيْسَ كُنْتَ أَعْمَى؟ قالَ: نَعَمْ قالَ: فَمَنْ شَفاكَ؟ قالَ: رَبِّي قالَ: ولَكَ رَبٌّ غَيرِي؟ قالَ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللّهُ. فأَخَذَهُ بالْعَذَاب وَقالَ: لَتَدُلّنّنِي عَلى مَنْ عَلّمَكَ هَذا، فَدَلَّ عَلى الغُلام، فَدَعا الغُلامَ، فَقالَ له: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبى الغُلامُ فأَخَذَهُ بالعَذَاب فَدَلَّ عَلى الرَّاهِب، فأَخَذَ الرَّاهِبَ، فَقالَ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبى. فَوَضَعَ المِنْشارَ عَلى هامَتِهِ فَشَقَّهُ حتى بَلَغَ الأَرْضَ، وأَخَذَ الأَعْمَى فَقالَ: لَترْجِعَنَّ أَوْ لأَقْتُلَنّكَ فأَبى الأَعْمَى، فَوَضَعَ المِنْشارَ عَلى هامَتِهِ، فَشَقَّهُ حتى بَلَغَ الأَرْضَ. ثُمَّ قالَ للغُلامِ: لَترْجِعَنَّ أَوْ لأَقْتُلَنَّكَ فَأَبى. فقال (لجنده): اذْهَبُوا بِهِ حتى تَبْلُغُوا بهِ ذِرْوَةَ الجَبَلِ، فإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلاّ فَدَهْدِهُوهُ (دحرجوه مع الجبل). فَلَمَّا بَلَغُوا به ذِرْوَةَ الجَبَلِ فوقَعُوا فَمَاتوا كُلُّهُمْ. وَجاءَ الغُلامُ يَتَلَمَّسُ حتى دَخَلَ عَلى المَلِكِ، فَقالَ: أَيْنَ أَصحَابُكَ؟ قالَ: كَفانِيهُمُ اللّهُ. قالَ: فاذْهَبُوا بِهِ فاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُور (سفينة عظيمة)، فَتَوَسَّطُوا بِهِ البَحْرَ، فإِنْ رَجعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاّ فَغَرِّقُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ، فَلَمَّا تَوَسَّطُوا بِهِ البَحْرَ قالَ الغُلامُ: اللّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ، فانْكَفأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ. وَجاءَ الغُلامُ=

يتَلَمَّسُ حتى دَخَلَ على المَلِكِ فقالَ المَلِكُ: أينَ أصحابُكَ؟ فقال: دَعَوْتُ اللّهَ فَكفانِيهِمْ، قال: لأَقْتُلَنَّكَ، قال: ما أنتَ بقاتِلي حتى تَصْنَعَ ما آمُرُكَ : اجْمَعِ النّاسَ فِي صَعِيدٍ واحِدٍ، ثُمَّ اصْلُبْنِي، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنانَتي فارْمِني وقُلْ: باسْمِ رَبِّ الغُلامِ، فإنَّكَ سَتَقْتُلُنِي. قال: فَجَمَعَ النّاسَ فِي صَعِيدٍ واحِدٍ قال: وَصَلَبَهُ وأخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنانَتِهِ، فَوَضَعَهُ فِي كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ رَمى، فقال: باسْمِ رَبِّ الغُلامِ، فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِ الغُلامِ، فَوَضَعَ يَدَهُ هَكَذا عَلى صُدْغِهِ، وَماتَ الغُلامُ. فَقالَ النّاسُ: آمَنّا بِرَبِّ الغُلامِ! فَقالوا لِلْمَلِكِ: ما صَنَعْتَ؟ الّذِي كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَقَعَ، قَدْ آمَنَ النّاسُ. فأمَرَ بِأفْوَاهِ السِّكَكِ (حديد المحراث) فأُخِذَتْ، وخَدَّ الأُخْدُودَ وضَرَّمَ فِيهِ النِّيرَانَ، وأخَذَهُمْ وَقالَ: إنْ رَجَعُوا وَإلاّ فألْقُوهُمْ فِي النّارِ، فَكانُوا يُلْقُونَهُمْ فِي النّارِ، فَجاءَتِ امْرأةٌ مَعَها صَبِيٌّ لَهَا. فَلَمّا ذَهَبَتْ تَقْتَحِمُ وَجَدَتْ حَرَّ النّارِ، فَنَكَصَتْ، فَقالَ لَهَا صَبِيُّها يا أُمّاهُ، امْضِي فإنَّكِ عَلى الحَقِّ، فاقْتَحَمَتْ فِي النّارِ».

26- سورة التيــن

- تقديــم

يتوقف فهم معاني هذه السورة والقصد منها على فهم العلاقة بين العناصر الأربعة التي وقع القسم بها في مستهلها: التين، الزيتون، طور سينين، والبلد الأمين.

والإشكال الذي يطرح نفسه على مستوى القسم بهذه العناصر ذو شقين: أحدهما معنى "التين والزيتون"، والثاني علاقتهما بالعنصرين الآخرين (طور سنين، والبلد الأمين). أما طور سينين (أي جبل سينين أو سيناء) فمعروف. إنه الجبل الذي كلم الله فيه موسى في جزيرة سينا. و"البلد الأمين" معروف كذلك وهو مكة المكرمة. كل ذلك معروف على مستوى معهود العرب زمن نزول هذه السورة. وكما قلنا، وكررنا القول، فالقرآن لا يخاطب العرب، ولا يعقل أن يخاطبهم، إلا بما يفهمون، أي بما يقع على مستوى معهودهم.

يبقى "التين والزيتون" وهما معروفان لدى العرب على مستوى المعنى اللغوي: التين: ثَمر معروف، والزيتون ثَمر معروف كذلك. لكن الذي ليس معروفا هو العلاقة بينهما وبين "طور سنين والبلد الأمين".

ذهب المفسرون في هذه المسألة مذاهب شتى، وأقرب الأقوال إلى سياق السورة قول القائل :"التين هو الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس". وأبيــن منه ما ذُكر من أن الأمر يتعلق بجبلين من الأرض المقدسة، "يقال لهما بالسريانية طور تيناً، وطور زيتاً، لأنهما منبتا التين والزيتون؛ فكأنه تعالى أقسم بمنابت الأنبياء: فجبل التين بفلسطين وهو لعيسى عليه السلام. وجبل الزيتون وهو بالشام مبعث أكثر أنبياء بني إسرائيل[1]. وطور سنين (سيناء) مبعث موسى عليه السلام، و"البلد الأمين" (مكة) مبعث محمد صلى الله عليه وسلم". وإذن فعناصر القسم رموز للأنبياء الأربعة إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، وأيضا تأكيد لوحدة رسالاتهم.

1- قال في معجم البلدان : "طُورُ زَيتَا علم مرتجل لجبل بقرب رأس عين عند قنطرة الخابور على رأسه شجر زَيتون عذري يسقيه المطر ولذلك سُمّي طور زيتا.

- نص السورة

1- أقسم بمواطن الأنبياء أن البعث والجزاء حق ...

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ[1]، وَطُورِ سِينِينَ[2]، وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ[3]، لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ[4] (جواب القسم: خلقنا الإنسان في أحسن صورة)، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ[5] (جعلنا مصيره جهنم، باستثناء الذين آمنوا) [(2)]، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ[6] (غير مقطوع).

2- فما الذي يحمل الإنسان بعد هذا على التكذيب بهما؟

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ[7] (بالحساب: والثواب والعقاب)؟ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ"[8]! (يجازي الإنسان يوم القيامة حسب عمله).

- تعليق

بهذه السورة تنتهي المجموعة الأولى من السور القصار التي يبتدئ الخطاب فيها بالقسم بالأشياء الطبيعية كمقدمة عامة تقرر الأساس العقدي الذي ينبني عليه موضوع السورة. وكما أبرزنا في السور السابقة فإن فهم بنية القسَم، تتوقف على استحضار العلاقات التي تربط بين عناصره، خاصة بين القسم وجوابه، بين المقدمة العامة التي يعبر عنها القسم بهذه الصيغة أو تلك، وبين مضمون جوابه. إنه بدون الربط بين القسم وجوابه لا يمكن فهم القصد من الخطاب الذي يعبر عنهما، سواء كان هذا الخطاب سورة كاملة أو جزءا منها.

اختلف المفسرون في المقصود من قوله تعالى " ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ"، بعضهم قال: المقصود : "أرذل العمر"، وآخرون قالوا المقصود : "جهنم". وفي كلتا الحالتين يبقى الاستثناء في قوله "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون" يحتاج إلى توضيح. فعلى القول الأول : يطرح السؤال : ألا ينتهي "الذين آمنوا" الخ هم أيضا إلى أرذل العمر؟ أما على القول الثاني فإذا كان "الذين آمنوا" يردون هم أيضا إلى "أرذل العمر" فما معنى تخصيصهم بـ،"أجر غير ممنون" ؟

2 - نظيره قوله تعالى: "وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ" (انظر قبله: سورة العصر رقم 10).

ونحن نرى أن هذه الإشكالات لا تطرح إلا إذا فهم لفظ "الإنسان" في السورة على أنه نوع الإنسان. أما إذ خصصناه بشخص بعينه كما هو الحال في سورة الشمس وسورة عبس فإن اللبس سيزول. والواقع أن ظروف نزول هذه المجموعة من السور التي تبدأ بأول ما نزل وهي سورة العلق، ظروف واحدة، والمخاطب فيها واحد بعينه: إما النبي عليه السلام لتسليته وتثبيت فؤاده إزاء استهزاء مشركي قريش ... وإما للرد على هؤلاء كجماعة أو كأفراد أو لإمتداح المؤمنين الذي دخلوا في الإسلام وتعرضوا لما يستلزم تسليتهم. والغالب ما يقع التلميح في كل سورة إلى شخص معين من هؤلاء وأولئك بدون ذكر اسمه. علينا إذن أن نوجه تفكيرنا هنا إلى أحد رجالات قريش ممن يمكن أن ينطبق عليهم مضمون السورة. وفي هذا الإطار يخطر بالبال الوليد بن المغيرة أحد كبار زعماء قريش الذي نزلت فيه آيات عديدة (دون أن تذكر اسمه) والذي ورد اسمه في قائمة من سجد بعد قراءة الرسول لسورة النجم، وقد قيل عنه إنه لم يستطع السجود لأنه كان شيخا كبيرا "فرفع ترابا إلى جبهته فسجد عليه". فهذا الرجل تنطبق عليه الآيات التي نحن بصددها: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ" بمعنى أرذل العمر. ولكي لا يلتبس الأمر على الناس فيحملون لفظ "الإنسان" على النوع الإنساني، مؤمنين وكافرين، ولفظ "رددناه أسفل سافلين" على جهنم، جاء الاستثناء ليبين أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات قبل شيخوختهم وأثناءها "لهم أجر" وهذا الأجر "غير ممنون" أي غير مقطوع بسبب الدخول في حالة "أرذل العمر" التي يفقد الإنسان فيها تماسكه العقلي ويصبح غير مكلف لأن تمام الصحة العقلية شرط في التكليف. وبما أن الوليد بن المغيرة، أو من هو في مثل حاله، لا يدخل في "الذين آمنوا وعملوا الصالحات" فهو لا يدخل في الاستثناء، وبالتالي لا إشكال في صرف معنى "أسفل سافلين" إلى جهنم.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى أثار المفسرون مسألة المقسم به في أقسام القرآن، من زاوية أن المقسم به يجب أن يكون شريفا يستحق القسم به، وظهرت آراء تتساءل كيف يقسم الله بمخلوقاته، ومنها ما هو خال من أي شرف يؤهله لذلك، مثل التين والزيتون والليل والنجوم والأفراس الخ؟

والواقع أن الداعي إلى مثل هذا السؤال هو الوقوف عند الألفاظ وحدها، ذلك أن السياق يوضح أن القسم ليس بهذه الأشياء منعزلة، بل هو قسم بالنظام الذي ينظم هذه الأشياء، والذي هو مظهر من مظاهر نظام الكون كله. والغالب ما يكون الغرض من القسم إبراز كيف أن ترابط الظواهر الكونية وتسلسلها عبر مراحل وأطوار تنطلق من بداية السلسلة (الخلق) لتنتهي إلى آخرها المحتوم (الفناء)، هو - أعني الغرض من القسم- إثبات إمكانية إيجاد هذه الأشياء من جديد، والغرض العام

الذي يقف وراء ذلك هو البرهنة بالمماثلة على أن أطوار حياة الإنسان مماثلة لأطوار الظواهر الكونية كلها: خلق من نطفة في أحسن صورة: وهل هناك ما هو أجمل وأطهر من صورة الصبي؟ ثم بعدها يأتي الشباب ثم الكهولة ثم الشيخوخة ثم أرذل العمر، ثم موت فبعث فعقاب أو ثواب ينتهيان بالخلود في الجنة أو في النار. تلك هي سنة رب العالمين أي القانون العام الذي أجرى عليه العوالم كلها: عالم الطبيعة الجامدة وعالم النبات والحيوان وعالم الإنسان... يبقى السؤال: لماذا هذه الأطوار، وخصوصا بالنسبة للإنسان؟ والبحث في هذا السؤال موضوعه تفصيل القول في المآل... ولم يحن وقته بعد.

27- سورة قريش

- تقديـــم

هذه هي المرة الوحيدة التي ذكر فيها القرآن "قريش" بالاسم، فما معنى قريش؟ في لسان العرب: "القَرْشُ: الـجمع والكسبُ والضم من ههنا وههنا، يُضَم بعضُه إلـى بعض... ومنه: قُرَيْشٌ، لتَجَمُّعِهِم إلى الحَرَم، أو لأنهم كانوا يَتَقَرَّشونَ البياعاتِ، فَيَشْتَرونَها". وفي معجم البلدان: "وقيل: سمّيت قريش قريشاً لتقرّشها إلى مكة من حواليها. وقيل سمّيت قريش لأنهم كانوا أصحاب تجارة ولم يكونوا أصحاب زرع ولا ضرع".

عنصران اثنان تتحدد بهما قريش:

- أولهما: الإقامة في مكة وهي قلب الحَرَم. وتمنَع التقاليد العربية منذ القدم الإغارة عليها أو الحرب داخلها أو القيام فيها بأي نوع من أنواع الظلم والجور؛ ومن هنا اسم "البلد الأمين" الذي أطلقه عليها القرآن في السورة السابقة(1). وقد ورد اسمها في القرآن المكي باسم "أم القرى" وهو من أسمائها، وذلك في قوله تعالى: "وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا" (الأنعام 92). أما في القرآن المدني فقد وردت مرتين: مرة باسمها الشائع "مكة" : يقول تعالى: "وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ" (الفتح 24)، ومرة باسم "بكة" في قوله تعالى: "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي

1- مما عزز الأمن والأمان في مكة إحلف الفضول الذي حضره النبي عليه السلام وكان شابا، وسببه أن أحد التجار اليمنيين قدم ذات مرة إلى مكة وباع سلعة إلى العاصي بن وائل، زعيم بنى سهم، فأبطأ هذا الأخير في دفع الثمن إليه وماطله كثيرا حتى يئس، فجاء اليمني إلى مكة وعرض ظلامته على رجال قريش، فوقف إلى جانبه بنو هاشم (وهاشم زوجته من بني النجار من يثرب وهم من اليمن) ومعهم بنو المطلب وبنو زهرة وبنو تيم وبنو الحارث بن فهر الذين عقدوا إثر ذلك حلفا بينهم : "تعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، فسمت قريش ذلك الحلف : "حلف الفضول". وكان هذا الحلف نوعا من تطوير لحلف سابق سمي بحلف المطيبين. انظر كتابنا: العقل السياسي العربي. الفصل الثاني. ف 1

بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ"، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا" (آل عمران 96-97).

– وثاني العنصرين اللذين تتحدد بهما قريش هو التجارة. فعلا، كان أهل مكة "أصحاب تجارة ولم يكونوا أصحاب زرع ولا ضرع". وهذا واضح من استعمال الخطاب القرآني لعبارات ومفردات من عالم التجارة والمال. ففي القرآن المكي نقرأ قوله تعالى: "فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ (من القرآن) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا" (المزمل 20). وقوله: "إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ"" (فاطر 29). وقد استمر القرآن المدني في توظيف المفردات التجارية مثل قوله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ: تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (الصف 10-11).

إن اعتبار لغة الخطاب، من هذا المنظور، يرفع كثيرا من التأويلات والشكوك التي شغلت المفسرين في محاولتهم تفسير الآيات الأربع التي تتألف منها سورة قريش.

– نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ[1]، إِيلَافِهِمْ (اعتيادهم) رِحْلَةَ الشِّتَاءِ (للتجارة إلى اليمن) وَالصَّيْفِ[2] (إلى الشام شمالا)، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ[3] (الكعبة)، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ (بالتجارة) وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ[4] (تحريم الاعتداء والسرقة والغزو الخ احتراما لهذا البيت).

– تعليق

ومما استعصى على المفسرين فهمه حرف "اللام" في "لإيلاف"، ثم حرف الفاء الرابطة بين الآيتين (2-3). لقد ذهب كثير منهم إلى ربط بداية هذه السورة بنهاية سورة الفيل (رقم 16) بناء على أنهما تشكلان سورة واحدة -كما ذكرت ذلك بعض الروايات- أو بناء على أنهما سورتان اثنتان متصلتان بحيث يكون قوله تعالى في أول سورة قريش "لإيلاف قريش" بيانا للسبب الذي من أجله دمرت الطير الأبابيل - التي سلطها الله على أصحاب الفيل- المهاجمين لمكة، كما ورد في آخر سورة الفيل: "فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ" (الفيل 5). وبذلك يكون المعنى : "أهلكت أصحاب الفيل من

أجل إيلاف قريش، أي لكي تتمكن قريش من مواصلة رحلتيها للتجارة : رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام". قال صاحب الكشاف: "وهذا بمنزلة التضمين في الشعر وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقاً لا يصحّ إلاّ به". وبذلك تكون "الفاء" في "فليعبدوا" في معنى الشرط بمعنى : "أنّ نعم الله عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة" (الكشاف). وإلى جانب هذا التأويل الذي يبدو معقولا ولكن على حساب الجمع بين سورة الفيل وسورة قريش [2]، هناك تأويلات عديدة أضعف كثيرا من هذه مثل تلك التي تعتبر اللام هنا حرف تعجب...

أما التأويل الذي نرجحه نحن فهو التالي: من أجل إيلاف قريش ... فليعبدوا ... بمعنى أن هناك عملية "تقديم وتأخير" (لتعبد قريش... لإيلافها) وهذا النوع من "التقديم والتأخير" كثير في القرآن. والمعنى: إن على قريش أن تعترف بنعم الله عليها فتعبده وتؤمن برسوله : وهذه النعم صنفان: أنعم عليها أولا بالسكنى في مكة هذا "البلد الأمين"، الذي يَأمَنون فيه من الخُوف، لوجود الكعبة "بيت الله" فيه، مما جعل منه أحد الأمكنة الثلاثة المقدسة، بعد طور تينا (القدس: مهد عيسى) وطور سيناء (الذي كلم الله فيه موسى). وأنعم عليها ثانيا بكون موقع هذا البلد قد مكنهم من القيام برحلتين على مستوى التجارة الدولية: واحدة في الشتاء إلى اليمن، والثانية في الصيف إلى الشام، وبذلك آمنهم من جوع.

2- هذا الجمع لا يستقيم إلا على أساس ترتيب المصحف حيث وردت سورة الفيل وبعدها سورة قريش مباشرة. أما على ترتيب النزول فالمسافة بينهما واسعة: رتبة سورة الفيل تتحرك في اللوائح ما بين 17 و 19 بينما تتحرك رتبة سورة قريش ما بين 28 و29! وإذن فهذا التأويل لا يستقيم.

استطراد واستشراف.

الرب، الله، الرحمان

سبعة وعشرون سورة مرت حسب "ترتيب النزول" الذي اعتمدنا فيه مرجعيات ثلاث: 1) لوائح ترتيب النزول المتوفرة. 2) ما ورد من أخبار ومرويات حول أسباب نزول هذه السورة أو تلك، هذه الآية أو تلك. 3) ما استفدناه من السور نفسها، من آياتها وسياقها، ووجوه اتصال بعضها مع بعض. لقد قطعنا الآن المرحلة الأولى من مراحل التنزيل، وبالتالي من مسار الدعوة المحمدية، قرآنا منجما وسيرة نبوية.

ولكي نجعل القارئ يشعر معنا بأهمية هذه المرحلة لن نحتاج إلى تكرار ما كان حاضرا معنا خلال تحركنا على مسارها، وليس العهد ببعيد، ولذلك سنحاول القيام بنوع من الاستطراد أو الاستشراف نحو ما لم يحضر بعد. إن قراءنا، والمسلمين منهم خاصة، يعرفون، ولو بالاسم وحده، أهم "مفردات" الخطاب الديني الإسلامي، أعني المصطلحات والمفاهيم، العقدية منها والفقهية. وبما أن القرآن المكي هو أساسا كتاب عقيدة وأخلاق، وبما أننا الآن في نهاية مرحلة بدأ فيها تشكل العقيدة حسب سنة القرآن في التدرج، فإن سؤال الحضور والغياب الذي سنطرحه لا ينبغي أن يتجاوز الآن هذا النطاق.

الرب ...

أبرزنا في الاستهلال الذي صدرنا به هذه المرحلة أن الخطاب فيها يدور حول ثلاثة محاور: الرب، الله، الرحمان. ونستطيع الآن أن نلاحظ أن من الأسماء التي لم تكن حاضرة بشكل محوري: لفظ "المسلمون" ولفظ "المؤمنون". وهذه الملاحظة تطرح سؤالا، لا يخلو من أهمية على مستوى الربط بين التنزيل ووقائع السيرة، هذا السؤال هو: كيف سمى القرآن أتباع الدعوة المحمدية في هذه المرحلة؟ إذا نحن عدنا إلى السور التي سبقت فإن المعنى الذي سيعبَّـر عنه لاحقا بلفظ "مسلم" و"مؤمن" قد تم التعبير عنه فيما سبق بلفظ "من تزكى". وقد استعمل هذا الفعل مرارا كما رأينا ولكنه لم يستعمل كـ "اسم" وإنما استعملت بدله عبارة "من تزكى"، كما استعمل لفظ

"الأتقى" كمقابل لـ "الأشقى". أما لفظ "الكافرون" فمع أنه سميت به سورة خاصة، فلم يستعمل مقابله بعد، أعني : "المؤمنون".

سنقف عند هذه الملاحظات في ما يتعلق بالألفاظ الأخيرة، وسنخصص هذا الاستطراد الاستشرافي للفظ "الرب" الذي تم التعبير عنه أيضا، باسم "الله"، ثم باسم الرحمان.

لفظ الرب في اللغة هو مِنْ "رَبَّــهُ يَرُبُّــه رَبّــاً: مَلَكه". يقال: ""طالَتْ مَرَبَّــتُهم الناسَ ورِبابَــتُهم أي مَمْلَكَتُهم". والعِبادُ مَرْبُوبونَ للّهِ عزّ وجل، أي مَمْلُوكونَ". "ورَبَــبْتُ القومَ: سُسْتُهم أي كنتُ فَوْقَهم"... ويقال: وربَّاد تَرْبِيَةً: أحسَنَ القِيامَ عليه، كان ابْنَه أو لم يكن" (لسان العرب).

هذا في اللغة. أما في القرآن فقد ورد اسم "الرب" مرات كثيرة (ربي، ربك، ربكم الخ)، كما ورد في قصص الأنبياء والرسل بنفس المعنى والصيغ [1]. ولفظ "الرب من صفات الفعل، (فهو كما رأينا من فعل "رَبَّهُ يَرُبُّهُ رَبّاً: مَلَكه")، وهو يطلق على "السيد والمدبر والمالك والمنعم والقيم" الخ، وبصفة عامة "رب كل شيء: مالكه ومستحقه". فيقال مضافا: رب الدار، ورب البيت، وربات الحجال (قبّة العروس)، ولكنه لا يطلق غير مضاف (هكذا: الرب) إلا على الله. ومؤنث الرب: الربة. وكان هذا الاسم يطلق على الصخرة التي كان أهل ثقيف يعبدونها، واسمها اللات (أصلها "اللاة"، وقد فتحت التاء تجنبا للخلط مع "الله"). وكان لها بيت يضاهئون به الكعبة. هذا كما يجمع الرب على "أرباب"، وفي الإسلام يختص الله بلفظ "رب الأرباب". ومع أن هذا الاسم لم يرد في القرآن فهو شائع في الحديث والتفاسير الخ. أما "الرب الأعلى" فقد ورد في قوله تعالى: "سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى" (الأعلى 1) ، وفي قوله : "إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى" (الليل 20)، كما ورد حكاية عن فرعون : "فَقَالَ (فرعون) أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى" (النازعات 24).

ورد لفظ "الربّ" بصيغه المختلفة في القرآن (ربك، ربي، ربكم، ربه، ربهم، رب العالمين...) 767 مرة. لكن في السور الأولى، حسب ترتيب النزول، يكاد الخطاب باسم الرب ينحصر -كما رأينا- في الرسول عليه السلام. فمنذ "اقرأ باسم ربك" إلى

---

1 - وفي هذا الإطار نشير إلى أن لفظ "الرب" ورد في التوراة منفردا لأول مرة في الإصحاح الرابع من سفر التكوين (ت-د: الترجمة الدولية) هكذا: "وَعَاشَرَ آدَمُ حَوَّاءَ زَوْجَتَهُ فَحَبِلَتْ، وَوَلَدَتْ قَايِينَ إِذْ قَالَتْ: «اقْتَنَيْتُ رَجُلاً مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ». أما قبل ذلك فكان اللفظ المستعمل هو "الرب الإله". أما (ت-ب: الترجمة البيروتية) فتارة تستعمل اسم الله، وتارة اسم "الرب" وتارة لفظ "الرب الإله". وسنشرح فيما بعد الاعتبارات التي تقف وراء هذا الاختلاف.

"قل هو الله أحد"، والرب هنا هو رب محمد عليه السلام، بمعنى أنه مربيه ومعلمه والمدبر لأمره وراعيه الخ. وبمعنى آخر منذ ابتداء الوحي وهو خاضع لتربية ربانية خاصة.

من جملة ما انصب عليه فعل "التربية الربانية" تعليمه كيفية تلقي الوحي وكيفية تقبُّل أن يكون نبيا رسولا، والاطمئنان إلى أن ذلك حق وأنه ليس من قبيل الشعر ولا من وسوسة الشيطان أو تأثير الجنون، وأن غياب حامل الوحي إليه (جبريل) لبعض الوقت لا يعني أن ربه تركه وتخلى عنه. وكيف يتخلى عنه وهو الذي رعاه منذ طفولته، يتيما، فقيرا، تائها في الطريق..! كان هذا الخطاب، خطاب التربية والرعاية، يتجدد كلما جد جديد. يدعوه إلى الصبر إزاء استهزاء قريش وإذايتهم له ولأصحابه، ويؤكد له غير ما مرة أن "بعد العسر يسرا". وأن النصر سيكون حليفه في النهاية.

وعندما كبرت الجماعة الإسلامية وأخذت الدعوة في الانتشار والتوسع، وبدأ الوحي يوجهه نحو آفاق جديدة، نبهه إلى ثقل المهمة التي اختاره لها، وأنها تتطلب الصبر الجميل، وأن الله سيكون معه يرعاه ويوجهه(2). وفي الوقت نفسه أخذ خطاب الرب يوسع من مجاله ليشمل محمدا عليه السلام والمؤمنين برسالته، يواسيهم ويضرب لهم الأمثال ويقص عليهم ما جرى للأقوام الماضية الذين كذبوا برسلهم، ومن ثم يدعوهم إلى استخلاص العبرة من ذلك. وبالدخول في مجال تاريخ الأنبياء والرسل أصبح القرآن، الذي كان ينزل مفرقا ليقرأه على الناس على مكث، ينمو ويتطور ليصبح كتابا موجها للأميين (العرب) ليحولهم هم أيضا إلى "أهل كتاب" بعد أن عاشوا أمة أمية لا كتاب لها. ويتلقى الرسول من ربه خطابا يشعره بهذا التطور الذي سيسجل خطوة جديدة على مسار الدعوة، ويدعوه إلى عدم الدهشة والاستغراب من أن يكون القرآن كتابا في نفس الوقت. قال تعالى "المص، كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ، اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ" (الأعراف 1-3).

ومباشرة تشرع السورة في بيان أن هذا الرب الذي يخاطب محمدا وأصحابه هو أيضا رب جميع الأنبياء والمرسلين السابقين. ثم تتوالى سور القرآن المكية منها والمدنية لتؤكد أن الرب الذي خاطب محمدا أول مرة بـ "اقرأ باسم ربك" هو "رب الناس أجمعين"، "رب السماوات والأرض"، "رب العرش العظيم". وأنه كما يرعى

2- "إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا" (المزمل 5)، "وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (الطور 48-49) الخ.

محمدا ودعوته قد فعل الشيء نفسه مع أنبياء ورسل سابقين، منهم من قص عليه أخبارهم وشرح له تجاربهم، ومنهم من لم يقصص عليه. وأنه كما يعاني هو، أعني محمدا عليه السلام، من قومه، من تكذيبهم وسخريتهم وأذاهم، عانى أولئك الأنبياء والرسل من أقوامهم ما يماثل ذلك أو أشد، وبالتالي فحاله ليست فريدة ولا استثناء، بل هي مظهر من سنة الله على أرضه، سنته التي تحكم حركات الظواهر الطبيعية كما تحكم تحركات التاريخ البشري بما في ذلك تحركات الأنبياء والرسل : "سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا" (الفتح 23). ولقد كان من الطبيعي تماما أن يعتري النبي محمدا عليه الصلاة والسلام ما يعتري البشر -وهو واحد منهم- من أحوال نفسية وتمنيات من هذا النوع أو ذاك. وكان من الطبيعي كذلك أن ينتابه الأسى والأسف، من حين لآخر، بسبب إصرار قومه على الإعراض عن دعوته، خاصة منهم أولئك الذين كان لهم شأن قبلي أو اقتصادي والذين يفترض الإنسان أنهم إذا أسلموا تبعهم الناس، فيكون في ذلك اختصار للصعوبات والمشاق التي تعترض بإصرار طريق الدعوة.

كانت هذه المشاعر مبررة، على كل حال، من إنسان يعيش وضعا بشريا، يتمتع فيه أناس بالمال والسعة بينما يعاني آخرون من ضيق العيش. وقد حدث للرسول عليه السلام أن عانى من هذه الوضعية وما يتبعها من حزن وإحساس بالضيق، عندما شاهد ما كانت تتمتع به قريش من زينة وما كان يعانيه هو من ضيق العيش... فجاء خطاب الرب يواسيه ويبين له أن تغيير الوضعية محكوم بكلمة (=قرار) سبقت من ربه الذي قدر لكل شيء أجلا مسمى، وأن مصير خصومه سيكون كمصير الأمم الماضية التي كذبت رسلها وضيقت عليهم. يقول تعالى: "أَفَلَمْ يَهْدِ (يتبين) لَهُمْ (للمشركين) كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ (الأمم) يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (العقول). وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ (بأن عيَّن لكل أمر أجلا) لَكَانَ لِزَامًا (هلاكهم الآن، لكن سبقت كلمة ربك) وَأَجَلٌ مُسَمًّى (لذلك)، فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى، وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا (رجالا ونساء) مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى. وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى" (طه 128-132).

لكن توالي الشدائد وإصرار قريش على العناد وكثرة تدخلاتهم من أجل حل وسط (وهم تجار مستعدون دائما لحل وسط)، جعل النبي عليه السلام يأسف لعدم استجابتهم وأحيانا يخطر له أن يجرب استمالتهم بوعد من الوعود. لكن ربه كان

حاضرا دائما يثبته، وأحيانا يحذره ويعاتبه: "وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ" (يونس 109). وهكذا فعندما طلبت منه قريش أن يبعد عنه من سموهم بـــ "الأراذل" أي الفقراء والموالي حتي يمكن أن يجلسوا معه، جاء القرآن بالأمر التالي: "وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (الكهف 52). وفي نفس المعنى خاطبه ربه: "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا، وَقُلِ: (هذا هو) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ". (الكهف 29). وأيضا : "فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ" (الروم 60)، "وَاصْبِرْ، وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ" (نوح 127). وكان قد سبق له أن تلقى عتابا بسبب موقفه من رجل أعمى، ابن خال خديجة زوجته، عندما جاء يطلب أن يستقبله بينما كان منشغلا ببعض كبار قريش. كما رأينا في سورة "عبس".

ولاشك أن الرسول (ص) كان يحس في بعض الأحيان، إزاء إصرار قومه على الإعراض عن دعوته، بما يشبه الشعور بالفشل في المهمة، وفي هذه الحال يأتيه الوحي ليذكره بحدود مهمته، فهو ليس مكلفا بإجبارهم علي الإيمان وإنما المطلوب منه أن يذكرهم بالقرآن: "وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ" (ق- 45). وإذا كانوا قد أغلقوا باب الاستجابة وصاروا كالأموات لا يسمعون فليس على الرسول أن يُسمع الموتى : "وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ، إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ" (فاطر 22- 23). وإذا كانوا قد اتخذوا موقف الذي لا يرى ولا يسمع فالواجب أن يعرض عنهم : "وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ" (النمل 81).

على أن منهم من يستمعون إليه ولكن بآذانهم فقط إنهم لا يستعملون عقولهم ولا يتدبرون ما يسمعون: "وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ! أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ؟ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ، أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ" (يونس 42-43). ثم إن حرصه على أن يؤمنوا، وقلقه من إعراضهم عنه، شيء أراده الله، فليس علي النبي أن يحاول عبثا إكراههم علي الإيمان: "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا! أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ"؟ (يونس 99)، "إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ

عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ". (الزمر 41)، "فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ" (الغاشية 21- 22).

وكانت قريش قد تحدوا النبي عليه السلام : "وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا" (الإسراء 90-91)، فأثر ذلك في نفسه تأثيرا كبيرا، فجاء القرآن يواسيه ويثبته، قال تعالى: "فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ (مهلك) نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا! إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا" (ترابا لا نبات فيه. الكهف 6-8) وحدث "أن قريشاً خلوْا برسول الله صلى الله عليه وسلّم ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخّمونه، ويسوّدونه ويقاربونه؛ فقالوا: إنك تأتي بشيء لا يأتي به أحد من الناس، وأنت سيّدُنا الخ؛ وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون، ثم صرفه الله من ذلك"، وفي هذا نزلت هذه الآية : "وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا، وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا، إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا" (الإسراء 73-74). وعندما عزمت قريش على إخراجه من مكة جاءه الأمر من ربه بالهجرة، وقيل في ذلك نزل قوله تعالى: "وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ (مكة) لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ (وراءك) إِلَّا قَلِيلًا. سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا" (الإسراء 75-77). تلك هي عناصر من "التربية الربانية" التي تلقاها محمد بن عبد الله في دعوته الناس إلى الإسلام: تربية تمارس على المكلف بالدعوة نوعا من النقد الذاتي البناء لا ينتهي. وما يميز هذه التربية هو غياب العنف غياباً تاّما عن أفقها. إن شعارها : الصبر والمثابرة ومحاسبة النفس والسير وفق سنة الحياة التي هي سنة الله التي خلت من قبل ولا يمكن تغييرها: "فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (فاطر 43). خطاب الرب خطاب أخلاق، خطاب سلم وسلام.

على أن خطاب "الرب" لم يكن مخصوصا بمحمد عليه الصلاة والسلام، بل لقد أخذت دائرة المخاطبين به تتسع مع انتشار الدعوة ليصبح "رب الناس" جميعا، المؤمنين منهم وغير المؤمنين. ومع أن المرء قد يتوقع أن خطاب الرب إلى المؤمنين سيكون إيجابيا واعدا دائما، وأن خطابه إلى غير المؤمنين من كفار قريش وغيرهم سيكون متوعدا دائما، فإن استقراء القرآن يكذب هذا التوقع. ذلك أنه يمكن القول، بصورة عامة، إن جميع ما ورد في القرآن مقترنا بـــ "الرب"، أو محيلا إليه، قد جاء كله في عبارات تحمل معنى إيجابيا، ولم يقترن اسم "الرب" بما هو سلبي إلا نادرا كما في قوله: "كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا، وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا، وَجِيءَ

يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ، يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى" (الفجر 21-23)، وقوله: "فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا" (الشمس -14)، وقوله "إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (البروج 12)، وقوله: "قَالَ (هود) قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ (قوم عاد) مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ" (الأعراف 71). وغني عن البيان القول إنه حتى في هذه الحالات النادرة يتعلق الأمر بـ "الإخبار"، من دون وعيد أو تهديد صريحين.

وهناك آيات ورد فيها اسم "الرب" في موقف إيجابي وبعده يأتي اسم "الله" في موقف يشعر بالشدة، مثل قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا، يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ" (البقرة 26)، وقوله: "وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ" (البقرة 149). وقوله: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ (تتوسلون به في الطلب من بعضكم بعضا) وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا" (النساء 1).

أما فيما عدا ذلك فالسائد هو المعنى الإيجابي بإطلاق، من ذلك قوله تعالى: "إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ" (النجم 32). وقوله: "وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ" (الأعراف 153). وإذا كان الموقف يقتضي الشدة واللين، فاللين يأتي لاحقا ليكون هو المصير. من ذلك قوله تعالى في عدة آيات: "وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ (الشديد) الرَّحِيمُ (الشعراء 9)، وقوله "إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ" (الأعراف 167). أما الدعاء فهو يتضمن -في سياق التوجه إلى "الرب"- الاعتراف بالضعف والذنب كما يعترف كل من يرجو خيرا ممن يوجه إليه الدعاء: "رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا، وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ" (البقرة 286).

ونعود فنلخص ما سبق في كلمات، فنقول : إن لفظ "الرب" من أسماء الأفعال لا من أسماء الذات. وكونه من أسماء الأفعال وأن معناه الاشتقاقي يعود بنا إلى الفعل التربوي، فعل المربي، فإن معناه في القرآن الكريم ينصرف -حتى في حال دلالته على ما يفيد الشدة- إلى ما يفيد الرعاية والإنعام وحسن التدبير وأيضا التنبيه إلى مكامن الخطأ والضرر.

تحدثنا عن معنى لفظ "الرب" الذي استعمله القرآن في السور السابقة وقلنا عنه إنه من أسماء الأفعال، ولذلك اقترن بفعلي "خلق" و "علم" في سورة "اقرأ باسم ربك الذي خلق من علق"، "الذي علم بالقلم". أما اسم "الله" فهو من أسماء الذات وأصله "الإله". يقول أهل اللغة "هو نظير لفظ "الناس" الذي أصله "الأناس": حذفت الهمزة وعوّض عنها حرف التعريف، ولذلك قيل في النداء: يا ألله بالقطع، كما يقال: يا إله. و"الإله من أسماء الأجناس كالرجل والفرس، اسم يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بحق، كما أن النجم اسم لكل كوكب ثم غلب على الثريا، وكذلك السنة على عام القحط، والبيت على الكعبة، والكتاب على كتاب سيبويه". وأما لفظ "الله" بحذف الـــهمزة فمختص بالمعبود بالحق، لم يطلق على غيره. ومن هذا الاسم اشتق: تألّه، وألّه، واستأله. كما قيل: استنوق، واستحجر، في الاشتقاق من الناقة والحجر. فهو إذن اسم وليس صفة. يقول الزمـــخشري: "ألا تراك تصفه ولا تصف به، لا تقول : شيء إله، كما لا تقول: شيء رجل. وتقول: إله واحد صمد، كما تقول: رجل كريم خيِّر. وأيضاً فإنّ صفاته تعالى لا بدّ لها من موصوف تجرى عليه، فلو جعلتها كلها صفات بقيت غير جارية على اسم موصوف بها وهذا محال". ويضيف: "فإن قلت: هل لهذا الاسم اشتقاق؟ قلت: معنى الاشتقاق أن ينتظم الصيغتين فصاعداً معنىً واحدٌ، وصيغة هذا الاسم صيغة قولهم: أَلِهَ، إذا تحيَّر، ومن أخواته: دلِه، وعلِه، ينتظمهما معنى التحير والدهشة، وذلك أنّ الأوهام تتحير في معرفة المعبود وتدهش الفطن، ولذلك كثر الضلال، وفشا الباطل، وقلّ النظر الصحيح. فإن قلت: هل تفخم لامه (لام الله)؟ قلت: نعم قد ذكر الزجاج أنّ تفخيمها سنة، وعلى ذلك العرب كلهم، وإطباقهم عليه (موافقتهم) دليل أنهم ورثوه كابراً عن كابر" .

هذا التعدد في بيان أصل لفظ "الله" في لغة العرب، أعني عدم استقرار لغوييهم على جذر واحد واضح للكلمة، دفع بعضهم إلى البحث له عن أصل ما، في اللغات الأجنبية، فقال بعضهم إن أصله من السريانية "لاَها"، حيث أطلق هذا اللفظ علَما على الله فعُرِّب بحذف الألف وإدخال اللام عليه. وهناك من رجع بأصله إلى كلمة "إلوهيم" بالعبرانية وهي جمع "إلو" أو "إلوه"، وتطلق على اسم الجلالة : الله. وقد عرض الأستاذ المرحوم محمد تقي الدين الهلالي لهذا الموضوع في مقال له بعنوان "ما وقع في القرآن بغير لغة العرب" ورد فيه ما يلي، قال: "ومن ذلك المعركة الكبرى التي خاضها علماء العربية في لفظ الجلالة "الله" أهو مرتجل أم مشتق؟ وإن كان مشتقا فهل اشتقاقه من "أله" أو من "وله" أو من "لاه"، وما هو أصله على كل من هذه الأوجه؟ وماذا جرى عليه من الحذف والإدغام حتى بلغ صورته التي هو عليها"؟

وأضاف: "ومن تعلّم شيئا من اللغات السامية، أخوات اللغة العربية، لا ينقضي عجبه من الخائضين في تلك المعركة، ويرى جهودهم ضائعة ويحكم يقينا أن الاسم الكريم مرتجل بلا مرية، وهو بعيد كل البعد من الاشتقاق، فإنه ثابت بهذا اللفظ في جميع اللغات السامية ففي السريانية "ألاها" والشرقيون منهم ينطقون به "ألاهو" وهو كذلك في الآشورية، بفتح الهمزة في اللغات الثلاث. وبالعبرانية "ألوهيم".

هذا من جهة، ومن جهة أخرى هناك جدل حول لفظ "ألوهيم" بالعبرانية؛ فقد ورد في التوراة هكذا على صيغة الجمع (المفرد : أيلو، والجمع ألوهيم)، الشيء الذي دفع بعض علماء المسيحية إلى القول إن التثليث ليس خاصا بالمسيحية بل هو أصل أصيل في التوراة. وحسب المختصين في الموضوع هناك تصوران للألوهية في التوراة. الأول يعبِّر عنه بـــ"ألوهيم" (الإله، أو الله)، والثاني يُعبِّر عنه بالاسم المفرد "يهوه". ألوهيم (الإله) يدل على معنى الألوهية عند جميع الشعوب السامية تقريبا، الشيء الذي يعكس الاستمرارية بين "إله الأمم" (إله القبائل والشعوب غير اليهودية) وبين إله بني إسرائيل. وعندما كشف الرب عن اسمه لموسى فإن هذا اللفظ الذي كان مستعملا عند الفينيقيين وغيرهم قبل العبرانيين، لم يعد له من معنى خاص إلا بالنسبة لبني إسرائيل الذين خاضوا تجربة "القرب من الله" عندما كلم الله موسى تكليما. "فعندما جرى اللقاء بين الله وموسى في شجرة العليقة وتم تكليفه بإخراج بني إسرائيل من مصر" : "13قَالَ مُوسَى لله: حِينَمَا أُقْبِلُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ إِلَهَ آبَائِكُمْ قَدْ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، وَسَأَلُونِي: مَا اسْمُهُ؟ فَمَاذَا أَقُولُ لَهُمْ؟ 14فَأَجَابَهُ اللهُ : «أَهْيَهِ الَّذِي أَهْيَهْ» (وَمَعْنَاهُ أَنَا الْكَائِنُ الدَّائِمُ). وَأَضَافَ: "هَكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: "أَهْيَهْ" (أَنَا الْكَائِنُ)، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ" (الخروج 3، 13–15، د–ت)، ومن هنا اسم "يهوه" ومعناه "الذي هو"، أي الإله القومي لبني إسرائيل. واحتراما منهم لهذه التجربة تجنبوا النطق بهذا الاسم عند أدائهم لشعائرهم في بيعهم، واستعملوا بدله اسم "أدوناي" أي "السيد، المولى" Seigneur، أو "ألوهيم"، وهذا في التوراة خاصة، وذلك عندما يأتي اسم "الرب" مباشرة قبل اسم "يهوه" في عبارة "الرب يهوه" (الرب الإله)، الذي أصبح عندهم إلها كونيا. ومن هنا اتخذ يهوه عندهم –على صعيد الاشتقاق اللغوي– معنى "الموجود" أو "الصيرورة"، ومن ثم "الموجِد" أو "الخالق".

هذا، وقد انعكس هذا الطابع "الجمعي" للفظ "ألوهيم" في الترجمات العربية للتوراة. ففي (ت–د) ورد التعبير عن ألوهيم بلفظين "الرب الإله" وأحيانا يضاف إليهما لفظ ثالث كما في النصوص التالية: "4هَذَا وَصْفٌ مَبْدَئِيٌّ لِلسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَوْمَ خَلَقَهَا الرَّبُّ الإِلَهُ (التكوين 2). "22فَأَجَابَهُ أَبْرَامُ: "لَقَدْ أَقْسَمْتُ بِالرَّبِّ الإِلَهِ الْعَلِيِّ، مَالِكِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ". (التكوين 14). "33وَغَرَسَ إِبْرَاهِيمُ شَجَرَ أَثْلٍ فِي بِئْرِ سَبْعٍ،

وَدَعَا هُنَاكَ بِاسْمِ الرَّبِّ الإِلَهِ السَّرْمَدِيِّ، 34وَمَكَثَ إِبْرَاهِيمُ فِي بِلاَدِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ فَتْرَةً طَوِيلَةً (التكوين 21). "17لأَنَّ الرَّبَّ إِلَهَكُمْ هُوَ إِلَهُ الآلِهَةِ وَرَبُّ الأَرْبَابِ، الإِلَهُ الْعَظِيمُ الْجَبَّارُ الْمَهِيبُ" (التثنية).

أما في القرآن الكريم فقد ورد جواب الله على سؤال موسى على ثلاث صيغ: "إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا" (طه 14)، و"إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" (القصص 30)، و"يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (النمل 9). (بخصوص هذا اللقاء راجع التعريف بالقرآن: القصص في القرآن المكي. 3-المرحلة الثانية. قصة موسى وفرعون. د- في سورة القصص).

كان ذلك ملخصا عن مفهوم الإله في اليهودية، أما في المسيحية فالأمر يختلف، إذ يؤمن المسيحيون بالتثليث أي يتصورون الله "ثالث ثلاثة" : الآب والابن والروح القدس، بمعنى أن هذه الأقانيم الثلاثة عبارة عن ثلاث خواص جوهرية لإله واحد ورب واحد. وهذه الوحدة بين هذه الأقانيم هي عندهم أسرارا كشفها الله، وطريق التسليم بها هو الإيمان، أما العقل البشري فقاصر عن إدراكها، "وهل يمكن للمخلوق أن يدرك ذات الخالق"؟! ومن هنا اعتقاد المسيحية في أن حقيقة الله لا يعرفها إلا من أراد الله أن يكشفها له.

- الرحْمان ...الرحيم

سبق القول إن لفظ "الرحمان" هو ثالث الأسماء التي سمى الله به نفسه : لقد تعرفنا على معنى الرب، وعلى ما قيل في اسم الجلالة (الله)، فلننقل الآن في اسم "الرحمان" الذي ورد لأول مرة في سورة الفاتحة[3] في قوله تعالى "الرحمان الرحيم".

كان العرب قبل الإسلام يعرفون اسم الجلالة (الله) بشهادة القرآن في آيات عديدة مثل قوله تعالى: "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ" (لقمان 25)، لكن يبدو أن اسم "الرحمان" لم يكن ضمن قاموسهم الديني، أو على الأقل لم يكونو ا يعترفون به بوصفه كذلك. ذلك ما يستفاد من عدة آيات منها قوله تعالى: "كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ، قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ، لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ! قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ" (الرعد 30)، وقوله: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا" (الفرقان 60).

3- هذا صحيح بقطع النظر عن الترتيب الذي اخترناه، لأن رتبة الفاتحة في ترتيب النزول المعتمد هي الخامسة.

بوسع المرء أن يفترض أن قريشا كانت تعرف لفظ الرحمان بوصفه مشتقا من "رحم يرحم فهو رحمان"، كـ "غضب يغضب فهو غضبان" الخ، وأنها إنما كانت تعترض على المسمى بهذا الاسم في الخطاب القرآني بوصفه "الله"، وبالتالي فالإله الذي يوحي إلى الرسول عليه السلام ليس هو الله في نظر قريش، ولذلك قالوا : "إنما يعلمه صاحب "رحمان اليمامة"، أي الإله الذي كان مدعي النبوة في شرق الجزيرة مسيلمة الحنفي يدعو إليه باسم "الرحمان". وهذا الاعتراض على "رحمان اليمامة" من طرف قريش يمكن النظر إليه على أنه من مظاهر التنافس التاريخي بين "ربيعة" (قبائل شرق الجزيرة) و"مضر" (قبائل غرب الجزيرة). ومما يزكي هذا الافتراض ما رواه الطبري وغيره من "أن النبيّ صلى الله عليه وسلّم كان يتهجَّد بمكة ذات ليلة، يقول في سجوده: "يا رَحْمَنُ يا رَحيمُ"، فسمعه رجل من المشركين، فلما أصبح قال لأصحابه: انظروا ما قال ابن أبي كبشة (يعنون النبي عليه السلام)[4]، يدعو الليلة الرحمن الذي باليمامة".

هناك من اللغويين القدامى من إعتبر اسم "الرحمان" معربا من العبرانية. ذكر القرطبي عن ابن الأنباري عن المبرد "أن الرحمن اسم عبراني نقل إلى العربية. قال: وأصله بالخاء المعجمة، أبدلت خاؤه حاء مهملة عند أكثر العرب كشأن التغيير في التعريب". وأضاف القرطبي: قال أبو إسحق الزجاج نقلا عن أحمد بن يحيى: "الرحيم" عربي، و"الرحمان" عبراني، فلهذا جُمع بينهما" (الرحمان الرحيم)!

وقد ناقش المرحوم محمد تقي الدين الهلالي في المقال المشار إليها آنفا هذا الرأي فكتب يقول: "الرحمن كلمة عربية خالصة من الرحمة بزيادة الألف والنون كظمآن وعطشان، وكانت العرب تعرفه وتفهم معناه وقد سموا به مسيلمة الكذاب فكانوا يدعونه (رحمان اليمامة) ولكنهم لجهلهم لم يكونوا يعلمون أنه من أسماء الله". وأضاف: "ومن أعجب العجب قولهم (اللغويين) إنه عبراني وإن أصله بالخاء المعجمة، والخاء المعجمة لا وجود لها في العبرانية استقلالا، وإنما تنطق الكاف بها إذا جاءت قبلها حركة مثل (هبراخا) البركة ومثل باروخ، أي مبارك. ومعناه (يعني

4- هناك عدة روايات في السبب الذي من أجله كانوا يكنون رسول الله بابن أبي كبشة، ذكر منها صاحب لسان العرب ما يلي، قال: "أصلُه أنّ أبا كبشة رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأَوثان وعَبَدَ الشِّعْرَى العَبُورَ، فسَمَّى المشركون سيدَنا رسول الله، ابن أَبي كَبشة لخلافه إياهم إلى عبادة الله تعالى، تشبيهاً به، كما خالفهم أبو كبْشة إلى عبادة الشعرى". وقال آخرون: أَبو كَبْشةَ كنية وهب بن عبد مناف جدّ سيدنا رسول الله، من قِبَل أُمّه، فنسب إليه لأنّه كان نَزَعَ إليه في الشبَه، وقيل: إنّما قيل له ابن أَبي كَبْشَةَ لأَنَّ أَبا كبشة كان زَوْجَ المرأة التي أَرْضَعَتْه".

الرحمان) بالعبرانية هو معناه بالعربية، إلا أنه في اللغة العبرانية، صفة عامة لكل من في قلبه رحمة ليس خاصا بالله تعالى. إذن فهو من الكلمات المشتركة بين العبرانية والعربية، وهي كثيرة تعد بالآلاف. والكلمات الأربع التي في البسملة كلها مشتركة بين اللغتين، فالاسم (شم) بإبدال السين شينا وذلك كثير في العبرانية، والله (الوهيم) والرحمن لفظه بالعبرانية كلفظه بالعربية إلا أداة التعريف فإنها بالعبرانية (هارحمان) والرحيم بالعبرانية (هارحوم). وهذه الكلمات الكثيرة المشتركة بين اللغات السامية هي أصلية في كل واحدة منها، لا يقال إن إحداهن أخذتها من الأخرى".

هذا عن اسم "الرحمان"، أما عن الفرق بينه وبين لفظ "الرحيم" فقد أكد جميع المفسرين أن "لفظ "الرحمان" يستقي معناه الشرعي من قوله تعالى: "وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ" (الأعراف-156) ولذلك "لا يطلق الرحمن إلا على الله تعالى من حيث إن معناه لا يصح إلا له". أما الرحيم فيستعمل فيه وفي غيره، وأن معناه هو "مَن كثرت رحمته". قال تعالى: "إن الله غفور رحيم" (كثير المغفرة كثير الرحمة- البقرة 182)، وقال في صفة النبي صلى الله عليه وسلم: " لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ" (التوبة-128)

والذي يبدو لي من هذا الذي أوردناه، وأيضا من استقراء آي الذكر الحكيم، هو أن "الرحمان" اسم للذات بينما الرحيم اسم للفعل. ومع أن كليهما من صيغ المبالغة لكن جهة المبالغة تختلف فيهما: فالمبالغة في فعلان، مثل غضبان وعطشان، تفيد الامتلاء والغلبة، امتلاء الذات بتلك الصفة إلى الدرجة التي تجعل منها جزءا من ماهيتها. أما مبالغة فعيل كرحيم وكريم فتفيد الكثرة والتكرار-تكرار فعل الرحمة والكرم. فهي إذن من صفات الفعل.

الرحمان اسم ذات ولا يطلق إلا على الله تعالى، فكيف نرتب علاقته مع اسم الجلالة "الله" وهو أيضا اسم ذات؟ يجيب الفخر الرازي عن هذا السؤال في مستهل تفسيره لسورة الرحمان فيقول: "إن الفرق بين اسم "الله" واسم "الرحمان" كالفرق بين الاسم الأول والوصف الغالب الذي يصير كالاسم بعد الاسم الأول، كما في قولنا: عمر الفاروق، وعليٌّ المرتضَى، وموسى الرِّضا، وغير ذلك مما نجده في أسماء الخلفاء وأوصافهم المعرِّفة لهم، التي كانت لهم وصفاً، وخرجت بكثرة الاستعمال عن الوصفية، حتى إن الشخص وإن لم يتصف به أو فارقه الوصف يقال له ذلك كالعَلَم. فإذن للرحمن اختصاص بالله تعالى، كما أن لتلك الأوصاف اختصاصاً بأولئك".

هذا وقد ورد لفظ "الرحمان" في القرآن 48 مرة منفردا بمعنى الرب، الله، كما في الآيات التاليات: " إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ". "قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا

تَكْذِبُونَ". "أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً! إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ". "قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ" (يس 11 و 52). كما ورد مقترنا بـــ "الرحيم" في البسملة والفاتحة وفي قوله تعالى: "حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آَيَاتُهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" (فصلت 1-3)، وفي قوله : "هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ" (الحشر 22) الخ.

أما لفظ "الرحيم" فلم يرد منفرا في أية آية بل يسبقه دوما اسم من أسماء الله أو صفة من صفاته، مثل "الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ" (يس-5) وقد تكرر، و"الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" (القصص 16)، و"التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" (البقرة 37) تكرر. والْبَرُّ (اللطيف) الرَّحِيمُ (الطور 28)، والرَّحِيمُ الْغَفُورُ (سبأ 2) [5].

الرحمة ...

وأما لفظ "الرَّحْمَة" فيدل في اللغة: على "الرِّقَّةُ والتَّعَطُّفُ، والـــمَرْحَمَةُ مثله، وتَرَاحَمَ القَومُ: رَحِمَ بعضهم بعضاً. والرَّحْمَةُ: الـــمغفرة". أما في القرآن فيقول عنه صاحب مفردات القرآن (الراغب الإصبهاني): والرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة، نحو: رحم الله فلانا. وإذا وصف به الباري فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة، وعلى هذا روي أن الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميين رقة وتعطف". قال رسول الله (ص) : "قال الله: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته". فذلك إشارة إلى ما تقدم، وهو أن الرحمة منطوية على معنيين: الرقة والإحسان، فركز تعالى في طبائع الناس الرقة، وتفرد بالإحسان، فصار كما أن لفظ الرحم من الرحمة، فمعناه الموجود في الناس من المعنى الموجود لله تعالى، فتناسب معناهما تناسب لفظيهما ... وقال

5- هنا ورد "الرحيم"، أولا، على غير العادة وذلك في قوله تعالى: "يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ". ولم أطلع على مفسر انتبه إلى هذا القلب سوى الفخر الرازي الذي فسر هذه الآيات كما يلي: "قدم ما يلج في الأرض على ما ينزل من السماء، لأن الحبة تبذر أولا ثم تسقى ثانيا". و"قال وما يعرج فيها ولم يقل يعرج إليها إشارة إلى قبول الأعمال الصالحة ومرتبة النفوس الزكية وهذا لأن كلمة "إلى" للغاية" .... وأضاف الرازي "قال: "وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ" : رحيم بالإنزال حيث ينزل الرزق من السماء، غفور عندما تعرج إليه الأرواح والأعمال، فرحم أولا بالإنزال وغفر ثانيا عند العروج". وإذن فقوله "الرحيم الغفور" بدل "الغفور الرحيم" قد جاء متناغما مع ما سبق.

تعالى في صفة النبي (ص): "قد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم (شديد عليه ما تلاقونه من مكروه)، حريص عليكم، بالمؤمنين رءوف رحيم" (التوبة-128). وقيل: إن الله تعالى: هو رحمن الدنيا، ورحيم الآخرة، وذلك أن إحسانه في الدنيا يعم المؤمنين والكافرين، وفي الآخرة يختص بالمؤمنين، وعلى هذا قال: "ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون" (الأعراف-156)، تنبيها إلى أنها في الدنيا عامة للمؤمنين والكافرين؛ وفي الآخرة مختصة بالمؤمنين". بعبارة أخرى: إن الرحمان بوصفه اسم ذات، بوصفه ماهية ووجودا، فمعنى الرحمة فيه وهو الإحسان، لا يفارقه في الدنيا ولا في الآخرة، وأما الرحيم فبما أنه اسم فعل فهو خاص بالجزاء : رحيم بالمؤمنين في الدنيا والآخرة ثوابا لهم، ولكنه غير رحيم بالكافرين في الآخرة لأنهم رفضوا الإيمان في الدنيا فحرموا من ثوابه في الآخرة. وهذا هو معنى الاستثناء في الآية : "ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون". سيكتبها : ستكون ملازمة لهم كملازمة الأمور الحتمية، لأنهم استحقوها بتقواهم. أما الذين لا يتقون، فهم برفضهم التقوى يرفضون المغفرة والرحمة.

هذا المعنى يجب استحضاره لأنه هو الذي يعطي معنى للعقاب الإلهي في الدنيا والآخرة. الله رحمان رحيم بالنسبة للذين يقبلون الرحمة، ويعملون من أجلها هي والمغفرة، أما الذين يرفضون الاستجابة لمتطلبات الرحمة : لا يؤمنون بأن الله رحمان رحيم ولا يمارسون الرحمة في الدنيا على مستواهم واستطاعتهم وفق مبدأ : "ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"، فهؤلاء قد رفضوا بناء أية علاقة مع رحمة الله وبالتالي سيحرمون منها. هنا تنسحب الرحمة لأنها فقدت موجبها ولا يبقى إلا الجزاء على الأفعال والنوايا. والجزاء لمن رفض الرّحمة وامتنع عن اتباع سبيلها هو العقاب.

هنا ستحل محل صفة الرحمة صفات أخرى، صفات القوة والبطش والانتقام. وستتكرر، مكان عبارات "الرب الودود"، و"الرب الغفور ذو الرحمة"، و"الغفور الرحيم"، و"اللطيف بعباده" الخ، عبارات أخرى: "القوي العزيز"، "شديد العذاب"، "عزيز ذو انتقام"، "المهيمن العزيز الجبار المتكبر" الخ.

إنها مفردات خطاب ستسود في المرحلة التالية من تطور الدعوة المحمدية، مرحلة الرد على المشركين ومقاومة سخرياتهم واستهزاءاتهم، مرحلة الوعد والوعيد والترغيب والترهب.

المرحلة الثانية

البعث الجزاء ومشاهد القيامة



استهلال

ينتقل بنا خطاب القرآن المكي، في هذه المرحلة:

1- صعيد الموضوع: من التركيز على محور التوحيد (النبوة والربوبية والألوهية) إلى التركيز على محور البعث والجزاء.

2- أما على صعيد أسلوب الخطاب ومنهجيته فالانتقال سيكون من تأكيد نبوة محمد عليه السلام وتسليته وتثبيت فؤاده من جهة، ومن إثبات وجود الله وإثبات وحدانيته بالدعوة إلى تأمل نظام الكون ككل، من جهة أخرى، إلى تأكيد البعث ورسم مشاهد متنوعة لقيام الساعة وما يتلوها من حساب فثواب أو عقاب. إن الأمر يتعلق بالانتقال من خطاب التسلية والتثبيت والتعامل مع قريش بأسلوب "إياك أعني واسمعي يا جارة"، إلى خطاب الوعد والوعيد وتحميل المسؤولية.

بعبارة أخرى: إذا كان الحديث عن النبوة والربوبية والألوهية والحياة الأخرى، حاضرا باستمرار في القرآن ككل، فإن ما تتميز به سور هذه المرحلة الثانية من مسار التنزيل وتطور الدعوة، هو أنها ستهتم بشكل لافت للنظر بموضوع المعاد. أما لماذا الانتقال إلى التركيز على هذا الموضوع، فذلك ما سيتبين خلال تتبعنا للمسيرة القرآنية خلال هذه المرحلة.



28- سورة القارعة

تقديـــم

قيل : القارعة والواقعة والحاقة معناها: القيامة. وهي أسماء لسور. لم يرد أي شيء حول هذه السورة، سوى ترتيبها على لوائح النزول في رتبة 29 عند بعضهم و 30 عن آخرين، وهي في الحالتين تلي سورة قريش. وكل ما يمكن قوله كتقديم لها هو أنها اقتصرت على تعريف القيامة مبرزة هولها وبيان المصير بعد الحساب، إما إلى الجنة وإما إلى النار. فهي إذن بمثابة مدخل لموضوع هذه المرحلة.

- نص السورة

1- قيام القيام حادثة مهولة، شديدة الهول.

بسم الله الرحمن الرحيم

الْقَارِعَةُ[1] **مَا الْقَارِعَةُ**[2] (قيام الساعة)؟ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ**[3] (ما أعظمها وأشدها فهي تقرع النفوس بأهوالها، هي) : **يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ**[4] (المفرق المتزاحم)، **وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ**[5] (كالصوف المفتت).

2- يلي ذلك الثواب والعقاب:

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ[6] (كثرت حسناته)، **فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ**[7]. **وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ**[8] (قلت حسناته وكثرت سيئاته)، **فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ**[9] (مصيره جهنم)(1). **وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ**[10] (ما هي؟ هي:) **نَارٌ حَامِيَةٌ**[11].

- تعليق

تتميز هذه السورة بكونها خاصة بالتعريف بموضوع واحد هو يوم "قيام الساعة" مبرزة هول مشهده من خلال تشبيه حالة الإنسان خلاله بالفراش المنتشر

1- قيل: كان الرجل إذا وقع في أمر شديد، قالوا: هوت أمه.

الذي يتحرك على غير هدى من جهة، وتشبيه حالة الجبال بالصوف المفتت. ثم تنتقل السورة من لحظة البداية إلى لحظة النهاية وهي المصير النهائي بعد الحساب، ولا شيء غير ذلك. والسور التالية لهذه ستفصل القول فيما أوجزته هذه السورة.

وفي تشبيه بليغ، مليء بالدلالة يصور الرسول عليه السلام موقفه -وقد جاءه القرآن لينذر ويبشر بهدف تجنيب الناس الوقوع في الهاوية (النار الحامية) عند قيام الساعة- كما يلي: قال: "مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَاراً، فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ[2] (صغار الجراد) وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا. وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ. وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي" (رواه مسلم).

---

2 – جنادب : صغر الجراد. جمع جُنْدَب

29- سورة الزلزلة

- تقديـــم

صنفت هذه السورة في المصحف مع السور المدنية (رتبة 93). لكن معظم المصادر وكثير من المفسرين يعتبرونها مكية (ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وجابر وعطاء والضحاك... والبغوي وابن كثير ومحمد بن الحسن النيسابوري الخ).
ونحن قد رجحنا هذا الرأي باعتبار موضوع السورة وأسلوبها، وقد وضعناها في هذا الموقع للشبه الكبير بينها وبين السورة السابقة. ولابد من التنبيه إلى أن التعديلات البسيطة التي نجريها من حين لآخر على لائحة ترتيب النزول المعتمد نلتزم فيها ما ورد من روايات تفرض هذا التعديل.

ومهما يكن وسواء عملنا بهذه التعديلات أو لم نعمل بها، فمسار ترتيب النزول يبقى هو هو، وبالتالي فالانتقال من مجموعة السور السابقة إلى هذه المجموعة وإلى التي ستتلوها، واختصاص كل مجموعة بمحور معين هو ما يعطيه ترتيب النزول في جميع اللوائح.

وبعبارة أخرى فإذا كان القارئ قد لاحظ وجود نوع من المنطق الداخلي في تتابع السور، غير ترتيب النزول المروي، فإن هذا المنطق ليس من عندنا، ولا هو من عند واضعي لوائح ترتيب النزول الذين اعتمدوا في عملهم على المرويات، بل هو منطق داخلي لعملية نزول القرآن منجما حسب مقتضى الأحوال. دليل ذلك أن واضعي ترتيب النزول صنفوا هذه السورة مع القرآن المدني مع أن وضعها المنطقي يفرض وضعها مع القرآن المكي وفي الرتبة التي حددناها لها -تقريبا.

- نص السورة

1- مشهد قيام الساعة

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا[1]، وَأَخْرَجَتْ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا[2] (ما في جوفها والمقصود: من في القبور)، وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا[3] (ما الذي جرى بها)، يَوْمَئِذٍ

تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا[4]، بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا[5] (أمرها أن تتحرك وتتزلزل، كمظهر من مظاهر قيام الساعة).

2- الجزاء

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ (يخرج) النَّاسُ أَشْتَاتًا (متفرقين) لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ[6] (ليحاسبوا)، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه[7] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه[8].

تعليق

أثار المفسرون نقاشا واسعا حول معنى قوله تعالى: "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه". والإشكال المطروح هو التالي: هل يعم هذا القول المؤمن والكافر سواء بسواء؟ فإذا كان مفهوما أن المؤمنَ سيُثاب في الآخرة على كل عمل قام به في الدنيا فهل سيعاقب في الآخرة على كل ذرة شر قام بها؟ وإذا كان مفهوما أن الكافر سيعاقب يوم القيامة على كل ذرة من أعمال الشر قام بها في الدنيا فهل سيثاب يوم القيامة على ما فعل من خير في الدنيا؟ منهم من قال: "ليس مؤمن ولا كافر عمِل خيرا ولا شرّا في الدنيا، إلا أتاه الله إياه : فأما المؤمن فيُريه حسناته وسيئاته، فيغفر الله له سيئاته. وأما الكافر فيردّ حسناته، ويعذّبه بسيئاته". ومنهم من قال: "من يعمل مثقال ذرّة من خير مِنْ كافر يرَ ثوابه في الدنيا في نفسه وأهله وماله وولده، حتى يخرج من الدنيا، وليس له عنده خير، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ، مِنْ مؤمن، يَـــرَ عقوبته في الدنيا في نفسه وأهلَه وماله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس عنده شيء.

ويروون في ذلك حديثا للنبي عليه السلام مفاده "أن أبا بكر رضي الله عنه كان يأكل مع النبيّ (ص)، فنزلت هذه الآية: "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرا يَرَهُ وَمَنْ يَعمَلْ مثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ" فرفع أبو بكر يده من الطعام، وقال: يا رسول الله إني أُجْزَى بما عملت من مثقال ذرّة من شرّ؟ فقال: "يا أبا بَكر، ما رأيْتَ فِي الدنْيا مِمَّا تكْرَهُ فَمثاقِيلُ (جمع مثقال) ذَرّ الشرّ، وَيَدَّخِرُ لَكَ اللّهُ مَثاقِيلَ الخَيْرِ حتى يتوَفَّاك يَوْمَ القِيامَةِ". ومعنى هذا أن سيئات المؤمن يقع الاقتصاص منها في الدنيا، بما يلحقه من مكاره، أما حسناته فتبقى محفوظة إلى يوم القيامة. وفي رواية أخرى أن جواب النبي كان كما يلي: "لَوْلا أنّكمْ تُخْطِئونَ وَتُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ، لَخلَقَ اللّهُ أُمةً يُخْطِئُونَ وَيُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ". ويرون تصديق ذلك في قوله تعالى: "وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ" (الشورى 30). كما يروون عن عائشة أنها قالت: "قلت: يا

رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويُطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: "لا يَنْفَعُهُ، إنَّهُ لم يَقُلْ يَوْماً: رَبِّ اغْفِرْ لي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّين".

ويعلق الطبري على هذه "الأخبار" التي أوردها بقوله: "فهذه الأخبار عن رسول الله (ص) تنبئ عن أن المؤمن إنما يَرَى عقوبة سيئاته في الدنيا، وثواب حسناته في الآخرة، وأن الكافر يرى ثواب حسناته في الدنيا، وعقوبة سيئاته في الآخرة، وأن الكافر لا ينفعه في الآخرة ما سلف له من إحسان في الدنيا مع كُفره".

وهناك من حاول رفع الإشكال بالقول: إن حسنات الكافر تقلل من كفره، كما أن سيئات المؤمن تقلل من إيمانه"، "فلا يكون ذلك قادحاً في عموم الآية". وبالعكس من هذا هناك من ارتأى تخصيص الآية بالقول : "فمن يعمل من السعداء مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل من الأشقياء مثقال ذرة شراً يره".

ونحن نرى أن أقرب الروايات إلى سياق السورة ومضمونها وعلاقتها بالسور السابقة هي رواية مقاتل بن سليمان التي ورد فيها : "تزلت هذه الآية في رجلين كان أحدهما يأتيه السائل فيستقل (يرى قليلا) أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة، ويقول ما هذا بشيء، وإنما نؤجَّرُ على ما نُعطِي؛ وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير، ويقول: لا شيء على من قام بهذا إنما الوعيد بالنار على الكبائر، فنزلت هذه الآية ترغيباً في القليل من الخير فإنه يوشك أن يكثر، وتحذيراً من اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكبر، ولهذا قال عليه السلام: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة". (تفسير مقاتل بن سليمان).

30- سورة القيامة

- تقديم

ذكر المفسرون والمؤلفون في أسباب النزول أكثر من رواية حول بعض آيات هذه السورة. منها أن قوله تعالى "أَيَحسَبُ الإنسانُ أَلَّن نَّجمَعَ عِظامَهُ" قد نزل في عمر بن ربيعة وذلك أنه أتى النبي (ص) فقال: حدثني عن يوم القيامة متى يكون وكيف أمرها وحالها؟ فأخبره النبي (ص) بذلك. فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد، ولم أومن به! أوَ يجمع الله هذه العظام؟! فأنزل الله تعالى هذه الآية. ومنها أن قوله : "أولى لك فأولى" نزل في أبي جهل. تقول الرواية كان أبو جهل، "يتمطى" (يتبختر) في مشيته، فأمسكه النبي عليه السلام ذات يوم وأخذه بمجامع ثيابه فقال له: "أَولَى لَكَ فأَولى ثُمّ أَولَى لَكَ فأَولَى"، فرد أبو جهل قائلا : "يا محمد ما تستطيع أنت وربك فيّ شيئا، إني لأعزّ من مشى بين جبلَيها" (جبلي مكة). . وعنه أيضا قال : لما نزلت عليها تسعة عشر قال أبو جهل لقريش : ثكلتكم أمهاتكم يخبركم ابن أبي كبشة أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدهم ، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ ومهما يكن من اختلاف هذه الروايات فإن سياق السورة متصل بسياق التي قبلها والتي نزلت هي الأخرى في أشخاص من زعماء قريش.

- نص السورة

1- مقدمة: يوم القيامة، " قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ[1] (النفي لتأكيد الإثبات: يوم الحساب)، وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ[2] (التي تحاسب صاحبها)! أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ[3] (حين البعث)؟ بَلَى، قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ[4] (أجزاءه الصغيرة. والسؤال وجوابه جواب القسم)

2- مشهد آخر من مشاهد القيامة

بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ[5] (أن يواصل تكذيب البعث فيمضي في فجوره) يَسْأَلُ أَيَّانَ (متى) يَوْمُ الْقِيَامَةِ[6]؟ (استهزاء وإنكارا، والجواب:) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ[7] (بُهت)، وَخَسَفَ الْقَمَرُ[8]، وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ[9] (ذهب ضوءهما معا)، يَقُولُ (هذا) الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ: أَيْنَ الْمَفَرُّ[10] (من هذا الظلام، من قيام الساعة).

3- الحساب كائن، لا مجال للإنكار أو الاعتذار

كَلَّا، لَا وَزَرَ[11] (لا ملجأ)، إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ[12] (المآب): يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ (يوم القيامة) بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ[13]؛ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ[14] (هو نفسه يعرف ما فعل)، وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ[15] (حتى ولو التمس لنفسه أعذارا. يقال له وهو يعتذر ويتلعثم حين ينبأ بما قدم وأخر): لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ[16]، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ[17] (وقراءته عليك)، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ[18]، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ[19]"(1) : (يقال له في هذا البيان) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ[20]، وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ[21]!

1- جل المفسرين على أن هاتين الآيات (16-19) عبارة عن جملة اعتراضية، ويفسرونها على ضوء روايات متعددة بنيت على هذه الآيات، ومفادها أن النبي كان يحرك لسانه أثناء نزول الوحي عليه، مكررا ما ينزل خوف نسيانه، وأنه ربما كان يفعل الشيء نفسه أثناء نزول هذه السورة فجاءت الآية "لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ..."، كجملة اعتراضية تطلب منه أن يمسك عن ذلك. ثم تواصلت السورة مستمرة في سياقها الأصلي. غير أن هذا التأويل الذي أخذنا به في (التعريف بالقرآن الكريم) محل نظر : فالمفروض أن النبي عليه السلام كان يأمر بوضع كل آية في سورة يسميها لكتاب الوحي، ثم إنه كان يراجع القرآن حتى لا يكون هناك قلق في عباراته، كما هو الحال هنا مع هذه "الجملة الاعتراضية". من أجل ذلك نرجح رأي القفال كما ذكره الفخر الرازي في تفسيره. قال: "إن قوله: "لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ" ليس خطابا مع الرسول عليه السلام بل هو خطاب مع الإنسان المذكور في قوله: "يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ" (القيامة: 13)، فكان ذلك للإنسان حال ما ينبأ بقبائح أفعاله وذلك بأن يعرض عليه كتابه فيقال له: "اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبا" (الإسراء 14)، فإذا أخذ في القراءة تلجلج لسانه من شدة الخوف وسرعة القراءة، فيقال له لا تحرك به لسانك لتعجل به، فإنه يجب علينا بحكم الوعد أو بحكم الحكمة أن نجمع عملك عليك وأن نقرأه عليك، فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلت ذلك، ثم إن علينا بيان أمره وشرح مراتب عقوبته". وأضاف القفال: "فهذا وجه حسن، ليس في العقل ما يدفعه وإن كانت الآثار غير واردة به". ونحن نرجح هذا التفسير ليس فقط لأنه يعالج قلق العبارة الذي تحدثه مثل هذه "الجملة الاعتراضية"، بل أيضا لأنه يحافظ على وحدة السياق بين السابق واللاحق، بين قوله: "ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ" وقوله: "كَلَّا بَلْ تحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ" ... فالبيان الذي سيعطى لهم هو أنهم كانوا يحبون الدنيا ويفضلونها على الآخرة...

4- فرحون وخائفون ... جزاء على سلوكهم

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ[22]، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ[23] (2)، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ[24] (كالحة من شدة الخوف)، تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ[25] (أن يكون مصيرها داهية عظيمة). كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ[26] (إذا بلغ النفس أعلى الحنجرة وبدأت الحشرة)، وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ[27] (هل هناك من يكتب رقية لعلاجه)، وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ[28] (وتيقن أنه الموت)، وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ[29] (ساقا رجليه، تيقن أنه)، إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ[30] (يساق إلى الحساب، وسيتبين أنه): فَلَا صَدَّقَ (لم يكن يصدق على الفقراء) وَلَا صَلَّى[31] (ولم يكن يدعو الله)، وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى[32] (كذب بالقرآن وأعرض عنه)، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى[33] (يتبختر. هذا الرجل نقول له): أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى[34]، ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى[35] (ويل له، ثم ويل له).

5- خاتمة: الذي خلقه أول مرة ... يعيده إلى الحياة بعد الممات

أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى[36] (أن يهمل، فلا يحاسب)، أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى[37]، ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى[38] (خلق الله منها الجنين وسوى تكوينه)، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى[39]، أَلَيْسَ ذَلِكَ (الله الذي فعل هذا) بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى[40]؟ (أليس من خلق الإنسان أول مرة بقادر على أن يحييه بعد موته).

- تعليق:

مسألة الرؤية

قوله تعالى : "إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ" (أي أن أهل الجنة ستكون وجوههم يوم القيامة "إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ")، موضوع اختلاف كبير بين المعتزلة وأهل السنة بما فيهم الأشاعرة. ذلك أن نظرية التوحيد عند المعتزلة تقتضي نفي الصفات، أي عدم وصف الله بصفة زائدة عن ذاته، لأن ذلك يقتضي أن يكون موصوفا بها منذ الأزل، إذ لا يلحقه التغير من أي وجه، واتصافه بها منذ الأزل معناه أنها قديمة مثله، وهذا يؤدي إلى تعدد القدماء وهو الشرك بعينه.

2 - تأويل هذه الآية موضوع خلاف بين المعتزلة من الأشاعرة وغيرهم. انظر التعليق.

ولذلك قالوا صفات الله هي عين ذاته، وذاته ليست جسمية وبالتالي لا يمكن أن تكون موضوعا للرؤية البصرية. ومن هنا قالوا بضرورة تأويل قوله تعالى "إلى ربها ناظرة" تأويلا ينزهه عن أن يكون موضوعا للرؤية البصرية التي هي خاصة بالمحسوسات، فقالوا: إن معنى "ناظرة" هو: منتظرة، بمعنى تنتظر ثواب ربها. وهذه المسألة تسمى في علم الكلام بـ"مسألة الرؤية". وقد عرض الرازي المتكلم الأشعري لهذه المسألة فسرد حجج المعتزلة ثم رد عليها. لنتعرف على ذلك أولا ثم نقول رأينا في الموضوع. يمكن تلخيص ما قاله الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية كما يلي، قال:

"اعلم أن جمهور أهل السنة يتمسكون بهذه الآية في إثبات أن المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة. أما المعتزلة فيعترضون على ذلك بحجج من الاستعمال اللغوي وبأخرى من التأويل: فعلى المستوى الأول قالوا: النظر المقرون بحرف "إلى" ليس اسماً للرؤية، بل لمقدمة الرؤية، وهي تقليب الحدقة نحو المرئي التماسا لرؤيته، ونظرُ العين بالنسبة إلى الرؤية كنظر القلب بالنسبة إلى المعرفة، وكالإصغاء بالنسبة إلى السماع.

قالوا: والذي يدل على أن النظر ليس اسماً للرؤية: قوله تعالى: "وَتَـرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ" (الأعراف 198): أثبت النظر حال عدم الرؤية، فدل على أن النظر غير الرؤية. ثم إن النظر يوصف بما لا توصف به الرؤية، يقال: نظر إليه نظراً شزراً، ونظر غضبان، ونظر راض، وكل ذلك لأجل أن حركة الحدقة تدل على هذه الأحوال، ولا توصف الرؤية بشيء من ذلك، فلا يقال: رآه شزراً، ورآه رؤية غضبان، أو رؤية راض. كما يقال انظر إليه حتى تراه، ونظرت إليه فرأيته، وهذا يفيد كون الرؤية غاية للنظر، وذلك يوجب الفرق بين النظر والرؤية. يقال أيضا دُور فلان متناظرة، أي متقابلة، فمسمى النظر حاصل ههنا، ومسمى الرؤية غير حاصل. وبناء على ذلك يكون قوله تعالى: "إِلَـى رَبِّهَـا نَـاظِرَةٌ" معناه عند المعتزلة: أنها تنظر إلى ربها خاصة، ولا تنظر إلى غيره. ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر، ولا تدخل تحت العدد في موقف القيامة، فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم لأنهم الآمنون الذين "لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ" (يونس 62). فلما دلت الآية على أن النظر ليس إلا إلى الله، ودل العقل على أنهم يرون غير الله، علمنا ان المراد من النظر إلى الله ليس هو الرؤية. يؤيد ذلك قوله تعالى: "وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (آل عمران 77) ولو قال: لا يراهم كفي، فلما نفى النظر، ولم ينف الرؤية دل على المغايرة، فثبت بهذه الوجوه، أن النظر المذكور في هذه الآية ليس هو الرؤية". ذلك ما يستدل به المعتزلة من المنقول لإثبات رأيهم.

أما ما يثبتون به المسألة نفسها على مستوى التأويل، مستوى المعقول : فيعرضه الرازي قائلا: "هو من وجهين الأول:

أن يكون الناظر بمعنى المنتظر، أي أولئك الأقوام ينتظرون ثواب الله، كقوله تعالى: "فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ" (النمل 35) أي منتظرة، وقوله: "وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ" (البقرة 280) أي في انتظار المسيرة.

الوجه الثاني لاستدلال المعتزلة عقليا: أن يضمر المضاف، والمعنى : إلى ثواب ربها ناظرة.

والوجه الثالث من التأويل: أن يكون معنى: "إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ" أنها لا تسأل ولا ترغب إلا إلى الله، وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام: "اعبد الله كأنك تراه"، فأهل القيامة لشدة تضرعهم إليه وانقطاع أطماعهم عن غيره صاروا كأنهم ينظرون إليه.

يرد الرازي على هذه الحجج بحجج أخرى:

الأولى: ما حكى الله تعالى عن موسى عليه السلام وهو قوله: "أَنظُرْ إِلَيْكَ" (الأعراف 143) فلو كان النظر عبارة عن تقليب الحدقة إلى جانب المرئي، لاقتضت الآية أن موسى عليه السلام أثبت لله تعالى وجهة ومكاناً وذلك محال.

الثانية: أنه جعل النظر أمراً مرتباً على الإرادة فيكون النظر متأخراً عن الإرادة، وتقليب الحدقة غير متأخر عن الإرادة، فوجب أن يكون النظر عبارة عن تقليب الحدقة إلى جانب المرئي.

الحجة الثالثة: إذا سلمنا أن النظر عبارة عن تقليب الحدقة نحو المرئي التماساً لرؤيته، فإنه لما تعذر حمله على حقيقته وجب حمله على مسبِّبه وهو الرؤية، إطلاقاً لاسم السَّبَب على المسبِّب، وحمله على الرؤية أولى من حمله على الانتظار، لأن تقليب الحدقة كالسبب للرؤية، ولا تعلق بينه وبين الانتظار، فكان حمله على الرؤية أولى من حمله على الانتظار. ومع أن النظر الوارد بمعنى الانتظار كثير في القرآن، لكنه لم يقرن البتة بحرف "إلى" كقوله تعالى: "انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ" (الحديد 13) وقوله: "هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ" (الأعراف 53) وقوله : "هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ" (البقرة: 210).

ويضيف الرازي: والذي ندعيه أن النظر المقرون بحرف إلى، المُعدَّى إلى الوجوه، ليس إلا بمعنى الرؤية أو بالمعنى الذي يستعقب الرؤية ظاهر، فوجب أن لا يرد بمعنى الانتظار دفعاً للاشتراك... أما القول بأن المقصود هو انتظار ثواب ربها فهذا ترك للظاهر.

ذلك هو "كلام" المعتزلة والأشاعرة في مسألة الرؤية. أما نحن فنرى أن الذي أدى إلى الانسياق مع هذا النوع من "الكلام" هو الانغلاق في الألفاظ وإهمال السياق. ذلك أن قوله تعالى : "وُجُوهٌ يَوْمَئذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ"، ليس قولا مستقلا معزولا، بل هو مرتبط بما بعده أعني قوله : "وَوُجُوهٌ يَوْمَئذٍ بَاسِرَةٌ، تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ": فلفظ "ناضرة" يقابله لفظ "باسرة" أي ضده (وهو كالحة)، كما أن لفظ "ناظرة" يقابله لفظ "فاقرة" بمعنى: عقاب. وغني عن البيان القول :إن انتظار العقاب ضده انتظار الثواب. وإذن فالسياق التقابلي يقتضي أن يكون مقابل "أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ" (العقاب) هو "إلى ربها ناظرة": "تنتظر ثواب ربها". وهناك من المعتزلة من اقترح قراءة عبارة "إلى ربها ناظرة" هكذا: "آلاء ربها ناظرة"، أي تنتظر نعم ربها! ولكن الانتقال من "إلى" إلى "آلاء" يصعب تبريره، حتى ولو استحضرنا اختلاف القراءات، وعدم التنقيط في الكتابة العربية.

31- سورة الهمزة

- تقديـــم

ذكر المفسرون أن سورة "الهمزة" هذه قد نزلت في واحد -أو أكثر- من زعماء قريش ممن كانوا يقومون بحرب نفسية -بتعبيرنا المعاصر- على النبي وأصحابه، بغية إفساد العلاقات بينهم وزرع الشك في نفوس بعضهم ضد بعض. وربما كان هؤلاء المحاربون للدعوة المحمدية يؤجرون من يقوم بنشر دعايات من هذا القبيل، لورود الإشارة إلى المال مباشرة بعد ذكر الهمزة اللمزة. ومِمَّن ذكر من هؤلاء أمية بن خلف. ففي السيرة لابن إسحاق : "كان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله (ص) همزه ولمزه، فأنزل الله "ويل لكل همزة لمزة"، السورة كلها".

- نص السورة

1- وعيد للذين يحابون الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ (مغتاب للناس) لُمَزَةٍ[1] (يعيب الناس)، الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ[2]، يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ[3] (في الدنيا).

2- من مشاهد جهنم

كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ[4] (سيقذف به يوم القيامة في نار جهنم)، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ[5]! (تهويل)، نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ[6]، الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ[7] (تستغرق الجسم كله حتى القلوب)، إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُوصَدَةٌ[8] (مغلقة)، فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ[9] (مسندة بأعمدة: محكمة الإغلاق).

- تعليق

هذه السورة من سور هذه المرحلة بامتياز: ترد على شخص آذى النبي عليه السلام، انطلاقا من مبدأ "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

يَرَهُ"، وهو المبدأ الذي يحكم يوم الحساب. والهمز واللمز من أعمال السوء ولكن ثقلهما بالقياس إلى الكبائر، كالقتل مثلا، أشبه بثقل الذرة. لكن بما أن الهمز واللمز كان بقصد إيذاء النبي (ص) ومحاربة الدعوة فقد جاء العقاب في مستوى هذا القصد: "نار الله الموقدة" : جهنم.

32- سورة المرسلات

- تقديـــم

في البخاري وغيره عن ابن مسعود قال : "بينما نحن مع النبي صلى الله عليه وسلّم في غار بمِنى إذ نزلت عليه سورة "وَالْمُرْسَلاَتِ عُرْفاً"، فإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه -وإن فاه لرطب بها- إذ خرجت علينا حية! فقال النبي صلى الله عليه وسلّم: اقتلوها فابتدرناها فسبقتنا فدخلت جحرها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم وُقِيَت شرَّكم كما وُقيتم شرها. ومع أن هذا الخبر لا يتصل بمضمون السورة فإن تحديد مكان نزولها من طرف ابن مسعود يفيد أن ذلك حدث عندما كان النبي عليه السلام مختبئا في منى مع بعض الصحابة. ولا يستبعد أن يكون ذلك قد حدث في هذه المرحلة التي بدأ يشتد فيها ضغط قريش على الرسول (ص). وهناك من المفسرين من قال إن آيات منها نزلت في المدينة، فعن مقاتل أنه قال : نزل قوله تعالى : "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ" (الآية 48) في شأن وفد ثقيف حين أسلموا بعد غزوة هوازن وأتوا المدينة فأمرهم النبي بالصلاة، فقالوا: لا نُجَـبِّــي (من جب سنم الناقة : قطعه) فإنها مسبَّة علينا. فقال لهم: لا خير في دِين ليس فيه ركوع وسجود". وهذا ليست له علاقة مباشرة بنزول الآية، فالمقصود بالركوع في السورة هو الصلاة مطلقا، وجواب النبي مستقل عن نزول السورة، ولا يتناقض مع كون السورة نزلت في مكة. والضمير في "وإذا قيل لهم" يعود هو والضمائر السابقة له على المشركين المكذبين.

- نص السورة

1- مقدمة: إن ما توعدون به لواقع ...

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا[1] (الملائكة تحمل المعرفة: الوحي)، فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا[2] (سريعة الحركة)، وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا[3] (تنشر أجنحتها)، فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا[4] (تفرق بين الناس قاصدة الرسول)، فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا[5] (القرآن)، عُذْرًا أَوْ نُذْرًا[6] (إعذارا أو

إنذارا)، **إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ**[7] (جواب القسم: أقسم بالوحي، وهو ينزل من السماء، بأن الحساب والعقاب واقع على المكذبين لا محالة، وذلك عند قيام الساعة التي سيكون مشهدها كالتالي).

2- كيف سيقع ما توعدون به ...

فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ[8] (ذهب ضياؤها)، **وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ**[9] (شقت وصدِّعت)، **وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ**[10] (فكانت فتاتا)، **وَإِذَا الرُّسُلُ وُقِّتَتْ**[11] (بلغ ميقاتها الذي كانت تنتظره)، **لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ**[12] (لليوم الذي حدد أجلا لاجتماعها للإدلاء بشهادتها)، **لِيَوْمِ الْفَصْلِ**[13] (وهو يوم الحساب والجزاء)، **وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ**[14]! **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**[15] (أكبر السوء ينزل يومئذ بالمكذبين بالبعث وبالرسالات: جواب الشرط).

3- الهلاك الذي كان مصير الأولين سيكون مصير قريش...

أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ[16] (الذين كذبوا رسلهم)، **ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ**[17] **كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ**[18] (المشركين): **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**[19]. **أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ**[20] (نطفة ضعيفة)، **فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ**[21] (رحم المرأة)، **إِلَى قَدَرٍ** (وقت) **مَعْلُومٍ**[22]، **فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ**[23] (حددنا وقت ميلاده ونحن القادرون على تقديره سلفا)، **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**[24] (بأن الله هو الخالق). **أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا**[25] (وعاء)، **أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا**[26] (منازل للأحياء وقبورا للأموات)، **وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ** (جبالاً ثابتات فيها)، **وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا**[27] (عذبا من عيونها، وتلك كلها أدلة على وجود الله)، **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**[28] (بهذه النعم).

4- والويل بالمكذبين بجهنم

(عندما تقوم الساعة يقال لهؤلاء المكذبين) **انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ**[29] (إلى الحساب والعقاب)، **انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ**[30] (دخان جهنم المتشعب)، **لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ**[31] (لا يقي لا من الحرارة ولا من الاحتراق)، **إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ**[32] (خشب كان يُقطع في الجاهلية ذراعا وأقلّ أو أكثر، يُعْمَد به)، **كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ**[33] (قطع من النحاس)، **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**[34] (بالبعث). "**هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ**[35] (لا يستطيعون الكلام من هول المشهد)، **وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ**[36]، **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**[37] (بهذا اليوم). **هَذَا يَوْمُ**

الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ[38] (الذين قصصنا أحوالهم) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِي[39]، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ[40].

5- والويل للمكذبين بجنة النعيم

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ[41] (ظلال أشجار وعيون أنهار)، وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ[42]، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[43]، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[44]، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ[45] (بما أخبرتْ به رسلي من نعيم الجنة).

6- خاتمة: والويل لكم أيها المكذبون برسالة محمد.

كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ[46] وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ[47]. وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ[48] (لا يأتمرون بأوامر الله)، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ[49]. فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ[50]؟ (بعد هذا الذي سبق: حديث هذا القرآن).

- تعليق

واضح أن هذه السورة تنتمي بموضوعها وسياقها إلى السور السابقة وإن كانت تتميز بلهجتها الحادة ضد المكذبين وتكرار الوعيد لهم "ويل للمكذبين". كما تشترك مع السور السابقة في التمهيد لموضوعها بالقسم: قسم بالوحي وهو ينزل إلى الرسول من السماء ليؤكد أن البعث الذي يكذب به مشركو مكة واقع لا محالة؛ يلي ذلك القسم رسمُ مشهد لقيام الساعة يؤكد أن المصير الذي حل بالأقوام الماضية التي كذبت رسلها سيحل بالمكذبين بالرسول محمد (ص)، والله قادر على ذلك : فهو الذي خلق الإنسان ورعاه في جميع أطوار حياته، وهو الذي خلق الأرض وجعلها منازل للأحياء وقبورا للأموات، وجعل فيها جبالا تحفظ توازنها وعيونا من الماء العذب يشرب منها الأحياء، وعندما تقوم القيامة ويتم الحساب ينقسم المبعوثون إلى فريقين، فريق يدفع به نحو النار وفريق يقاد نحو الجنة.

هذا وقد اختلف المفسرون في الأشياء المقسم بها في هذه السورة. فريق فسر "المرسلات" وما تلاها من الأوصاف المرتبطة بها تفسيرا حسيا فقال إن المقصود بها "الرياح" الخ. وفريق فسرها تفسيرا معنويا فقال إن المقصود هم "الملائكة". وقد رجحنا الرأي الأخير لأن قوله "فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا، عُذْرًا أَوْ نُذْرًا" لا يستقيم معناه -بدون تكلف تأويل- إذا صرف لغير الملائكة. أما كلمة "عرفا" فقد فسرها بعضهم بعرف الفرس وبعضهم بـ" أمر الله ونهيه"، وقد اخترنا هذا الأخير، باعتبار أن من معاني العرف في اللغة : المعرفة. وإذن فالمرسلات عرفا: معناه الملائكة المرسلات بالمعرفة أي بالوحي.

33- سورة ق

- تقديم

لم يرد شيء حول مناسبة نزول هذه السورة، أما خطابها فيدور حول الموضوعات التالية: إنكار قريش للبعث بعد الموت وإبطال حجتهم: قالوا كيف يمكن أن نحيا من جديد بعد أن نكون قد متنا وتحولت أجسامنا إلى تراب؟ ويأتي الرد عليهم بأن الله يعلم ما يأكل التراب منهم بعد الموت، ولديه كتاب فيه كل شيء مكتوب ومحفوظ لا يفنى ولا يزول، بما في ذلك مقدار أجسامهم وشكلها الخ. هذا ما أخبرهم به في القرآن، ولكنهم عاندوا فكذبوه وأبوا الاعتراف بالبعث، مع أنهم يعترفون بالله وبكونه هو الذي خلقهم وخلق السماوات والأرض. فهم في الحقيقة في حيرة من الأمر: يعترفون بأن الله هو خالقهم في الدنيا، ولا يعترفون بأنه سيعيد خلقهم في الآخرة.

وتعود السورة فتنبههم إلى أن خروجهم من قبورهم بعد الموت ليوم الحساب ليس بأصعب من خلق السماوات والأرض، وإنزال المطر، وإنبات النبات الذي يحصدون، والشجر الذي من ثماره يقطفون، رزقا لهم، منه غذاؤهم.

وكما جرت العادة في هذه السور، بل في القرآن كله، يأتي التذكير بالصيرورة التاريخية ليكمل شهادة نظام الطبيعية. وهكذا فكما أجرى الله الأشياء على سنة ونظام على مستوى الطبيعة فعل الشيء نفسه على مستوى مجرى حياة البشر: خلق الإنسان وبين له طريق الصواب وطريق الخطأ، وتركه يختار ويعمل إلى أن يحين وقت الحساب، فحينئذ يُبعَث ليُجزى خيرا إن كان الخير غالبا على ميزان أعماله، وشرا إن كان الشر أغلب. أما المكذبون بالرسل، أولئك الذي كادوا لهم وعملوا على تصفيتهم، فقد جاءهم العقاب في الدنيا قبل الآخرة.

بعد ذلك تعود السورة إلى تفصيل القول في مشهد للبعث والحساب والجزاء، منطلقة من تسجيل أفعال الناس في سجلات محفوظة، يؤتى بها يوم القيامة ليحاسبوا على أساسها : كل فرد يصطحبه الشيطان الذي وسوس له فأغراه في الدنيا ليتبرأ منه في الآخرة، ومعهما ثالث هو الملاك الحفيظ (المسجل) لأعمال الشخص المحاسب. بعد ذلك يصدر الحكم فيلقى بذلك الشخص إمّا في جهنم وإما تفتح أمامه أبواب الجنة.

وتختم السورة بتوجيه الخطاب إلى الرسول عليه السلام توصيه بالصبر وتضرب له مثلا بالله الذي خلق السماوات والأرض وما بينها في ستة أيام دون أن يشعر بالتعب ولا بالإعياء، فعلى الرسول أن يقتدي بالله، فلا ينبغي له أن يستسلم. وعليه أن يتنبه إلى أن شق الأرض وإخراج الموتى أحياء كما خلقهم أول مرة أسهل من خلق السموات والأرض، عليه إذن أن ينتظر ويواصل أداء رسالته بصبر وثبات، فليس له أن يجبر أحدا على الإيمان بالقوة، وإنما عليه أن يواصل مهمته، مهمة الإنذار والتبشير اعتمادا على القرآن وما فيه من وعد ووعيد.

- نص السورة

1- مقدمة: قريش تنكر البعث ...

بسم الله الرحمن الرحيم

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ[1] (عالي القدر. وجواب القسم مضمر: لتبعثن)! بَلْ عَجِبُوا (قريش) أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ (هو محمد) فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا (الذي ينذرنا به محمد من البعث والقيامة) شَيْءٌ عَجِيبٌ[2]! أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا! ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ[3] (تلك مسافة طويلة بين تحولنا إلى تراب بعد الموت وبين رجوعنا أحياء بعد ذلك؟ والجواب:)

2- أفلم ينظروا إلى خلق السماء والأرض ...

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ (ما يأكله التراب من أجسامهم بعد الموت) وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ[4] (كل شيء فيه محفوظ)؛ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ (الذي في القرآن) لَمَّا جَاءَهُمْ (ينذرهم بالبعث) فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ[5] (ملتبس مختلط). أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ[6] (من صدع أو فتوق)! وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ (جبالا تجعلها راسية هادئة) وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ[7] (حسن)! تَبْصِرَةً (تنبيها) وَذِكْرَى (عبرة) لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ[8] (مجيب). وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ[9] (القمح والشعير)، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ (طوال) لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ[10] (هو ثمرها قبل أن يخرج من غلافه ويكون كالأسنان منضدا بعضه إزاء بعض) -رِزْقًا لِلْعِبَادِ- وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا (أرضا قاحلة)، كَذَلِكَ الْخُرُوجُ[11] (كذلك نخرجكم من قبوركم).

3- أقوام كذبت الرسل فحق عليهم الوعيد

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ، وَأَصْحَابُ الرَّسِّ (=البئر: قوم دسوا نبيهم في بئر) وَثَمُودُ[12]، وَعَادٌ، وَفِرْعَوْنُ، وَإِخْوَانُ لُوطٍ[13]، وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ (الشجر الكثيف، بجانب مدين)، وَقَوْمُ تُبَّعٍ (رجل من اليمن كان قومه يعبدون الأوثان، فصلح أمره هو)، كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ[14] (أن يكون مصيرهم جهنم). أَفَعَيِينَا (أتعبنا وعجزنا) بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ (في الدنيا)؟ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ (حيرة) مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ[15] (في الآخرة).

4- أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ : مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ[16]: إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ (ملكان) عَنِ الْيَمِينِ (يتلقى الحسنات ويكتبها) وَعَنِ الشِّمَالِ (يتلقى السيئات، كل منهما) قَعِيدٌ[17] (راصد)! مَا يَلْفِظُ (الإنسان) مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ[18] (مقتدر). وَجَاءَتْ (ستأتي) سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ (بانقضاء أجله فيقال له:) ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ[19] (تهرب، أيها الإنسان). وَنُفِخَ فِي الصُّورِ (فقامت القيامة) ذَلِكَ يَوْمُ (تنفيذ) الْوَعِيدِ[20]، وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ (سائقها: شيطانها) وَشَهِيدٌ[21] (يشهد عليها بما فعلت، هناك يقول الله له)، لَقَدْ كُنْتَ (أيها الإنسان) فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ (سجل أعمالك) فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ[22] (حاد لا يكل: أنت ترى جيدا ما فعلت من سيئات). وَقَالَ قَرِينُهُ (سائقه -شيطانه- الذي كان يسوقه إلى طريق الضلال: ربي) هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ[23] (ما لدي عنه محفوظ. قال الله للقرين/السائق وللشهيد): أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ[24] : مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ[25]، الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ! فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ[26]. قَالَ قَرِينُهُ (شيطانه) رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ[27]. قَالَ (الله) لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ (أيها المشركون أنتم والموكلون بكم)، وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ[28] (سبق أن أنذرتكم)! مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ! وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ[29]. يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ[30]! وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ[31] (قرِّبت منهم)، هَذَا مَا تُوعَدُونَ: لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ[32] (لكل منكم حفيظ سجل أعماله، ويقال لهم). مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ (قبل يوم القيامة) وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ[33] (مخلص)، (يقال لهم) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ[34]. لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ[35]. وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ (أمة) هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ

بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ (بحثوا) هَلْ مِنْ مَحِيصٍ[36] (مُنج من الهلاك)! إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ (عقل) أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ (استمع لما أخبرنا به) وَهُوَ شَهِيدٌ[37] (واع متفهم).

5- خاتمة: الله خلق السماوات، ولم يتعب فلا يتعبك ما يقولون ...

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ[38] (إعياء)، فَاصْبِرْ (يا محمد) عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ[39]، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ[40] (بعد الغروب) (1). وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِي مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ[41]، يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ (صيحة القيامة) بِالْحَقِّ، ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ[42] (خروج أهل القبور). إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ، وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ[43]، يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ[44] (نجمعهم بسهولة) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ (بمتسلط)! فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ[45].

- تعليق :

القسم بالحروف

تبتدئ هذه السور بالقسم: "ق والقرآن المجيد". والافتتاح بالقسم شيء ورد في السور المكية خاصة، وهو أنواع : أقسام بأسماء بعض الظواهر الكونية مثل الضحى، العصر، الشمس، الليل، الفجر، البروج، الطارق (النجم الثاقب)؛ وأقسام بأسماء بعض النباتات والأشجار مثل والتين والزيتون؛ أو بعض الحيوانات مثل العاديات (الخيل) والصافات والنازعات والمرسلات والذاريات (عند من يعتبرها حيوانات)؛ وأقسام ببعض حروف الهجاء، مثل ق، ص، ن الخ. كما استعمل القرآن بعض الحروف كفواتح للسور. ومجموع ما وقع من حروف الهجاء أوائل لسور أربعة عشر حرفا، تكرر بعضها ليرتفع عدد فواتح السور بالحروف إلى تسع وعشرين سورة، أغلبها سور مكية. فواتح بعض السور وردت بحرف واحد مثل ق، ص، وبعضها بحرفين مثل حم، طس، وبعضها بثلاثة أحرف مثل الم، الر، وبعضها

---

1 - ذكروا أن الصلاة كانت في مكة مرتين في اليوم : قبل غروب الشمس (أي العصر) وقبل طلوعها (أي الصبح).

بأربعة أحرف مثل المر، المص، وبعضها بخمسة أحرف وهي سورة كهيعص، وسورة حم عسق.

وقد ذهب المفسرون ومصادرهم كل مذهب في محاولة "الكشف" عن سر هذه الحروف التي وردت في فواتح السور، فكان منهم من قال: إنها فواتح سور، واكتفى بذلك؛ وكان منهم من قال: ذلك سر لا يعلمه إلا الله. وفي الطرف المقابل لهؤلاء نجد كثيرين اعتبروها رموزا ففتحوا لأنفسهم مجالات للتخمين لا حصر لها ولا حد. لكن "التفسير الرمزي" كيفما كان نوعه سرعان ما يتضح فشله، لأن ما قد ينطبق على حرف أو حرفين يصعب تطبيقه على ثلاثة أحرف أو أربعة أو خمسة. وبمعنى آخر: إنه ليست هناك قاعدة "كلية" يمكن أن تنطبق على الحروف التي وردت كفواتح للسور.

ولعل أقرب ما قيل في هذه الحروف إلى الصواب هو أنها استعملت للتنبيه، تنبيه السامع وجلب اهتمامه، وأن العرب كانت تفعل ذلك، وأنه كان من عادتهم. ومما يرجح هذا أن الصحابة سألوا النبي (ص) عن كثير من الأشياء في القرآن ولكن لم يرد عنهم أنهم سألوا عن معنى هذه الحروف مع تكرارها وورودها على رأس كثير من السور. وأيضا لو لم يكن ذلك من معهود العرب لأنكره خصوم الدعوة المحمدية من قريش، وهم كانوا يبحثون عن كل ما يمكن أن يطعنوا به في القرآن. وفي هذا الصدد قال القاضي أبو بكر بن العربي: "لولا أن العرب كانوا يعرفون لها مدلولاً متداولاً بينهم لكانوا أول من أن أنكر ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم، بل تلا عليهم "حم فصلت" و"ص" وغيرهما فلم ينكروا ذلك مع تشوفهم إلى عثرة وحرصهم على زلة".

34- سورة البلد

- تقديـــم

من القَسَم بالقيامة والنفس اللوامة وبالقرآن المجيد ننتقل إلى القسَم بمكة. لقد عالجت سورة "ق" مسألة البعث بتفصيل، وهي ترد على منكريه من قريش جملة، دون تخصيص. وتأتي هذه السورة -البلد- لترد على شخص معين، يبدو منه أنه يخشى أن يكون ما يقوله محمد (ص) بشأن البعث والحساب صحيحا، فيريد أن يتوب عما صدر منه من أفعال منهي عنها ويتدارك أخرى مطلوبة، ولكنه لا يفعل ذلك بصدق وإخلاص. كان هذا الرجل من كبار أغنياء قريش ووجهائهم، كان ذا مال وبنين. كان يظهر أنه يتصدق على الفقراء بينما هو في الواقع بخيل بماله، فكان قلبه يتأرجح ما بين الخوف من البعث والحساب والعقاب، وما بين حبه للمال وحرصه على جمعه.

لنقرأ السورة أولا، ثم نعود بعد إلى شرح حال هذا الرجل في التعليق.

- نص السورة

1- مقدمة: الإنسان في كبد!

بسم الله الرحمن الرحيم

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ[1] (مكة) (1)، وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ[2] (جملة اعتراضية)(2)، وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ[3] (3)، لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ[4] (في مشاقة مع نفسه : جواب

1- سبق القسم بـ"هذا البلد الأمين" (مكة) في سورة التين أعلاه (رقم 26)

2- ذهب معظم المفسرين إلى القول إن المعنى هو : "أنت به (بهذا البلد) حلال لك تقتل فيه من أردت، وأسِرْ من أردت. حجتهم في ذلك : اللغة، يقال "هو "حِلّ، وهو حلال، وهو حِرْم، وهو حرام (الطبري). وهذا الرأي لا يستقيم، لأن السورة مكية وأن القول بأن مكة حلال للنبي عليه السلام يفعل فيها ما يشاء من الأسر والقتل الخ، لا معنى له قبل فتحها. ومن=

القسم): أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ[5]؟ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا[6] (كثيرا في الكفارات، وهذا كذب)! أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ[7]؟ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ[8]، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ[9] ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ[10] (طريق الخير وطريق الشر، ويوم القيامة ستنطق جوارحه بما فعل).

2- اجتياز العقبة: تحرير رقبة

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ[11] (4) (لم يجتزها ولن يفعل)، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ[12] (هل تعرفها؟ إنها)، فَكُّ رَقَبَةٍ[13] (تحرير عبد)، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ[14] (يوم مجاعة)، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ[15] (من الأقارب)، أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ[16] (لا يملك إلا التراب)، ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ[17].

3-خاتمة: أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ[18] (الميامين)، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ[19] (المشئومين)، عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ[20] (مطبقة).

- تعليق

ركزت السورة كما رأينا على المسألة الاجتماعية، مع التفافة في خاتمتها إلى مسألة المعاد. ولعل هذه السور هي أكثر السور تركيزا على قضية العبيد والفقراء

أجل هذا قال بعضهم إن السورة مدنية، لكن وقع الاتفاق على أنها مكية. ونحن نميل مع الرأي القائل إن معنى "أنت حل بهذا البلد" هو "أنت مقيم فيه"، من الحل والترحال، مع أن هذا الرأي يقول عنه خصومه لا سند له من اللغة، إذ لا وجود في كتب اللغة لـ "الحِل" بالكسر، بمعنى الإقامة، وإنما معناه من الحلال ضد الحرام. وإذا سلمنا بهذا فإن أقرب المعاني إلى مضمون السياق هو القول : إن عبارة "وأنت حل بهذا البلد" جملة اعتراضية، بمعنى وأنت مستباح الآن من طرف المشركين، يؤذونك، في هذا البلد الذي يحرم فيه الظلم...

3- اعتبر بعضهم "ما" حرف نفي ففسروا الآية بالقول : "الوالد: الذي يلد، وما ولد: العاقر الذي لا يولد له". ونحن لا نرى مبررا لصرف المعنى إلى العاقر. فالأصل هو المعنى= الظاهر أي عملية التناسل، وهي خلق متجدد. والمعنى المناسب للفظ "الوالد" في السياق هو إبراهيم باني هذه المدينة، وبالتالي يكون "ما ولد" هو ذريته ابتداء من إسماعيل إلى محمد (ص).

4 - كثير من المفسرين قالوا إن المقصود بـ "العقبة" هي القيامة. وهي لم تقم بعد!؟ إن العقبة المعنية هنا لا تحتاج إلى تأويل إذ هي مشروحة بقوله: فك رقبة الخ أي: الكفارة.

والمساكين، وكانوا هم مادة الإسلام في هذه المرحلة من الدعوة. لقد جعلت السورة من هذه القضية السبيل الوحيد إلى "اقتحام العقبة"، إلى النجاة، مع شرط الإيمان وما يستلزمه من التواصي بالصبر والمرحمة. النجاة في الدنيا بالعيش بضمير مرتاح، والنجاة في الآخرة بالانضمام إلى صف الميامين، الذين وعدهم الله بالجنة والنعيم.

والواقع أن هذه السورة هي من السور التي تبدو للمستمع والقارئ واضحة المعنى بسيطة المبنى، ولكن ما أن يأخذ المرء في محاولة تحصيل معاني آياتها وتبين معقولية سياقها حتى يكتشف أن الأمر ليس بالسهولة التي تصور أول مرة. ولا شك أنه يندهش، إذا هو رجع إلى كتب التفسير، من تعدد التأويلات لكل لفظ من ألفاظها تقريبا، وهو تعدد تقف وراءه صعوبة اكتشاف معقولية العلاقة التي تربط بين الألفاظ والعبارات، أعني وجوه الاتصال فيما بينها.

من أجل ذلك كان لابد من "قراءة" هذه السور على ضوء ما قيل في سبب نزولها. ومع أن المفسرين الكبار يهتمون بذكر أسباب النزول، ويحاولون استقصاءها، إلا أن اهتمامهم باستقصاء معاني الألفاظ، كما يفعل أصحاب المعاجم، وذكر جميع التأويلات والافتراضات، دع عنك الميول المذهبية العقدية، كل ذلك يصرفهم، في معظم الأحوال، عن التركيز على فهم الألفاظ والعبارات داخل سياق السورة المدروسة، وفي إطار المرحلة التي تنتمي إليها هذه السورة من مراحل تدرج النزول.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى يشعر المرء إزاء هذه السورة، بما سبق أن نوهنا به، وهو أن كثيرا من الروايات التي تتحدث عن أسباب النزول تشي هي نفسها بما يطعن في صدقها، حتى أنها لتبدو وكأنها إنما حيكت من أجل "تفسير" لفظ أو عبارة. من ذلك مثلا الرواية التي تقول إن هذه السورة نزلت : "في رجل من بني جُمَحَ؛ كان يقال له أَبُو الأشدين، وكان يأخذ الأديم العُكَاظِيّ (جلد من عكاظ) فيجعله تحت قدميه، فيقول: من أزالني عنه فله كذا. فيجذبه عشرة حتى يتمزق الجلد ولا تزول قدماه"! وتضيف الرواية : "وكان من أعداء النبيّ صلى الله عليه وسلم"... وتروى هذه الحكاية كسبب نزول لسورة أخرى. وقيل نزلت في رجل من خصوم الدعوة المحمدية اسمه الأشد بن كلدة كان يقول إنه انفق أمواله في إيذاء محمد، وصرف الناس عنه... وقيل نزلت في رجل كان كلما ارتكب ذنبا جاء رسول الله وسأله ما عليه أن يفعل ليغفر الله له، فكان جواب النبي في كل مرة أن عليه أن يُكَفِّر بما يستوجبه ذنبُه من الكفارات، ولما كثر عليه ذلك قال مشتكيا: "لقد أهلكت مالاً لبداً في الكفارات والتبعات منذ أطعت محمداً".

ومع أن الرواية الأخيرة يمكن الطعن فيها بسبب أن "الكفارات" لم تكن قد نزلت بعد، فإنه من الممكن أخذ "الكفارة" هنا بمعناها العام الذي ورد من قبل في سورة الفجر، أعني إتيان المال من أجل التزكية والتطهر : "الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى" (الفجر 18)، وفي هذه الحالة تكون هذه الرواية، في نظرنا، أولى بالقبول لأنها تنسجم إلى حد كبير مع منطوق ومفهوم آيات السورة. فالرجل الذي تتحدث عنه هذه السورة كان في "كبد"، كان في مُشاقة مع نفسه، لم يستطع كبح جماع نفسه عن المعاصي، وكان يعتقد أن ماله قد جعل منه رجلا قويا لا يقدر عليه أحد، فكان يأتي المعصية بعد الأخرى ثم يذهب يطلب الفتوى من النبي (ص) لدى كل ذنب فيأمره النبي بالكفارة، ثم يدعي أنه فعل ذلك، وهو كاذب يعتقد أنه غير مراقب. هذا في حين أن جميع أعضاء جسمه -تقول السورة- ستشهد عليه يوم القيامة: عينيه، شفتيه، عقله الذي يميز به بين طريق الخير وطريق الشر، وهو بكذبه اختار طريق الشر، وعقله شاهد عليه.

هذا الرجل يواصل ارتكاب الذنوب وفي نفس الوقت لا يتطهر منها ولا يستطيع التوبة والالتزام بها، يريد أن يتخلص من الذنب ولكنه لا يسترخص ما به يمكن محو الذنب. وهذه "عقبة"، أو كما نقول اليوم تناقض وجداني وأزمة نفسية. ولا يمكن اجتيازها إلا بالكفارة فهي وحدها تمحو الذنوب. والكفارة هنا أحد أمور: عتق عبد، أو إطعام يتيم من أقاربه، أو مسكين بلغ به الفقر أن صار ملتصقا بالتراب. ولكن الكفارة لا تكفي وحدها، فهي لا تؤدي وظيفتها إلا بالتوبة، أي بالتعهد بعدم الرجوع إلى ارتكاب تلك الذنوب... إلا إذا صار صاحبها من المؤمنين الذين يصبرون فلا ينساقون مع شهواتهم، والذين يتعاونون فيرحم بعضهم بعضا. هؤلاء هم الذين مصيرهم الجنة، أما غيرهم ممن لا يفعل ذلك فمصيرهم جهنم.

34م1- سورة العلق (بقية)

- تقديـــم

سبق أن تحدثنا عن الآيات الأولى، من سورتي العلق والمدثر، التي كانت أول ما نزل منهما حسب ترتيب النزول، وكنا قد أخرنا الكلام عن الآيات الباقيات فيهما، وهي القسم الأكبر منهما، إلى الرتبة التي تناسبها بناء على المرحلة التي ينتمي إليها مضمونها والتطورات التي عرفتها الدعوة المحمدية. وهذا التأخير لا يعني الفصل بين أجزاء السورة الواحدة، فترتيب الآيات داخل السور توقيفي باتفاق الأغلبية من المفسرين والمؤلفين في علوم القرآن. غير أن هذا لا يغير شيئا من واقع أن القرآن قد نزل منجما، بشهادة القرآن نفسه[1]؛ وهذا يعني أن فهم القرآن يتطلب استحضار هذه الخاصية. وإذا كان من غير الممكن تطبيق ذلك على جميع السور، فإن التمييز في السورتين المذكورتين بين الآيات التي كانت أول ما نزل، باتفاق المفسرين، وبين الآيات التالية لها، إجراء منهجي ضروري في الفهم الذي يطمح إلى مصاحبة القرآن كما نزل بتساوق مع وقائع كفاح الرسول (ص) ومسار دعوته. وحفاظا على وحدة كل من السورتين سنعرض هنا نصوصهما كاملة كما هي في المصحف - وقد فعلنا الشيء نفسه عند تناولنا لآياتهما الأولى.

لقد أبرزنا في الآيات الخمس الأولى، من سورة العلق، مسألتين أساسيين: الأولى هي أن الخطاب الإلهي ورد فيها باسم "الرب" ("اقرأ بسم ربك")، وكما رأينا فقد استمر استعمال هذا الاسم وحده إلى أن نزلت سورة الإخلاص جوابا على طلب قريش من النبي أن "ينسب ربه". أما المسألة الثانية فهي أن الآيات الخمس المذكورة قد رسمت ملامح العقيدة الإسلامية من خلال "الخلق من علق، والتعليم بالقلم". والمقصود خلق الإنسان وبالتحديد محمد عليه السلام، إشارة إلى أن ربه الذي خلقه هو نفسه الذي يعلمه "ما لم يعلم"، أي القرآن. أما القسم الثاني من السورة وهو الذي سنعرض له الآن فالخطاب فيه موجه إلى أحد خصوم الدعوة المحمدية، بأسلوب

1- انظر التعريف بالقرآن الفصل السادس فقرة 5-ب

ومضمون يرتفعان إلى مستوى الرتبة التي وضعناه فيها هنا على مستوى الجدل مع المكذبين من قريش.

- نص السورة

أ- القسم الأول من السورة وقد شرحناه سابقا (سورة العلق رقم 1)

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" (1-5).

ب- القسم الثاني

1- طغيان أبي جهل ...

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ (أبو جهل) **لَيَطْغَى**[6] أَنْ رَآهُ **اسْتَغْنَى**[7] (طغيان أبي جهل راجع إلى اعتزازه بثروته)، إِنَّ **إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى**[8] (هو ينسى أن المآب في النهاية إلى الله حيث لا ينفعه ماله). **أَرَأَيْتَ** (يا للعجب) **الَّذِي يَنْهَى**[9] **عَبْدًا** (محمدا) **إِذَا صَلَّى**[10]! (2) **أَرَأَيْتَ** إِنْ كَانَ (هذا المصلي: محمد) **عَلَى الْهُدَى**[11] (على الطريق المستقيم) أَوْ أَمَرَ **بِالتَّقْوَى**[12] (بالعمل الصالح)!

2- لا تطعه ...

أَرَأَيْتَ (يا محمد) إِنْ كَذَّبَ (أبو جهل بالقرآن) **وَتَوَلَّى**[13] (وأعرض عن الدعوة) **أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى**[14] (وأن أعماله تسجل عليه)! **كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ** (إن لم يجعل حدا لإذايته) **لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ**[15] (سنأخذه يوم القيامة من مقدمة رأسه ونلقي به في جهنم) **نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ**[16] (ذلك الرأس المملوء كذبا وضلالا، وحينئذ) **فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ**[17] (أتباعه ومناصريه)، **سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ**[18] (الملائكة خزنة جهنم). **كَلَّا** (أعرض عنه وواصل صلاتك)، **لَا تُطِعْهُ، وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**[19] (من الله).

2- يتعلق الأمر بالصلاة كما كانت قبل فرض الصلوات الخمس عند الإسراء.

- تعليق

واضح أن الفرق كبير بين آيات القسم الأول التي نزلت من هذه السورة عند بداية الوحي وبين هذه الآيات، سواء على صعيد الأسلوب أو على صعيد المضمون. ففي القسم الأول كان الخطاب إلى النبي (ص) لأول مرة يبلغه ابتداء الرسالة ("اقرأ باسم ربك")، أما في القسم الثاني فالخطاب إلى عدو للنبي ومكذب برسالته. ويتفق معظم المفسرين على أن المعنيَّ هنا هو أبو جهل بن هشام، وهو من زعماء بني مخزوم المنافسين للهاشميين. وكان هذا الرجل من بين الذين آذوا النبي عليه السلام. كان ينهى الرسول عن الصلاة في المسجد الحرام، وكان الرسول يقاوم هذا الطغيان ويرد عليه بالقرآن. ومن المرويات في هذا الموضوع أن أبا جهل سأل أصحابه : "هل يُعفــر محمد وجهه (يضعه فوق التراب: يسجد) بين أظهركم؟ فقيل : نعم، فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التراب (أحكه على الأرض)، فأنزل الله "كلا إن الإنسان ليطغى" الآيات. وفي رواية أخرى أن الرسول (ص) كان يصلي فجاءه أبو جهل فنهاه، فأنزل الله "أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى" إلى قوله كاذبة خاطئة". وفي أخرى أنه وجد النبي يصلي فقال له: ألم أنهك عن هذا ؟ فزجره النبي، فقال أبو جهل : إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني، فأنزل الله فليدع ناديه سندع الزبانية". وواضح أن هذه الروايات المجزأة تتعلق بحادثة واحدة رويت فالتقط منها كل واحد من الرواة المذكورين العبارة التي ذكرها، وهي في مجموعها رد على أبي جهل.

34م2– سورة المدثر (بقية)

– تقديـــم:

كان سبب نزول القسم الأول من هذه السورة هو انقطاع الوحي وحزن النبي (ص) على ذلك (انظر المدثر رقم2)، فجاءت آيات ذلك القسم لتواسيه ولتثبت فؤاده بالتأكيد على استمرار مهمته كرسول، وأن عليه أن يقوم فينذر... أما سبب نزول هذا القسم الثاني من السورة فشيء آخر. يقول ابن إسحاق: "ثم إن الوليد بن المغيرة (زعيم بني مخزوم وكبيرهم) اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سِن فيهم، وقد حضر الموسم (الموسم السنوي الذي يقام في مكة وتحضره القبائل العربية) فقال لهم: يا معشرَ قرَيش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمرِ صاحبكم هذا (نبوة محمد عليه السلام)، فأجمِعوا فيه رأياً واحداً (تجيبون به على من يسألكم من مرتادي السوق)، ولا تختلفوا فيكذّب بعضُكم بعضاً، ويردّ قولكم بعضَه بعضاً؛ قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس (اقترح علينا) فقل وأقم لنا رأياً نقول به. قال : بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول كاهن! قال : لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزَمْزَمة (كلام) الكاهن ولا سَجْعه. قالوا: فنقول : مجنون! قال : ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخَنَقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته. قالوا: فنقول: شاعر! قال : ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله، رجَزَه وهَزَجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول : ساحر! قال : ما هو بساحر. لقد رأينا السُّحَّار وسحرَهم، فما هو بنَفْثِهم ولا عَقْدِهم. قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال : واللّه إن لقوله لحلاوةً وإن أصلَه لعَذْق (كالنخل) وإن فرعه لجَناة (حلو كالتمر)، وما أنتم بقائلين من هذا (الذي اقترحتم) شيئا إلا عُرف أنه باطل. وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر: جاء بقول هو سحر، يفرِّق به بين المرءِ وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته" . فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسُبُل الناس حين قدموا الموسم، ولا يَمُرُّ بهم أحد إلا حذّروه إياه (من النبي)، وذكروا لهم أمره. فأنزل اللّه تعالى في الوليد بن المغيرة في ذلك من قوله :" ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا..." (يعني الآيات التي ندرجها في القسم الثاني أسفله):

– نص السورة

القسم الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ، وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ، فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ، فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ، عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ. (1–10).

القسم الثاني

1– رد على الوليد بن المغيرة في قوله عن القرآن: سحر يؤثر!

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا[11] (خرج من بطن أمه لا ولد له ولا مال)، **وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا**[12] (جعلت بعد ذلك ثروة كبيرة)، **وَبَنِينَ شُهُودًا**[13] (وبنين حاضرين معه في مكة وعددهم عشرة)، **وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا**[14] (جعلت حياته هادئة)، **ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ**[15]! **كَلَّا، إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا** (حججنا) **عَنِيدًا**[16]، **سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا**[17] (سأصيبه بمشاق). **إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ**[18] (لما تداولوا في أمر محمد)، **فَقُتِلَ** (عليه اللعنة) **كَيْفَ قَدَّرَ**[19]، **ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ**[20]!؟، **ثُمَّ نَظَرَ**[21]، **ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ**[22] (واسود وجهه) **ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ**[23]، **فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ**[24] (من المأثور: موروث عن السحرة)، **إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ**[25] (ليس وحيا إلهيا). (انتظر يا محمد) **سَأُصْلِيهِ سَقَرَ**[26] (سأدخله جهنم)، **وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ**[27]! **لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ**[28]، **لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ**[29] (تحرق جلودهم)، **عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ**[30] (حراسا من الملائكة).

2– رد على استهزائهم بعدد حراس جهنم!

– **وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ** (حراسها) **إِلَّا مَلَائِكَةً، وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا، لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا، وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ: مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا؟ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ. وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ، وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ**[31] (1).

1– يبدو واضحا أن هذه الجملة الطويلة هي جملة اعتراضية بمعنى أنها بين كلام متصل. ذلك أنها جواب على اعتراض قريش على الآية السابقة لها حين استصغروا عدد حراس جهنم (تسعة عشر). فلما انتهى الجواب رجع القول إلى ما قبله، أي إلى الفقرة الأولى=،

3- الجزاء واعترافات أصحاب جهنم...

كَلَّا وَالْقَمَرِ[32]، وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ[33] (أظلم)، وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ[34] (أضاء) إِنَّهَا (أي سقر: جواب القسم) لَإِحْدَى الْكُبَرِ[35] (الأمور العظيمة)، نَذِيرًا لِلْبَشَرِ[36]، لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ[37] (2). (وبالتالي فـ) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ[38] (كل نفس ألقي بها في جهنم مسجونة فيها مقيدة)، إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ[39] (المؤمنون فهم) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ[40]، عَنِ الْمُجْرِمِينَ[41]: (يسألونهم) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ[42]؟. قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ[43]، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ[44]، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ[45] (نكذب محمدا)، وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ[46] (بيوم القيامة والجزاء)، حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ[47] (البعث والحساب)، فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ[48] (شفاعة الأصنام التي كانوا يعتقدون في شفاعتها).

4- خاتمة: لماذا هم عن القرآن معرضين: يريد كل منهم قرآنا!

فَمَا لَهُمْ (لماذا هم) عَنِ التَّذْكِرَةِ (التي تقوم بها يا محمد) مُعْرِضِينَ[49]، كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ (وحش) مُسْتَنْفِرَةٌ[50] (فارة) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ[51] (من رمي الرماة)؟ بَلْ (السبب هو أنه) يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً[52] (3)، كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ[53]. كَلَّا إِنَّهُ (القرآن) تَذْكِرَةٌ[54] (وليس بسحر)؟ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ[55] (اتبعه واتعظ به)، وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى (أهلٌ أن يُتقى عقابه) وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ[56] (أهلٌ أنْ يعمل بما يُؤدِي إلى مغفرته).

- تعليق

يتألف هذا المقطع من سورة المدثر من أربع فقرات، الأولى في الرد على الوليد بن المغيرة في وصفه القرآن بأنه "سحر يؤثر" (انظر التقديم) وتتوعده بجهنم (سقر)، والثانية في الرد على المستهزئين الذي سخروا من كون حفظة جهنم تسعة

وبالتالي فالضمير في "إنها لإحدى الكبر"، في الفقرة الثالثة، يعود إلى "سقر" في الفقرة الأولى. وقد أمر الرسول بوضع الجملة الاعتراضية حينما نزلت في مكانها الحالي بالمصحف حتى يكون الرد عليهم في الحين. انظر التعليق.

2- **نظير قوله: "فَمَن شاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكفُرْ" (الكهف 29)**

3- **نظير قولهم : "لَن نُؤمِنَ لرقيّك حتى تنزّلَ علينا كتاباً نقرؤه..."(الإسراء 93).**

عشر من الملائكة، كما ورد في آخر الفقرة الأولى. وتأتي الفقرة الثالثة لتكمل الفقرة الأولى فترسم مشهدا للجنة والنار يعترف فيه أصحاب النار لأصحاب الجنة أنهم لم يكونوا في الدنيا من المصلين ولم يكونوا يطعمون المسكين، وأنهم كانوا بالعكس من ذلك يكذبون بيوم الدين الخ، وأما الفقرة الرابعة فتجيب عن سؤال: لماذا يعرضون عن القرآن؟ وتجيب بأنهم يريدون أن يؤتى كل منهم بكتاب خاص به، وهم يطالبون بهذا استهزاء لأنهم لا يخافون الآخرة، وتختم بأن القرآن كتاب منزل من عند الله فمن شاء آمن به ومن شاء كفر، وهم قد اختاروا الضلال والعناد ولذلك فإن الله لن يشاء لهم الإسلام فهم ليسوا أهلا له، والله يشاء الإسلام للمتقين الذي يطلبون منه المغفرة.

ومما يجدر التوقف عنده هنا هو ورود الفقرة الثانية على شكل جملة اعتراضية طويلة، تفصل بين الفقرة الأولى والثالثة. قال المفسرون: روي أنه لما نزل قوله تعالى: "عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ" (المدثر: 30) قال أبو جهل لقريش : "ثكلتكم أمهاتكم! قال ابن أبي كبشة (يعني الرسول عليه السلام): إن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الجمع العظيم، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعة عشر واكفوني أنتم اثنين! فلما قال أبو جهل وأبو الأشد ذلك، قال المسلمون وَيْحَكُم! لا تقاس الملائكة بالحدادين، فجرى هذا مثلاً في كل شيئين لا يُسوَّى بينهما، والمعنى لا تقاس الملائكة بالسجانين والحدادين، والسجان (هنا) هو الذي يحبس النار. فأنزل الله تعالى: "وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً" الآية. وعلى هذا فالآية 31 التيّ تشكل فقرة مستقلة (الفقرة الثانية)، والتي هي غير متناسبة الطول والأسلوب لا مع ما قبلها ولا ما بعدها، قد نزلت بمناسبة ما ذكر كسبب نزول لها، وبالتالي فهي آية أضافها الرسول عليه السلام عندما نزلت إلى أصل السورة ردا على استغراب قريش أن يكون عدد خزنة جهنم تسعة عشر وعلى استهزائهم بذلك. ومن هنا كان من الضروري ربط الفقرة الثالثة بالأولى وبالتالي جعل الضمير في "إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ" يعود على سقر.

35 – سورة القلم

– تقديـــم

رتبت سورة القلم في الرتبة الثانية في لوائح ترتيب النزول بعد سورة العلق مباشرة؛ وهذا يتناقض مع ما ذهب إليه جمهور المفسرين من أن سورة المدثر هي التي نزلت الثانية، بعد انقطاع الوحي لمدة، كما بينا ذلك في التقديم الذي صدرنا به سورة المدثر. والمرجع في ذلك حديث عائشة التي قالت: أول ما نزل من القرآن "أقرأ باسم ربك" ثم فتر الوحي ثم نزلت سورة المدثر. وهذا يؤيده قول الصحابي الكبير جابر بن عبد الله، فقد سئل عن أول ما نزل من القرآن فأجاب السائل : "لا أحدّثك إلا ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: «جاوَرْتُ بحِرَاءٍ فلمّا قَضَيْتُ جوَاري هَبَطْتُ، فَسَمِعْتُ صَوْتا، فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِيني فَلَمْ أرَ شَيْئا، ونَظَرْتُ خَلْفِي فَلَمْ أرَ شَيْئا، فَرَفَعْتُ رأسي فرأيْتُ شَيْئا، فأتَيْتُ خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي وَصبُّوا عَليَّ ماء بارِدا، فنزلت يا أيُّها المُدَّثِّرُ. وواضح أن الأمر يتعلق باستئناف الوحي بعد انقطاعه.

أما سورة القلم فلم يرد بشأنها ما يؤكد كونها الثانية أو الثالثة أو ... وما تردد في الروايات الخاصة بها هو كون آيات منها نزلت في المدينة. والآيات التي قالوا إنها مدنية لا سند لهم فيها إلا كونها تحتمل أن تكون أسبابُ نزولها أمورا حدثت في المدينة، وهذا على ما جرت عليه عادتهم في البحث عن أسباب لنزول هذه الآية أو تلك من خلال استعراض الوقائع لا العكس. وهكذا يذكر القرطبي نقلا عن الماوردي أن ابن عباس وقتادة قالا عن سورة القلم : "أولُها مكي، إلى قوله: "عَلَى الْخُرْطُومِ" (الأية 16)، ومن قوله: "إنّا بَلَوْنَاهُمْ إلى قوله "لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ" (17—33) مدني، ومن قوله: "إنّ لِلْمُتّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّاتِ النّعِيمِ" إلى قوله: "فَهُمْ يَكْتُبُونَ" (34—47) مكي، ومن قوله: "فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ" إلى قوله: "مِنَ الصّالِحِينَ" مدني، ومن قوله: "وَإن يَكَادُ الّذِينَ كَفَرُواْ" (51) إلى آخر السورة مكي!

هذا التجزيء لآيات السورة بين المكي والمدني لا يستقيم مع وحدة السياق فيها كما سنرى. أما صاحب "الإتقان" فقد ذكر نقلا عن السخاوي : "أن المدني منها من قوله: "إنّا بَلَوْنَاهُمْ" إلى "لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ" ومن قوله: "فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبّكَ" إلى قوله: "مِنَ الصّالِحِينَ" فلم يجعل قوله: "إنّ لِلْمُتّقِينَ عِنْدَ رَبّهِمْ" إلى قوله: "فَهُمْ يَكْتُبُونَ" مدنياً خلافاً لما نسبَه الماوردي إلى ابن عباس.

أما نحن فنرى أن هناك مبررات معقولة للقول إن السورة كلها نزلت بمكة وأنها نزلت في مرحلة متأخرة نسبيا، وقد اخترنا لها هذا المكان، أعني الرتبة 35، للاعتبارات التالية:

1-إن ابتداء السورة بالقسم بحرف (النون أو غيره) عملية بدأت متأخرة (سورة ق، التي رتبناها الرابعة والثلاثين، وقد رتبت في لوائح النزول كلها إما الثالثة والثلاثين وإما الرابعة والثلاثين). ومن المستبعد جدا أن تكون "ن والقلم" قد نزلت ثانية أو ثالثة. نعم كان يمكن أن نعتبر الآيات السبع منها ضمن مجموعة الآيات التي نزلت أولا (كما هو الحال في سورتي العلق والمدثر) لولا أن تلك الآيات، فضلا عن كونها تبدأ بالقسم وبحرف ن، تردُّ بلهجة قوية على الذين اتهموا النبي عليه السلام بالجنون عندما ذاع خبر نبوته، لهجة لا يتسق مع روح وأسلوب السور التي نزلت في المرحلة الأولى، مرحلة "اقرأ باسم ربك"، "ما ودعك ربك" و"ألم نشرح لك صدرك" الخ.

2- أما الآيات التي تلي الآيات السبع الأولى منها (من سورة القلم) فهي تنسجم تماما مع سور المرحلة التي نتحرك فيها الآن، خصوصا ابتداء من سورة الهمزة رقم 32. ذلك أنها ترد على أكثر من واحد من زعماء قريش الذين كانوا يؤذون الرسول عليه السلام، وقد سمى المفسرون منهم الأخنس بن شَريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زُهرة، وقالوا هو المقصود بـ"الزنيم" في هذه السورة كما سيأتي، كما ذكروا الوليد بن المغيرة وقالوا هو المقصود بكونه صاحب المال والبنين، كما أشاروا إلى الأسود بن عبد يغوث ... المهم في الأمر هو أن هذه السورة تنتمي إلى الجو العام الذي أخذت فيها العلاقات بين الرسول والملأ من قريش تدخل في مرحلة من التوتر المتزايد. لقد أخذ زعماء قريش يضيقون ذرعا بالدعوة المحمدية في هذه المرحلة وبدأ صبرهم ينفذ. ولولا وقوف عميد بني هاشم آنذاك، أبو طالب، مع الرسول لذهبت قريش بعيدا في محاربتها للدعوة المحمدية في هذا الوقت بالذات، ولذلك نراهم يحاولون حمله على التخلي عن دعوته، متوعدين تارة مظهرين استعدادهم لاتباعه تارة، إذا هو وافق على أن يلين لهم مقابل أن يلينون له، فجاء القرآن يوصي الرسول عليه السلام برفض المساومة وعدم الاهتمام بالوعود الكاذبة.

وفي هذا الإطار تشير السورة إلى قصتين : واحدة تقارن بين موقف قريش وموقف "أصحاب الجنة"، مشيرة إلى أن مصير ثروات قريش يمكن أن يسلط الله عليها القحط والجفاف أو غيرهما فيصيبها ما أصاب مزرعة "أصحاب الجنة" التي التهمت النيران محصولها في ليلة اليوم الذي حددوه لجمع غلتها. أما القصة الثانية فهي موجهة إلى النبي نفسه، درسا وعبرة. ذلك أن قوم يونس قد أعرضوا عن

دعوته وكذبوه فضاق بهم ذرعا ولم يصبر فدعا عليهم بالهلاك وتركهم فارا بنفسه. فركب سفينة ناويا السفر بعيدا، فكان مصيره أن التهمه الحوت ليرمي به في الشاطئ.... وبين القصتين تهديد ووعيد للمكذبين من قريش بالقيامة والحساب.

- نص السورة

1- مقدمة: إنك لعلى خلق عظيم ... ستبصر ويبصرون ...

بسم الله الرحمن الرحيم

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ[1] (ما يكتبون) مَا أَنْتَ، بِنِعْمَةِ رَبِّكَ (مثل قولنا بحمد الله)، بِمَجْنُونٍ[2] (جواب القسم)، وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا (مقابل أداء الرسالة) غَيْرَ مَمْنُونٍ[3] (غير منقوص)، وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ[3] (كان معروفا عند قومه بحسن الخلق حتى لقبوه بالأمين). فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ[5]، بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ[6] (1). إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ[7].

2-. وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ... مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ

فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ[8] وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ (تلين لهم) فَيُدْهِنُونَ[9] (فيلينون لك). وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ[10] (كثير الحلف بالباطل) هَمَّازٍ (عياب) مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ[11] (يسعى بالنميمة) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ[12] عُتُلٍّ (جاف غليظ) بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ[13] (فاحش لئيم) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ[14]، إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ[15] سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ[16] (سنجعل على أنفه علامة تبقى طول حياته كما في الجمل).

3- أرادوا أن يجنوا زرعهم باكرا كيلا يدخل عليهم مسكين فاحترقت!

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ (اختبرنا قريش بالقحط والجوع) كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ (أصحاب مزرعة باليمن) : إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ[17] (ليجنونها باكرا حتى لا يطعم منها فقير) وَلَا يَسْتَثْنُونَ[18] (لم يقولوا إن شاء الله). فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ (نار أحرقتها) وَهُمْ نَائِمُونَ[19] فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ[20] (رمادا). فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ[21] (في الصباح) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ[22]

---

1 - اختلفوا في تفسير لفظ "بأيكم المفتون"، بسبب حرف الباء (بأيكم). وأقرب الأقوال إلى الفهم القول بأن "المفتون" هنا مصدر بمعنى الفتون، أي الجنون، قالوا: "والمصادر تجيء على المفعول نحو المعقود والميسور بمعنى العقد واليسر، يقال: ليس له معقود رأي أي عقد رأي". وعلى هذا يكون "بأيكم المفتون معناه: بأيكم الجنون: أيكم هو المجنون".

(عازمين على جنيه). **فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ**[23] (يتساررون) **أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ**[24]. **وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ** (سوء قصدهم) **قَادِرِينَ**[25] (على تنفيذه). **فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ**[26]، **بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ**[27] (من غلة حرثنا)! **قَالَ أَوْسَطُهُمْ** (أفضلهم) **أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا** (هلا) **تُسَبِّحُونَ**[28]! **قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**[29]، **فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ**[30] : **قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ**[31] **عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ**[32]. **كَذَلِكَ الْعَذَابُ** (من فقدان زرعهم)! **وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**[33]. **إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ**[34].

4- أنجعل المسلمين كالمجرمين؟

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ (المؤمنين بالدعوة المحمدية) **كَالْمُجْرِمِينَ**[35] (المكذبين)[(2)]؟ **مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**[36] ! **أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ** (من عند الله) **فِيهِ تَدْرُسُونَ**[37] (تقرؤون) **إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ**[38] (أن تختاروا على هواكم)؟ **أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ** (عهود ومواثيق) **عَلَيْنَا بَالِغَةٌ** (صارمة تلزمنا) **إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ**[39] (أن فيها أنكم تقضون حسب رغبتكم)؟ **سَلْهُمْ** (يا محمد) **أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ**[40] (يكفل لهم أن يحدث ما زعموا من ذلك)؟ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ** (آلهة شركاء مع الله) **فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ**[41]! **يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ** (يوم القيامة، يوم الشدة والمحنة) **وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ**[42] (لتخشب ظهورهم): **خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ** (منحنية ذليلة) **تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ** (تتعبهم المهانة)، **وَقَدْ كَانُوا** (في الدنيا) **يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ**[43] (فكانوا يمتنعون).

5- خاتمة: اصبر ولا تكن كصاحب الحوت!

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ (القرآن، لا تشغل بالك بهم واترك أمرهم إلينا)! **سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**[44] **وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**[45]. (لماذا لا يستجيبون؟) **أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ**[46] (هل تطلب منهم أجرا وثقل عليهم أداؤه)؟ **أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ**[47] (يعلمون علم الغد)؟ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ** (مستعجلا) **كَصَاحِبِ الْحُوتِ** (النبي يونس) **إِذْ نَادَى** (دعا ربه أن ينقذه من داخل بطن الحوت) **وَهُوَ مَكْظُومٌ**[48] (وهو حزين مهموم).

2- قيل كانت قريش تجادل المسلمين في شأن المصير في الآخرة ويقولون "إنْ كان ما تذكرون حقاً فإنّ لنا في الآخرة أكثرَ ممّا لكم"، فجاءت هذه الآية في الرد عليهم.

لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ (لترك) بِالْعَرَاءِ (عندما ألقاه البحر على الأرض) وَهُوَ مَذْمُومٌ[49]. فَاجْتَبَاهُ (اختاره) رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ[50] (3). وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ (يصرعونك حنقا) لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ (القرآن) وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ[51]. وَمَا هُوَ (القرآن) إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ[52].

– تعليق :

المسلمون ...

لنلاحظ أولا أن هذه أول مرة يستعمل فيها القرآن لفظ "مسلم" (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ[35])... يمكن أن يقال إن ترتيب السورة من وضعكم، وأن هذه السورة في الرتبة الثانية في لوائح ترتيب النزول المروية (وهي كلها عن ابن

3- لا تذكر هذه السورة، ولا القرآن كله، أي شيء عن قصة يونس مع قومه غير ما ورد أعلاه. والقصة مذكورة في التوراة واسم يونس هناك "يونان". وقد أورد القرطبي ملخصا عنها فقال : "إن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام فأبوا وامتنعوا. ولما يئس من إيمانهم قال لهم إن الدمار سيحل بمدينتكم خلال ثلاثة أيام. فقال قومه: هو رجل لا يكذب فلنرقبه، فإن أقام معنا فلا شيء علينا، وإن ارتحل عنا فهو نزول العذاب لا شك؛ فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتأكدوا من صدق دعواه، فتابوا ودعوا الله أن يغفر لهم. أما يونس فكان قد التحق بسفينة فارا، فثقلت بمن فيها فاتفقوا على التخفيف من وزنها بإلقاء واحد منهم في البحر، وعملوا القرعة فجاءت في يونس، فألقوا به في البحر فالتقطه حوت كبير، ثم قذفه فحمله الموج إلى شاطئ البحر. وعاد ربه فكلفه بتبليغ الرسالة إلى أهل نينيوى الذين كانوا يعبدون الأصنام فلما ذهب إليهم وجدهم قد أسلموا، فغضب وقال لربه لماذا لم تجعلهم مؤمنين في المرة الأولى. ثم قال لربه (والنص ننقله من التوراة): "3وَالآنَ دَعْنِي أَيُّهَا الرَّبُّ أَلْفِظُ أَنْفَاسِي لأَنَّهُ خَيْرٌ لِي أَنْ أَمُوتَ مِنْ أَنْ أَحْيَا». 4فَقَالَ الرَّبُّ: "أَأَنْتَ مُحِقٌ فِي غَضَبِكَ"؟ 5وَخَرَجَ يُونَانُ (يونس) مِنْ نِينَوَى وَجَلَسَ شَرْقِيَّ الْمَدِينَةِ... 6فَأَعَدَّ الرَّبُّ الإِلَهُ يَقْطِينَةً نَمَتْ وَارْتَفَعَتْ حَتَّى ظَلَّلَتْ رَأْسَ يُونَانَ لِتَقِيَهُ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ فَلاَ يُؤْذِيَهُ. فَابْتَهَجَ يُونَانُ بِالْيَقْطِينَةِ ابْتِهَاجاً عَظِيماً. 7وَلَكِنْ فِي فَجْرِ الْيَوْمِ التَّالِي أَعَدَّ اللهُ دُودَةً قَرَضَتِ الْيَقْطِينَةَ فَجَفَّتْ. 8فَلَمَّا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ، أَرْسَلَ اللهُ رِيحاً شَرْقِيَّةً حَارَّةً لَفَحَتْ رَأْسَ يُونَانَ، فَأَصَابَهُ الإِعْيَاءُ وَتَمَنَّى لِنَفْسِهِ الْمَوْتَ قَائِلاً: «خَيْرٌ لِي أَنْ أَمُوتَ مِنْ أَنْ أَظَلَّ حَيّاً». 9فَقَالَ اللهُ لِيُونَانَ: «أَأَنْتَ مُحِقٌ فِي غَضَبِكَ مِنْ أَجْلِ الْيَقْطِينَةِ؟» فَأَجَابَ: «أَنَا مُحِقٌ فِي غَضَبِي حَتَّى الْمَوْتِ». 10فَقَالَ الرَّبُّ: «لَقَدْ أَشْفَقْتَ أَنْتَ عَلَى الْيَقْطِينَةِ الَّتِي لَمْ تَتْعَبْ فِي تَنْمِيَتِهَا وَتَرْبِيَتِهَا. هَذِهِ الْيَقْطِينَةُ الَّتِي تَرَعْرَعَتْ فِي لَيْلَةٍ وَذَوَتْ فِي لَيْلَةٍ، 11أَفَلاَ أُشْفِقُ أَنَا عَلَى نِينَوَى الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يُقِيمُ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ مِئَةٍ وَعِشْرِينَ أَلْفَ شَخْصٍ مِمَّنْ لاَ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ يَمِينِهِمْ وَشِمَالِهِمْ، فَضْلاً عَمَّا فِيهَا مِنْ بَهَائِمَ كَثِيرَةٍ؟» (التوراة. سفر يونان).

عباس). وهذا في الحقيقة يزكي ترتيبنا، لأنه سواء وضعنا هذه السورة قبل هذه الرتبة أو بعدها فإنها في الحالتين معا لا يمكن أن تكون الثانية. ذلك أن القرآن يشهد بعضه لبعض. وشهادة القرآن هنا بصواب اختيارنا يمكن إبرازها كما يلي: إن المرة الأولى، غير هذه، التي ورد فيها فعل "أسلم" وما اشتق منه : إسلام، مسلم، مسلمون، هي في سورة الأعراف المرتبة إما الثامنة والثلاثين وإما التاسعة والثلاثين في لوائح ترتيب النزول وذلك عند قوله تعالى: "وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (الأعراف 126) (وذلك في حكاية جواب السحرة عن فرعون بعد أن اتهمهم بالتواطؤ مع موسى عندما فشل سحرهم أمام عصاه). ثم ورد اللفظ نفسه في سورة الجن وسورة النمل وسورة الأنعام، ورتب هذه السور في لوائح ترتيب النزول وردت بعد الرتبة التي وضعنا فيها هذه السورة (القلم). وحتى إذا وضعنا هذه السورة في الرتبة الثانية فإن تكرار فعل أسلم وما اشتق منه (مسلمون الإسلام الخ) لن نجده إلى في هذه السور المتأخرة النزول. وإذا نحن بحثنا عن السبب في تأخر استعمال هذا اللفظ في القرآن وجدناه معقولا تماما. فاصطلاح "الإسلام" يعني الاستسلام والخضوع ويكتسي في الحقل الدلالي العربي الخضوع لسلطة جماعة أو دولة. وهكذا لم يبدأ استعمال هذا اللفظ في القرآن إلا بعد أن صار من كانت تدعوهم قريش "أتباع محمد" جماعة يجمعها كونها أتباع رئيس معين هو النبي عليه السلام من جهة وانفصالها عن قريش من جهة أخرى. وهكذا فعندما لم تكن هذه الجماعة قائمة كان الذي يستجيب للدعوة المحمدية يوصف بلفظ "تزكى"، "من تزكى"، وهذا اللفظ يدل على عمل فردي، وأتباع الرسول عليه السلام بدؤوا ينتظمون حوله فردا فردا. ثم بعد ذلك بدأ وصف هؤلاء بـ "الذين آمنوا" (سورة العصر المرتبة 12، 13) ثم "المؤمنين" (البروج المرتبة 25، 26، 27). ليأتي بعد ذلك لفظ "الإسلام" الذي سيكثر استعماله مع توسع دائرة المؤمنين وانتظامهم في جماعة "روحية" في مكة ثم في دولة في المدينة.

القلم ...

بعد هذا لننتقل إلى القسم : "ن والقلم" ؟

سبق أن تكلمنا عن القسَم بالحروف في سورة ق (رقم 33)، ويبقى علينا هنا أن نقول في "القلم"، فالقسم هنا "ن والقلم" له شأن خاص من حيث الارتباط الذي يمكن إقامته بين حرف النون و"القلم". فعلا ذهب المفسرون في تفسير هذا الحرف مذاهب بعيدة عن السياق، غير مراعين علاقة هذه السورة بالتي قبلها. فمنهم من اعتبر أن "ن" حرف من الحروف المقطعة الواردة في أوائل بعض السور (ق، ص، يس، طه الخ)، وأخذوا في فك ما يرمز إليه على غرار ما فعلوا مع بقية فواتح

السور فقال بعضهم إنه "نون الرحمان"، وقال آخرون إن المقصود هو السمكة أو الحوت، وخصصه بعضهم بـــ "حوت يونس" عليه السلام، وقال آخرون إنه الحوت الذي "بُسطت على ظهره الأرض" يوم خلق الله السماوات من الماء. ومنهم من قال : "النون" هي الدواة عموما، وخصصها بعضهم بـــ"الدواة" التي كتَب بها "القلم" كل ما كان وسيكون.

أما "القلم" فمع أنهم جميعا يفسرونه بأداة الكتابة، فإن معظمهم مثل ابن عباس، وغيره ممن نقل عنه أو نقل عن مصادره، فسره بما روجته الفلسفة الدينية الهرمسية من أنه "أول ما خلق الله"، ويعنون به العقل الأول في سلسلة العقول السماوية، يليه في هذه السلسلة العقل الثاني وهو عندهم "اللوح" المحفوظ. ويكاد ما ينسب إلى ابن عباس في هذا الصدد يتطابق مع هذا التصور، فقد نسب إليه قوله : "أوّل ما خلق الله من شيء القلم، فجرى بما هو كائن، ثم رفع بخار الماء، فخلق منه السموات، ثم خلق النون فبسطت الأرض على ظهر النون (الحوت)، فتحرّكت الأرض فمادت، فأثبتت بالجبال، فإن الجبال لتفخر على الأرض".

ومن العوامل التي سهلت الترويج لهذا المعنى الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة في موضوع "الجبر والاختيار". لقد بنى المعتزلة مذهبهم على مبدأين: العدل والتوحيد. ويقصدون "العدل الإلهي"، بمعنى أن الله عادل سيجري وعده ووعيده يوم القيامة على الناس ضرورة وبدون تمييز، لأنه وعد بذلك في القرآن. وكان الدافع إلى هذا ما كان الأمويون يروجونه من أن الله لن يعاقبهم يوم القيامة على ما فعلوا من اغتصاب الخلافة والعسف في الحكم الخ، مبررين ذلك بأنه كان قضاء وقدرا من الله، وأنهم بالتالي إنما نفذوا إرادة الله وما كان مقررا في سابق علمه.

وفي هذا الإطار فسر بعضهم "القلم" في السورة التي نحن بصددها بكونه "القلم الذي خلقه الله، تعالى ذكره، فأمره فجرى بكتابة جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة"، كما نسب إلى النبي عليه السلام حديث في هذا المعنى بصيغ مختلفة، أقصرها : "لَمَّا خَلَقَ الله العَقْلَ قَالَ لَهُ: أَقْبِلْ . فَأَقْبَلَ. ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ. فَقَالَ: مَا خَلَقْتُ خَلْقاً أَشْرَفَ مِنْكَ، فَبِكَ آخُذُ، وَبِكَ أُعْطِي". وقد انتقل هذا المعنى إلى الباطنية فوظفته فرق من الشيعة والباطنية منها بكيفية خاصة (الإسماعيلية) كما وظفه المتصوفة المتفلسفة، هؤلاء الذين غرفوا جميعا من الفلسفة الهرمسية والتيارات الغنوصية القديمة خدمة لأغراضهم المذهبية السياسية وفي مقدمتها القول بـــ "الجبر"(4).

---

4 - رجع كتابنا العقل السياسي العربي. الفصل السابع. فقرة 7

بعيدا عن هذه التأويلات الإيديولوجية لنقل مع القائلين إن المقصود بـــ "القلم" هو القلم كما يعرفه جميع الناس: أداة الكتابة وهو ما يدخل في معهود العرب زمن النبوة. أما حرف "ن" فمثله مثل الحروف الأخرى التي وردت في أوائل بعض السور سواء قبل القسم مثل "ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ" و"ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ" و"يس، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ"، و"حم والكتاب المبين"، أو بدون قسم مثل (حم تنزيل الكتاب) و(ألم ذلك الكتاب)، وقد سبق أن قلنا رأينا في هذا الموضوع (انظر سورة ق).

36- سورة الطـارق

- تقديـــم

ذكروا أن أبا طالب "أتى النبي (ص) بخبز ولبن، فبينما هو جالس إذ انحط نجم فامتلأ ما ثَمَّ ناراً، ففزع أبو طالب وقال: أي شيء هذا؟ فقال (النبي): هذا نجم رُمِي به وهو آية من آيات الله"؛ فعجب أبو طالب فأنزل الله تعالى: "والسماء والطارق". وفي رواية أخرى ما يفهم منه أن هذه السورة نزلت بعد سورة المدثر، أعني القسم الثاني منها. فقد ذكروا أن قوله تعالى في هذه السورة "فَلْيَنظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ" (الطارق 5) نزل في "أبي الأشد الذي كان يقوم على الأديم (الجلد) فيقول : يا معشر قريش من أزالني عنه فله كذا، ويقول إن محمدا يزعم أن خزنة جهنم تسعة عشر فأنا أكفيكم وحدي عشرة واكفوني أنتم تسعة"، كما رأينا في سورة المدثر[1]. وسورة الطارق مكية بالاتفاق.

وقد روي أيضا عن خالد بن أبي جَبَل العَدْواني من أنه قال : "أبصرت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصاً حين أتاهم يبتغي عندهم النصر فسمعته يقول: "والسماء والطارق" حتى ختمَها، قال: "فوعيتُها في الجاهلية ثم قرأتُها في الإسلام". لكن هذا لا يعني أنها نزلت في ذلك الحين، فزيارة النبي عليه السلام للطائف المشار إليها هنا تمت سنة عشرة للنبوة، بعد الحصار. ومن الممكن أن يكون الرسول قد قرأ سورة الطارق بعد أن كانت قد نزلت قبل ذلك بمدة طويلة، أي قبل الحصار خصوصا، ورتبتها 36 في لوائح النزول تقتضي ذلك، وهي تندرج في سياق السور التي نتحرك بينها والتي تؤكد البعث بعد الموت، وما يتبعه من حساب وجزاء، كما تؤكد صدق نبوة محمد (ص)، وهذا هو نفسه موضوع سورة الطارق.

1- وهذا في سورة المدثر رقم 34م2، آية 30.

- نص السورة

1- مقدمة: كل نفس عليها حافظ يسجل ما عملت من خير أو غيره.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ[1] (يطرق الباب ليلا)، **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ**[2] (تهويل: إنه) **النَّجْمُ الثَّاقِبُ**[3] (المتوهج، كأنه يثقب السماء، يرمى به الشياطين عند محاولتهم استراق السمع منها) (2)، **إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا** (إلا وعليها) **حَافِظٌ**[4] (جواب القسم : مثله مثل النجم الثاقب : يثقب دائرة أسرار النفس، فَيَحْصِي عليها ما تكسب من خير أو شرّ وما توسوس لها به الشياطين).

2- لينظر الإنسان مم خلق ... إن الله على رجعه لقادر.

فَلْيَنظُرْ الْإِنسَانُ (المكذب بالبعث المدعي للقوة على التخلص من حراس جهنم) **مِمَّ خُلِقَ**[5]! **خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ**[6] (متدفق)، **يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ**[7] (قيل: من الظهر والأضلاع التي تحته) (3). **إِنَّهُ** (الله) **عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ**[8] **يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ**[9] (هنا تقديم وتأخير : قادر على بعثه يوم تبلى السرائر) (4)، **فَمَا لَهُ**

---

2 - قالوا: كانت الشياطين تسترق السمع من حديث الملائكة في السماء. ومن استعمال الشياطين كان المنجمون والكهنة يدعون معرفة الغيب. فلما بعث النبي محمد عليه السلام وضعت السماء تحت الحراسة الشديدة، فكل محاولة من الشياطين صارت تقذف بنجم ثاقب كالرمح فيفرون، والمقصود من هذا التصوير هو بينان بطلان التنجيم والكهانة بعد نبوة محمد. وأن اتهام قريش للنبي عليه السلام بالكهانة اتهام باطل لأن استراق الشياطين للسمع قد وضع له حد. ولم يبق إلا الوحي الذي ينقله جبريل إلى الرسول.

3- والغالب أن هذا التفسير القديم لمصدر المني مستقى من الملاحظة عند الممارسة الجنسية التي تشكل جزءا من معهود العرب التجريبي، وبه خاطبهم القرآن. أما العلم القديم فكان يرى : "أن المني إنما يتولد من فضلة الهضم الرابع، وينفصل عن جميع أجزاء البدن حتى يأخذ من كل عضو طبيعته وخاصيته، فيصير مستعداً لأن يتولد منه مثل تلك الأعضاء، ولذلك فإن المفرط في الجماع يستولي الضعف على جميع أعضائه، ومعظم أجزاء المني إنما يتربى في الدماغ، والدليل عليه أن صورته يشبه الدماغ، ولأن المكثر منه يظهر الضعف أولا في عينيه، أما مستقر المني فهو أوعية المني، وهي عروق ملتف بعضها بالبعض عند البيضتين".

4- ذهب جل المفسرين إن لم يكن كلهم إلى أن المقصود بـ"السرائر" هنا "ما أسرّ في القلوب من العقائد والنيات وغيرها، وما أخفى من الأعمال وبلاؤها". وواضح أن هذا=

مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ[10] (لا قوة له في نفسه ولا من عشيرته تمنعه من المصير إلى العذاب).

3- خاتمة: إنه لقول فصل ما هو بالهزل ...أمهل الكافرين قليلا..

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ[11] (السحاب يرجع بالمطر)، وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ[12] (الشق يخرج منه النبات)، إِنَّهُ (القرآن، البعث، الجنة والنار...) لَقَوْلٌ فَصْلٌ[13] ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ[14]. إِنَّهُمْ (المكذبون) يَكِيدُونَ كَيْدًا[15] (يتآمرون)، وَأَكِيدُ كَيْدًا[16] (وأنا أدبر الأمر من ورائهم) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا[17].

- تعليق

كانت قريش، كما قلنا، تنكر البعث والحساب، حجتها في ذلك استحالة عودة الموتى إلى الحياة بعد أن يكونوا قد تحولوا إلى تراب، وبالتالي عدم إمكان محاسبة الناس على أعمالهم بعد الموت. وهذه السورة تؤكد العكس. فمن جهة تؤكد أن جميع أعمال الإنسان في الدنيا مسجلة ومحصية من طرف كائن ملائكي "حافظ" ملازم لكل إنسان، وعلى أساس هذا السجل سيتم حسابه يوم القيامة. ومن جهة أخرى تردُّ على الذين يقولون باستحالة بعث الموتى بعد أن يكونوا قد تحولوا إلى تراب، ترد عليهم هنا كما في السور السابقة، بأن مَن خلق الإنسان أول مرة من "سائل منوي"، قادر على أن يعيده من جديد يوم القيامة دونما حاجة إلى المني، يوم تبلى سرائره، أي أعضاء جسمه التي تفرز المني عند الجماع. وحينئذ لن يجد في نفسه ولا في أقاربه وأشياعه قوة ولا نصيرا يدفع عنه ما يستحق من عقاب.، لأنه خلق مفرد جديد لا علاقة له النسب الذي أصله الحياة الجنسية المشتركة.

ومع هذه التأكيدات وما يرافقها من حجج على إثبات البعث والجزاء، تأبى قريش إلا أن تستمر في موقفها، موقف التكذيب والاستهزاء والكيد للدعوة=

لا يستقيم مع السياق: فالكلام هنا عن القوة البدنية التي افتخر بها الشخص المذكور في التقديم، يزكي ذلك قوله تعالى "فما له من قوة ولا ناصر". ولذلك فنحن نرجح أن معنى السرائر هنا هو ما ذكره صاحب القاموس المحيط. قال: "السرير : ج أسرار وسرائر، والجماعُ، والذَّكَرُ، والنِكاحُ، والإفصاح به، والزنا، وفَرْجُ المرأة، ومُستَهَل الشهر أو آخره أو وسَطُه، والأصل، والأرضُ الكريمة، وجَوْفُ كل شيءٍ ولُبُّه، ومَحْضُ النسَبِ وأفضَلُه". والمعنى المناسب للسياق هو ما ذكره مما يتعلق بـ "المني" الجماع، الذكر، فرج المرأة الخ): تبلى السائر: تبلى الأعضاء البدنية المفرزة للمني. والمعنى العام: إذا كان الله قد خلق الإنسان من مني فهو قادر على خلقه من جديد يوم القيامة بدون مني ولا جماع الخ.

المحمدية. وهذا ما ترد عليه السورة في الفقرة الثالثة حيث القسم بالسحاب الذي يأتي بالمطر ليشق صلابة الأرض فيجعلها رطبة مما يسمح بخروج النبات، ثم يرجع -أي المطر- في أوقات أخرى ليسقي هذا النبات ليمكنه من النمو وإعطاء ثمره، مما يدل على أن هناك غائية تحكم تكرار مثل هذه الظواهر، وأن هذه الغائية هي سنة الله وهي تَعُمّ سائر المخلوقات ... وهذا يدل على أن ما سبق تقريره من بعث وحساب وعقاب، أمور لا تختلف عن خروج النبات من جديد بعد الحصاد. فالإتيان بالسحاب والمطر والزرع ثم الحصاد وعودة النبات من جديد أمور ملموسة تشكل ما يطلق عليه العلم القديم "الدورة الطبيعية". وهكذا فكما أن هذه الأشياء جدية حقيقية، وليست من قبيل الهزل، لأن الإنسان يعرفها ويعيش بفضلها، فكذلك أمور البعث والحساب، أمور حقيقية وليست بالهزلية، وبناء عليه فهي تدخل في تلك "الدورة الطبيعية".

وتختم السورة بوعيدٍ موجه للمكذبين بما سبق تقريره، وعيدٍ ينبه إلى أن قدرة الله أكبر من قدرتهم وبالتالي فما سيصيبهم من عقاب جراء أعمالهم أكبر مما يستطيعون إلحاقه من أضرار بالدعوة المحمدية، ولذلك فهي تدعو النبي إلى الصبر وعدم استعجال العقاب لهم. فالله يستدرجهم ويمهلهم ويمنحهم الوقت لقيام الحجة عليهم. (قارن سورة القلم أعلاه).

هذا والمناسبة، بين المقسم به وهو "السماء والطارق، النجم الثاقب" وبين المضمون الذي يراد أن يؤكده القسم، -وهو أن لكل إنسان ملاك يسجل أعماله ويحفظها، كامنة -أعني المناسبة- فيما تشير إليه الفقرة الأولى من أن "الحافظ" الذي يلازم كل إنسان يسجل أعماله هو كـ"النجم الثاقب" الذي يحافظ على أسرار السماء.

أما القسَم الثاني (الفقرة الثالثة) وموضوعه السحاب الذي يأتي بالمطر ويعود ليسقي الزرع الخ، فوجه المناسبة بينه وبين جواب القسم ("إنه لقول فصل") واضح مما قدمنا. فالقسم هنا لتقرير أن جدية ما سبق من تأكيد البعث والحساب، كجدية ما ترونه من سحاب ومطر يأتيان في أوقاتهما المطلوبة.

37- سورة القمر

- تقديـــم

اهتم كثير من المفسرين بتتبع روايات "انشقاق القمر"، لدى تفسيرهم الآية التي افتتحت بها هذه السورة: "اقتربت الساعة وانشق القمر". فذهب معظمهم إلى أن الانشقاق حدث فعلا في مكة. وهناك من قال إن رؤية انشقاق القمر لم تكن عامة، ولا يكفي في إثبات وقوعه أن يراه بعض الناس في مكة، دون غيرها من الأقطار والآفاق. وقال آخرون إن انشقاق القمر هو، حسب القرآن، مظهر من مظاهر قيام الساعة، وبما أن الساعة لم تقم بعد فإن الآية يجب أن تفهم كما يلي : "اقتربت الساعة وسينشق القمر". ومنهم من قال إن الانشقاق الذي رآه بعض الناس في مكة كان عبارة كسوف، بناء على ما روي عن ابن عباس من أنه قال: "كسف القمر[1] على عهد رسول الله، فقالوا: سُحر القمر فنزلت "اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ" الآية. وهذا المعنى، أي قولهم "سُحر القمر"، قد يجد ما يعضده في قوله تعالى حكاية لرد فعلهم : "وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ".[2] أما الرواية التي تقول: طلبت قريش من النبي معجزة، وذلك بأن ينشق القمر ويرونه بأعينهم، فلا تؤخذ بعين الاعتبار لأن القرآن كرر مرارا أنه لا فائدة في مثل هذه المعجزات مادام قد كذب بها أقوام أنبياء سابقين، وأن المعجزة الحقيقة التي جاء بها الرسول محمد عليه السلام هي القرآن، وهذا ما تقرره السورة.

- نص السورة

1- كذبوا بقرب قيام الساعة... فاتركهم فسوف يرونها!

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ[1]، وَإِنْ يَرَوْا آيَةً (من آيات الله الكونية) يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ[2] (ذاك عمل من عمل السَّحَرة وسيمر كما مر

1- وفي الاصطلاح الحديث : الكسوف للشمس والخسوف للقمر.

2- تعبر العامة عن خسوف القمر بما يفيد أنه سحر (أصيب القمر به الخ)، فيخرج الأطفال حاملين أواني من نحاس يدقون عليها (كالدفوف) تنبيها للقمر وطردا للسحر الذي أصيب به.

سحر السابقين)، **وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ**[3] (هم مستقرون على التكذيب وإتباع الهوى). **وَلَقَدْ جَاءَهُمْ** (في القرآن) **مِنَ الْأَنْبَاءِ** (عن هلاك الأقوام الماضية) **مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ**[4] (رادع لهم): **حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ** (فيها عِبَر ودروس لهم ومع ذلك لم يتعظوا)، **فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ**[5]؟ (فما الفائدة في مواصلة الإنذار بالمعجزات؟)، **فَتَوَلَّ عَنْهُمْ** (فالإتيان بالمعجزات لا يفيد فيهم، ستراهم) **يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ**[6] (قيامة الساعة)، **خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ** (ذليلة أبصارهم)، **يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ** (من القبور) **كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ**[7]، **مُهْطِعِينَ** (مسرعين) **إِلَى الدَّاعِ**! **يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ**[8].

2- من الأنباء التي جاءتهم... إغراق قوم نوح ...

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ، فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ[9] (فزجروه وآذوه)، **فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ**[10] (انصرني وعاقبهم)، **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ**[11] (متدفق)، **وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا** (يتدفق منها الماء) **فَالْتَقَى الْمَاءُ** (ماء المطر وماء الأرض) **عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ**[12] (على مستوى مقدر مرسوم)، **وَحَمَلْنَاهُ** (نوح) **عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ**[13] (على سفينة مصنوعة من ألواح ومسامير)، **تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا** (بتقديرنا ومراقبتنا وتركنا الباقي)، **جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ**[14] (على كفرهم بنوح). **وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً** (عبرة لمن بعدهم) **فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**[15]؟ (من متذكر معتبر)، **فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ**[16]؟ (قد عرفت كيف كان عذابي وإنذاري لهم). **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ** (سهلناه) **لِلذِّكْرِ** (لأخذ العبرة من أخبار الماضين) **فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**[17] (متعظ).

3- ومن الأنباء التي جاءتهم ... إهلاك قوم عاد.

كَذَّبَتْ عَادٌ (نبيَّهم هودا) **فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ**[18]؟ **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا** (لصوتها صرير شديد) **فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ**[19] (يوم شر وشؤم)، **تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ**[20] (تقتلع الناس ثم ترمي على الأرض بأجسامهم وقد نزعت منها رؤوسهم، كأنهم أجسام نخل منقلب)، **فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ**[21]! **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**[22].

4- ومن الأنباء التي جاءتهم ... إهلاك قوم ثمود

كَذَّبَتْ ثَمُودُ (نبيَّهم صالحا) **بِالنُّذُرِ**[23] (التي أنذرهم بها)، **فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ! إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ**[24] (ضلال وعناء قالوا): **أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ**

مِنْ بَيْنِنَا (أيكون قد خص بالوحي دوننا ؟) **بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ**[25] (متكبر متجبر). **سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنْ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ**[26]، **إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ** (التي طلبوها من نبيهم صالح آية وحجة على نبوته)، **فِتْنَةً لَهُمْ** (ابتلاء واختبارا، وقلنا له:) **فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ**[27] (راقب واصبر)، **وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ** (يوم لهم ويوم لها) **كل شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ**[28] (يحضره من هو له: في اليوم الذي لها تشرب الماء كله، وفي اليوم الذي لهم، لا تشرب هي وهم يشربون الماء وتسقيهم اللبن)، **فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ** (أحد رجالهم وطلبوا منه عقرها) **فَتَعَاطَى فَعَقَرَ**[29] (فتناول الناقة بسلاحه فعقرها)، **فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ**[30]؟ **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً** (نفخة الصور) **فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ**[31] (كهشيم حظيرة الغنم). **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**[32].

5- ومن الأنباء التي جاءتهم إهلاك قوم لوط

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ[33] (التي جاءهم بها)، **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا** (حجارة) **إِلَّا آلَ لُوطٍ** (الذين صدقوه واتبعوه) **نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ**[34] (في وقت السحر بين أول الليل وآخره)، **نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا. كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ**[35]. **وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ**[36] (لم يصدقوه)، **وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ** (أرادوا اغتصاب ضيوفه، وكانوا ملائكة، وهم كانوا يحسبونهم رجالا) **فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ** (أصبناهم بالعمى فلم يبصروا الضيوف عندما دخلوا يبحثون عنهم). (قلنا لهم) **فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ**[37]. **وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ**[38] (زلزال وأحجار تسقط عليهم لم تتوقف حتى هلكوا)، **فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ**[39]! **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**[40]. **وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ**[41] (3)، **كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ**[42].

6- خاتمة: أكفاركم يا قريش خير من أولئك؟!

أَكُفَّارُكُمْ (يا قريش) **خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ** (الذين مضوا)؟ **أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ**[43] (ألكم في الكتب عهد يبرؤكم)؟ **أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ**،[44] (عدد كبير وسننتصر) **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ** (جمع قريش) **وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**[45] (يهربون). **بَلْ السَّاعَةُ** (القيامة) **مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ**[46] (من هزيمتهم تلك). **إِنَّ**

3- لم يقص القرآن بعد قصة موسى مع فرعون. وسيفعل ذلك ابتداء من سورة الأعراف.

الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ[47] (في عناء)، يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ (ويقال لهم) ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ[48] (جهنم)، إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ[49]. وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ (كلمة واحدة: كن) كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ[50]. وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ (أمثالكم من الأمم الماضية) فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ[51]؟ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ[52] (مدون في الكتب)، وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ[53] (مسطر مكتوب). إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ[54] (وأنهار)، فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ (مجلس حق) عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ[55] (الله).

- تعليق

مما تجدر ملاحظته في هذه السورة أن الخطاب فيها ينم عن توتر العلاقة بين مشركي قريش والنبي (ص). يشهد لهذه الملاحظة ورود آيات في هذه السورة تفيد صراحة أنه لم تعد ثمة فائدة لمواصلة إنذار قريش، منها قوله تعالى: "وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ (الأخبار عن هلاك الأقوام الماضية) مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (رادع لهم)، حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ !(فيها عِبَر ودروس لهم ومع ذلك لم يتعظوا) فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ؟ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ". والموعد يوم القيامة. وهذه أول مرة –حسب ترتيب النزول- يأتي فيها الأمر بالإعراض عن المشركين بصيغة العموم. كان هذا الأمر، من قبل، محدودا في أشخاص، مثل قوله تعالى : "فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (النجم 29). أما هنا فالموقف يشبه موقف الأنبياء السابقين من أقوامهم، موقف اليأس والدعاء عليهم بالهلاك، وقد ورد هذا بعبارات أوضح في سورة الأعراف: "كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ، فَتَوَلَّى عَنْهُمْ، وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ" (الأعراف 92–93)، "وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ، فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ، وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (الأعراف 77–79، وهي بعد السورة التالية).

على أن مواقف الأنبياء السابقين ليست واحدة ولا متطابقة فإذا كان اليأس يدفع الأنبياء أحيانا إلى الدعاء على أقوامهم بالهلاك فإن فيهم من كان موقفه الرجاء. وكما ضرب الله مثلا بيأس أولئك أبرز أيضا رجاء الآخرين. وفي السورة التي تلي سورة القمر مباشرة يأت الأمر إلى الرسول عليه السلام بالتزام الصبر : "اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (ص 17). إن خطاب "الصبر" سابق ولاحق، وهو القاعدة، والباقي استثناء. والقرآن نزل منجما ولذلك راعى الكليات والجزئيات، فجاء خطابه حافلا بالقواعد العامة وبالاستثناءات، وكيف يصلح لكل زمان ومكان إن لم يكن كذاك؟

استطراد واستشرف

المعــاد

1- خطاب الجنة والنار في القرآن : سلاح وأخلاق.

إذا كان لابد من خلاصة عامة، لمضمون ما سبق، نستهل بها هذا الاستطراد الذي نختم به رحلتنا مع مرحلة جديدة في مسار نزول القرآن وما رافقه من تطور في علاقة الدعوة المحمدية مع الملأ من قريش، فإن ما ينبغي إبرازه بادئ ذي بدء ذلك التناغم والتكامل بين بداية هذه المرحلة ونهايتها على صعيد مسيرة التنزيل. لقد بدأنا هذه المرحلة بسورة فرضت علينا نفسها، بما تضمنته من إشعار بالانتقال من التركيز على موضوع "النبوة والألوهية" إلى التركيز على ركن المعاد: البعث والحساب. لقد كان ذلك واضحا في عنوان السورة وفي أسلوبها ومضمونها : "القارعة"! لقد قرعت سمعنا فعلا بالإعلان عن يوم جديد : "يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ، وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ". وسرنا مع هذا الدرب الجديد نستمع إلى خطاب اليوم الموعود، ونتحسس ردود فعل الملأ من قريش، إلى أن وجدنا أنفسنا أمام إعلان جديد : "اقتربت الساعة وانشق القمر"!

لقد أصر الملأ من قريش على التكذيب، شأنهم شأن الأقوام الماضية، قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون... لقد رفض مشركو قريش أخذ العبرة من الماضي فليتركوا يواجهون القول الفصل، "يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ".

لم نخطط لبداية هذه المرحلة الثانية ولا لنهايتها، كما أننا لم نخطط للمرحلة السابقة لها، لقد تتبعناهما اعتمادا على ترتيب النزول المروي (مع تعديلات قليلة استندنا فيها على مرويات بدت لنا أكثر اتساقا مع مضمون السور ومساق التنزيل).

مرحلتان (أو قل خطوتان أو بابان أو محطتان -ولا مشاحة في الأسماء) سجلتا لحظات تأسيسية في السيرة النبوية المتناغمة مع مسير القرآن المنجَّم. وكما ختمنا المرحلة الأولى باستطراد تجاوزنا فيه الفهم النصي، للأسماء الحسنى الثلاثة (الرب، الله، الرحمان) كما عبر عنه اللسان العربي المبين، إلى التحليل المقارن الذي يستحضر تصورات الديانات التي كانت تشكل "محيط" الدين الجديد، سنختم هذه

المرحلة باستطراد استشرافي مماثل ينتقل بنا من معهود العرب إلى آفاق تجاوزته، عندما أصبح القرآن كتاب حضارة عالمية تعج بثقافات وديانات متنوعة متعددة.

لنبدأ أولا بنوع من الاسترجاع لمضمون مفهوم البعث والجنة والنار كما كان يفهم ويعترض عليه داخل معهود العرب زمن الدعوة المحمدية.

لعل أول ما ينبغي إبرازه هنا هو تميز القرآن عن كل من التوراة والإنجيل، بل، وربما، عن الديانات الكبرى كلها، بالاهتمام الكبير الذي أولاه لمسألة "البعث والجنة والنار"[1]. يتجلى هذا الاهتمام المتميز على صعيد شكل الخطاب كما على صعيد مضمونه. ولعل أكثر ما أبهر قريشا في الخطاب القرآني حتى عجزوا فعلا عن معارضته والإتيان بمثله هو خطابه عن الجنة والنار. وهذا قد يكون راجعا في جزء منه إلى أن قريشا لم تكن تؤمن بالبعث والحياة الأخرى، وبالتالي استحال عليها إنتاج

1- موقف التوراة من المعاد، الحساب والجنة والنار، غامض ملتبس ومتقلب. يقول د. عبد الوهاب المسيري في موسوعته "اليهود واليهودية والصهيونية" : "ولا توجد في كتب العهد القديم الأولى أية إشارات إلى بعث الموتى أو الحياة الأبدية، إذ يبدو أن العبرانيين القدامى لم يكونوا من المؤمنين بالبعث، وإنما كانوا يؤمنون بأن الإنسان جسد يفنى بالموت. وحتى بعد أن ظهرت فكرة خلود الروح، فإن هذه الفكرة لم تكن بعد مرتبطة بفكرة البعث والخير والشر والثواب والعقاب، أن الروح كانت تذهب بعد الموت إلى مكان مظلم يُسمَّى «شيول»، حيث تبقى إلى الأبد". ويؤكد المسيري أن فكرة البعث والحساب قد ارتبطت عند اليهود بالتقلبات التي عرفها تاريخهم. وأن مفهوم "العالم الآخر" الذي يقع في المستقبل خارج "الدنيا" لم يظهر إلا بعد الانتكاسات التي عرفها تاريخهم، وأن من أولى المحاولات التي ظهرت للإقرار بفكرة وجود حساب في "اليوم الآخر" قد ظهرت في آخر سفر دانيال. "وقد ازدادت الرؤية الأخروية اليهودية تبلورا بعد ذلك، فظهرت في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد كتب الرؤى التي تدور حول موضوعات أخروية نشورية. ويُلاحَظ أن فكرة شيول غير المحددة اكتسبت تحددها في آخر هذه الفترة وأصبحت كلمة «جهنم» تدل عليها، ووُضعت «جهنم» مقابل «حديقة عدن» التي تَحدَّد مفهومها هي الأخرى فأصبحت هي«الجنة». وأصبح الشيئان مرتبطين بفكرة البعث والثواب والعقاب في العالم الآخر". وهكذا "فإذا كانت بداية التاريخ اليهودي، من وجهة النظر الصهيونية- هي الخروج من أرض العبودية في مصر ودخول أرض الميعاد، فالنهاية الأخروية هي الخروج أيضا من أرض العبودية في مصر أو روسيا أو أي منفى آخر، ودخول أرض الميعاد أيضا... وإذا كان دخول كنعان قد أدَّى إلى إنشاء الهيكل والعبادة القربانية المركزية (حيث يحل الإله وسط الشعب في قدس الأقداس)، فإن الدخول الحديث إلى فلسطين يؤدي إلى إنشاء الدولة الصهيونية، بحيث يحل الإله فيها، بالنسبة للمتدينين اليهود فتصبح دولة مقدَّسة. أما بالنسبة إلى الملحدين، فهي دولة مقدَّسة بذاتها إذ أن حلوليتهم حلولية بدون إله ووحدة وجود مادية(المسيري). هذا عن اليهودية، أما المسيحية فلا تقول بوجود جنة ولا نار حسيتين، الجنة عندهم هي التحول إلى أرواح تقيم مع المسيح، مثل الملائكة مع الله. وأما النار، وهي لغير المسيحيين الذين لا يؤمنون بألوهية عيسى، فهي الهاوية حيث الموت الأبدي.

خطاب في موضوع لم تكن تؤمن بوجوده، هذا ممكن! لكن ذلك راجع بكيفية أساسية إلى أن القرآن لم يقتصر على إثبات وجود هذا الذي تنفي قريش وجوده، بل قدمه إليهم مشخصا في صور بيانية بلاغية تجلى فيها فعلا صدق الحديث النبوي "إن من البيان لسحرا".

لقد وجدت قريش في هذا الخطاب مستوى من الفصاحة والبلاغة أرقى كثيرا من سجع الكهان وقصائد الشعراء ورجزهم، حتى إنهم احتاروا في الوصف الذي يصدق عليه. لقد كانت قريش تنكر أن يكون بعد الممات حياة أخرى، وتجادل في هذا الأمر جدالا مقرونا بالاستهزاء، فجاءت لهجة القرآن في هذا الموضوع قوية تقريرية وجدالية متوعدة، تقدم عن البعث والحساب والجنة والنار مشاهدَ حية كأنها وصف لواقع حسي حي ملموس، مشاهدَ يتخللها، تارة حوار حي بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، وتارة أخرى شجار بين الملقى بهم في جهنم، يتلاومون ويُحمِّل بعضهم بعضا مسؤولية هذا المصير الذي آلوا إليه؛ وفي المقابل من ذلك حديث ودي هادئ ينبئ عن الفرحة والسعادة يجري بين أصحاب الجنة، بعضهم مع بعض، أو بينهم وبين الملائكة.

ومما يلفت النظر أن الوعيد بالعذاب يوم القيامة يُقدَّم في هذه المرحلة كعقاب على الطغيان بالمال وعدم الإحسان إلى اليتامى والفقراء والمساكين: وهكذا يخاطب القرآن أغنياء قريش وهم في النار ليبين لهم أسباب إلقائهم فيها، يقول لهم: "كلا بل لا تكرمون اليتيم، ولا تحاضون على طعام المسكين، وتأكلون التراث أكلا لما، وتحبون المال حبا جما. (الفجر 17-20). ويكاد الباحث يستخلص النتيجة التالية من السور والآيات التي نزلت في هذه المرحلة، وهي أن الوحي جاء من الله لينذر الأغنياء الذين يستأثرون بالمال ويهضمون حقوق اليتامى ولا يحسنون إلى الفقراء بأن لهم جهنم، وليبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات -من الصدقات وغيرها- بان لهم الجنة. وبما أن القرآن يجعل مصير "المكذبين من أولي النعمة" اليوم، كمصير أمثالهم في القرون الماضية، ويشخص هذا المصير بصور بيانية يتزاحم فيها الماضي والحاضر والمستقبل في مشهد واحد، يتداخل فيه زمن المكذبين من الأقوام الماضية مع زمن المكذبين من قريش، وينتقل فيه الوصف والحوار من زمن الدنيا إلى زمن الآخرة بدون حواجز، فإن المخيال الديني الاجتماعي السياسي الذي يتشكل من خلال هذه المشاهد لا بد أن يزامن هو الآخر بين ما جرى في الماضي وما سيجري في المستقبل، وبالتالي فالجزاء في "الآخرة" ينسحب على الدنيا أيضا، إذ لا فاصل بينهما في المشهد. ومن هنا المضمون السياسي للدعوة المحمدية في هذه المرحلة: إن "الآخر"، المشركين الكافرين الخ سيعاقبون في الدنيا كما في الآخرة، ليس فقط بسبب

كفرهم وشركهم بل أيضا بسبب استئثارهم بالمال وعدم الإحسان إلى الفقراء. وهذا الاستئثار هو في الحقيقة نوع من "الكفر": هو كفر بالنعمة واستبداد بها. وبما أن مال الدنيا لن يمنع صاحبه من العقاب في الآخرة فهو لن يمنعه منه في الدنيا كذلك.

هذا النوع من العرض التشخيصي للحياة الأخرى كان سلاح الدعوة المحمدية للدفاع عن النفس إزاء خصومها من الملأ من قريش الذين استأثروا بالثروة التي كانوا يجنونها من موقع مكة كمركز ديني وتجاري، وفي نفس الوقت كان سلاحا "هجوميا" على الصعيدين النفسي والمعنوي -صعيد الترغيب والتخويف- يقوم بمهمتين في آن واحد: تخويف قريش بمشاهد جهنم وإغرائهم بمشاهد الجنة، الشيء الذي جعلهم يعيشون في تناقض وجداني عبر عنه القرآن بقوله تعالى: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ". هذا بالنسبة لكفار قريش، أما بالنسبة للمؤمنين، صحابة الرسول عليه السلام، فإن مشاهد الجنة، وهم يتسامرون فيها وينعمون في غرفها بكل ما لذ وطاب، تنسيهم الحرمان الذي يعانون منه في الدنيا، وفي الوقت نفسه تُحرّك "الطمع" في نفوس المشركين، علهم ينضمون إلى المؤمنين. وهذا الأسلوب في الدعوة الذي يجمع بين الترغيب والتخويف يوضحه القرآن في غير ما آية، من ذلك قوله تعالى: "ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ. وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (الأعراف 55-56)، وقوله: "وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا. وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ، وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ، وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ (كذلك)، وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا" (الإسراء 59-60).

خطاب القيامة والجنة والنار في القرآن: أخلاق وسلاح. لقد أوضحنا جانب السلاح فيه بما يكفي لجعل القارئ يفرق بين زمن القراءة -زمنه هو- وبين زمن الدعوة. إن زمن القراءة زمن نفسي قد يطول وقد يقصر، ولكنه لا يتردد كتردد ضربات المطرقة، بينما زمن الدعوة هو "زمن المطرقة" بالذات، لا يُحسب بالطول ولا القصر بل بتكرار الضربات.

حديث الجنة والنار في القرآن حديث مكرر كما تتكرر الشعارات في كل دعوة. لكن ما يميز التكرار في القرآن هو أنه يفترق تماما عن تردد ضربات المطرقة وتكرار الشعارات عندما "يُسمع" (يُفهم) من خلال السياق. ذلك لأن السياق يحول المنفصل إلى متصل. وقد حرصنا على التنبيه إلى ذلك.

نأتي الآن إلى الجانب النظري في الموضوع. لقد احتجت قريش مرارا بما يمكن التعبير عنا بـ"عدم معقولية البعث"، لقد تساءلوا باستنكار واستغراب : "أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ، أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ" (الواقعة 47-48)، وقالوا

باللهجة نفسها : قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (يس 78) الخ. وكان جواب القرآن بسيطا واضحا محرجا: أنتم تؤمنون بأن الله هو الذي خلقكم ابتداء فكيف تنكرون أن يقدر على إعادة خلقكم كما فعل أول مرة، خصوصا وأنتم تعرفون أن صنع الشيء مرة أخرى أسهل من صنعه في المرة الأولى. لكن ما كان يمنع قريشا من قبول فكرة "البعث" ليس ما فيها من قوة أو ضعف على المستوى الحجاجي المنطقي. بل إن ما كانت ترفضه قريش، من عمق أعماقها، هو مضمونها الأخلاقي.

ذلك أن جوهر فكرة البعث في الإسلام، ومبررها والغرض منها، هو "الحساب". فالآخرة هي يوم الدين، يوم الحساب. اليوم الذي يطبق فيه مبدأ المسؤولية الفردية على الجميع : "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزلة 7-8)، "أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (النجم 38-41).

وهذا في الحقيقة ما كان يهرب منه الملأ من قريش. وقد سبق أن رأينا كيف أن بعض كبارهم كانوا يبحثون عن وسائل للتخلص من ذنوبهم، إما ببيعها أو بكراء من ينوب عنهم في تحمل عقابها! كانت عقليتهم التجارية تمتنع عن رؤية شيء آخر لا يقع تحت قانون الربح والخسارة. هم يربحون في الدنيا من حج القبائل إلى الأصنام، ومما يرافق ذلك من التسوق والبيع والشراء، ويمارسون الربا والقمار ويأكلون أموال اليتامى الخ، وفكرة "البعث" تعني الحساب الفردي على كل سلوك لا أخلاقي يأتيه الفرد في حياته. ولهذا السبب كان موقفهم منه حدِّيا: الرفض الجامد المطلق.

ومن هنا تلك الظاهرة اللافتة للنظر: وهي أن قريشا لم تميز في البعث -كما فعلت شعوب وديانات وحضارات أخرى- بين بعث النفوس وبعث الأجساد. لقد لجأت ديانات وفلسفات منذ القدم إلى الخروج من "المأزق" الذي تطرحه فكرة البعث بالقول -بصور مختلفة- إن جوهر الإنسان هو روحه، نفسه، وإن البدن ليس سوى حامل أو سجن أو مادة لهذا الجوهر. وبالتالي فالبعث عند من يقولون به -من هذا المنظور- سيكون للنفوس وحدها، وبالتالي فالحساب، ثوابا وعقابا، سيكون للنفوس وحدها كذلك. أما الأجساد فلم تكن إلا آلات للنفوس، وهذا المنظور يجعل اعتراض قريش "من يحيي العظام وهي رميم" غير ذي موضوع.

ويهمنا هنا أن نقوم في هذا الاستطراد بإطلالة على هذا الجانب الذي كان له حضور قوي في الفكر الفلسفي في الإسلام خصوصا بعد أن كتب الغزالي "تهافت الفلاسفة" الذي كفر فيه الفلاسفة بسبب ما استنتجه من آرائهم في "المعادّ من إنكار لـ"بعث الأجساد".

2- الفارابي: النبي والفيلسوف

فكرة "المعاد" لدى فلاسفة الإسلام (الفارابي وابن سينا تخصيصا مع استبعاد المتصوفة والإشراقيين الخ)) مؤسسة، أو قل هي امتداد لنظريهم في المعرفة القائمة على فكرة الفيض: فيض العقل الأول (=الله في الخطاب الديني) -عبر العقول السماوية (=الملائكة في الخطاب الديني)- على النفوس البشرية تحت فلك القمر (عالم الأرض). والفرق بين النبي والفيلسوف على هذا المستوى هو أن الفيلسوف يتلقى بعقله الحقائق من العقل الفعال (العقل المكلف بما تحت فلك القمر وهو جبريل في الخطاب الديني) في حين يتلقاها النبي منه بمخيلته. وهذا الذي يلقيه العقل الفعال، في عقل الفيلسوف أو في مخيلة النبي، يتلقاه هو من الله. وبما أن الإنسان عقل ومخيلة فيكون الله عز وجل يوحي إليه بتوسط العقل الفعال إلى عقله المنفعل (المتلقي) ثم إلى قوته المتخيلة. فيكون بما يفيض منه إلى عقله المنفعل حكيما فيلسوفا ومتعقلا على التمام، وبما يفيض منه إلى قوته المتخيلة نبيا منذرا بما سيكون ومخبرا بما هو الآن من الجزئيات... وهذا الإنسان هو في أكمل مراتب الإنسانية وفي أعلى درجات السعادة". ومن هنا كان ما يأتي به النبي يقدمه للجمهور على شكل مثالات وتشخيصات ومحاكيات كي يدركوه، لكونهم ليسوا أهل نظر عقلي. أما ما يأتي به الفيلسوف فهو يدركه إدراكا عقليا لا يحتاج فيه إلى مخيلة. ومن هنا قول الفارابي: ما في الدين مثالات لما ف الفلسفة، وبالتالي لا تناقض بينهما.

هذا من جهة ومن جهة أخرى يربط الفارابي كغيره من الفلاسفة القدماء السعادة بالمعرفة العقلية، إذ بهذه المعرفة تستكمل نفس الإنسان حقيقتها (تصير عقلا) وتصبح غير محتاجة في قوامها إلى مادة، فتكون بذلك من جملة الأشياء البريئة من المادة، أي من جملة الكائنات التي لا تحتاج في أن تدرك إلى عضو به تدرك (كالبصر مثلا)، ولا إلى جسم يكون كالمادة للصورة التي تريد إدراكها (في المبصرات). وهكذا فالسعادة هي أن تصير النفس، بواسطة المعرفة العقلية، "في جملة الجواهر المفارقة للمواد وأن تبقى على تلك الحال دائما أبدا (وذلك هو الخلود)، إلا أن رتبتها تكون دون رتبة العقل الفعال"، لأن هذا جوهر روحاني بطبيعته. أما النفس فليست كذلك، وإنما تكتسب تلك الصفة بالعلم والمعرفة. "أما ما دامت (النفس) لم تستكمل (=حقيقتها) ولم تفعل أفعالها (=العقلية التي بها تصير كاملة فإنها تبقى) قوى وهيئات فقط معدة لأن تقبل رسوم الأشياء مثل البصر قبل أن يبصر وقبل أن تحصل فيه رسوم المبصرات"[2].

---

2 - الفارابي. السياسة المدنية. ص 27

تلك هي السعادة عند الفارابي (أو لنقل "الجنة" في الدنيا والآخرة، جنة المعرفة العقلية). وطريقها، كما رأينا، هو العقل واستكمال النفس حقيقتها بالمعرفة النظرية، المعرفة بمبادئ الموجودات ونظام الكون والعقول المفارقة الخ. أما ابن سينا فهو يربط السعادة باللذة التي تحصل للنفس عند تحررها من البدن كما سنرى.

3- ابن سينا ومسألة المعاد

- اللذة والألم

يميز ابن سينا بين المعاد كما أخبر به الشرع ويقول عنه : "إنه لا سبيل إلى إثباته الا من طريق الشريعة وتصديق خبر النبوة وهو الذي للبدن عند البعث". وبين المعاد كما "هو مدرك بالعقل والقياس البرهاني... وهو السعادة والشقاوة... اللتان للأنفس"[3]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يربط ابن سينا السعادة باللذة التي تحصل للنفس عند بلوغها كمالها الخاص بها أي عندما تصير عالما عقليا، مرتسما فيها صورة الكل، فتشاهد الحُسن المطلق والخير المطلق والجمال المطلق وتتحد به نوعا من الاتحاد! كما يربط الشقاوة بالألم الذي يحصل للنفس بسبب فقدان تلك اللذة. وإذا كانت النفس، وهي في البدن، لا تحس بالألم الناتج عن فقدان اللذة المذكورة فذلك لأن البدن يقوم حاجزا بينها وبين تلك اللذة، فإذا زال هذا الحاجز بسبب الموت أدركت فقدانها للذة وأحست بالألم، مثلها في ذلك مثل الشخص الذي يكمن الألم في عضو من أعضائه، غير أن وجود مانع للإحساس بالألم كالمخدر مثلا يجعله لا يحس به، حتى إذا زال المانع شعر بألم شديد. وإذن فالبدن يلعب دورين متكاملين : فمن جهة يشغل النفس عن استكمال جوهريتها وبلوغ اللذة العليا، ومن جهة أخرى يحول دونها ودون الشعور بالألم الذي يكمن وراء فقدان اللذة. فإذا تحرر الإنسان في حياته الدنيا من البدن وشواغله أحس باللذة حسب درجة تحرره، وإذا لم يتحرر شغله البدن ليس فقط عن الشعور باللذة بل أيضا عن الشعور بالألم الناجم عن فقدان اللذة، حتى إذا فارقت النفس البدن بالموت زال المانع فتعيش في سعادة كاملة أو ناقصة حسب درجة تحررها من شواغل البدن أثناء وجودها فيه، وتعاني من شقاء كامل أبدي أو مؤقت حسب درجة انشغالها بالبدن أثناء وجودها فيه[4].

- أصنف النفوس بعد الموت

وهكذا فالنفوس بعد الموت أصناف :

---

3 - ابن سينا : النجاة ص 326

4 - المصدر نفسه ص 328 وما بعدها

1- هناك النفوس العالمة الفاضلة، أي التي حصلت على كمالها الخاص بها قبل أن تفارق البدن بسبب الموت فتمكنت من المعرفة التامة بالوجود ومبادئه وعلله ومراتبه حتى صارت "عالما معقولا موازيا للعالم الموجود كله مشاهدا لما هو الحق المطلق والخير المطلق والجمال والحق"(5). إن هذه النفوس، إذا استمرت على تلك الحال وهي بعد في بدنها ولم يشغلها شاغل حسي طارئ فإنها تبقى كذلك بعد الموت في لذة لا نهاية لها، فتتصل لذتها في الدنيا وهي في البدن بلذتها في الآخرة وقد فارقت البدن، ولذلك تعيش في سعادة لا يمكن قياسها ولا وصفها بأنها أعظم وأشد، لأنه ليس هناك سبيل إلى مقارنتها بأي سعادة أخرى، فهي السعادة الكاملة، والكامل يعرف بنفسه وليس بمقارنته بالناقص.

2- وهناك النفوس العالمة ولكن غير الفاضلة وهي التي تنبهت، وهي في البدن، لكمالها فعقلت بالفعل أنه موجود وأصبحت نازعة إليه، ولكنها مع ذلك لم تحصله لأن انشغالها بالبدن قد أنساها ذاتها ومعشوقها كما ينسي المرض الاستلذاذ بالحلو واشتهائه وكما تميل الشهوة بالمريض إلى المكروهات الحقيقية. فإذا فارقت هذه النفوس البدن عرض لها عارضان. أولهما اللذة التي تستلزم معرفتها بكمالها، وثانيهما الألم الناتج عن الإحساس بفقدان تلك اللذة بسبب انشغالها بالألم. وبذلك تتألم ألما عظيما عندما تفارق البدن بالموت، لأن البدن كان لها بمثابة المانع الذي يمنع الإحساس بالألم. وذلك الألم العظيم هو الشقاوة التي لا تعدلها شقاوة. غير أن هذا الألم لا يدوم إلى الأبد بل يبقى المدة اللازمة لتطهير تلك النفوس ثم يزول. هذه النفوس إذن لا تخلد في الشقاء بل تسعد في النهاية.

3- وهناك النفوس التي اكتسبت رأيا (=سمعت) بأن هاهنا أمورا يكتسب بها الشوق إلى كمال جوهرها، ولكنها وهي في بدنها لم تحصل ما تبلغ به، بعد مفارقتها البدن، كمالها التام. فإذا فارقت البدن على هذه الحال الناقصة وقعت في شقاء أبدي إذ لا يمكنها اكتساب أوائل الملكة العلمية لأن هذه إنما كانت تكتسب بالبدن، وهي قد فارقت البدن. والذين هم هذه حالهم إما مقصرون من السعي إلى اكتساب الكمال الإنساني وإما معاندون جاحدون متعصبون لأراء فاسدة، والجاحدون أسوأ حالا في الشقاء الأبدي من المقصرين.

4- وهناك النفوس السليمة التي هي على الفطرة، أي التي لم تعرف طريق استكمالها جوهرها ولا سمعت به والتي، بالإضافة إلى ذلك، لم تتدنس بالعقائد المخالفة، هذه النفوس "إذا سمعت ذكرا روحانيا يشير إلى أحوال المفارقات (أي إذا اتبعت دينا يذكرها بالجنة والنار) "حصل لها شوق وأصابها وجد مبرح مع لذة

---

5 - المصدر نفسه ص 328

مفرحة"[6]. فمن كان شوقه إلى الكمال راجعا إلى ذات الكمال، أي إلى مناسبة ذاته للكمال، لم يقنع إلا بالوصول إليه، وبالتالي يسعد السعادة القصوى. ومن كان شوقه إلى الكمال راجعا إلى أمور أخرى كطلب الحمد والمنافسة فإنه يقنع بما يحصل له من ذلك.

5- وأخيرا هناك نفوس "البله من الناس" التي لم تكتسب الشوق ولا عرفت كمالها، فإذا فارقت البدن وكانت غير مكتسبة للهيئات البدنية الرديئة وليس لها هيأة غير ذلك ولا معنى يضاده وينافيه فإنها تعذب عذابا شديدا بمفارقة البدن ومقتضيات البدن، من غير أن يحصل لها شوق، لأن آلة ذلك، التي هي البدن، قد بطلت، وخلق التعلق بالبدن قد بقي"[7]. ويذكر ابن سينا رأيا آخر بصدد هذه النفوس ويرجحه. ومؤدى هذا الرأي أن هؤلاء البله إذا فارقت نفوسهم أبدانها، وهي بدنية لا تعرف غير البدنيات وليس لها تعلق بما هو أعلى من الأبدان فيشغلهم عنها، أمكن أن تستعمل هذه النفوس أجراما سماوية، لا بأن تصير أنفسا لتلك الأجرام أو مدبرة لها، بل تستعمل تلك الأجرام في التخيل، أي تتخيل بواسطتها ما قيل لها في الدنيا عن أحوال الآخرة : فالنفوس الزكية منها، أي التي اعتقدت الخير وعملته وهي في الدنيا. تشاهد الجنة وتنعم في هذه المشاهدة. والنفوس الشريرة التي عملت الشر في الدنيا تشاهد جهنم وتشقى بهذه المشاهدة. وسيكون ذلك بمثابة السعادة الحقيقية بالنسبة للنوع الأول والشقاوة الحقيقية بالنسبة للنوع الثاني، لأن الصور الخيالية ليست أقل وضوحا من الصور الحسية، بل إن قوتها تزداد كما في صور الأحلام حيث تتألم النفس آلما شديدا إذا كانت تلك الصور مزعجة[8].

تلك هي نظرية ابن سينا في المعاد وهي مؤسسة، كما رأينا، على نظريته في النفس. والواقع أن النظرية السينوية في النفس لا تؤسس نظريته في المعاد وحدها بل تؤسس كذلك نظريته في السعادة التي تحصل لبعض النفوس في هذه الدنيا، قبل مفارقتها أبدانها مفارقة نهائية. يتعلق الأمر إذن بما يعرف بـــ "تصوف" ابن سينا، أو على الأصح بنظرية التصوف السينوية، وهذا موضوع آخر.[9]

---

6 - ابن سينا. الإشارات والتنبيهات. ج4، ص 34

7 -المصدر نفسه ص ج4 ص 35. أيضا: النجاة. ص 329 وما بعدها

8 - ابن سينا. شرح أوتولوجيا. المصدر نفسه ص 72. الإشارات والتنبيهات. ج4 ص 35

9- نذكر أننا قد استعدنا هنا هذه الفقرات من كتابنا "بنية العقل العربـــي". القـــسم الثالـــث. الفصل الثاني.

4- موقف ابن رشد.

ألف الغزالي كتابه الشهير "تهافت الفلاسفة" ليرد على الفلاسفة بنفس منطقهم -والمقصود ابن سينا- فحصر المسائل التي رأى أن آراءهم تخالف ما جاء به الإسلام في عشرين مسألة آخرها "مسألة بعث الأجساد"، وقد كفرهم في ثلاث مسائل، منها هذه الأخيرة. وقد رد عليه ابن رشد بكتاب سماه "تهافت التهافت" تتبع فيه ردود الغزالي في كل مسألة وبين أن ما نسبه للفلاسفة إنما يخص تأويلات ابن سينا لفلسفة أرسطو وليس آراء هذا الأخير. ويهمنا هنا أن ننقل رد ابن رشد في المسألة التي نحن بصددها هنا[10].

قال الغزالي: "مسألة في إبطال إنكارهم لبعث الأجساد، ورد الأرواح إلى الأبدان، ووجود النار الجسمانية، ووجود الجنة والحور العين، وسائر ما وُعِد به الناس. وقولهم: إن كل ذلك أمثلة ضربت لعوام الخلق لتفهيمهم ثوابا وعقابا روحانيَّيْن، هما أعلى رتبة من الجسمانيين".

قال ابن رشد تعقيبا على ذلك "ولما فرغ (الغزالي) من هذه المسألة (= المسألة السابقة 19) أخـذ يزعـم أن الفلاسفة ينكرون حشر الأجساد! وهذا شيء ما وُجِـد، لواحد ممن تقدم، فيه قولٌ. والقول بحشر الأجساد أقلُّ ما له منتشرٌ في الشرائع [=منذ] ألف سنة. والذين تأدت إلينا عنهم الفلسفة هم دون هذا العدد من السنين. وذلك أن أول من قال بحشر الأجساد هم أنبياء بني إسرائيل، الذين أتوا بعد موسى عليه السلام. وذلك بيِّنٌ من الزبور، ومن كثير من الصحف المنسوبة لبني إسرائيل. وثبت ذلك أيضا في الإنجيل، وتواتر القول به عن عيسى عليه السلام. وهو قول الصابئة...

بل القوم (=الفلاسفة) يظهر من أمرهم أنهم أشد الناس تعظيما لها (للشرائع) وإيمانا بها. والسبب في ذلك أنهم يرون أنها (الشرائع) تنحو نحو تدبير النفس الذي بـه وجود الإنسان، بما هو إنسان. وبلوغه سعادته الخاصة به. وذلك أنها ضرورية في وجود الفضائل الخلقية للإنسان، والفضائل النظرية والصنائع العملية. وذلك أنهم يرون (يعني الفلاسفة) أن الإنسان لا حياة له في هذه الدار إلا بالصنائع العملية، ولا حياة له في هذه الدار ولا في الدار الآخرة إلا بالفضائل النظرية. وأنه ولا واحد من هذين يتم، ولا يبلغ إليه، إلا بالفضائل الخلقية. وأن

10- سبق أن أشرفنا على طبعة جديدة لكتب ابن رشد التالية (فصل المقال، الكشف عن مناهج الأدلة، تهافت التهافت، الكليات في الطب) مزودة بمداخل ومقدمات تحليلية وشروح وتعليقات. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. ومن طبعتنا لكتاب "تهافت التهافت"، المشار إليها، نستعيد هنا هذه الفقرات. انظر: المسألة العشرون.

الفضائل الخلقية لا تتمكن إلا بمعرفة الله تعالى وتعظيمه بالعبادات المشروعة لهم، في ملة ملة، مثل القرابين والصلوات والأدعية ... ويرون بالجملة أن الشرائع هي الصنائع الضرورية المدنية التي تأخذ مبادئها من العقل والشرع -ولاسيما ما كان منها عاما لجميع الشرائع- وإن اختلفت في ذلك بالأقل والأكثر. ويرون مع هذا (=علاوة عليه) أنه لا ينبغي أن يَتَعرض بقول مُثبِت أو مُبطِل في مبادئها العامة، مثل: هل يجب أن يعبد الله أو لا يعبد؟ وأكثر من ذلك: هل هو موجود أم ليس بموجود؟ وكذلك يرون في سائر مبادئه: مثل القول في وجود السعادة الأخيرة وفي كيفيتها. لأن الشرائع كلها اتفقت على وجود أخروي بعد الموت، وإن اختلفت في صفة ذلك الوجود. كما اتفقت على معرفة وجوده وصفاته وأفعاله، وإن اختلفت فيما تقوله في ذات المبدأ وأفعاله، بالأقل والأكثر. وكذلك هي متفقة في الأفعال التي توصل إلى السعادة التي في الدار الآخرة، وإن اختلفت في تقدير هذه الأفعال.

فهي (الشرائع الدينية) بالجملة: لما كانت تنحو نحو الحكمة بطريق مشترك للجميع، كانت واجبة عندهم. لأن الفلسفة إنما تنحو نحو تعريف سعادة بعض الناس العقلية، وهو مَن شأنُه أن يتعلم الحكمة (الفلسفة). والشرائع تقصد تعليم الجمهور عامة. ومع هذا فلا نجد شريعة من الشرائع إلا وقد نبهت بما يخص الحكماء، وعنيت بما يشترك فيه الجمهور.

ولما كان الصنف الخاص من الناس (= العلماء) إنما يتم وجوده وتحصيل سعادته بمشاركة الصنف العام، كان التعليم العام ضروريا في وجود الصنف الخاص، وفي حياته: أما في وقت صباه ومنشئه فلا يشك أحد في ذلك، وأما عند نقلته إلى ما يخصه، فمن ضرورة فضيلته ألا يستهين بما نشأ عليه، وأن يتأول لذلك أحسن تأويل. وأن يعلم أن المقصود بذلك التعليم هو ما يعم لا ما يخص. وأنه إن صرح بشك في المبادئ الشرعية التي نشأ عليها، أو بتأويل، أنه مناقض للأنبياء صلوات الله عليهم وصادٌّ عن سبيلهم، فإنه أحق الناس بأن يطلق عليه اسم الكفر. ويُوجِبُ له في الملة التي نشأ عليها عقوبة الكفر. ويجب عليه مع ذلك أن يختار أفضلها في زمانه، وإن كانت كلها عنده حقا. وأن يعتقد أن الأفضل يُنْسخ بما هو أفضل منه. ولذلك أسلم الحكماء الذين كانوا يعلمون الناس بالإسكندرية (=مدرستها الفلسفية العلمية) لما وصلتهم شريعة الإسلام، وتنصر الحكماء الذين كانوا ببلاد الروم لما وصلتهم شريعة عيسى عليه السلام. ولا يشك أحد أنه كان في بني إسرائيل حكماء كثيرون. وذلك ظاهر من الكتب التي تُلْفَى عند بني إسرائيل، المنسوبة إلى سليمان عليه السلام. ولم تزل الحكمة أمرا موجودا في أهل الوحي، وهم الأنبياء

عليهم السلام. ولذلك أصدق كل قضية، هي: أن كلُ نبي حكيم وليس كل حكيم نبيا.
والحكماء (=هم) العلماء الذين قيل فيهم "إنهم ورثة الأنبياء".

وإذا كانت الصنائع البرهانية (كالرياضيات) في مبادئها المصادرات والأصول الموضوعة، فكم بالحَرِيِّ يجب أن يكون ذلك في الشرائع المأخوذة من الوحي والعقل. وكل شريعة كانت بالوحي، فالعقل يخالطها. ومن سلم أنه يمكن أن تكون هاهنا شريعة بالعقل فقط، فإنه يلزم ضرورة أن تكون أنقص من الشرائع التي استنبطت بالعقل والوحي. والجميع متفقون على أن مبادئ العمل (العبادات) يجب أن تؤخذ تقليدا، إذ كان لا سبيل إلى البرهان على وجوب العمل، إلا بوجود الفضائل الحاصلة عن الأعمال الخلقية والعملية.

فقد تبين من هذا القول: أن الحكماء بأجمعهم يرون في الشرائع هذا الرأي، أعني: أن يتقلد (=الإنسان) من الأنبياء والواضعين مبادئ العمل والسنن المشروعة، في ملة ملة. والممدوح عندهم من هذه المبادئ الضرورية هو ما كان منها أحث للجمهور على الأعمال الفاضلة، حتى يكون الناشئون عليها أتم فضيلة من الناشئين على غيرها، مثل كون الصلوات عندنا: فإنه لا يشك في أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، كما قال تعالى. وأن الصلاة الموضوعة في هذه الشريعة يوجد فيها هذا الفعل أتم منه في سائر الصلوات الموضوعة في سائر الشرائع، وذلك بما شرط في عددها وأوقاتها وأذكارها، وسائر ما شرط فيها من الطهارة، ومن التّروك، أعني: ترك الأفعال والأقوال المفسدة لها.

وكذلك الأمر فيما قيل في المعاد فيها هو أحث على الأعمال الفاضلة مما قيل في غيرها. ولذلك كان تمثيل المعاد لهم بالأمور الجسمانية أفضل من تمثيله بالأمور الروحانية، كما قال سبحانه: "مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار" (الرعد 35). وقال النبي عليه السلام: "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر بقلب بشر". وقال ابن عباس: "ليس في الآخرة من الدنيا إلا الأسماء"، فدل على أن ذلك الوجود نشأة أخرى أعلى من هذا الوجود، وطور آخر أفضل من هذا الطور. وليس ينبغي أن يُنكِر ذلك من يعتقد أنا ندرك الموجود الواحد ينتقل من طور إلى طور، مثل انتقال الصور الجمادية إلى أن تصير مدركة بذواتها، وهي الصور العقلية.

والذين شكوا في هذه الأشياء وتعرضوا لذلك وأفصحوا به إنما هم الذين يقصدون إبطال الشرائع وإبطال الفضائل، وهم الزنادقة الذين يرون أن لا غاية للإنسان إلا التمتع باللذات. هذا مما لا يشك فيه أحد. ومن قُدِر عليه من هؤلاء فلا يشك أن أصحاب الشرائع والحكماء بأجمعهم يقتلونه. ومن لم يُقدر عليه فإن أتم الأقاويل التي يحتج بها عليه هي الدلائل التي تضمنها الكتاب العزيز.

وما قاله هذا الرجل (الغزالي) في معاندتهم (الفلاسفة) هو جيد. ولابد في معاندتهم أن توضع (تعتبر) النفس غير مائتة، كما دلت عليه الدلائل العقلية والشرعية، وأن يوضع (=أن يتم التسليم بـــ) أن (=الأجسام) التي تعود (=تبعث يوم القيامة) هي أمثال هذه الأجسام التي كانت في هـــذه الـــدار، لا هـــي بعينها، لأن المعدوم لا يعود بالشخص وإنما يعود الموجود لمثل ما عُـــدم، لا لعين ما عدم، كما بين أبو حامد (الغزالي).

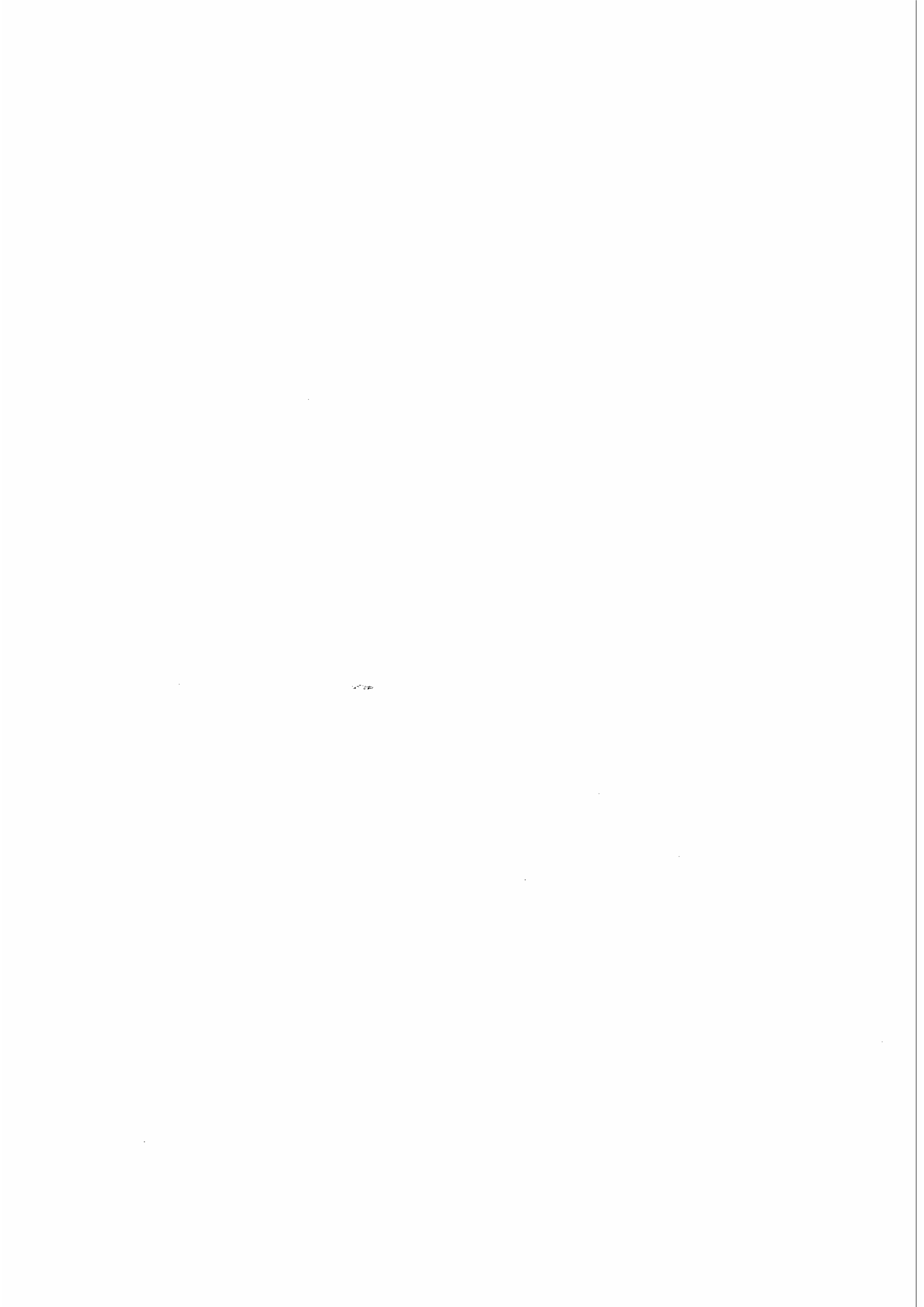
وهذا الرجل (الغزالي) كفر الفلاسفة بثلاث مسائل: أحدها هذه، وقد قلنا كيف رأيُ الفلاسفة في هذه المسألة، وأنها عندهم من المسائل النظرية. والمسألة الثانية قولهم: إنه (الله) لا يعلم الجزئيات. وقد قلنا أيضا إن هذا القـــول ليس من قولهم (=المسألة 13). والثالثة قولهم بقدم العالم، وقد قلنا أيضا إن الـــذي يعنون بهذا الاسم ليس هو المعنى الذي كفرهم به المتكلمون (= المسألة الأولى).

وقال الغزالي في هذا الكتاب (كتابه تهافت الفلاسفة) إنه لم يقل أحد من المسلمين بالمعاد الروحاني (وحده)، وقال في غيره، إن الصوفية تقول به. وعلى هذا فليس يكون تكفير من قال بالمعاد الروحاني ولم يقل بالمحسوس، إجماعا. وجوز هو القول بالمعاد الروحاني. وقد تردد أيضا في غير هذا الكتاب (من كتبه) في التكفير بالإجماع. وهـــذا كلـــه كما ترى تخليط. ولاشك أن هذا الرجل أخطأ على الشريعة كما أخطأ على الحكمة. والله الموفق للصواب والمختص بالحق من يشاء".



المرحلة الثالثة

إبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام



استهلال

أبرزنا في التعليق الذي ختمنا به سورة القمر، آخر سور المرحلة الثانية، كيف أن الخطاب فيها ينم عن توتر العلاقة بين مشركي قريش والنبي عليه السلام. ونضيف الآن أن ذلك التوتر قد أدى بكبار قريش إلى التدخل لدى أبي طالب، عم النبي وعميد الهاشميين في ذلك الوقت، وكان قد تكفل به في صباه واستمر يحميه ويمنعه من خصوم نبوته ودعوته. وإذا كنا لا نستطيع الجزم بأن هذا التدخل أو ذلك كان أول تدخل منهم لديه، لأن روايات عديدة تحدثت عن تدخلات متعددة من دون ترتيب زمني واضح، فإن هذا التدخل الذي وردت عنه إشارة قوية في السورة التي نحن بصدد الانتقال إليها تجعل منه حدثا يسجل مرحلة ثالثة في الدعوة المحمدية، مرحلة ما يُعبَّـر عنه، في كتب التفسير والسيرة، بـ"التعرض للأصنام".

تتميز هذه المرحلة بكون الرسول عليه السلام قد خاض خلالها مع الملأ من قريش معركة قوية وعنيفة ضد الشرك وعبادة الأصنام، فتعرض هو وأصحابه لشتى أنواع الإذايات والعسف كان من نتائجها اضطرار معظم الذين لَبـوا دعوته إلى الهجرة إلى الحبشة بأمر منه، وكان ذلك بين الخامسة والسادسة للنبوة (وهي الهجرة الأولى)، ثم تواصلت الهجرة طيلة سنة أو يزيد، إلى أن قررت قريش محاصرة النبي (ص) وأهله في شعب أبي طالب بجبل أبي قُبيس المطل على مكة، فكانت الهجرة الثانية التي بلغ بها من هاجر إلى الحبشة من المسلمين أزيد من ثمانين رجلا وامرأة. وسنرى تفصيل ذلك في المرحلة الرابعة من كفاح النبي عليه الصلاة والسلام. أما الآن فسيكون علينا أن نتعرف على المرحلة الثالثة التي انتقلت فيها الدعوة المحمدية من التركيز على المعاد إلى التركيز على التوحيد وإبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام.

كانت مرحلة جديدة في مسار الدعوة، سيكون علينا هنا التعرف على مسارها وتنوعاتها، إن على صعيد التنزيل أو على مستوى وقائع السيرة.



38- سورة ص

1- تقديـــم

تسجل هذه السورة والتي تليها (الأعراف) مرحلة جديدة سواء على صعيد مسيرة نزول القرآن أو صعيد علاقات الرسول عليه السلام مع الملأ من قريش.

1-فعلى الصعيد الأول تنتقل هذه السورة، على مستوى الشكل، من سلسلة السور الصغيرة والآيات القصار ذات الوقع الخاص الشبيه بالسجع -وما هو بسجع الشعراء- إلى سلسلة السور الطويلة ذات الآيات الطوال والعبارات الجدلية السجالية، البيانية، كما تنتقل على مستوى المضمون إلى التركيز على محور التوحيد مع شجب الشرك والتعرض للأصنام والاستهزاء بها وبمن يعبدها - مع حضور متفاوت للمحاور الأخرى (النبوة، البعث، المسألة الاجتماعية، إلى جانب توظيف قصص الأنبياء بصورة متكررة). وحسب تصنيفات المؤلفين في علوم القرآن يمكن القول إننا سننتقل مع سورة "ص" من مجموعة سور "المُفصَّل" التي تمتد من سورة "ق" إلى سورة "الناس"، حسب تصنيف المصحف، إلى مجموعة السور "المثاني"[1]، التي تمتد من سورة "ق" إلى سورة الشعراء، في التصنيف نفسه.

هذا على مستوى مسار التنزيل أما على مستوى السيرة، وبالخصوص تطور العلاقة بين الرسول عليه السلام والملأ من قريش فيمكن أخذ فكرة عنها من المرويات التالية التي ننقلها عن المؤرخ ابن سعد، صاحب الطبقات الكبرى، حيث نقرأ :

1- "... عن الزهري[2] قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام سرا وجهرا، فاستجاب لله من شاء من أحداث الرجال (شبان) وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به، وكفار قريش غير منكرين لما يقول. فكان إذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون إليه : إن غلام بني عبد المطلب ليكلم من السماء! فكان ذلك حتى

1- قيل سميت "المثاني" لأن القصص تتكرر فيها. وسندلي برأينا في هذه التسمية في حينه. أما إطلاق اسم المفصل على السور القصيرة فذلك لكونها قصيرة تفصل بينها البسملة ...

2- رواية الزهري لسيرة ابن إسحاق تختلف قليلا عن رواية ابن هشام.

عاب الله آلهتهم التي يعبدونها دونه، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر، فشنفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم (حقدوا عليه) عند ذلك، وعادوه".

2- وينقل ابن سعد عن راو آخر، قال: " لما أظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ومن معه وفشا أمره بمكة ودعا بعضهم بعضا؛ فكان أبو بكر يدعو ناحية سرا، وكان سعيد بن زيد مثل ذلك، وكان عثمان مثل ذلك، وكان عمر يدعو علانية وحمزة بن عبد المطلب وأبو عبيدة بن الجراح، فغضبت قريش من ذلك وظهر منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم الحسد والبغي، وأشخص به منهم رجال فبادوه (جاهروه بالعداوة)، وتستَّر آخرون وهم على ذلك الرأي إلا أنهم ينزهون أنفسهم عن القيام والإشخاص برسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان أهل العداوة والمباداة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، الذين يطلبون الخصومة والجدل: أبو جهل بن هشام، وأبو لهب بن عبد المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن قيس بن عدي وهو بن الغيطلة، والغيطلة أمه، والوليد بن المغيرة، وأمية وأُبَــي ابنا خلف، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والعاص بن وائل، والنضر بن الحارث، ومنبه بن الحجاج، وزهير بن أبي أمية، والسائب بن صيفي بن عابد، والأسود بن عبد الأسد، والعاص بن سعيد بن العاص، والعاص بن هاشم، وعقبة بن أبي معيط، وابن الأصدى الهذلي ... والحكم بن أبي العاص، وعدي بن الحمراء، وذلك أنهم كانوا جيرانه. والذين كانت تنتهي عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم: أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبي معيط، وكان عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب أهل عداوة، ولكنهم لم يشخصوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، كانوا كنحو قريش. قال ابن سعد ولم يُسلم منهم أحد إلا أبو سفيان والحكم بن أبي العاص... وعن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت بين شر جارين: بين أبي لهب وعقبة بن أبي معيط، كانا ليأتيان بالفروث (ما في الكرش) فيطرحانها على بابي". فيخرج به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول يا بني عبد مناف أي جوار هذا! ثم يلقيه بالطريق"

3- وفي رواية أخرى من رواة متعددين: "دخل حديث بعضهم في حديث بعض قالوا : لما رأت قريش ظهور الإسلام وجلوس المسلمين حول الكعبة سقط في أيديهم، فمشوا إلى أبي طالب حتى دخلوا عليه فقالوا: أنت سيدنا وأفضلنا في أنفسنا، وقد رأيت هذا الذي فعل هؤلاء السفهاء مع ابن أخيك مِن تركهم آلهتنا وطعنهم علينا وتسفيههم أحلامنا. وجاؤوا (يعني وفد قريش) بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا : قد جئناك بفتى قريش جمالا ونسبا ونهادة وشعرا ندفعه إليك فيكون لك نصره وميراثه، وتدفع إلينا ابن أخيك فنقتله، فإن ذلك أجمعُ للعشيرة وأفضل في عواقب الأمور مغبة. قال أبو طالب : والله ما أنصفتموني! تعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابن أخي تقتلونه! ما هذا بالنَّصَــف! تسومونني سوم العرير (الغريب في القوم)

الذليل! قالوا فأرسِلْ إليه فلنعطِه النَّصَف. فأرسل إليه أبو طالب، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال (أبو طالب): يا ابن أخي! هؤلاء عمومتك وأشراف قومك وقد أرادوا ينصفونك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا أسمَعُ. قالوا تدَعُنا وآلهتنا وندعك وإلهك. قال أبو طالب قد أنصفك القوم فاقبل منهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرأيتم إن أعطيتكم هذه، هل أنتم معطي كلمة إن أنتم تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم! فقال أبو جهل: إن هذه لكلمة مربحة، نعم وأبيك لَنَقولنَّها وعشرَ أمثالها. قال : قولوا لا إله إلا الله. فاشمأزوا ونفروا منها وغضبوا وقاموا وهم يقولون : "اصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد". ويقال : المتكلم بهذا عقبة بن أبي معيط، وقالوا : لا نعود إليه أبدا وما خير من أن يغتال محمد.

فلما كان مساء تلك الليلة فُقِد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاء أبو طالب وعمومته إلى منزله فلم يجدوه، فجمع (أبو طالب) فتيانا من بني هاشم وبني المطلب ثم قال : ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة، ثم ليتبعْني إذا دخلت المسجد، فلينظر كل فتى منكم فليجلس إلى عظيم من عظمائهم: فيهم ابن الحنظلية يعني أبا جهل، فإنه لم يغب عن شر إن كان محمد قد قتل. فقال الفتيان نفعل. فجاء زيد بن حارثة (مولى الرسول) [3] فوجد أبا طالب على تلك الحال، فقال يا زيد أحسست ابن أخي؟ قال نعم كنت معه آنفا. فقال أبو طالب: لا أدخل بيتي أبدا حتى أراه. فخرج زيد سريعا حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بيت عند الصفا ومعه أصحابه يتحدثون، فأخبره الخبر فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي طالب، فقال: يا بن أخي أين كنت؟ أكنت في خير؟ قال نعم. قال أدخل بيتك فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما أصبح أبو طالب غدا على النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ بيده فوقف به على أندية قريش ومعه الفتيان الهاشميون والمُطّلِبيُّون. فقال: يا معشر قريش هل تدرون ما هَمَمْت به؟ قالوا لا. فأخبرهم الخبر، وقال للفتيان أكشفوا عما في أيديكم فكشفوا، فإذا كل رجل منهم معه حديدة صارمة. فقال -أبو طالب- والله لو قتلتموه ما أبقَيت منكم أحدا حتى نتفانى نحن وأنتم. فانكسر القوم؛ وكان أشدهم انكسارا أبو جهل".

ومن هذه الحاثة فصاعدا سيكون الرسول عليه السلام في حماية أبي طالب، وستتكرر تدخلات كبار قرش لدى هذا الأخير ولكن بدون جدوى.

---

3 - كان النبي (ص) قد اشترى زيد بن حارثة في الجاهلية بعكاظ فأعتقه وتبناه، حتى نزلت آية إبطال التبني، كما سنرى في حينه.

- نص السورة

1- مقدمة: أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا؟ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ..؟

بسم الله الرحمن الرحيم

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ[1] (القصص والمواعظ)، **بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا** (قريش) **فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ**[2] (عناد وإعراض عن الدعوة المحمدية)،! **كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ** (من أمة كذبت رسلها) **فَنَادَوْا** (ربهم واستغاثوا بالتوبة إليه) **وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ**[3] (وقد فاتتهم الفرصة ولم يعد هناك مجال للنجاة). **وَعَجِبُوا** (قريش) **أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**[4] (يعنون محمدا). **أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**[5]! **وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ** (أشرافهم الذين كانوا عند أبي طالب، وقالوا) **أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ**[6] (مؤامرة على آلهتنا)! **مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ** (النصرانية، وهي تقول بالتثليث)، **إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ**[7] (من محمد). **أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ** (الوحي) **مِنْ بَيْنِنَا** (استفهام إنكاري)؟ **بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي** (بل هم يشكون في القرآن وصحة مصدره الإلهي)، **بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ**[8] (لم ينالوا بعدُ جزاء تكذيبهم)، **أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ**[9] (فيمنعون إرسالنا لك ويرسلون من يشاءون)؟ **أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ**[10]! (إذن فليصعدوا إلى السماء متخذين الوسائل لذلك، كالحبال)! **جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ**[11] (لقد هزم هناك جند من أحزاب إبليس لما أرادوا استراق السمع) .

2- أقوام كذبت قبلهم ... فنزل عليها العقاب.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ[12] (دعائم حكمه)، **وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الْأَحْزَابُ**[13]. **إِنْ كُلٌّ** (ما منهم) **إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ**[14]. **وَمَا يَنظُرُ** (ينتظر) **هَؤُلَاءِ** (المشركون من قريش) **إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ**[15] (لا تسكن ولا تهدأ). **وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا** (أطلعنا على أعمالنا) **قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ**"[16].

3- اصبر ... وتأس بتجربة داود.

اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ، وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ (القوة) **إِنَّهُ أَوَّابٌ**[17] (مطيع)، **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ**[18]، **وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً**

(مجموعة)، كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ[19] (مطيع)؛ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ[20]. وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ (متخاصمان)(4) إِذْ تَسَوَّرُوا (تسلقوا سور) الْمِحْرَابَ[21] (مقدم الدار)، إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ! قَالُوا لَا تَخَفْ (نحن) خَصْمَانِ (هما ملكان يمثلان داوود وزوج المرأة التي تزوجها غصبا) بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ، فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ[22]. إِنَّ هَذَا أَخِي (يعني داوود) لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً (امرأة) وَلِيَ نَعْجَةٌ (امرأة) وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا (تنازل عنها لي لأضمها إلى نسائي) وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ[23] (غلبني). قَالَ (داوود) لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ (بطلب) نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ (الشركاء) لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ! وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ (اختبرناه بضم زوجة ذلك الرجل إلى زوجاته) فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ[24] (ورجع إلى ربه). فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى (قربى) وَحُسْنَ مَآبٍ[25] (مصير) (5). يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا (بنسيانهم) يَوْمَ الْحِسَابِ"[26]. (ومن جملة ما نسي هؤلاء أن الله ما خلق السماوات والأرض باطلا...) : وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا! فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ[27]. أَمْ نَجْعَلُ (هل يريدون أن نجعل) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ[28]؟! (هذا) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ (يا محمد) مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ[29].

4- حاصل القصة (بعبارة الرازي) "أن داود عشق امرأة "أوريا"، فاحتال بالوجوه الكثيرة حتى قتل زوجها ثم تزوج بها فأرسل الله إليه ملكين في صورة المتخاصمين في واقعة شبيهة بواقعته، وعرضا تلك الواقعة عليه. فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنبا، ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة" (الرازي). أما الزمخشري فقد حكى القصة كما يلي: قال: "كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته، وكانت لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها. وقد روينا أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بمثل ذلك. فاتفق أنّ عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له "أوريا"، فأحبّها فسأله النزول له عنها، فاستحيا أن يردّه ففعل، فتزوجها وهي أمّ سليمان، فقيل له: إنك مع عظم منزلتك وارتفاع مرتبتك وكبر شأنك وكثرة نسائك، لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلا، ليس له إلا امرأة واحدة، النزول (عن امرأته لك)، بل كان الواجب عليك مغالبة هواك وقهر نفسك والصبر على ما امتحنت به" (الزمخشري: الكشاف).

5- وجه التأسي بقصة داود. انظر بعده: قصة سليمان.

4- ... وتأس بتجربة سليمان!

وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ، نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ[30]، إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ[31] (الخيل رافعة قوائمها)، فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ (أحببت الخيل حبا شغلني) عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ (الشمس) بِالْحِجَابِ[32] (غابت ولم أصل)، رُدُّوهَا عَلَيَّ، فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ[33] (يقطع سيقانها وأعناقها). وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا (صنما) ثُمَّ أَنَابَ[34] (تاب) (6)، قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ[35]. فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً (لينة طيعة) حَيْثُ أَصَابَ[36] (شاء)، وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ[37]، وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ[38] (مقيدين بالسلاسل)، هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ[39] (أعط ما شئت وامنع ما شئت)! وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ[40] (7).

5- ... وتأس بتجربة أيوب ...

وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ: أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ[41] (بذهاب مالي وأهلي وعجز في جسدي. فاستجاب له الله وقال) ارْكُضْ (اضرب

---

6 – ذكر المفسرون عددا من الروايات حول هذا الموضوع، كثير منها أقرب إلى الخرافات، ولعل أقربها إلى السياق الرواية التالية ومفادها "أنّ سليمان تزوّج امرأة وهويها، وعبدت الصنم في داره، فنزع الله ملكه أياماً، وسلط شيطانا على مملكته، ثمّ تاب سليمان فسأل الله أن يهب له ملكاً يدل على أنه غفر له، فردّ عليه ما نزع منه". وهذه القصة مستقاة من التوراة (سفر الملوك الأول، الإصحاح الحادي عشر)، ومما جاء فيه: "وَأَوْلَعَ سُلَيْمَانُ بِنِسَاءٍ غَرِيبَاتٍ كَثِيرَاتٍ، فَضْلاً عَنِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ، فَتَزَوَّجَ نِسَاءً مُوآبِيَّاتٍ وَعَمُّونِيَّاتٍ وَأَدُومِيَّاتٍ وَصِيدُونِيَّاتٍ وَحِثِّيَّاتٍ، 2وَكُلُّهُنَّ مِنْ بَنَاتِ الأُمَمِ الَّتِي نَهَى الرَّبُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنِ الزَّوَاجِ مِنْهُمْ قَائِلاً لَهُمْ: «لاَ تَتَزَوَّجُوا مِنْهُمْ وَلاَ هُمْ مِنْكُمْ، لأَنَّهُمْ يُغْوُونَ قُلُوبَكُمْ وَرَاءَ آلِهَتِهِمْ». وَلَكِنَّ سُلَيْمَانَ الْتَصَقَ بِهِنَّ لِفَرْطِ مَحَبَّتِهِ لَهُنَّ. 3فَكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةِ زَوْجَةٍ، وَثَلاَثُ مِئَةِ مَحْظِيَّةٍ، فَانْحَرَفْنَ بِقَلْبِهِ عَنِ الرَّبِّ... 5وَمَا لَبِثَ أَنْ عَبَدَ عَشْتَارُوثَ آلِهَةَ الصِّيدُونِيِّينَ، وَمَلْكُومَ إِلَهَ الْعَمُّونِيِّينَ الْبَغِيضَ، 6وَارْتَكَبَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، وَلَمْ يَتْبَعْ سَبِيلَ الرَّبِّ بِكَمَالٍ كَمَا فَعَلَ أَبُوهُ دَاوُدُ. 7وَأَقَامَ عَلَى تَلٍّ شَرْقِيَّ أُورُشَلِيمَ مُرْتَفَعاً لِكَمُوشَ إِلَهِ الْمُوآبِيِّينَ الْفَاسِقِ... 8وَشَيَّدَ مُرْتَفَعَاتٍ لِجَمِيعِ نِسَائِهِ الْغَرِيبَاتِ، اللَّوَاتِي رُحْنَ يُوقِدْنَ الْبَخُورَ عَلَيْهَا وَيُقَرِّبْنَ الْمُحْرَقَاتِ لآلِهَتِهِنَّ: الخ الخ.

7- يجب أن نتذكر أن هذه السورة نزلت ردا على محاولة قريش مساومة النبي عليه السلام، بالاستعانة بعمه أبي طالب. لقد عرضوا عليه (ص) أمورا رفضها، وفي قصة داوود وسليمان عبرة، فقد فُتِنَا ثم ندما وتابا فكان الجزاء أن جعل الله داود خليفة في الأرض الخ، وكان جزاء سليمان أن وهب له ما طلب: "ملكا لا ينبغي أن يكون لأحد من بعده، فسخر له الريح الخ. وفي ذلك وعد ضمني للرسول (ص) إن هو صبر ولم يستسلم لإغراءات قريش!

الأرض) **بِرِجْلِكَ، هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ**[42] (فتفجرت عينان واحدة للاغتسال والثانية للشرب)، **وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ** (ففرّجنا عنه ما كان فيه من البلاء، ووهبنا له زوجته)، **وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ** (أولاده) **رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ**[43]، (وقلنا له) **وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا** (عودا رطبا) **فَاضْرِبْ بِهِ** (زوجتك التي حلفت أن تضربها عقابا على ما كان إبليس قد أراد حملها عليه) **وَلَا تَحْنَثْ. إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا** (كان أيوب يتحمل البلاء)، **نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**"[44].

6- وتأس بتجربة إبراهيم وإسحق ويعقوب

وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ[45] (القوة البدنية والعقلية). **إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ**[46] (بالذكر الجميل في الدنيا)، **وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ**[47]، **وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ**[48].

7- وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ: جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ.

هَذَا ذِكْرٌ (وعبرة). **وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ**[49]**: جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ**[50]، **مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ**[51]، **وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ**[52] (يغضضن من أبصارهن، متساويات)، **هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ**[53]، **إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ**[54]. **هَذَا، وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ**[55]**: جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ**[56] (المصير). **هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ : حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ**[57] (من دموع وقيح غليظ)، **وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ**[58] (وسوائل أخرى، أنواع وأشكال. قيل لكفار الأقوام السابقة) **هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ** (فوج آخر من قريش يدخل معكم، فأجابوا) **لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ**[59] (يضيقون علينا هنا في النار). **قَالُوا** (رد عليهم فوج قريش) **بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ، أَنْتُمْ** (السابقون إلى الكفر) **قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا! فَبِئْسَ الْقَرَارُ**[60]. **قَالُوا** (وأضافوا) **رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ**[61]. **وَقَالُوا** (قريش) **مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ**[62] (فقراء المسلمين)؟ **أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا** (هل لأننا كنا نسخر منهم فاختفوا الآن من أمامنا؟) **أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ**[63] (أبصارنا)؟ **إِنَّ ذَلِكَ** (ما ذكرنا هو) **لَحَقٌّ: تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ**[64].

8- ما أنا إلا نذير... عصيان إبليس وإغواء آدم!

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ[65]، **رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ**[66]. **قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ**[67]، **أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ**[68].

مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ[69] (لم يكن لدي علم بالملائكة حين اختلفوا في شأن خلق آدم، كما سيبين): إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ"[70]. (ومن جملة ما أوحي إلي أن أذكر ما يلي) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ[71]، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ[72]، فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ[73]، إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ[74]! قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ[75]؟ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ[76]. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ"[77]، وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ[78]. قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ[79]. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ[80]، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ[81]. قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ[82]، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ[83] (الذي أخلصتهم لعبادتك أي الملائكة)، قَالَ (الله) فَالْحَقُّ، وَالْحَقَّ أَقُولُ[84]، لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ[85].

10- خاتمة: لتعلمنّ نبأه بعد حين...

قُلْ (يا محمد لقريش) مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ (على القرآن) مِنْ أَجْرٍ (كما ظننتم عندما عرضتم علي المال والسلطة الخ) وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ[86] (من الذين يتكلفون اختلاقه)، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ[87]، وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ (حقيقته) بَعْدَ حِينٍ"[88].

- تعليق

تدشن هذه السورة مرحلة جديدة من مسار التنزيل موضوعها المركزي: التوحيد مع التعرض للأصنام. لقد انطلقت هذه السورة من إصرار قريش على تكذيب نبوة محمد عليه السلام بعد ما لمسوه من رفضه عليه السلام التفاوض معهم مؤكدا تشبثه بالدعوة إلى التوحيد وشجب الشرك. لقد كان لرجوع كبار قريش، من الاجتماع بالنبي لدى عمه أبي طالب، خائبين، أكبر الأثر في نفوسهم، لقد استنكروا أن يكون الله قد أرسل محمدا إليهم دون غيره من كبارهم ووجهائهم واعتبروا ذلك مؤامرة عليهم وعلى آلهتهم وأخذوا يفكرون في التخلص منه بقتله. لقد رد أبو طالب بفضحهم وإعلان حمايته وهددهم بحرب أهلية لا تبقي ولا تذر، حرب أهلية بين بني هاشم والمطلب ومن قد ينضم إليهم، وبين خصوم الدعوة المحمدية. والحرب الأهلية القبلية هي أكثر ما تتجنبه قريش، لأنها تمس بعمق مصالحها الاقتصادية: عائدات الحج والتجارة. وهذا كان النبي عليه السلام يعرفه جيدا، وهو ما يفسر تصرفه

باطمئنان ورفضه أية مساومة معهم والمضي في تبليغ رسالة التوحيد وشجب الشرك وتسفيه عقول من يعبدها.

وفي هذا الإطار نفسه دشنت السورة التي نحن ضيوف عليها توظيف قصص الأنبياء بالصورة التي يجد فيها النبي وصحبه ما يسليهم ويثبت أفئدتهم. فتجارب الأنبياء السابقين تعطي المثل والدرس والعبرة والأمل. إن المعركة مع "الملأ من قريش" مستمرة، وكما كانت مشاهد الجنة والنار سلاحا قويا في هذه المعركة، وستبقى، هاهي تجارب الأنبياء التي انتهت بهلاك المكذبين من أقوامهم وانتصار رسلهم، تقدم سلاحا آخر هو: "درس التاريخ".

لقد ذكّرت السورة بما نال الأقوام الماضية التي كذبت رسلها (قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ) من عقاب وعذاب وهلاك -وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في السورة السابقة- لتتحدث بعدها -لأول مرة حسب ترتيب النزول- عن تجربة كل من داوود وسليمان، مركزة على ما تعرضا له من فتن انتهت بهما إلى التوبة وطلب المغفرة وبالتالي إلى تلبية طلبهما وتمتيعهما بقوة، ما سبق أن مُتع بها بشر. وما ذلك إلا لصبرهما وعدولهما عن الانسياق مع الهوى. والخطاب موجه هنا ضمنيا إلى الرسول محمد عليه السلام، ليقتدي بهما ولا ينساق مع مساومات قريش.

ثم تنتقل السورة إلى رسم مشهد من مشاهد يوم القيامة والجزاء، واستحضار تلاوم أهل النار، لتتخلص من ذلك إلى ما سيكون عليه مصير قريش عندما تلتحق بمكذبي الرسالات السابقة.

وقبل أن تختم السورة عرجت على قصة إبليس ورفضه السجود لآدم لتؤكد أن الرسول محمد عليه السلام لم يكن حاضرا مع الملائكة وإنما هو الوحي الذي قص عليه ما جرى، وأن دوره هو الإنذار بالقرآن الذي يصرون على تكذيبه، مؤكدا لهم أن ما جاء به حق وهو من عند الله، وأنهم سيعلمون خبره وحقيقته في مستقبل الأيام.

39- سورة الأعراف

- تقديــم

تقع سورة الأعراف مباشرة بعد سورة "ص" على لائحة ترتيب النزول، ورتبتها 39. تبدأ هذه السورة بمقدمة مماثلة لتلك التي وردت في سورة "ص"، ولكن مع طرح ما يمكن أن نعبر عنه بـ" برنامج جديد" للدعوة يتناسب مع المرحلة. ومما يفيد ذلك قوله تعالى في مستهلها : "المص (ألف، لام، ميم، صاد)، كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ". وما يلفت الانتباه في هذه الآية أمران:

- الأول استعمال اسم "الكتاب" كوصف لهذه السورة. وهذا ما قرره الزمخشري. فهو يرى أن المقصود بهذا اللفظ هو هذه السورة، باعتبار أن "المص" مبتدأ و"كتاب" خبر. وتسمية هذه السورة بـ "كتاب" يبررها في نظر القائلين بذلك كونها طويلة في "حجم كتاب من كتب أهل الكتاب"، وأنها نزلت مرة واحدة. ومنهم من يقول إن إطلاق اسم "كتاب" عليها هو بمثابة رد على قريش الذين طعنوا في كون القرآن مجرد أقوال يأتيها محمد من حين لآخر وأنه لم يأت بكتاب كما فعل موسى.

- أما الأمر الثاني الذي يشد الانتباه في مقدمة هذه السورة فهو قوله تعالى: "فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ". وهذا "الحرج" لا شيء يبرره لو كان المقصود بـ "الكتاب" هو القرآن. ذلك لأن الرسول عليه السلام كان ينذر بالقرآن من قبل، دون أن يشعر بالحرج. وإذن فلا بد أن يكون هناك شيء جديد في هذه السورة أو في ظروف نزولها، من شأنه أن يثير الحرج في نفس النبي عليه السلام.

ومن وجهة نظرنا هناك شيئان يمكن أن يبررا استعمال لفظ "الحرج" هنا.

أولهما هو تسمية هذه السورة "كتابا"، بينما كان اسم "الكتاب"، لحد الآن، خاصا بكتاب "أهل الكتاب" (التوراة). وما يمكن أن يكون مدعاة للحرج هنا هو هذا الانتقال بالوحي المحمدي إلى مستوى "الكتاب"، بعد أن كان يسمّي نفسه من قبل بالأسماء التالية على التوالي وحسب ترتيب النزول[1]: ذكر، ذكرى، تذكرة، حديث، ثم

1- لقد شرحنا هذه المسألة بتفصيل في الفصل السادس من التعريف بالقرآن .

قرآن. أما الآن، فإن سورة "المص" وحدها "كتاب"! وهذا الاسم أعني "الكتاب" سيسمى به القرآن كله، ولأول مرة في هذه السورة نفسها (الآية 52).

ثانيهما، وهذا أهم بالنسبة لموضوعنا هنا، هو أن النبي عليه السلام، الذي اعتاد من قبل القيام بالدعوة والتبشير والإنذار، بآيات تنزل مفرقة وحسب مقتضيات الأحوال، إما جوابا عن سؤال أو ردا على تهجم، أو بمناسبة نازلة من النوازل الخ، هو الآن مطالب بمتابعة رسالته من خلال "كتاب" : سورة طويلة نزلت مرة واحدة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى تسجل هذه السورة إستراتيجية جديدة في القص القرآني: كان القص في القرآن [2] لحد الآن يتناول قصص أنبياء أقوام عربية كعاد وثمود (من العرب البائدة) أو مَن كان قومُه الذين أرسل إليهم عربا أو تجري قصصهم في بلاد العرب مثل لوط ومدين وأصحاب الأيكة في الشمال (بين مكة والشام)، وسبأ، وأصحاب الجنة وقوم تبع بالجنوب (اليمن)، وقوم يونس في الشرق (الموصل)، إضافة إلى ما انتشر في هذه المناطق وغيرها من أخبار فرعون وعلاقة سليمان بملكة سبأ الخ... أما في سورة الأعراف فسيعرف القصص القرآني نقلة نوعية، إذ ستطرح السورة أمامنا برنامجا وإستراتجية للقص القرآني، بحيث تعرض ضمن مخطط عام لقصص أنبياء أهل الكتاب، إضافة إلى قصص أنبياء العرب!

وهكذا، فبعد المقدمة التي نبهت النبي إلى أن الأمر يتعلق هذه المرة بسورة هي: "كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ"، تنتقل السورة مباشرة إلى التذكير بالمصير الذي خص الله به الأقوام التي كذبت رسلها: "وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا (ليلا) أَوْ هُمْ قَائِلُونَ" (في قيلولة)، (الأعراف 4). ثم تضيف السورة، وكأنها تجيب على اعتراض من قريش، تقول فيه: وما الدليل على ذلك؟ تجيب: "فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (لننظر في أخبار الأقوام الماضية مع رسلهم)، فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ (على مشركي مكة) بِعِلْمٍ، وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (عن مجرى الأحداث كما هو حال القصاص المحترفين المتصنعين)، بل لقد جرت تلك الأحداث بعلمنا وعلى مرأى منا! وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ: فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ" (الأعراف 6-9)[3].

2- انظر التفاصيل في التعريف بالقرآن : القصص في القرآن المكي : المرحلة الثانية.

3 - يمكن أن يفهم من هذا دعوة قريش إلى مقارنة ما سيقصه القرآن عن الأنبياء والرسل وأقوامهم بالقصص التي كان يقصها عليهم النضر بن الحرث الذي ذهب إلى الحيرة وجاء من هناك بقصص فارسية كما سيأتي لاحقا.

مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ[69] (لم يكن لدي علم بالملائكة حين اختلفوا في شأن خلق آدم، كما سيبين): إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ"[70]. (ومن جملة ما أوحي إلي أن أذكر ما يلي) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ[71]، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ[72]، فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ[73]، إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ[74]! قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ[75]؟ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ[76]. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ[77]، وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ[78]. قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ[79]. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ[80]، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ[81]. قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ[82]، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ[83] (الذي أخلصتهم لعبادتك أي الملائكة)، قَالَ (الله) فَالْحَقُّ، وَالْحَقَّ أَقُولُ[84]، لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ[85].

10- خاتمة: لتعلمنّ نبأه بعد حين...

قُلْ (يا محمد لقريش) مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ (على القرآن) مِنْ أَجْرٍ (كما ظننتم عندما عرضتم علي المال والسلطة الخ) وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ[86] (من الذين يتكلفون اختلاقه)، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ[87]، وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ (حقيقته) بَعْدَ حِينٍ"[88].

- تعليق

تدشن هذه السورة مرحلة جديدة من مسار التنزيل موضوعها المركزي: التوحيد مع التعرض للأصنام. لقد انطلقت هذه السورة من إصرار قريش على تكذيب نبوة محمد عليه السلام بعد ما لمسوه من رفضه عليه السلام التفاوض معهم مؤكدا تشبثه بالدعوة إلى التوحيد وشجب الشرك. لقد كان لرجوع كبار قريش، من الاجتماع بالنبي لدى عمه أبي طالب، خائبين، أكبر الأثر في نفوسهم، لقد استنكروا أن يكون الله قد أرسل محمدا إليهم دون غيره من كبارهم ووجهائهم واعتبروا ذلك مؤامرة عليهم وعلى آلهتهم وأخذوا يفكرون في التخلص منه بقتله. لقد رد أبو طالب بفضحهم وإعلان حمايته وهددهم بحرب أهلية لا تبقي ولا تذر، حرب أهلية بين بني هاشم والمطلب ومن قد ينضم إليهم، وبين خصوم الدعوة المحمدية. والحرب الأهلية القبلية هي أكثر ما تتجنبه قريش، لأنها تمس بعمق مصالحها الاقتصادية: عائدات الحج والتجارة. وهذا كان النبي عليه السلام يعرفه جيدا، وهو ما يفسر تصرفه

باطمئنان ورفضه أية مساومة معهم والمضي في تبليغ رسالة التوحيد وشجب الشرك وتسفيه عقول من يعبدها.

وفي هذا الإطار نفسه دشنت السورة التي نحن ضيوف عليها توظيف قصص الأنبياء بالصورة التي يجد فيها النبي وصحبه ما يسليهم ويثبت أفئدتهم. فتجارب الأنبياء السابقين تعطي المثل والدرس والعبرة والأمل. إن المعركة مع "الملأ من قريش" مستمرة، وكما كانت مشاهد الجنة والنار سلاحا قويا في هذه المعركة، وستبقى، هاهي تجارب الأنبياء التي انتهت بهلاك المكذبين من أقوامهم وانتصار رسلهم، تقدم سلاحا آخر هو: "درس التاريخ".

لقد ذكّرت السورة بما نال الأقوام الماضية التي كذبت رسلها (قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ) من عقاب وعذاب وهلاك -وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في السورة السابقة- لتتحدث بعدها -لأول مرة حسب ترتيب النزول- عن تجربة كل من داوود وسليمان، مركزة على ما تعرضا له من فتن انتهت بهما إلى التوبة وطلب المغفرة وبالتالي إلى تلبية طلبهما وتمتيعهما بقوة، ما سبق أن مُتع بها بشر. وما ذلك إلا لصبرهما وعدولهما عن الانسياق مع الهوى. والخطاب موجه هنا ضمنيا إلى الرسول محمد عليه السلام، ليقتدي بهما ولا ينساق مع مساومات قريش.

ثم تنتقل السورة إلى رسم مشهد من مشاهد يوم القيامة والجزاء، واستحضار تلاوم أهل النار، لتخلص من ذلك إلى ما سيكون عليه مصير قريش عندما تلتحق بمكذبي الرسالات السابقة.

وقبل أن تختم السورة عرجت على قصة إبليس ورفضه السجود لآدم لتؤكد أن الرسول محمد عليه السلام لم يكن حاضرا مع الملائكة وإنما هو الوحي الذي قص عليه ما جرى، وأن دوره هو الإنذار بالقرآن الذي يصرون على تكذيبه، مؤكدا لهم أن ما جاء به حق وهو من عند الله، وأنهم سيعلمون خبره وحقيقته في مستقبل الأيام.

قلنا إن سورة الأعراف تشكل نقلة نوعية على مستوى "القصص في القرآن": ذلك أن القص المفصل، المستوفي لعناصره، إنما يبدأ معها. فكثير من القصص التي سترد في السور اللاحقة هي إما تفصيل لبعض الجوانب المذكورة في هذه السورة وإما صياغة لها جديدة حسب ما يقتضيه المقام. ففي هذه السورة نجد أنفسنا إزاء ما يشبه أن يكون مخططا (أو برنامجا) لقسم كبير من القصص القرآني يشمل قصص الأنبياء الذين لم يرد لهم ذكر في التوراة كما يعرض لمعظم أنبياء التوراة [4].

وهكذا فإذا كانت السور السابقة قد اقتصرت على عرض بعض جوانب القصص الخاصة بأنبياء "العرب البائدة" السابقين على أنبياء بني إسرائيل، دونما تقيد بـ"الترتيب الزمني"، فإن سورة الأعراف تعرض أنبياء "العرب البائدة" ضمن سلسلة الأنبياء المذكورين في التوراة، متقيدة بـ"الترتيب الزمني" انطلاقا من آدم... وهكذا، فبعد قصة آدم وإبليس، وقصة نوح والطوفان، تأتي قصص عاد، وثمود، ثم لوط (وإبراهيم)، وشعيب [5]، ثم قصة موسى مع فرعون التي، انطلاقا منها، سيدشن القرآن القول في قصص أنبياء بني إسرائيل. وبعد قصة الصراع بين موسى وفرعون تَخلص السورة إلى عرض مباشر لصراع الرسول محمد عليه السلام مع مشركي قريش. وهذا هو الغرض من القصص في القرآن كما أوضحنا من قبل[6]، وسيتضح هذا أكثر من خلال التذكير بالاستراتيجيات التي سلكها القرآن في مجال القص، وهي استراتجيات ثلاثة هي:

أولا: مراعاة "التسلسل الزمني" للتاريخ المقدس الذي تروي هذه السورة فصوله من خلال قصص الأنبياء، انطلاقا من آدم وطرده من الجنة وهبوطه إلى الأرض إلى النبي محمد عليه السلام.

4- الأنبياء الذين اختص القرآن بذكر أسمائهم وقصصهم ولم يرد لهم ذكر في التوراة هم : شعيب، ذو الكفل، إدريس، هود، صالح، لقمان، إسماعيل، مع ذكر قصة الطوفان، والإشارة إلى فرعون.. والمسرح الذي تجري فيه قصص هؤلاء (باستثناء فرعون) هو الجزيرة العربية، خصوصا المنطقة التي تمتد من مكة إلى الشام (حاليا: الأردن وفلسطين وسورية). أما أنبياء التوراة والإنجيل الذين ذكرهم القرآن فهم: نوح وإبراهيم وزكرياء ويعقوب (المسمى إسرائيل، وإليه ينسب بنو إسرائيل) ويوسف وموسى ويونس وأيوب وداود وسليمان وأشعياء ويـحيى (المعمدان، أو يوحنا)، والسيد المسيح.

5- يقول الطبري في تاريخه: وقال بعضهم لم يكن شعيب من وُلد إبراهيم -وإنما هو من ولد بعض من كان آمن بإبراهيم واتبعه على دينه وهاجر معه إلى الشام -ولكنه ابن بنت لوط، فجدة شعيب ابنة لوط ابن أخت إبراهيم. هذا وقد وردت أخبار أيوب بتفصيل في التوراة: سفر أيوب.

6- التعريف بالقرآن: خاصة المقدمة والخاتمة.

ثانيا: توظيف قصص الأنبياء في تحذير قريش من المصير المرعب الذي ينتظرهم إذا هم تمادوا في كفرهم وشركهم، وفي نفس الوقت تثبيت فؤاد النبي وتقوية معنويات أصحابه، وذلك بالتأكيد على أن جميع الرسل قد تعرضوا للتكذيب من طرف أقوامهم ولكنهم صبروا حتى جاءهم نصر ربهم.

ثالثا: صب خطاب الرسل السابقين إلى أقوامهم في صيغة تحاكي وتعزز الخطاب الذي يوجهه محمد عليه السلام إلى قومه، فكأن خطاب الأنبياء السابقين إلى أقوامهم إنما يعبر عن حال النبي محمد مع قومه قريش.

وفي هذا الإطار جاءت الإشارة لأول مرة إلى العلاقة بين الرسالة المحمدية وما في كتب أهل الكتاب من التبشير به من جهة، وإلى عموم هذه الرسالة من جهة أخرى بحيث تشمل أهل الكتاب أنفسهم، هؤلاء "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ". ليس هذا فحسب فالدعوة التي كانت موجهة في البداية إلى مشركي قريش، أصبحت الآن دعوة عالمية، دعوة إلى الناس جميعا: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، يُحْيِي وَيُمِيتُ. فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (الأعراف 157-158). أضف إلى ذلك توجيه خطاب النصح والإرشاد إلى بني آدم، بعد أن تم ربط الضلال والانحراف بقصة إبليس الذي أضل آدم وتوعد ذريته.

وبالجملة فما كان من قبل تلميحا أو إشارة، يجد تفصيله في هذه السورة: سواء تعلق الأمر بأخبار الأمم الماضية والعبرة منها، أو بالخطاب إلى الرسول عليه السلام حيث اتسع هنا إلى نوع من تحذيره من الشيطان، أو بالخطاب إلى قريش حيث تتم مواجهتهم هنا مباشرة وبصورة صريحة، أو بالمواجهة بين المستضعفين والمستكبرين، يوم القيامة، أو رسم مشاهد لقيام الساعة والجنة والنار.

وأخيرا وليس آخرا، نقرأ في هذه السورة، ولأول مرة، التشنيع على قريش بالتجائهم إلى تبرير عبادتهم للأصنام، التي لا يقبلها عقل، بالقول: "وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا"!

ولابد من أن نضيف أنه في هذه السورة تعرض القرآن لأول مرة إلى الحلال والحرام، إلى نقد وشجب للإثم والبغي وبعض العادات التي كانت تمارس قبل الإسلام حين الطواف بالكعبة الخ (فقرة 5). إنه محور"الأخلاق" الذي ستدشن هذه السورة التحرك فيه إلى جانب محور العقيدة (النبوة والتوحيد والمعاد). إن الأخلاق في القرآن

المكي ستحتل ابتداء من هذه السورة المكانة التي تحتلها الشريعة في القرآن المدني. وسنرى أن الأخلاق في القرآن أساس الشريعة وليس العكس.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

1- مقدمة: كتاب لتنذر به المشركين وذكرى للمؤمنين.

"المص[1]، (هذا) كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ، فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ، لِتُنذِرَ بِهِ (المشركين) وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ[2]. (يأمركم أن) اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (أصناما)، قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ[3]! وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا (ليلا) أَوْ هُمْ قَائِلُونَ[4] (من القيلولة)، فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ[5]". فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ[6]، فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ (على قريش) بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ[7] (7)، وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ (بعد سماع القصص) الْحَقُّ (العدل)(8)، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[8]، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ[9] (يكذبون ويستهزئون). وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ، قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ[10]".

7- يقول تعالى: سنقص على قريش تفاصيل ما جرى لتلك الأقوام وكيف تعاملوا مع رسلهم، وهذا القص ليس سماعا من أحد بل هو قص من شاهد مباشر، عالم بما كانوا يفعلون (وهو الله). والقص هنا ليس من أجل تسلية قريش كما يفعل القصاصون بل هو توبيخ وتقريع.

8- يمكن أن يكون قوله "والوزن يومئذ الحق" عائدا إلى قوله: "قالوا إنا كنا ظالمين"، ويكون المقصود: يوم القيامة. ويمكن أن يكون "الوزن يومئذ الحق" عائدا ما بعد الاستماع إلى قصص القرآن والمقارنة بينه وبين ما يقصه الآخرون من الأساطير. وفي هذه الحالة تكون "الإشارة هنا إلى القصاص النضر بن الحارث الذي يقول عنه ابن إسحاق : "كان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسبنديار، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا فذكر فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش، أحسن حديثا منه، فهلمّ إليّ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا مني؟. وقيل: وهو الذي قال: "سأنزل مثل ما أنزل الله". وقيل نزل في هذا الرجل ما ورد فيه لفظ "الأساطير".

2- السبب في ضلال قريش : اتباعهم شهواتهم كما حصل لآدم!

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ (يا بني آدم) ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا، إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ[11]، قَالَ (له الله) مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ؟ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ[12]! قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا، فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا، فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ[13] (الذليلين). قَالَ أَنْظِرْنِي (أمهلني) إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ[14]. قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ[15]. قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي (فبسبب إغوائك لي بأولئك) لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ (انحرف بهم عن) صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ[16]، ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ[17]. قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا (ممقوتا ملعونا). لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ (أقول) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ[18].

3- طمع آدم وزوجته في أن يصيرا ملاكين أو يكونا من الخالدين!

"وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ[19]؛ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ (أُخفِي) عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا [9] وَقَالَ: مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا (لكي لا تكونا) مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ[20]. وَقَاسَمَهُمَا (أقسم لهما) إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ[21]. فَدَلَّاهُمَا (أنزلهما إبليس من منزلتهما) بِغُرُورٍ (بسبب الطمع)، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ (يلصقان) عَلَيْهِمَا

---

9 - العري الجسدي هنا رمز للكشف عن طبيعة النفس البشرية المركبة من ثلاث قوى: قوة الشهوة، وقوة الغضب، وقوة العقل، حسب تقسيم القدماء (منذ أفلاطون). والعري هنا بسبب تغلب قوة الشهوة على قوة العقل (وإغواء الشيطان رمز لتغلب الشهوة). ومن هنا سيختلف مصير الإنسان عن مصير الملائكة. الملائكة أرواح لا تعدد في نفوسهم فهم منقطعون لتسبيح الله ويعيشون في جواره في السماء. أما الإنسان فإنه بسبب إغواء الشيطان له أهبط وإياه إلى الأرض حيث سيقضيان مدة في (الحياة الدنيا) يختبر فيها الإنسان في مدى قدرته (أعني قوته العقلية) على التحكم في القوتين الأخريين، الغضبية والشهوانية. وعندما ينتهي أجله يحاسب ليكون مصيره إما النار مع إبليس وذريته وإما الجنة مع الملائكة. هذا هو، بالإجمال مغزى قصة إبليس مع آدم. وبنية القصة واحدة في الديانات والفلسفة: في الفلسفة اليونانية وما تفرع عنها من تيارات غنوصية صوفية يضعون "المعرفة" (معرفة الحقيقة، معرفة الله) مكان العبادة والتقوى في الدين، كما رأينا عند الفارابي وابن سينا في الاستطراد الذي ختمنا به المرحلة السابقة. وسنزيد بعض جوانب هذا الموضوع تفصيلا كلما تطلب الفهم ذلك.

مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ! وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا: أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ"[22]. قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ[23]. قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ[24]؛ قَالَ فِيهَا (في الأرض) تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ"[25] (عند قيام الساعة).

4- يا آدم: لباس التقوى خير... ويا قريش: هذه سبيل التقوى!

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا (للزينة)، وَلِبَاسُ التَّقْوَى! ذَلِكَ خَيْرٌ. ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ[26]. يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ (جنده) مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ. إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ[27]. وَإِذَا فَعَلُوا (الذين لا يؤمنون) فَاحِشَةً(10) قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا! قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ. أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[28]؟ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ (11) وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ، وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ[29] (12): فَرِيقًا هَدَى، وَفَرِيقًا حَقَّ

10- الفاحشة في القرآن معناها في الغالب: الزنا. وبما أن الأمر يتعلق هنا بالعري (وهو مقدمة الزنا كما يقال))، وبما أن العرب، أو بعضهم، كانوا في وقت من الأوقات يطوفون بالكعبة عراة، طلبا للمطر كما تفعل بعض الشعوب البدائية، أو اعتقادا منهم أن ذلك من شعائر الحج (هامش بعده 14)، فيمكن أن نفهم على ضوء هذا معنى قوله تعالى، لاحقا : "خذوا زينتكم عند كل مسجد" وقوله : "قل من حرم زينة الله" الخ.

11- القسط: العدل، وبه فسر جل المفسرين هذا اللفظ هنا، وبعضهم شرحه بـ"التوحيد". والقسط معناه العدل فعلا، ويقال هو معرب من اللاتينية Justas ، لكن هذا المعنى لا يناسب السياق الذي يتحدث عن الفاحشة والزينة الخ. لذلك نميل إلى القول إن معنى العدل هنا هو الاعتدال، والمقصود الاعتدال في الملبس، تجنب كل من العري والزينة المبالغ فيها عند الدخول إلى المسجد، وتجنب الفاحشة الكبيرة (أي الجماع مع من ليس زوجا أو زوجة)، وهذا المعنى ينسجم مع ما ذكرناه في الهامش السابق، وسنجد له تأكيدا في استثناء "اللمم" أي الزنا بغير الفرج، كالقبلة واللمس الخ، كما رأينا في سورة النجم.

12- جل المفسرين يفهمون هذا الآية خارج السياق، فيقولون إن المقصود : كما أنشأكم أول مرة تعودون، أي تبعثون ليوم الحساب. أي كأنه يرد على منكري البعث! وليس هذا هو موضوع الكلام هنا.وسياق الكلام يدور حول اللباس والعري. أي كما خلقكم عراة عند ميلادكم تعودون عراة: تخرجون عراة من القبر: فريق منكم كان قد اهتدى في الدنيا فهو إلى الجنة، وفريق كان قد ضل فهو إلى النار.

عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ [30] (13). يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ[31]. قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ(14)؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، خَالِصَةً (لهم وحدهم) يَوْمَ الْقِيَامَةِ. كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[32]. قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[33]. وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ"[34].

5- فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ !

يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا (إن ما: شرط) يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي، فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[35] (الجملة كلها جواب الشرط)، وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[36]. فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (قال : له شريك، أو أنه ينزل عليه كتابا) أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ (بدلائله وحججه) أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ (أي الوعيد الذي في القرآن)، حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا (الملائكة) يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ (أين الأصنام التي كنتم تعبدون) قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا (ضاعوا وفقدنا أثرهم)، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ[37]. قَالَ ادْخُلُوا، فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، فِي النَّارِ: كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ

13- "حق عليهم الضلالة" : ليس منذ خلقهم، بل لأن هذا الفريق اتبعوا إبليس وجنده من الشياطين (أي اتبعوا أهواءهم). فاختاروا الضلالة على الهدى فصارت طبيعة فيهم فظلموا الحق وظلموا أنفسهم : اتبعوا هواهم: "بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (القصص 50)

14- روي عن ابن عباس أنه قال: "إن أهل الجاهلية من قبائل العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة. الرجال بالنهار، والنساء بالليل. كانوا إذا وصلوا إلى مسجد منى، طرحوا ثيابهم وأتوا المسجد عراة. وقالوا: لا نطوف في ثياب أصبنا فيها الذنوب، ومنهم من يقول: نفعل ذلك تفاؤلا حتى نتعرى عن الذنوب كما تعرينا عن الثياب، وكانت المرأة منهم تتخذ سترا تعلقه على حقويها، لتستتر به عن الحُمْس، وهم قريش، فإنهم كانوا لا يفعلون ذلك، وكانوا يصلون في ثيابهم، ولا يأكلون من الطعام إلا قوتا، ولا يأكلون دسما، فقال المسلمون: يا رسول الله فنحن أحق أن نفعل ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية، أي: "البسوا ثيابكم وكلوا اللحم والدسم واشربوا ولا تسرفوا"، يقصد معناها. أما نصها فهو أعلاه.

لَعَنَتْ أُخْتَهَا، حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا (تلاحقوا) فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ: رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ. قَالَ : لِكُلٍّ ضِعْفٌ، وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ[38]. وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ (لم تستفيدوا عبرة بتأخركم في الزمان) فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ[39]. إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ (في ثقب إبرة الخياط : مستحيل)، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ[40]. لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ (فراش) وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ (أغطية) وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ[41]. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ –لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا[15]– أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[42]. وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ (من حقد كان بينهم في الدنيا. وأسكناهم مساكن)، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ. لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ. وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا (أنتم مستحقون لها) بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ"[43].

6- أصحاب النار (المترفون) يستغيثون بأصحاب الجنة (الفقراء)!

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ : أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ قَالُوا نَعَمْ. فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ : لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ[44] الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا (السبيل) عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ[45]. وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ (بين أصحاب الجنة وبين أصحاب النار)، وَعَلَى الْأَعْرَافِ (سور بالجنة) رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ (بما يظهر على وجوههم من فرح أو خوف)، وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ: (إنهم) لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ[46] (فيها بل ثوابا من ربهم). وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ (أصحاب الجنة) تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[47]. وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ[48]؟ أَهَؤُلَاءِ (ها هم الضعفاء) الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ (أن) لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ؟ (قد قال لهم الله) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ[49]. وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ! قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ[50]. (ويقول تعالى): الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا

15- جملة اعتراضية، والمعنى أننا لم نكلف الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فأدخلناهم الجنة، إلا بما كانوا يقدرون عليه، وذلك كان في مقدور الذين جازيناهم بجهنم، ولكنهم لم يفعلوه.

وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ (نهملهم) كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ"[51] (وبجحدهم آياتنا).

7- وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ!

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ (يعني قريشا) بِكِتَابٍ (هو القرآن) فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ، هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[52]. هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ (ما يؤول إليه أمرهم كما أخبرهم)؟ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ (يوم القيامة) يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ، فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ؟ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[53] (لم يجدوا أثرا لما كانون يعبدون من شركاء مع الله). إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي (يُلبس) اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا (سريعا)، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ (التدبير)، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ[54]. ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً (بلا رياء) إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ[55] (في الدعاء بالتشدق والرياء). وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا، وَادْعُوهُ خَوْفًا (من عقابه) وَطَمَعًا (في ثوابه) إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ[56]. وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا (تبشر بالمطر) بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ. كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[57] (16). وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا (بمشقة) (17)، كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ (الدلائل والأمثال) لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ[58].

8- نوح لقومه: أعَجِبتم أن جاءكم منذر من ربكم؟

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ(18) فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[59]، قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي

16- كما يخرج النبت بالسحاب تسوقه الرياح فينزل المطر ويسقي الأرض فيخرج النبات وتلك هي نهاية السلسلة، فكذلك حياتكم في الدنيا حلقات من سلسلة تنتهي إلى إخراجكم من قبوركم: برهان بالمماثلة لحدوث البعث.

17 - كذلك منكم من يخرج من قبره "طيبا" وبسهولة ومآله الجنة، ومنكم من يخرج "خبيثا" وبمشقة ومصيره النار.

18 - ما ورد هنا في قصة نوح وعاد ... هو استعادة وتأكيد بالمثال لمقدمة السورة.

ضَلَالٍ مُبِينٍ[60]. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[61]. أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ[63]. فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ"[64].

9- عادٌ لقومه... أعَجبتم أن جاءكم منكم منذر من ربكم؟

وَإِلَى عَادٍ (أرسلنا) أَخَاهُمْ هُودًا، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ[65]؟ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ (قلة عقل)، وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ[66]. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ[67]، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ"[68]. أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ؟ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[69]. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ[70]! قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ (عذاب) وَغَضَبٌ، أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ (يعنى الأصنام: قارن مع سورة النجم23/22) مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ[71]. فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ[72].

10- قوم ثمود: ائتنا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ!

وَإِلَى ثَمُودَ (أرسلنا) أَخَاهُمْ صَالِحًا، قَالَ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ. قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ : هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"[73]. وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ[74]. قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ؟ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ[75]. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ[76] فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ[77]! فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ (زلزال) فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ

جَاثِمِينَ[78]. فَتَوَلَّى عَنْهُمْ (صالح) وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ"[79].

11- قوم لوط : أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ!

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ؟ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ[80]! إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ[81]. وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا: أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ (سدوم على البحر الميت) إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ[82]. فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ[83] (الباقين في العذاب)(19)، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا (أهلكهم)، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ[84].

12- قوم شعيب: لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا...

وَإِلَى مَدْيَنَ (أرسلنا) أَخَاهُمْ شُعَيْبًا، قَالَ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[85]. وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا. وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ، وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ[86]! وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ[87]. قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا، أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا. قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ[88]؟ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا! وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا. وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا. رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ[89]. وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ[90]. فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ (الزلزلة) فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ[91]. الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا (ديارهم خاوية كأنهم لم يقيموا فيها)، الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ[92]. فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ: يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ[93].

19- قيل لأنها كانت متواطئة مع قومها ترسل دخانا من بيتها لإخبارهم بوجود ضيوف عند زوجها.

13- مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ... لقد اختاروا الضلالة.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ[94]، ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا (تعافوا وكثروا)، وَقَالُوا : قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ (فهذا أمر طبيعي يحدث من حين لآخر وليس له علاقة بمعتقداتنا وأفعالنا)، فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[95]. وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[96]. أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى (والمقصود قريش سكان أم القرى) أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ[97]؟ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ[98]؟ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ[99]. أَوَلَمْ يَهْدِ (يتبين) لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ[100]؟ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ[101](20)، وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ"[102] (21).

14- قصة موسى : قال فرعون لملأه: يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ!

أ- قال المؤمنون لموسى: أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا!

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا (لم يعتبروا بها) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ[103]. وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ[104]، حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ[105]. قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ[106]، فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ[107]، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ

20- هذه الآية تشرح جانبا من مسألة الهدى والضلال. فقوله : "فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ"، معناه أنهم خيروا بين الهدى والضلال فاختاروا الضلال وسجنوا فيه أنفسهم، وأصبحوا لا يستطيعون التراجع، فصار ذلك كأنه طبع غرسه الله فيهم.

21- تلميح إلى أهل مكة (أم القرى) مثلها كمثل أهل القرى الذين قصت السورة أخبارهم، وأنهم لن يؤمنوا بما كفروا به من قبل، ولذلك فلا أمل فيهم. وهذا يستعيد ما ورد في سورة القمر (فقرة -1)

بَيْضَاءُ (في غير لون الأفعى، لم تعد أفعى) لِلنَّاظِرِينَ[108]. قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ[109]. (قال فرعون) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ[110]. قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ (هارون. أخر أمرهما) وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ (صعيد مصر) حَاشِرِينَ[111] (منادين)، يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ[112]. وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ : قَالُوا (هل) إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ[113]؟ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ[114]. قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ[115]؟ قَالَ أَلْقُوا! فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ[116]، وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ[117] (ما يموهون به من العصيِّ)، فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[118]، فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ[119]. وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ[120]، قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ[121]، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ[122]. قَالَ فِرْعَوْنُ : آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ! إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ[123]، لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ؟ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ[124]، وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا. رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ[126]. وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ. قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ(22) وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ[127]. قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ[128]. قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا. قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ[129].

ب- وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا..!

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ (من الجفاف) وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ[130]، فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ (شؤمهم) عِنْدَ اللَّهِ (ما حدث لهم هو جزاء لهم من عند الله) وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[131]. وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ[132]، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ: آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ[133]. وَلَمَّا وَقَعَ

22- نُبقيهن على قيد الحياة ليلدن الخدم... ذكر المفسرون عدة أسباب لقرار فرعون ذبح أبناء بني إسرائيل: وكلها تدور حول ما قيل (تنجيما أو حلما...) من أن مولودا في بني إسرائيل سيكون على يديه سقوط ملك فرعون.

عَلَيْهِمْ الرِّجْزُ (العذاب) قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ، لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ[134]. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ[135]. فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ[136]. وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ[137] (يرفعون من البنيان).

ج- أَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ..!

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ، قَالُوا (بنو إسرائيل) يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ. قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ[138] ! إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ (هالك) مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[139]، قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ[140]. وَإِذْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ[141]. وَوَاعَدْنَا مُوسَى (من أجل لقائه) ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ (بعد) أَرْبَعِينَ لَيْلَةً. وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ، وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ[142]. وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ: رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ. قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي. فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا! فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ[143]. قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ[144]. وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ (ألواح التوراة) مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ (وقلنا له) فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ (بجد وحرص) وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا، سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ[145] (دار فرعون وملأه: مصر). سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ[146]. وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[147].

د- بنو إسرائيل يتخذون العجل صنما ... وموسى يستغفر لهم.

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا (مجسما ليس من لحم ودم) لَهُ خُوَارٌ. أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا؟ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ[148]. وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ[149]. وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ: بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي! أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ؟ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ (ألواح التوراة) وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ (هارون) يَجُرُّهُ إِلَيْهِ. قَالَ (هرون) : ابْنَ أُمَّ (أخي) إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[150]. قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ[151]. (أجاب الله:) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ[152]. وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ[153]. وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا (ما كتب فيها) هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ[154]. وَاخْتَارَ مُوسَى (من) قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا (لم يعبدوا العجل) لِمِيقَاتِنَا (للموعد الذي حددناه ليعتذروا عن قومهم) فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ (الهزة القوية) قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا؟ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ، أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ[155]، وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ، إِنَّا هُدْنَا (تبنا) إِلَيْكَ.

هـ- رحمتي سأكتبها للذين يتقون، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي.

قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ، وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ[156]، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ (ما ثقل عليهم) وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ (ووقروه) وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[157]. قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، يُحْيِي وَيُمِيتُ. فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ[158] .

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ159، وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا (فئات، قبائل) أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ، فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا. قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى(23): كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ160. وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ (بيت المقدس) وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ (استسلمنا) وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ، سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ161. فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ162. وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ (مدينة أيلة) الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ (البحر الأحمر) إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ(24) إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا، وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ. كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ163. وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا، اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا. قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ164. فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ165. فَلَمَّا عَتَوْا (تكبروا) عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ166. وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ (قرر) لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ. إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ167. وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ،

---

23 – المَنّ: نبات يؤكل كالحلوى. وفي التوراة انه يشبه بذر الكزبرة يتساقط على الأرض ليلا، وكان بنو إسرائيل يجمعونه ويصنعون منه خبزا ذا طعم خاص. والسلوى الطير السماني. قيل يسافر في مجموعات كبيرة من إفريقيا متجها شمالا.

24 – يعتدون على حرمة يوم السبت الذي حرم عليهم الكسب فيه، قيل: إن الواحد منهم كان يأخذ مساء الجمعة خيطا ويضع فيه وَهَقة، ويلقيه في البحر بينما الطرف الآخر من الخيط مربوط إلى وتِد، ثم يتركه كذلك إلى يوم الأحد. وفشا هذا فيهم حتى كثُرَ صيد الحوت، فقامت فرقة من بني إسرائيل ونهت عن ذلك. وقيل: إن الناهين قالوا: لا نساكنكم؛ فقسموا القرية بجدار. فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إن للناس لشأنا؛ فعلَوْا على الجدار فنظروا فإذا هم قردة، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم، فعرفت القِردة أنسابَها من الإنس، ولم تعرف الإنس أنسابهم من القِردة؛ فجعلت القِردة تأتي نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي؛ فيقول: ألم ننهكمْ فتقول برأسها نعم. قالوا: صار الشبان قردة والشيوخ خنازير (كما سيأتي بعد)، فما نجا إلا الذين نهوْا وهلك سائرهم.

وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[168]. فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا، وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ! (25) أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ : أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ؟ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ؛ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[169]؟. وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ[170]، وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ (اقتلعناه رفعناه) فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ! خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ، وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[171] (26).

15ـ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا (قريش) سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ.

وَإِذْ أَخَذَ (خلق) رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا! (وقد فعلنا ذلك كي لا تستطيعون) أَنْ تَقُولُوا (27) يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ[172]، أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ: أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ؟ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[173]. وَاتْلُ عَلَيْهِمْ (على قريش) نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا (28) فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ (أدركه وأضله) فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ[175]. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا (بآياتنا) وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ (لم يكافح من أجل التبليغ) وَاتَّبَعَ هَوَاهُ! فَمَثَلُهُ

25- يأخذون الرشوة على الفتاوى الدينية يحكمون لكل راش بالحكم الذي يريد.

26- "واذكر يا محمد إذ اقتلعنا الجبل، فرفعناه فوق بني إسرائيل، كأنه ظلة غمام من الظلام، وقلنا لهم: خذوا ما آتيناكم من فرائضنا بقوة ، وألزمناكم من أحكام كتابنا، فاقبلوه، واعملوا باجتهاد منكم في أدائه من غير تقصير ولا توان. واذكروا ما في كتابنا من العهود والمواثيق التي أخذنا عليكم بالعمل بما فيه" (الطبري)

27- ذهب المفسرون في هذه الآية مذاهب بعيدة في التأويل، ليجعلوها متلائمة مع الفكر في زمانهم، وذلك لا يستقيم اليوم. وأقرب تفسير إلى معهود العرب وإلى النص، ما ذكره الزمخشري، إذ اعتبر النص عبارة عن تمثيل قال : "إخراجهم من أصلابهم نسلاً (عاقلا) وإشهادهم على أنفسهم". أما قوله تعالى: "أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا" ـفهو- من باب التمثيل والتخييل. ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم: ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا، شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك".

28- ذكر المفسرون عدة روايات في من نزلت فيه هذه الآية، ولعل أقربها إلى السياق ومعهود العرب الرواية التالية، قالوا: "نزلت هذه الآية في أمية بن أبي الصلت، وكان قد قرأ الكتب، وعلم أن اللــه مرسل رسولا في ذلك الوقت، ورجا أن يكون هو. فلما أرسل اللــه محمداً (ص) حسده، ثم مات كافراً. وكان له شعر يعبر فيه عن ما يشبه عقيدة الإسلام.

كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ. ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا (29). فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ[176]. سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ[177]. مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ[178]. وَلَقَدْ ذَرَأْنَا (خلقنا) لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ! أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ[179] (يسمون الأصنام آلهة ويدعون الله بأسمائها). وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ (ينحرفون) فِي أَسْمَائِهِ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[180]. وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ[181] (هم المؤمنون). وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا (مشركو قريش) سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ[182]، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ[183]. أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا؟! مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ (ليس مجنونا كما ادعوا)! إِنْ هُوَ (القرآن) إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ (وما يحدث في الكون من موت وحياة على جميع المستويات)، وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ! فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ؟[185]. مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ[186] (يتحيرون). يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا؟ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ، ثَقُلَتْ (عظم شأنها) فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً! يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا (مهتم بها وخائف مثلهم)! قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[187]. قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ. وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ (متى قيام الساعة) لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ. إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[188] (إذن لكي تتجروا من الخوف من يوم الحساب آمنوا واستكثروا العمل الصالح). هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا (30) لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا،

29- الكلب يخرج لسانه ويتنفس بقوة سواء كان ذلك بعد التعب أو حين يجلس مرتاحا. وكذلك هذا الرجل بقي ملتصقا بالأرض لم يرتفع إلى المستوى الذي تدل عليه آيات الله والذي نطق بها شعره، ولكن دون قلبه، لأنه لو آمن بقلبه لما حسد النبي الذي جاء بمثل= =ما كان يبشر به. ومثل هذا الرجل "مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا"، والمقصود هنا : قريش. لقد كانوا يقدرون محمدا ويصفونه بالأمين الخ، ولكن عندما دعاهم إلى ترك عبادة الأصنام وشجب تسميتهم لها بـ "بنات الله"، أعرضوا عنه وحاربوه.

30- اعتمد معظم المفسرين على الإسرائيليات في تفسير قوله تعالى: "وجعل منها زوجها" فقالوا إن "الله خلق حواء من ضلع آدم"، وهذا مذكور في التوراة. ولكن ليس في القرآن ما يدل على أن الله خلق حواء من ضلع آدم. وما يفهم من الآيات التي تعرضت لهذا الموضوع هو أن الله خلق آدم من طين". على أن هذه الآية وسياقها لا علاقة لهما -في نظرنا- بقصة آدم وحواء. إن الخطاب هنا موجه إلى مشركي قريش، إلى كل فرد منهم. والمعنى : هو الذي خلقكم -خلق كلا منكم- من نفس واحدة، هو الرجل، أي من مني الزوج، وجعل من

فَلَمَّا تَغَشَّاهَا (جامعها) حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ (لم تهتم)، فَلَمَّا أَثْقَلَتْ (ثقل بطنها وأيقنت بالحمل) دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا : لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا (ولدا سويا) لَنَكُونَنَّ مِنْ الشَّاكِرِينَ[189]. فَلَمَّا آتَاهُمَا (مولودا) صَالِحًا جَعَلَا لَهُ (أي لله) شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا[(31)] فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ[190]. أَيُشْرِكُونَ (مع الله) مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا (كالأصنام) وَهُمْ يُخْلَقُونَ[191]، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ[192]؟ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ؛ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ[193]! إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ[194]! أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا؟ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِي، فَلَا تُنظِرُونِي[195] (لا تمهلوني)، إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ (الكتاب) وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ[196]. وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ[197]! وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ (الأصنام) يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ[198].

16- خاتمة: اسلك سبيل اليسر ولا تفكر في الانتقام...

خُذِ الْعَفْوَ (اسلك سبيل اليسر) وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ[199]. وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ (إذا استهوتك الرغبة في الانتقام) فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[200]. إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ (رغبة شيطانية) تَذَكَّرُوا (فكروا) فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ[201] (للعواقب). وَإِخْوَانُهُمْ (إخوان المشركين) يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ[202] (لا يكفون) [(32)]. وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا (اختلقتها)! قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي. هَذَا

تلك النفس، أي من ذلك المني زوجها باختلاطه مع ماء المرأة. وهذا ما يقتضيه العلم القديم الموروث عن أرسطو والذي انتشر بين الأطباء القدامى، فقد كانوا يرون أن النفس (وهي الصورة) هي من مني الرجل، أما ماء المرأة فهو مجرد مادة للتغذية. فالمرمر (أو الرخام) مادة وهي لا شكل لها، وعندما تلبسها صورة معينة صورة رجل أو صورة امرأة، تصبح تمثالا للرجل أو المرأة. وكذلك ماء المرأة فهو كالمرمر، في هذا المثال، فعندما تلابسه صورة الرجل يكون المولود ذكرا وعندما تلابسه صورة المرأة يكون أنثى. ويبقى من يعطي الصورة؟ في الأفلاطونية المحدثة قالوا يعطيها واهب الصور، (وهو العقل السماوي العاشر مدبر ما تحت فلك القمر، ويناسب جبريل في الاصطلاح الديني). وهذا قريب من قوله تعالى "وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا" (من جبريل-التغابن 12).

31- يمكن أن يكون المعنى : سمياه باسم فيه شرك، مثل عبد العزى، عبد اللات الخ،

32- قال الفراء : "وقوله "وَإِخْوَانُهُمْ..." إخوان المشركين "يَمُدُّونَهُم" في الغيّ، فلا يتذكرون ولا ينتهون، فذلك قوله: (ثم لا يُقصِرُونَ) يعنى المشركين وشياطينهم. (معاني القرآن ج1).

بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[203]. وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ[204]. وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، وَلَا تَكُنْ مِنْ الْغَافِلِينَ[205]. إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ (أي الملائكة) لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ[206].

- تعليق

السورة كلها رد على قريش على إثر ذهابهم إلى أبي طالب، هي امتداد لسورة "ص". والقصص فيها موظف مباشرة في هذا الغرض. حوار الأنبياء مع أقوامهم هو حوار الرسول محمد عليه السلام مع قريش.

ترتبط بداية سورة الأعراف مباشرة بكل من بداية ونهاية السورة التي قبلها (سورة ص). فمن جهة تستعيد في مقدمتها موقف قريش وعجبهم من أن يكون محمد بن عبد الله مبعوثا من الله إليهم، كما فعلت سورة "ص" في بدايتها، ومن جهة أخرى تربط موقف قريش ذلك، بموقف إبليس من آدم، الذي شرحته السورة السابقة في نهايتها. وبالجملة يمكن القول إن سورة الأعراف التي نزلت مباشرة بعد سورة "ص"، حسب ترتيب النزول، قد جاءت، لا لتكرر ما سبق أن ورد في هذه الأخيرة، بل لتعيد صياغته بشكل أكثر تنظيما وتفصيلا.

وهكذا تبدأ السورة -كما رأينا أعلاه- بمخاطبة النبي عليه السلام مؤكدة أن القرآن الذي يوحى إليه هو كتاب من عند الله تعالى، فعليه أن لا يشعر بأي ضيق أو حرج في تبليغه لقومه، ينذر المكذبين، ويذكر المؤمنين، داعيا إلى عدم اتخاذ أولياء لهم من دون الله كما كان يفعل أقوام من قبل فكان مصيرهم الهلاك. ثم تعلن السورة عن أن مدار القول فيها هو قصص أحوال هؤلاء الذين اتخذوا لهم أولياء من دون الله فعبدوا الأصنام أو أشياء أخرى غير الله، وما جرى بينهم وبين رسلهم من حوار وجدل، حتى يتبين السامع بنفسه، ومن خلال استعمال ميزان عقله، الصواب من الخطأ، والهدى من الضلال.

وهكذا تنطلق هذه السورة من استعادة القصة التي خُتمت بها السورة السابقة (قصة إبليس/آدم) ولكن مع تفاصيل أوفى: لقد ابتدأ مسلسل وجود البشر، الذين مكن لهم الله في الأرض (والخطاب موجه إلى قريش)، بدأ من خلق الله آدم في السماء وأمره الملائكة بالسجود له تكريما، فسجدوا إلا إبليس. ولما سأله تعالى عما منعه من السجود احتج بتفوق أصله على أصل آدم: "خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ". فكان جواب الرب على هذا "الاستكبار" الذي يماثل استكبار الملأ من قريش، الذين تساءلوا كما رأينا في أوائل السورة السابقة، "أأنزل عليه الذكر من بيننا" وأهمل

كبراءنا وأشرافنا! كان الجواب أن الله أمر إبليس بالهبوط من السماء إلى الأرض، ليريه مكانه الحقيقي بين "الصاغرين"[33]. هنا طلب إبليس من الله أن لا ينفذ فيه وعيده وأن يُمهلهُ إلى يوم القيامة، فاستجاب الله لطلبه. وهنا قال إبليس: بما أن مُقامي في الجنة قد فسد بسبب هذا المخلوق الجديد (آدم) فإني سأتَجند لأنتقم منه، سأفسد مُقامه هو وذريته في الأرض. فأجابه تعالى: أخرج من الجنة مذموما، وسأملأ جهنم منك وممن اتبعك منهم. ثم خاطب الله آدم: "اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ" (الأعراف 19).

وهنا يبدأ الجزء من القصة الذي لم يرد في السورة السابقة: إبليس يغري آدم وزوجه بالأكل من شجرة، كان الله قد نهاهما عنها، فانساقا لإغرائه ودفع بهما الطمع إلى الأكل من تلك الشجرة وما أن فعلا حتى بدت لهما عوراتهما (والمقصود ضعفهما الذي يكشف عن أنهما خلقا من مادة (طين) وليس من نور (كباقي الملائكة)، وطفقا ينتزعان من أوراق الشجر ما به يستر كل منهما عورته (كناية عن سعي الإنسان لستر جوانب الضعف فيه). ولما رأى الله فعلتهما اتجه إليهما باللوم والعتاب وأمرهما بالخروج من الجنة والهبوط إلى الأرض ليعيشا وفق طبيعتهما "الترابية"[34].

من هذا العرض المركز عن قصة آدم مع إبليس تنطلق السورة، سورة الأعراف، التي نحن ضيوف عليها، إلى تفصيل القول في العبرة التي يجب استخلاصها منها، متجهة بالخطاب إلى ذرية آدم لتنبيههم إلى أن الشيطان (الشهوة) الذي أخرج أبويهما من الجنة بعد أن كشف عن عوراتهما (عن جانب الضعف البشري فيهما) مصرٌ على مواصلة مهمته التضليلية بين صفوف البشر، وأن الله جعل الشياطين "أولياء الذين لا يؤمنون" (والمقصود المباشر هم قريش) يضلونهم

---

33 – لم يرد اسم إبليس في التوراة بل ورد اسم الحية (أو التنين) فهي التي أغرت حواء، وحواء أغرت معها آدم، بالأكل من الشجرة المحرمة. أما في الأناجيل فقد ورد اسم إبليس (والشيطان) على أنه هو الحية ذاتها. على أني لم أعثر في التوراة ولا في الأناجيل على ما يشبه قصة أمر الملائكة بالسجود لآدم، وامتناع إبليس بدعوى أنه من "نار" (نور) وآدم من طين (تراب). ولعل ذكر القرآن لهذا الجانب إشارة إلى ما تدعيه قريش من تفوق على المستضعفين من أتباع النبي (ص)، وقد سمتهم "الأراذل" وطلبت من النبي أن يطردهم كشرط للاعتراف به والانضمام إليه.

34 – والجدير بالذكر هنا أن خطيئة الأكل من الشجرة هي –في القرآن– خطيئة آدم وليس خطيئة حواء، فالمسؤولية تقع على الرجل وليس على المرأة/الحية (كما في التوراة). ولذلك طلب الله التوبة من آدم وليس من حواء. فلما أعلن آدم توبته سقطت الخطيئة.

ويوجهونهم ويُملون عليهم أفكارا كاذبة يبررون بها ما يرتكبونه من ضلالات، ويتمسكون به من مبررات وحجج.

وتستمر السورة في بيان أوامر الله ونواهيه وما يترتب عنها من ثواب أو عقاب يوم القيامة، ثم تقدم مشهدا من مشاهد الحوار الذي يجري في الآخرة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار- وهذا المشهد هو المقصود بقوله تعالى عن قريش "هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ؟"، أي هل ينتظرون حصول ما سيؤول إليه ما في هذا الكتاب من وعد ووعيد؟ وبعبارة أخرى: هل ينتظرون قيام القيامة ليروا بأعينهم ما في الجنة من نعيم وما في النار من عذاب؟ إنهم إن كانوا يريدون ذلك فليعلموا أنه: "يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ (أمثالهم من الأمم الماضية) قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا، أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ؟ وكان الجواب، كلا: "قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ" (الأعراف 53/51).

من هنا تنتقل بنا السورة مباشرة إلى عرض قصص هؤلاء الذي وقفوا من قبل مع رسلهم الموقف نفسه الذي وقفه كفار قريش مع رسولهم العربي محمد بن عبد الله.

وهكذا فبعد قصة آدم وإبليس تنتقل بنا سورة الأعراف إلى قصة نوح لتؤكد ما سبق. فمن السهل وضع اسم محمد مكان اسم نوح، وصرف كلمتي "أنجيناه" و"أغرقنا" من صيغة الماضي (المناسبة لنوح) إلى صيغة الحاضر والمستقبل (المناسبة لمحمد)، لتبقى الحقيقة المراد تقريرها هي هي.

أما الطريق الذي سلكته سورة الأعراف في الانتقال من آدم وإبليس إلى نوح فهو كما يلي: بعد الفراغ من قصة آدم/إبليس اتجهت السورة بالخطاب إلى بني آدم لتذكرهم بإرشاد الله آدم وحواء إلى "اللباس" الذي يستر عوراتهما، ولتنبههم إلى أن "لباس التقوى" خير، لأنه هو الذي يقيهم من أن يفتنهم الشيطان/الشهوة كما فتن أبويهما فأخرجهما من الجنة. ولما كان عرب "الجاهلية" قد اعتادوا أن يطوفوا حول الكعبة عراة "كما خلقهم الله" تضرعا إليه، وكأنهم يتبرؤون من فعلة آدم وحواء التي اضطرتهم إلى البحث عما يستر عوراتهما، فقد نبهتهم السورة إلى أنه لا ينبغي أن يتخذوا العري وسيلة للتضرع إلى الله، وأن عليهم أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد، وأن يأكلوا ويشربوا دون إسراف.

ثم تخاطب السورة بني آدم منبهة إلى أن عليهم أن يتبعوا ما تأتي به إليهم رسلهم من الله، وتستطرد في وصف مصير المتقين ومصير الكافرين يوم القيامة مستعيدة حوار أهل الجنة وأهل النار، مذكرة قريش بأن الله قد بعث إليهم رسولا ومعه كتاب هو "هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ". ثم تذكرهم بأن الله خلق السماوات

والأرض ورتب نظام الكون وسخره لخدمة من في الأرض، ثم تذكرهم بأن الله كما يرسل الرياح حاملة سحبا ومطرا ينبت نباتا، بعضه طيب وبعضه خبيث، كذلك يرسل الرسل لتبليغ رسالاته إلى الناس فيكون منهم الطيبون الذين يستجيبون، والخبيثون الذين يكذبون ويعرضون، وبعد الممات يبعثون من قبورهم: الطيبون بسهولة، والخبيثون بمشقة، ثم يحاسبون...

ومن هنا تنتقل السورة إلى التذكير بقصص الرسل مع أقوامهم، مبتدئة بقصة نوح، بوصفه أول رسول جاء بعد آدم. يتعلق الأمر بنص قصير لا يحكي وقائع القصة كما سنتعرف عليها لاحقا، بل يقتصر على التركيز على حوار نوح مع قومه، وهو لا يختلف في شيء عن الحوار الذي ورد في آيات عديدة بين النبي محمد عليه السلام وقومه قريش[35]. وهذا ينسجم مع الغرض من القصص القرآني جملة، بوصفه وسيلة تذكير وبيان ودعوة لقريش لاستخلاص العبرة من تجارب "التاريخ"، تجارب الرسل السابقين مع أقوامهم، تماما مثلما تدعوهم إلى استخلاص العبرة من آثار وبقايا قرى الأمم السابقة، ومن انتظام الظواهر الكونية انتظاما يخدم الإنسان في نهاية المطاف. من هذا المنظور نكتشف وحدة السياق بين الآيات التي عرضت لقصة نوح والآيات السابقة لها والتي جاءت كمقدمة لها.

بعد عرض قصة آدم/إبليس وقصة نوح تعود بنا سورة الأعراف، إلى قصص "أهل القرى" مع أنبيائهم، لتفصل القول فيها، ثم لتعرج على قصص أنبياء آخرين قبل أن تنتقل إلى قصة موسى مع فرعون وقومه. يتعلق الأمر هذه المرة، ليس بقرية يعبد أهلها الأصنام، وإن كان نقد عبادة الأصنام سيستأنف في مرحلة من مراحل هذه القصة، بل يتعلق الأمر أساسا بطاغية نصب نفسه إلها يضطهد شعبه ويستعمل قسما منهم -هم بنو إسرائيل- في الأعمال الشاقة، وقد ذهب به الطغيان إلى أقصى مداه عندما قرر ذبح أطفالهم الذكور والإبقاء على الأمهات والبنات لتأمين الخدمة له ولملأه.. ومن أجل إنقاذ هذا الشعب بعث الله موسى إلى فرعون.

وعلى خلاف القصص السابقة حيث كان التعريف بالنبي يقتصر على نسبته إلى قومه كـ"أخ" لهم ("إلى هود أخاهم عاد"، "إلى مدين أخاهم شعيب" الخ) فإن حكاية حياة موسى تحتل حجما كبيرا في قصته مع فرعون -كما سنرى في سورة

---

35 - نشير في هذا الإطار إلى التشابه بين ما ورد أعلاه من تعجب قوم نوح من أن يكون الله قد أرسله إليهم وهو مجرد واحد منهم، وبين ما ورد قبل في مقدمة سورة "ص"، المتصلة مباشرة مع سورة الأعراف على صعيد ترتيب النزول، من تعجب قريش من أن يكون النبي محمد عليه السلام قد أرسله الله إليهم وهو واحد منهم: "وَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا، وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" (ص 63).

طه- هذا بينما يقتصر التعريف بفرعون موسى على إبراز طغيانه وادعائه الألوهية -دون ذكر اسمه ولا أي شيء يمكن أن يعرف به من بين الفراعنة الآخرين- مما يوحي بأنه يتخذ هنا رمزا للطغيان وبالتالي ليس المقصود فرعون بعينه، من بين الملوك الفراعنة، بل المقصود كل من هو في معناه. ويتأيد هذا بكون فرعون صاحب يوسف لم يطلق القرآن عليه اسم فرعون بل سماه "الملك" (انظر لاحقا سورة يوسف).

ومع أن قصة موسى قد عرضت في عشر سور من القرآن المكي[36]، مجال بحثنا، فإن العرض الوارد في سورة الأعراف، منطلقنا المرجعي، يشكل ما يمكن اعتباره الصيغة الرئيسية للقصة. وهذا لا يقلل من أهمية الصيغ التي وردت فيها القصة في باقي السور؛ ففضلا عن أن هذه الصيغ تورد عناصر جديدة تفصيلية فهي تطرح القصة في سياقات أخرى، كثير منها متشابه فعلا، على صعيد بداية السورة وخاتمتها، ولكنها تختلف قليلا أو كثيرا على صعيد أسلوب العرض كما على صعيد المضمون.

تبدأ سورة الأعراف في عرضها لقصة موسى بربطها بقصص أهل القرى المذكورة قبلها، الشيء الذي يعني أنها تندرج في نفس الإطار الذي حددته هذه السورة في بدايتها للقصص القرآني. أما المراحل التي ركزت عليها هذه السورة من قصة موسى، فقد عرضناها في فقرات داخل النص. وقد أبرزنا في عناوينها ردود فعل "الشعب"، قوم موسى وقوم فرعون.

بعد ذلك تعود السورة إلى قريش، في خاتِمة مطولة، تتميز بهجوم لاذع على الأصنام، فيه تسفيه لعقول الذين يعبدونها ثم تتحداهم أن يستعينوا بها وينفذوا ما يتحدثون به من ضرورة التخلص من محمد، الرسول الذي هد كيانهم وأقض مضاجعهم: "قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِي، فَلَا تُنظِرُونِي[195] (لا تمهلوني)، إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (الأعراف 195-196).

36- ذكر اسم موسى في القرآن كله 131 مرة. أما قصته في القرآن المكي فقد عرضت في عشر سور: حكاية، أو مجرد إشارة. أما هذه القصة في القرآن المدني فسنعرض لها لاحقا.

40- سورة الجن

- تقديم

ذكر ابن إسحق أن نزول هذه السورة كان عند رجوع النبي عليه السلام من الطائف التي ذهب إليها يطلب العون والنصرة من أهلها ثقيف بعد أن أشتد عليه ضغط قريش عقب وفاة أبي طالب، وقد كان رد فعل ثقيف سيئا جدا إذ أغروا به صبيانهم وسفهاءهم الخ، فرجع في حال أسوء من تلك التي ذهب بها...

وبناء على ذلك يكون تاريخ نزول سورة الجن في السنة العاشرة للنبوة (قبل ثلاث سنوات من الهجرة). غير أن هذا لا يستقيم مع ترتيب النزول، ففضلا عن أن هذه السورة مرتبة في لوائح ترتيب النزول في رتبة 40 بعد سورة الأعراف فإن سورة حم "الأحقاف" التي فيها آيات صريحة تشير إلى سورة الجن (انظر هامش 1 أدناه) [1]، والتي رقم ترتيبها 66 في لوائح ترتيب النزول، قد نزلت مع الحواميم أثناء الحصار، كما سنبين بعد، ومعلوم أن ذهاب النبي عليه السلام إلى الطائف يطلب النصرة كان بعد انحلال الحصار في السنة العاشرة، وبالتالي فآيات سورة الأحقاف (أعلاه) لا يمكن أن تتحدث عن واقعة من وقائع السيرة حدثت بعد نزولها.

لذلك نرجح الرتبة التي أعطيت لسورة الجن في لوائح ترتيب النزول. ومما يزكي هذا الترجيح لدينا كون الرتبة التي أعطيت لها (رقم 40) تجعلها تالية لسورة الأعراف؛ وكما سنرى فإن مضمونها وسياقها يزكيان هذه الرتبة. فالسورة تتحرك في امتدا أفق سورة الأعراف، كما سيتضح.

تشتمل السورة كما هو واضح على قسمين: قسم يحكي قصة استماع رجال من الجن للقرآن وما كان رد فعلهم: لقد أعجبوا بالقرآن فآمنوا فتخلوا عن الشرك وانفصلوا عن المشركين من الجن والإنس. لقد تبين لهم أن هؤلاء كانوا يكذبون على الله، وأن مشركي قريش كانوا يحتمون بأمثالهم من الجن، وأن الجن كانوا من قبل

1- هي قوله تعالى: "وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ، قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ، يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (الأحقاف 29- 31)

يسترقون السمع من السماء للحصول على "الغيب" وأنه حدث أن تغير الأمر فصاروا يطردون بشهب من نار. وعندما بحثوا عن سبب هذا التغير اكتشفوا أن رسولا جديدا قد بعثه الله إلى العالمين، هو محمد (ص)، وأن باب السماء قد أغلقت فلم يعد من الممكن لا التنجيم ولا الكهانة، وأنه لم يعد هناك من سبيل لتلقي المعرفة الغيبية من السماء غير الوحي الذي ينزل على هذا الرسول. هذا وقد ذكر المحدثون ورواة أسباب النزول خبرا عن ابن عباس يقول فيه: "ما قرأ رسول الله (ص) على الجن ولا رآهم، ولكنه انطلق في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشيطان وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعوا إلى قومهم ، فقالوا : ما هذا إلا لشيء قد حدث فاضربوا في مشارق الأرض ومغاربها فانظروا هذا الذي حدث فانطلقوا فانصرف النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بـــ"نخلة" وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا : هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك رجعوا إلى قومهم ، فقالوا : "يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا" ، فأنزل الله على نبيه "قل أوحي إلي" وإنما أوحي إليه قول الجن.

أما القسم الثاني من السورة فهو موجه إلى قريش بخطـــاب يـــدعوهم إلـــى استخلاص الدرس من إسلام الجن: ذلك أنه لو استقاموا وأسلموا لغَـــيَّـــر الله حـــالهم بإمدادهم بالمطر، وهم في أمس الحاجة. فإذا هم رغبوا في ذلك حقا فليتركوا المساجد لله وحده وليسحبوا أصنامهم ولا يكرروا ما فعلوه حين تراموا على النبـــي يريـــدون خنقه عندما رأوه يصلي أمام نواديهم في المسجد، لا لذنب اقترفه بـــل فقـــط لكونـــه رسولا من الله جاء يحذرهم من الشرك ويبين لهم مصيرهم عند قيام الساعة. يسألون النبي عن وقتها! والجواب أن أمرها عند الله وأنه لم يتلق من عنده أي شيء عنها.

- نص السورة:

1- جماعة من الجن تستمع للقرآن... وتُسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

"قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًـــا[1] يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ؛ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا[2]. وَأَنَّهُ، تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا (تعالى مقام ربنا)، مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا[3]؛ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا[4] (كذبا وغلوا بادعائه أن له صاحبة وولد)، وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِـــنُّ

عَلَى اللَّهِ كَذِبًا،[5] [(2)]. وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ (من كفار قريش) يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ (يقولون أعوذ وأحتمي بجن هذا المكان) فَزَادُوهُمْ رَهَقًا[6] (انحرافا وطغيانا)، وَأَنَّهُمْ (رجال من الجن) ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ (يا كفار قريش) أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا[7]، وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا (ملائكة) وَشُهُبًا[8] (نجوما محرقة)، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ (كنا نسترق السمع من السماء) فَمَنْ يَسْتَمِعْ الْآنَ (بعد إرسال محمد رسولا) يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا[9] (حارسة تمنع من استراق الوحي)، وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا[10] (هل سيؤمنون بالرسالة المحمدية أم سيكفرون بها). وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ : كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا[11] (فرقا مختلفة)، وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ (إن أراد منا أمرا) وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا[12] (إذا هربنا إلى السماء)، وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى (القرآن) آمَنَّا بِهِ، فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا[13]، وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ (الجائرون) فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا[14]. وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا[15].

2- خطاب لقريش : إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا

وَأَلَّوْ (وقل أوحي إلي أن لو) اسْتَقَامُوا (مشركو قريش) عَلَى الطَّرِيقَةِ (الطريق المستقيم) لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا[16] (كثيرا، بعد جفاف)، لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ (نختبرهم به). وَمَنْ يُعْرِضْ (منهم) عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ (القرآن) يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا[17] (شاقا)، وَأَنَّ (وقل أوحي إلي أن) الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ (المسجد الحرام) فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا[18] (غيره)، وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ (محمد) يَدْعُوهُ (يعبد الله) كَادُوا (مشركو قريش الجالسون في نواديهم بالمسجد الحرام) يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا[19] (بعضهم فوق بعض مزدحمين عليه ليمنعوه من الصلاة). قُلْ (يا محمد لمشركي قريش) إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا[20]. قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا[21]. قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا[22] (ملجأ). (قل لا أملك) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ، (من هذا البلاغ): وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا[23]، حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا[24] (هل هم أم المسلمون)؟ قُلْ إِنْ أَدْرِي

2- المعنى: صدقنا قول "سفيهنا" لأنا ظننا أنه لا أحد يخطر على باله أن يكذب على الله، فلما سمعنا القرآن علمنا أنهم قد كذبوا.

(ما أدري) أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا[25]! عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا[26]، إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ(3) فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا[27] (يوحي بهذا الغيب إلى الرسول محروسا بالملائكة)، لِيَعْلَمَ (الله) أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا (يعني الرسل) رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ (من الوحي) وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا[28] (كل شيء عنده محصي، بما في ذلك عمل الرسل وردود فعل أقوامهم).

- تعليق واستطراد : في الجن والشيطان

1- في اللغة:

ذكر الجن في القرآن لأول مرة حسب ترتيب النزول في آخر سورة الناس رقم 18، في قوله تعالى "الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس")، الشيء الذي يفهم منه أن "الوسواس" قد يأتي من الجن وقد يأتي من الإنس. وفي سورة الرحمان ورد الخطاب موجها إلى الإنس والجن. أما هنا في السورة المسماة باسم "الجن" فموضوعها "إسلام الجن". وقد حاك الرواة والمفسرون وكتاب السيرة والمؤلفون في "الأدب والأخبار" حكايات لا حصر لها عن الجن، كما أن بعضهم أكثر في الحديث عن الجن في القرآن وعن علاقته بالسيرة النبوية ومسيرة القرآن الخ، لذلك ارتأينا تخصيص هذا التعليق لهذا الموضوع، متوخين الانتقاء والاختصار.

- الجن، إبليس، الشيطان، ثلاثة ألفاظ يتعين تحديد معناها قبل الخوض فيما نحن بصدده.

أما لفظ "الجن" فنقرأ عنه في "مقاييس اللغة" لابن فارس : "جَنّ : الجيم والنون أصل واحد، وهو (السَّتْر و) التستر. فالجَنّة ما يصير إليه المسلمون في الآخرة، وهو ثواب مستورٌ عنهم اليومَ. وَالجَنّة : البستان، لأنّ الشجر بورَقه يَستُر. وناسٌ يقولون: الجَنّة عند العرب النّخل الطّوال ... وَالجنين: الولد في بطن أُمّه، وَالجنين: المقبور. وَالجَنَان: القلب. وَالمِجَنّ: الترسُ، وكلّ ما استُتِر به من السّلاح فهو جُنّة. ... وَالجِنّة: الجنون، وذلك أنّه يغطِّي العقل. وَجَنَانُ الليل: سوادُه وسَتْرُه الأشياءَ ... . وَالمَجَنّة الجنون. فأمّا الحيّة الذي يسمّى الجانّ فهو تشبيهٌ له بالواحد من الجانّ. وَالجنّ: سمُّوا بذلك لأنهم متستِّرون عن أعيُنِ الخَلْق، قال تعالى: "إنّهُ

3- علق الزمخشري على هذه الآية بقوله: "إنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذي هو مصطفى للنبوة خاصة، لا كل مرتضى. وفي هذا إبطال للكرامات؛ لأنّ الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين، فليسوا برسل.

(إبليس) يَرَاكُمْ هُوَ وقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ" (الأعراف 27). ولا تكاد المعاجم الأخرى تخرج عن هذه المعاني.

أما لفظ "الشيطان" فنقرأ عنه في لسان العرب لابن منظور ما يلي : "والشيطان: حَيَّةٌ لــه عُرْفٌ. والشَّاطِنُ: الـخبـيث... والشيطان: معروف، وكل عاتٍ متمرد من الجن والإنس والدواب شيطان ... وتَشَيْطَنَ الرجل وشَيْطَن إذا صار كالشَّيْطان وفَعَلَ فِعْلَه ... وفي التنزيل العزيز: "وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ" (الشعراء 210). وقوله تعالى: "طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ" (الصافات 65) ... والشيء إذا استُقْبِحَ شُبِّه بالشياطين. والشيطان لا يُرى، ولكنه يُسْتَشْعَر أنه أَقْبَحَ ما يكون من الأشياء، ولو رُؤِيَ لَرُؤِيَ في أقبح صورة ... بالغوا في تَمثيل ما يستقبح من المذكر بالشيطان وفيما يُسْتَقْبَح من المؤنث بالتشبيه له بالغول. وقيل: كأنه رؤوس الشياطين كأنه رؤوس حَيَّات، فإن العرب تسمي بعض الحيات شيطاناً، وقيل: هو حية له عُرْفٌ قبيح المَنْظَر.

هذا الفائض من الكلام حول معنى "الشيطان" والاختلاف بين اللغويين في تحديد أصله الاشتقاقي في اللغة العربية يدل على ضعف علاقة هذا اللفظ باللغة العربية. الشيء الذي يحمل على الاعتقاد بأن هذا اللفظ يجد أصله في لفظ Tzatanâ الذي يعني بالآرامية ما يعنيه لفظ الشيطان بالعربية. ويعتبر هذا اللفظ من قاموس الديانة الإبراهيمية إذ نجد له مقابلا بالعبرانية يعبر عن كائن استقاه اليهود من اللغة الكلدانية عندما كانوا مسبيين في بابل، ليدل على محامي الاتهام في المحكمة، فهو عدو. أما في المسيحية فقد تم التعبير عن هذا العدو في إنجيل متى (4-10) بلفظ satanas ، الذي صار علَما على "الشيطان"، وأعطي له اسم ملائكي هو صمويل Samaël (ملاك الموت والدمار)[4].

أما لفظ "إبليس" فقد ورد عنه في لسان العرب: "أَبْلَسَ الرجلُ: قُطِعَ به. وأَبْلَس: سكت. وأَبْلَسَ من رحمة الله أي يَئِسَ ونَدِمَ، ومنه سمي إبليس وكان اسمه عزازيلَ. وفي التنزيل العزيز : "وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ (يندم) الْمُجْرِمُونَ" (الروم 12). وفي "مجاز القرآن" لأبي عبيدة أن لفظ "إبليس" ممنوع من الصرف لأنه أعجمي، وبذلك قال لغويون آخرون. وإذا صح أن هذا اللفظ أعجمي فقد يصح القول إن له علاقة باللفظ اليوناني Diabolos الذي يعني: الشيطان.

4- أسماء الملائكة في التوراة مثل صموائيل ورفائيل ومكائيل وجبريل وغيرها، هي من "الآلهة الصغرى" الكلدانية، وكانوا يعتبرونها جسمانية لها أرواح ومقرها السماء، ولكنها لا تُرى من الأرض، وهي تمشي على الأرض بإذن الإله ألوهيم. وربما كان هذا من أصول عبادة الأصنام في الجزيرة العربية قبل الإسلام. وسنفصل القول في موضوع الأصنام لاحقا.

والمفسرون للقرآن يعتبرون الجن جنسا، ويُميزون فيهم بين الأخيار والأشرار. "واختلفوا في الجن والشياطين فقيل: الشياطين جنس والجن جنس آخر، كما الناس جنس والأفراس جنس، وقيل: الجن منهم أخيار ومنهم أشرار، والشياطين اسم لأشرار الجن".

2- أخبار الجن في المؤلفات العربية

هذا على المستوى اللغوي. أما على مستوى المروث الثقافي العربي فلا نَحتاج هنا إلى عرض مفصل للتصورات التي بناها العرب لأنفسهم أو استقوها عن غيرهم من الأمم حول الجن. فالثقافة الشعبية العربية ما زالت محملة بما يسميه القدماء في مؤلفتهم بـ "أخبار الجن"، وهي مؤلفات عديدة بعضها خاص بهذا الموضوع وبعضها يضم أبوابا وفصولا تتحدث عنه. من هذه المؤلفات على سبيل المثال، لا الحصر: كتاب "أخبار الجن وأشعارهم" لهشام بن محمد بن السائب الكلبي (المتوفى سنة 204 هـ) الذي تروى عنه كثير من مظاهر حياة العرب قبل الإسلام. ومنها كتاب "آكام المرجان في أحكام الجان" للقاضي بدر الدين: محمد بن عبد الله الشبلي (الحنفي 769 هـ)، رتبه على مائة وأربعين بابا في أخبار الجن وأحوالهم... ومن كتب "الأخبار" التي أفردت بابا في أخبار الجن كتاب أبي هلال لقيط بن بكير المحاربي كان من رواة الكوفة، وهو من المؤلفين الأوائل إذ توفي سنة 190هـ. وإضافة إلى هذه المؤلفات والنصوص ذات الطابع "الأدبي" هناك نصوص كثيرة كتبت كتقدِيمات أو كحواش وتعليقات حول ما ذكر عن الجن في القرآن أو في الحديث (وهو شيء كثير) سنأتي على ذكر بعضه في حينه.

لقد بقيت هذه المؤلفات تحكي عبر القرون موروثا شعبيا حول الجن (والشياطين وإبليس) يعبر بصيغ شتى عن التداخل الكبير بين حياة البشر وحياة الجن. ومع أن كثيرا من الناس، المثقفين منهم وغير المثقفين، يشكون في مصداقية ما يقال في هذا الصدد فإن الجميع يستلذ السماع لـ"حديث "الجن"، وحديث "الجنيّ والجنية" إما لما يشتمل عليه من مُلَح وغرائب أو للاعتقاد في ذلك نوعا من الاعتقاد... ومن الشائع في الموروث الشعبي العربي –وغيره– أن الجن يتقاسمون الحياة على الأرض مع الإنسان، فهم يسكنون مع الناس ويعملون في المهن كما يعمل الناس، ولكنهم يتميزون عنهم بخصائص: منها أنهم لا يُرون إلا نادرا وفي الغالب على "صورة" حيوان أو إنسان أو حشرات. ومنها أن لهم القدرة على النفاذ في جسم الإنسان فيوجهونه ويساعدونه أو يخنقونه أو يحدثون ضررا في عضو من أعضائه، ومنها أن للرجل جنية وللمرأة جني، وليس العكس.

والاعتقاد في وجود الجن اعتقاد قديم متأصل في الشعوب السامية خاصة وفي غيرها من الشعوب عامة. وهو حديث حاضر في التوراة والأناجيل، كما هو حاضر في القرآن. وما يهمنا هنا، ونحن نتحدث عن خطاب العقيدة في القرآن، هو بيان حقيقة مضمون الجن والشياطين في هذا الخطاب وفي هذا السورة بالذات.

3- في القرآن...

ورد لفظ إبليس في القرآن 11 مرة، تسع منها مكررة في قصة عصيانه أمر الله بامتناعه عن السجود لآدم. وبذلك يكون قد ذكر خارج هذه القصة مرتين فقط، مرة في قوله تعالى عن قوم نبي الله إبراهيم: "فَكُبْكِبُوا (جمعوا) فِيهَا (في جهنم) هُمْ وَالْغَاوُونَ، وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ" (الشعراء 94-95)، وقوله: "وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ (على أهل سبأ) إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" (سبأ 20). وباستثناء الحالة الأولى، حالة التمرد والعصيان في قصته مع آدم، فقد بقي مفهوم إبليس في الحالات الأخرى تعبيرا عن تنفيذه لما تعهد به أمام الله في تلك القصة من أنه سيصرف كل جهده لغواية آدم وذريته وتضليلهم وصرفهم عن طاعة الله ودفعهم إلى عصيانه مثلما عصاه هو نفسه. وفي ذلك الحوار الذي جرى بين الله وبينه في ثنايا تلك القصة توعده الله، بأن يَملأ جهنم، عندما تقوم القيامة، منه ومن جنوده وضحاياه من الإنس والجن. وكان أول ضحاياه آدم وزوجته حواء، فقد نجح في إغرائهما بالأكل من شجرة في الجنة كان الله قد نهاهما عن الأكل منها وأباح لهما كل ما عداها. لقد أغراهما إبليس بالأكل من تلك الشجرة: "فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ" (الأعراف 20).

ومنذ تلك الواقعة صار اسم الشيطان، في الخطاب القرآني، مرادفا لاسم إبليس. لقد ورد ذكره 63 مرة مفردا و17 مرة جمعا (شياطين). وإذا جمعنا حصة إبليس إلى حصة الشيطان، وهما بمعنى واحد، كان المجموع 64 مرة بينما لم يرد لفظ الجن في القرآن سوى 19 مرة. ويتضح من هذه الأرقام أهمية الدور الذي يعطيه الخطاب القرآني لمفهوم "الشيطان" بوصفه العدو المبين للإنسان.

ولعل أهم ما يفترق به خطاب الجن عن خطاب الشيطان، في القرآن، هو أن هذا الأخير يقدَّم في كل حالة كعدو للإنسان، يوسوس له ويسعى لتضليله، بينما يقدم الجن والإنس كصنفين من مخلوقات الله، في كل منهما شياطين : "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا، شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا" (الأنعام 112)، وكثيرا ما يتجه الخطاب إليهما معا، خصوصا خطاب اللوم والعتاب في

الآخرة، وفي جهنم بالتخصيص. من ذلك قوله تعالى: "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا، قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ" (الأنعام 130).

هذا في الآخرة، أما في الدنيا فخطاب الجن، مقرونا بالإنس أو منفردا، يكتسي في الغالب نوعا من التحدي. من ذلك قوله تعالى: "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا، لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ" (الرحمان 33-35). والمقصود في هذه الآية ومثيلاتها نفي ما كان يعتقده العرب وغيرهم في الكهان والمنجمين من أنهم يطلعون على شيء من الغيب بواسطة ما يسرقه الشياطين من حديث الملائكة في السماء. ذلك أن الله خلق السماء محروسة فكلما حاول شيطان استراق السمع إلا ورُمي بأجسام نارية هي الشهب. وجاء هذا النفي بطريقة تبين إحكام نظام السماء وأن خلق السماوات والأرض بهذا النظام أكثر تعقيدا ودقة من خلق آدم من تراب.

الخطاب هنا موجه إلى خصوم الدعوة المحمدية من الإنس والجن. ويستهجن القرآن اعتقادات فريق من المشركين : "جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ، و(قد) خَلَقَهُمْ، وَخَرَقُوا (افتعلوا له) لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (الأنعام 100). "وَجَعَلُوا بَيْنَهُ (الله) وبينَ الجِنَّةِ نَسَباً" (الصافات 159)، ومما ورد في خطاب الجن، في سياق التحدي لقريش، قوله تعالى: "قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا" (الإسراء 88).[5]

4- مرويات حول الجن لها علاقة بالقرآن.

لقد كان من الطبيعي أن تنشط مخيلة رواة الأخبار للتوسع في إنتاج مادة غزيرة في موضوع الجن وعلاقته بالإسلام، مما قد يتفق من قريب أو بعيد، أوقد لا يتفق، مع ما تحتمله الآيات التي تتحدث عن الجن في القرآن. إن موضوع الجن هو من أكثر الموضوعات إثارة للاهتمام في المعهود العربي كما في معظم الثقافات، إن لم يكن في جميعها. وبالتالي فكل ما ينتمي إلى هذا

5- انظر كتتمة لهذا ما كتبناه حول وجود الجن ووسواس الشيطان في التعليق الذي كتبناه في سورة الناس 18.

الموضوع، ويمكن توظيفه في خدمة الإسلام، بصورة من الصور، داخل ذلك المعهود يمكن، ليس فقط التغاضي عنه بل أيضا الترحيب به، من طرف العقل الساهر على حماية الدين والعمل على انتشاره من دعاة وفقهاء، ما دام لا يحرم حلالا ولا يحلل حراما.

وبما أن الأمر يتعلق بمجال القص والرواية والتخييل فإن اختلاق مرويات فيه، وهو ما يسمى بـ "الوضع" في الحديث أو غيره، سيكون عملا إبداعيا يخلد اسم صاحبه، على مستوى الثقافة الشفوية كما على مستوى الروايات المكتوبة. أما مصداقية المرويات في هذا المجال فهي لا تلتمس -لا من طرف "الوُضَّاع" والرواة" ولا من جانب "المستهلكين"، ولا في وجود ما يشهد لها بالصحة بنوع من التأويل لآيات الذكر الحكيم، كلا. إن المصداقية هنا تلتمس في "المرجعية"، أي في الشخص الذي ينتهي إليه الإسناد وتقف عنده العنعنة. ومن هنا كثرة ما يروى عن شخصيات جعلتها الشهرة "كعبة" مفتوحة يعلق عليها كل راوٍ معلقاته الروائية الصحيحة وشبه الصحيحة والموضوعة.

من ذلك ما روي عن قتادة (أحد المرجعيات الرئيسة في التفسير السني للقرآن) في الموضوع نفسه من أنه قال في قوله تعالى: "وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرا مِنَ الجِنّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ" (انظر الهامش رقم 1 أعلاه) ، قال: ذُكِر لنا أنهم صُرِفوا إليه من نِيْنَوَى. قال: فإن نبيّ الله (ص) قال [لأصحابه]: "إني أمرت أن أقرأ القرآن على الجنّ، فأيكم يتبعني"؟ فأطرقوا، ثم استتبعهم فأطرقوا، ثم استتبعهم الثالثة فأطرقوا، فقال رجل: يا رسول الله إنك لذو بدئه، فاتبعه عبد الله بن مسعود، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم شِعبا يقال له شعب الحجون. قال: وخطّ نبيّ الله (ص) على عبد الله خطا ليثبِّته به، قال [عبد الله]: فجعلت [الأرض] تهوي بي وأرى أمثال النسور تمشي في دفوفها، وسمعت لغطا شديدا، حتى خفت على نبيّ الله صلى الله عليه وسلم. ثم تلا القرآن. فلما رجع نبيّ الله قلت: يا نبيّ الله ما اللغط الذي سمعت؟ قال: "اجتمعوا إليّ في قتيل كان بينهم، فقُضي بينهم بالحقّ". وذُكر لنا أن ابن مسعود لما قَدِم الكوفة رأى شيوخا شُمطا من الزُّط (من سود الهند)، فراعوه، قال: من هؤلاء؟ قالوا: هؤلاء نفر من الأعاجم، قال: ما رأيت للذين قرأ عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلّم الإسلام من الجنّ شبها أدنى من هؤلاء.

ومن ذلك ما روي عن ابن عباس حول "تاريخ الجن" من أنه قال: "كان إبليس من حيّ (قبيلة) من أحياء الملائكة، يقال لهم "الجنّ"، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة. قال: فكان اسمه الحارث. قال: وكان خازنا من خزان الجنة. قال: وخلقت الملائكة من نور غير هذا الحيّ. قال: وخلقت الجنّ الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت". وروي عنه أيضا في الموضوع نفسه أنه قال: كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض وكان من أشدّ الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما، فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حيّ يسمون جنّا". كما روي عنه أنه قال: "أوّل من سكن الأرض الجنّ ، فأفسدوا فيها، وسفكوا فيها الدماء، وقتل بعضهم بعضا. قال: فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة، فقتلهم إبليس ومن معه، حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ثم خلق آدم فأسكنه إياها، فلذلك قال الله: "إني جاعِلٌ في الأرْضِ خَلِيفَةً". فعلى هذا القول إني جاعل في الأرض خليفة من الجنّ يخلفونهم فيها فيسكنونها ويعمرونها. وفي رواية أخرى، قال: إن من الملائكة قبيلة من الجن، وكان إبليس منها، وكان يسوس ما بين السماء والأرض (عن الطبري وغيره).

وفي "نهاية الأرب في فنون الأدب" لشهاب الدين، أحمد النويري، نقرأ صيغة أخرى للقصة المذكورة عن ابن مسعود رواها الشَعبيّ عن علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود هل صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ منكم أحدٌ ؟ فقال: ما صحبه منّا أحدٌ، ولكنا فقدناه ذات ليلة بمكة فقلنا: اغتيل؟ استطير؟ ما فعل؟ قال: فبتنا بشرّ ليلةٍ بات بها قومٌ، فلما كان في وجه الصّبح أو قال في السّحر، إذا نحن به يجئ من قبل حراء، فقلنا: يا رسول الله، فذكروا الذي كانوا فيه، فقال: "إنه أتاني داعي الجن فأتيتهم فقرأت عليهم "قال: فانطلق فأرانا آثارهم، وآثار نيرانهم (موقدهم)، قال: وقال الشعبي فسألوه الزّاد، وكانوا من جن الجزِيرة، فقال (ص): "كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما كان لحماً، وكل بعرةٍ أو روثةٍ علفٌ لدوابكم - قال- فلا تستنجوا بهما، فإنهما زاد إخوانكم من الجن" (رواه مسلم في صحيحه). وكان فيما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم : "الرحمن. علم القرآن" السورة؛ ويدل على ذلك ما رواه محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم "الرحمن" على الناس سكتوا فلم يقولوا شيئاً، فقال رسول

الله صلى الله عليه وسلم: "لَلْجِنُّ كانوا أحسن جواباً منكم: لما قرأت عليهم "فبأي آلاء ربكما تكذبان"؟ قالوا: لا ولا بشيء من آلاء ربنا نكذب". وروى عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أن نفراً من الجن خمسة عشر بني أخوةٍ وبني عمٍ يأتونني الليلة فأقرأ عليهم القرآن". وقيل: كانوا أكثر من هذا".

ومن ذلك ما روى في موضوع تبشير الجن بقرب مبعث النبي عليه السلام، كما بشرت به أحبار اليهود ورهبان النصارى (كما بينا ذلك في التعريف بالقرآن)(. قيل: "أول خبر قدم المدينة عن قرب مبعث النبي عليه السلام، أن امرأة من أهل يثرب تدعى فاطمة، كان لها تابع من الجن (يمارس الزنا معها) فجاءها يوماً فوقع على جدارها، فقالت: مالك لا تدخل؟ فقال: إنه قد بعث نبي يحرم الزنا، فحدَّثت بذلك المرأة عن تابعها من الجن". وقيل إن فلانا روى ما يلي، قال: : "سرت إلى الشام فأدركني الليل، فأتيت وادياً فقلت: أنا في جوار عظيم هذا الوادي الليلة (كانُ الوادي مسكنا للجن)، فلما أخذت مضجعي إذ قائلٌ لا أراه يقول: عذ بالله الأحد، فإن الجن لا تجير على الله أحدا، وأنه قد بعث رسول الأميين، وصلينا خلفه بالحجون، وأسلمنا واتبعناه، وآمنا به وصدقناه، فأسلم تسلم".

5- "الكلام" في الجن

تلك نماذج من حكايات الجن لها علاقة بالقرآن، وغني عن البيان القول إنها من جنس الإسرائيليات التي غصت بها كتب كثير من المفسرين. والسؤال الذي ينبغي أن يُطرح بصدد هذه المرويات سيكون غير ذي معنى إذا هو انطلق من إشكاليات الفكر العلمي أو الفلسفي، المعاصر لنا نحن أبناء القرن الحادي والعشرين! إن محاكمة فكر القرون الوسطى هذا النوع من المحاكمة غير جائز. لكن السؤال الذي يطرح نفسه والذي له معنى، سواء بالنسبة للذين ابتدعوا أو رووا تلك الأخبار أو بالنسبة لمن يؤرخ لها نوعا من التأريخ هو التالي: كيف تعامل الخطاب العالم مع مضمون تلك الروايات والأخبار؟ وبعبارة أخرى كيف كان هذا الخطاب يحاول عقلنة مسألة الجن، ووسوسة الشيطان؟ وأعني بـ "العقلنة هنا" إدراجها في النسيج العام الذي يقيمه العقل حول الظواهر الكونية قصد فهمها وربما السيطرة عليها.

يعطينا الفخر الرازي ملخصا جيدا لآراء المفكرين إلى زمانه حول مسألة الجن نورد منه ما يلي:

قال في مستهل تفسيره لسورة الجن: "اختلف الناس قديماً وحديثاً في ثبوت الجن ونفيه، فالنقل الظاهر عن أكثر الفلاسفة إنكاره، وذلك لأن أبا علي بن سينا قال في رسالته في حدود الأشياء "الجن حيوان هوائي متشكل بأشكال مختلفة"، ثم قال: "وهذا شرح للاسم". فقوله: وهذا شرح للاسم يدل على أن هذا الحد شرح للمراد من هذا اللفظ، وليس لهذه الحقيقة وجود في الخارج. وأما جمهور أرباب الملل والمصدقين للأنبياء فقد اعترفوا بوجود الجن. واعترف به جمع عظيم من قدماء الفلاسفة وأصحاب الروحانيات ويسمونها بالأرواح السفلية، وزعموا أن الأرواح السفلية أسرع إجابة إلا أنها أضعف، وأما الأرواح الفلكية فهي أبطأ إجابة إلا أنها أقوى".

"واختلف المثبتون (للجن) على قولين: فمنهم من زعم أنها ليست أجساماً ولا حالّةً في الأجسام بل هي جواهر قائمة بأنفسها. قالوا: ولا يلزم من هذا أن يقال: إنها تكون مساوية لذات الله لأن كونها ليست أجساماً ولا جسمانية سلوب[6]، والمشاركة في السلوب لا تقتضي المساواة في الماهية. قالوا: ثم إن هذه الذوات بعد اشتراكها في هذا السلب أنواع مختلفة بالماهية كاختلاف ماهيات الأعراض بعد استوائها في الحاجة إلى المحل، فبعضها خيرة، وبعضها شريرة، وبعضها كريمة مُحبة للخيرات، وبعضها خسيسة مُحبة للشرور والآفات، ولا يعرف عدد أنواعهم وأصنافهم إلا الله.

"قالوا: وكونها موجودات مجردة لا يمنع من كونها عالمة بالخَبَريات قادرة على الأفعال، فهذه الأرواح يمكنها أن تسمع وتبصر وتعلم الأحوال الخبرية وتفعل الأفعال المخصوصة. ولما ذكرنا أن ماهياتها مختلفة، لا جرم لم يبعد أن يكون في أنواعها ما يقدر على أفعال شاقة عظيمة تعجز عنها قدر البشر، ولا يبعد أيضاً أن يكون لكل نوع منها تعلق بنوع مخصوص من أجسام هذا العالم، وكما أنه دلت الدلائل الطبية على أن المتعلق الأول للنفس الناطقة التي ليس الإنسان إلا هي، هي الأرواح، وهي أجسام بخارية لطيفة تتولد من ألطف أجزاء الدم وتتكون في الجانب الأيسر من القلب ثم بواسطة تعلق النفس

6- أي مجرد نفي، تنفي عن الجن الجسمية.

بهذه الأرواح تصير متعلقة بالأعضاء التي تسري فيها هذه الأرواح، لم يبعد أيضاً أن يكون لكل واحد من هؤلاء الجن تعلق بجزء من أجزاء الهواء، فيكون ذلك الجزء من الهواء هو المتعلق الأول لذلك الروح، ثم بواسطة سيران ذلك الهواء في جسم آخر كثيف يحصل لتلك الأرواح تعلق وتصرف في تلك الأجسام الكثيفة (ذلك حسب التشريح والطب القديمين منذ اليونان، ولا علاقة لهما بالعلم الحديث).

ويضيف الرازي: "ومن الناس من ذكر في الجن طريقة أخرى فقال: هذه الأرواح البشرية والنفوس الناطقة إذا فارقت أبدانها وازدادت قوة وكمالاً بسبب ما في ذلك العالم الروحاني من انكشاف الأسرار الروحانية، فإذا اتفق أن حدث بدن آخر مشابه لما كان لتلك النفس المفارقة من البدن، فسبب تلك المشاكلة يحصل لتلك النفس المفارقة تعلق ما بهذا البدن، وتصير تلك النفس المفارقة كالمعاونة لنفس ذلك البدن في أفعالها وتدبيرها لذلك البدن، فإن الجنسية علة الضم، فإن اتفقت هذه الحالة في النفوس الخيرة سمي ذلك المعين ملكاً وتلك الإعانة إلهاماً، وإن اتفقت في النفوس الشريرة سمي ذلك المعين شيطاناً وتلك الإعانة وسوسة".

والقول الثاني في الجن أنهم أجسام، ثم القائلون بهذا المذهب اختلفوا على قولين، منهم من زعم أن الأجسام مختلفة في ماهياتها، إنما المشترك بينها صفة واحدة، وهي كونها بأسرها حاصلة في الحيز والمكان والجهة وكونها موصوفة بالطول والعرض والعمق، وهذه كلها إشارة إلى الصفات. والاشتراك في الصفات لا يقتضي الاشتراك في تمام الماهية لما ثبت أن الأشياء المختلفة في تمام الماهية لا يمتنع اشتراكها في لازم واحد. قالوا: وليس لأحد أن يحتج على تماثل الأجسام بأن يقال: الجسم من حيث إنه جسم له حد واحد، وحقيقة واحدة، فيلزم أن لا يحصل التفاوت في ماهية الجسم من حيث هو جسم، بل إن حصل التفاوت حصل في مفهوم زائد على ذلك، وأيضاً فلأنه يمكننا تقسيم الجسم إلى اللطيف والكثيف، والعلوي والسفلي، ومورد التقسيم مشترك بين الأقسام، فالأقسام كلها مشتركة في الجسمية والتفاوت، إنما يحصل بهذه الصفات، وهي اللطافة والكثافة، وكونها علوية وسفلية، قالوا: وهاتان الحجتان ضعيفتان"...

40- سورة يس

- تقديـــم

لم يرد في "سبب نزولها" شيء يستحق الذكر، وما ذكروا من أن قوله تعـالى في هذه السورة "إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ" قد نزل في عائلة من الأنصار أرادت تغيير مـسكنها والاقتـراب مـن المسجد وأنهم استشاروا النبي في ذلك، وأنه عليه السلام رد عليهم بتلك الآية، أقول: هذا مردود، لأن السورة مكية والعائلة المشار إليها كانت من الأنصار تسكن المدينة. إذن كل ما يمكن أن يقال، إذا صحت تلك الرواية، هو أن النبي عليه السلام سـيكون قد قرأ عليهم الآية، وكانت قد نزلت من قبل في مكة، لا أنها نزلت حين قرأها.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

1- مقدمة: حق القول على أكثرهم..أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون.

يس[1] (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ[2] (قسم) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ[3] (جوابه) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[4]. (هذا القرآن) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ (القوي) الرَّحِيمِ[5]، لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَـا أُنْـذِرَ آبَاؤُهُمْ(2)، فَهُمْ غَافِلُونَ[6]. لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[7]. إِنَّا جَعَلْنَا

---

1 - أقوال عديدة في معنى لفظ "يس"، والأشهر أنه (ياء، سين)، مثل طاء هـ، حا ميم الخ.

2- اختلف المفسرون في فهم هذه الآية فمنهم من جعل "ما" بمعنى "مثل" وبالتالي يكون معنى الآية "لتنذر قوما مثل الذين أنذر آباؤهم"، على معنى أنهم جاءتهم رسل من قبل. ومنهم من جعل "ما" زائدة تفيد النفي، وبالتالي يكون المعنى عكس السابق أي: ما جاءهم قبلك نذير. ونحن نرى أن معناها واضح، وهو أن العرب أمة أمية لم يسبق أن جاءهم نذير ولا كتاب، "ما أنذر آباؤهم من قبل". وهذا مصداقا لقوله تعالى : " هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" (الجمعة. 2)

فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ[8] (لا يستطيعون تحريك رؤوسهم)[(3)]، وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا (مضغوط عليهم لا يستطيعون حراكا: مسجونون في قالب الكفر) فَأَغْشَيْنَاهُمْ (وكان ذاك غشاوة وغطاء على أبصارهم) فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ[9]، (والنتيجة) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[10]. إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ (ما يدعو إليه القرآن) وَخَشِيَ الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ (بالعبرة والدليل) [(4)] فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ[11]. إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ[12] (اللوح المحفوظ، وعلى أساسه يكون الثواب والعقاب).

2- أصحاب القرية : كذبوا المرسلين فهلكوا بالصيحة

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ [(5)] إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ[13] (رسل عيسى إليهم)، إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ[14]، قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ[15]. قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ[16]، وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ[17]. قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا (تشاءمنا) بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ[18]. قَالُوا (الرسل) طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ (شؤمكم هو الكفر). أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ (إن خاطبناكم بالبرهان ترجموننا مع ذلك)؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ[19] (في الشرك والعناد)! وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى، قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا (هؤلاء) الْمُرْسَلِينَ[20]، اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ[21]. وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[22]، أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً، إِنْ يُرِدْنِي الرَّحْمَانُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِي[23]، إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[24]. (قال الرجل للرسل) : إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِي[25]. قِيلَ (سيقال له يوم القيامة) ادْخُلِ الْجَنَّةَ. قَالَ (وسيجيب): يَا لَيْتَ

3- يقال أقمح الدابة وأكمحها: إذا جذب -راكبه- لجامها عنده لترفع رأسها.

4- أي من آمن به عن طرق الاستلال بالشاهد على الغائب، الاستدلال بنظام العالم على ووجود صانع حكيم له الخ. أما من اشترط العيان، أي روية الله أو رؤية قيام القيامة، حتى يؤمن به، فهو في الكفر مسجون.

5- يجمع المفسرون على أن المقصود بهذه القرية هي "أنطاكية" بشمال سورية. وقد أشار كثير منهم إلى أن الأمر يتعلق برسولين بعثهما المسيح عليه السلام لنشر الدعوة فيها ثم عززهما بثالث. انظر تفاصيل أوفى في التعريف بالقرآن. القصص في القرآن الكريم. المرحلة الثانية فقرة 3-هـ

قَوْمِي يَعْلَمُونَ[26]، بِمَا غَفَرَ لِي (بغفران) رَبِّي وَجَعَلَنِي (وجعله إياي) مِنَ الْمُكْرَمِينَ[27]. وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنَ السَّمَاءِ (ملائكة لإهلاكهم إذ استمروا على عبادة الأصنام) وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ[28] (محتاجين على ذلك). إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ[29]. يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ! مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[30].

3- آيات وأدلة لم يعتبروا بها... لقد بقوا معرضين.

أَلَمْ يَرَوْا (ألم تعتبر قريش) كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ (الأمم) أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ[31]، وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا (إلا و) جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ[32]. (وإحياء الموتى من البشر مثل إحياء الأرض الميتة) : وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ[33] ، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ[34]، لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ، وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ[35]. سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ[36]. وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ[37]. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ[38]، وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ (في أول الشهر رقيقا كالعود) الْقَدِيمِ[39] (كما كان عند بداية ظهوره)! لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ[40]. وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ[41]، وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ[42]، وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ[43]، إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ[44]. وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا (على سبيل الاحتياط إن لم يكن على سبيل اليقين) مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ (من أمر محمد) وَمَا خَلْفَكُمْ (يوم الحساب) لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ[45] [(6)]. وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ[46]، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[47]. وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ[48]. مَا يَنظُرُونَ (ينتظرون) إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ[49] (يختصمون)، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ[50].

6- جواب "إذا قيل لهم" يدل عليه السياق وهو : كانوا معرضين.

4- قيام الساعة، ونعيم الجنة وعذاب النار

وَنُفِخَ (عندما ينفخ) فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ (القبور) إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ[51] (يخرجون). قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا! (الجواب) هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ[52]. إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ[53]. فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[54]. إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ[55]، هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ[56]، لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ[57] (يتمنون)، سَلَامٌ قَوْلًا (جاءهم) مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ[58]، وَامْتَازُوا (انعزلوا وانفردوا) الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ[59]. أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ[60]، وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ[61]، وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا (خلقا) كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ[62]، هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ[63]، اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ[64]. الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[65]. وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ (مشوا في الطريق) فَأَنَّى يُبْصِرُونَ[66]؟ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ (في مكانهم) فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ[67]، وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ (نضعفه) فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ[68].

5- خلقنا كل ما هو ضروري في حياتهم فاتخذوا الأصنام آلهة!

(وهذا القرآن ليس شعرا كما تقولون) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ (ما علمنا محمدا...) وَمَا يَنْبَغِي لَهُ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ[69]، لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا (حي العقل والبصيرة، مؤمنا) وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ[70]. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا (الإبل) فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ[71]، وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ[72]، وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ[73]. وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ[74]، (هؤلاء الآلهة) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ (حتى) وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ[75]. فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ[76].

6- خاتمة: خلقنا الإنسان من نطفة، ويتساءل من يحيي العظام؟!

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ[77]! وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ: مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ[78]؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ[79]: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ[80]. أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ

مِثْلَهُمْ؟ بَلَى، وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ(7)[81]. إِنَّمَا أَمْرُهُ، إِذَا أَرَادَ شَيْئًا، أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ. فَيَكُونُ[82]! فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[83].

- تعليق

تناولت هذه السورة القضايا الرئيسية التي في القرآن المكي عموما : النبوة، التوحيد والبعث مع التعرض للأصنام. والمسألة التي وقف عندها المفسرون هي مضمون الآيات 7، 8، 9، 10 حيث يقول تعالى: "لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ، وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ. وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ". وظاهر هذا الآيات يفيد أن الله أراد لقريش الكفر، وأنهم لن يؤمنوا، سواء دعاهم الرسول إلى الإسلام أم لم يدعهم، الشيء الذي ينفي عن الإنسان حرية الاختيار. وكان طبيعيا أن يختلف تأويل المعتزلة الذين بنوا مذهبهم على ما عبروا عنه بـ"خلق الأفعال"ـ بمعنى أن الله منح للإنسان حرية الاختيار وخلق فيه القدرة على الفعل، وبالتالي فالإنسان يتحمل مسؤولية أفعاله، والله ينفذ فيه وعده ووعيده. أما أهل السنة والأشاعرة فعارضوا هذا الفهم وقالوا : الله وحده الحر المختار، يفعل ما يشاء "لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (الأنبياء 23)، والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف "يُسأل" الناس عن أفعالهم إذا لم يكونوا أحرارا مختارين. وقد حاول الأشعري الهروب من هذا السؤال بالقول إن الإنسان "يكتسب أفعاله" ومن هنا فكرة "الكسب" عند الأشعرية التي وصفت بالغموض الشديد حتى ضرب بها المثل فقيل: "أخفى من كسب الأشعرية". وتندرج هذه القضية في ما يعبر عنه في علم الكلام بـ"المشيئة" وسنخصها بقول لاحقا.

وبناء على هذا الاختلاف في أصول المذهب بين الفريقين قال الزمخشري في شرح الآيات أعلاه، من وجهة نظر المعتزلة: إن المقصود بـ"القول" في الآية رقم 7 ("لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فهم لا يؤمنون") هو قوله تعالى: "لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" (السجدة 13)، مضيفا: لقد تعلق بهم هذا القول وثبت عليهم ووجب لأنهم مصممون على الكفر، وبالتالي يموتون وقد اختاروا الكفر على الإيمان، بعد أن بين الله لهم طريق الجنة وطريق النار، فمن اختار منهم طريق النار حق عليهم قوله

7- قيل: جاء رجل إلى الرسول بعظم حائل ففتته بين يديه وقال: يا محمد يبعث الله هذا بعد ما أرم؟ قال: نعم يبعث الله هذا ويميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم، فنزلت هذه الآيات".

"لأملأن جهنم... " الآية. أما القرطبي فهو يشرح الآية من وجهة نظر أهل السنة كما يلي، قوله تعالى: "لَقَدْ حَقَّ القَوْلُ علــى أكْثَرِهِمْ فَهمْ لا يُؤْمِنُونَ" معناه: "لقــد وجــب العقاب علــى أكثرهم، لأن الله قد حتّــم علــيهم فــي أمّ الكتــاب أنهــم لا يؤمنـــون بـــالله، ولا يصدّقون رسوله! وقد حاول مفكرو الأشاعرة التخفيف من هذه الجبريـــة القاسية بالتماس "فهم" وسط، عبر عنه الرازي في تفسيره كما يلــي ملخــصا: لقــد استمع أكثر مشركي قريش إلى الأدلة والبيانات التي تثبت صحة ما جاء به محمــد= من التوحيد والبعث الخ، ومع ذلك فهم لا يرجى منهم أن يؤمنــوا الآن أو غــدا، لأن الإنسان عندما يستمع إلى أدلة التوحيد يتوقف برهة من الزمن ليتأمل تلــك الأدلـــة. وهذه البرهة من الزمن يسمونها "مهلة النظر"، وهي مهلة يرجى أن تنتهي بالنــاظر في تلك الأدلة إلى قرار. فإذا مرت هذه المهلة وانقضت ولم يؤمن فمعنى ذلــك أنـــه مُصِرّ على عدم الإيمان. ولأن قريشا لم يؤمنوا عندما انتهت "مهلة النظر" حق القـــول فيهم بأنهم كفار. فإذا قالوا لن نومن حتى نرى الله، أو نرى قيام الساعة الـــخ، فهـــم يرفضون الدليل والبرهان ويطلبون العيان (المعاينة)، أي قيام القيامة والحساب مثلا! "وعند العيان لا يفيد الإيمان" لأن الإيمان بالبعث يكون قبل البعث أي قبل قيام القيامة، أما إذا قامت القيامة فقد قضي الأمر ولا يبقى إلا الحساب. والهدف من هذا النوع من التأويل هو -كما قلنا- تجنب الشبهة التي تنسُب امتناعهم عن الإيمان إلى الله تعالى. ونحن نرى أن هذا النوع من الاستلال لا يساعد على الفهم بل يحــول دونـــه. ومـــا ذكرناه في النص هو أقرب إلى فهم الخاصة والعامة سواء بسواء. وهذا الـــذي قالـــه الرازي يلزم عنه نفي "التوبة" وهي لا تكون إلا بعد انتهاء "مهلة النظر"، فـــإذا قـــال تكون بعد تجدد النظر وقع في الدور أو التسلسل، وهما محالان عند المتكلمين.

هذا على مستوى "التفسير بالمعقول"، أما "التفسير بالمنقول" فيمدنا بالروايات التالية (نقلا عن القرطبي)، قال : إن الآيات الأربع التي نحن بصددها "قيل نزلت فـــي أبي جهل ابن هشام وصاحبيه المخزوميين؛ وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمـــداً يصلّي ليرضخنّ رأسه بحجر؛ فلما رآه ذهب فرفع حجراً ليرميه، فلما أومأ إليه رجعت يده إلى عنقه، والتصق الحجر بيده، قاله ابن عباس وعكرمة وغيرهما؛ فهـــو علـــى هذا تمثيل أي هو بمنزلة من غُلّت يدُه إلى عنقه. فلما عاد (أبو جهل) إلـــى أصـــحابه أخبرهم بما رأى، فقال الرجل الثاني وهو الوليد بن المغيرة: أنا أرضَخ رأسه (يعنـــي رأس النبي عليه السلام). فأتاه وهو يصلّي على حالته ليرميه بـــالحجر فـــأعمى الله بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نـــادوه فقـــال: والله ما رأيته ولقد سمعت صوته. فقال الثالث: والله لأشدخنّ أنا رأسه. ثم أخذ الحجر وانطلق، ثم رجع القهقرى ينكص على عقبيه حتى خَرَّ على قفاه مغشيّا عليه. فقيـــل

له: ما شأنك؟ قال شأني عظيم رأيت الرجل (محمدا) فلما دنوت منه وإذا فَحْل (حيوان ذكر قوي) يَخطِر (يضرب) بذَنبه، ما رأيت فحلا قط أعظم منه، حـال بينـي وبينـه، فواللاتِ والعُزّى لو دنوت منه لأكلني. فأنزل الله تعالى: "إنّا جَعَلْنَا فِيّ أعْنَـاقِهِمْ أغلالا فهي إلَى الأذقان فَهُم مُقْمَحُونَ" . ويضيف القرطبي: "وقال محمد بـن إسـحاق فـي روايته: جلس عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل وأمية بن خلف، يراصـدون النبـي صلى الله عليه وسلّم ليبلغوا من أذاه؛ فخرج عليهم، عليه السلام، وهو يقـرأ "يـس" وفي يده تراب فرماهم= به وقرأ: "وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَـدًّا وَمِـنْ خَلْفِهِـمْ سَـدًّا فَأَغْشَيْنَـاهُمْ فَهُمْ لايُبْصِرُونَ" فأطرقوا حتى مـرّ علـيهم عليـه السـلام، أي غطينـا أبصارهم".

وفي رأينا أن هذا النوع من التفسير بـــ "خرق العـادة" لا أصـل لـه فـي القرآن. لقد تحدث القرآن بتفصيل عن معجزات موسى وعيسى (وهي من هذا القبيل) وبالمقابل حصر معجزة نبينا عليه الصلاة والسلام في القرآن. ومن جملة الآيات التي كررت هذا المعنى، ما ورد في سورة العنكبوت، وهي آخـر سـورة نزلـت بمكـة، وبالتالي يمكن اعتبارها ختما للجدل مع قريش حول هـذا الموضـوع. قـال تعـالى: "وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ! قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَـذِيرٌ مُبِـينٌ. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَرَحْمَـةً وَذِكْـرَى لِقَـوْمٍ يُؤْمِنُونَ. قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا، يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْـأَرْضِ، وَالَّـذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" (50-52).

وواضح أننا هنا أمام إغلاق نهائي لمسألة إمكانية تخصيص خـاتم النبيـين والمرسلين بمعجزة من جنس ما طالبت به قريش. لقد قررت الآية أن القـرآن كـاف وحده كمعجزة للنبي عليه السلام، ثم أنهت الجدل في الموضوع بأن خاطبت النبي أن: "قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا". وقد أفصح النبي عليه السلام عن هذا المعنى فـي حديث ورد في صحيح مسلم، قال فيه: "«مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيَ إلاَّ قَـدْ أُعْطِـيَ مِـنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيا أَوْحَى الله إلَيَّ، فَـأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

42- سورة الفرقان

- تقديـــم

لم يذكر المفسرون ولا المؤلفون في أسباب النزول مناسبة أو سببا لنزول هذه السورة ككل. ولكنهم ذكروا عدة روايات تخص آيات منها، أعني أنها وقائع تصلح أن تكون تفسيرا لها دون أن تكون سببا لنزولها، كما يمكن أن تكون تلك الوقائع قد حدثت بالفعل وأن النبي عليه السلام سمع بها أو كان قد سئل عن بعضها فنزلت هذه السورة بعد ذلك بمدة قصيرة أو طويلة وفيها آيات تجيب عنها. إن هذا يعني أنه ليس هناك ما يربط هذه السورة ككل ولا آيات منها بتاريخ معين. ولكن طابعها العام يجعل منها سورة تنتمي بامتياز إلى هذه المرحلة، مرحلة الرد على قريش والتعرض لأصنامهم الخ. وما يهمنا هنا من ذكر هذه الروايات هو أنها تعطينا فكرة واضحة عن اللقاءات التي كانت للنبي عليه السلام مع قريش وأنواع الأسئلة التي كانوا يطرحون عليه. ولا شك أن ما تذكره الروايات التالية من أحاديث وأسئلة واستفسارات واعتراضات لم تحدث مرة واحدة ولا في أيام متقاربة، بل لا بد أن تكون قد حصلت متفرقة، خصوصا وبعضها يشير إلى آيات لم تكن قد نزلت وقت نزول هذه السورة. فمن أجل التعريف بالجانب "السلمي" الذي كان يطبع في الغالب علاقة الرسول بخصوم الدعوة المحمدية قبل هذه السورة نورد هذه الروايات. أما "الجوانب السلبية" المطبوعة بالعدوان والاضطهاد والاستهزاء فقد أشرنا إلى بعضها من قبل وسنتحدث عنها في مناسبة لاحقة.

من الوقائع التي ربطها المفسرون والمؤلفون بآيات من هذه السورة ما يلي:
قالوا في قوله تعالى "وَيومَ يَعَضُّ الظالمُ عَلى يَدَيهِ" : "كان أُبَيّ بن خلف يحضر النبي صلى الله عليه وسلم ويجالسه ويستمع إلى كلامه من غير أن يؤمن به، فزجره عقبة بن أبي معيط عن ذلك فنزلت هذه الآية. وفي رواية أخرى "كان عقبة خليلاً لأمية بن خلف، وحدث أن أسلم عقبة فقال له أمية: وجهي من وجهك حرام إن تابعت محمداً! كفر عقبة وارتد لرضا أمية، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية. وفي رواية ثالثة: "أن أُبَـيَّ بن خلف وعقبة بن أبي معيط كانا متحالفين وكان عقبة لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً فدعا إليه أشراف قومه وكان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم. فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاماً فدعا الناس ودعا رسول الله صلى الله عليه

وسلم إلى طعامه، فلما قرب الطعام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أنا بآكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله. فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من طعامه. وكان أبـيّ بن خلف غائباً، فلما أخبر بقصته قال: صبأت (يعني تركت دين قومك) يا عقبة؟ فقال: والله ما صبأت، ولكن دخل عليّ رجل فأبى أن يطعم من طعامي إلا أن أشهد له فاستحيت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت فطعِم. فقال أبيّ: ما أنا بالذي رضي منك أبداً إلا أن تأتيه فتبزق في وجهه وتطأ عنقه! ففعل ذلك عقبة : فأخذ رحم دابة فألقاها بين كتفيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف". وتضيف الرواية: "فقتل عقبة يوم بدر صبرا (ضرب بالسيف وترك حيا حتى يموت).

وذكروا في شأن قوله تعالى : "وَالَّذِينَ لا يَدعونَ مَعَ اللهِ إلَهاً آخَرَ" إلى "غَفوراً رَّحيماً"... أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً عليه الصلاة والسلام فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحَسَن لو تخبرنا أنا لما علمنا -يعني وقد سمعوا آيات الوعيد- لمن يعمل تلك الأعمال وإلا فمن أين علموا أن تلك الأعمال جرائم وهم في جاهلية كفرة، فنزلت (وَالَّذينَ لا يَدعونَ مَعَ اللهِ إلَهاً آخَرَ) الآيات. وفي رواية أخرى أن أحدهم سأل النبي عليه السلام: "أيُّ الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قال: قلت ثم أيٌّ؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قال: قلت ثم أيٌّ؟ قال: أن تزاني حليلة جارك. فأنزل الله تعالى تصديقاً لذلك "وَالَّذينَ لا يَدعونَ مَعَ اللهِ إلَهاً آخَرَ وَلا يَقتُلونَ النفسَ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إلّا بالحَقِّ وَلا يَزنونَ". وفي أخرى أن أحدهم "أتى وحشي (وفزع) إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد أتيتك مستجيراً فأجرني حتى أسمع كلام الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد كنت أحب أن أراك على غير جوار، فأما إذ أتيتني مستجيراً فأنت في جواري حتى تسمع كلام الله، قال: فإني أشركت بالله وقتلت النفس التي حرم الله تعالى وزنيت، هل يقبل الله مني توبة؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل "وَالَّذينَ لا يَدعونَ مَعَ اللهِ إلَهاً آخَرَ وَلا يَقتُلونَ النفسَ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إلّا بالحَقِ وَلا يَزنونَ" إلى آخر الآية، فتلاها عليه فقال: أرى شرطاً فلعلي لا أعمل صالحاً وأنا في جوارك حتى أسمع كلام الله، فنزلت "إنَّ اللهَ لا يَغفِرُ أن يُشرَكَ بِهِ وَيَغفِرُ ما دونَ ذَلِكَ لِمَن يَشاءُ"، فدعا به فتلاها عليه فقال: ولعلي ممن لا يشاء؟ أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله، فنزلت "قُل يا عِبادِيَ الَّذينَ أسرَفوا عَلى أنفُسِهِم لا تَقنَطوا مِن رَّحمَةِ اللهِ". فقال: الآن لا أرى شرطاً، فأسلم.

وفي رواية أخرى: "قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: إن شئت أعطيناك مفاتيح الأرض وخزائنها لا ينقصك ذلك عندنا شيئا في الآخرة وإن شئت جمعتهما لك في الآخرة قال: بل اجمعهما لي في الآخرة، فنزلت "تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك" الآية. وفي أخرى: "قال المشركون إن محمدا، كما يزعم، نبي! فلم يعذبه ربه؟ ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة، فيُنزل عليه الآية والآيتين، فأنزل الله: وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة".

أما في شأن قوله تعالى : "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا (القرآن) إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ"، فقد ذكروا أن المقصود بهم هم الآتية أسماؤهم : "عداس مولى حويطب بن عبد العزى، ويسار (غلام عامر) بن الحضرمي، وجبر مولى عامر، وهؤلاء (الموالي) الثلاثة كانوا من أهل الكتاب، وكانوا يقرؤون التوراة ويحدثون أحاديث منها". وذكروا أن أشراف قريش اجتمعوا ذات ليلة بظهر الكعبة، وعرضوا عليه أشياء، وسألوه الآيات. فكان فيما كلموه به : "أن قالوا له: فإن لم تفعل لنا هذا، يعني ما سألوه من تسيير جبالهم عنهم، وإحياء آبائهم، والمجيء بالله والملائكة قبيلاً، وما ذكره الله في سورة بني إسرائيل، فخذ لنفسك، سلْ ربك يبعثْ معك ملكا يصدّقك بما تقول ويراجعنا عنك، وسَله فيجعل لك قصورا وجنانا وكنوزا من ذهب وفضة، تغنيك عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش -كما نلتمسه- حتى نعلم فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "ما أنا بفاعِلٍ".

- نص السورة

1- مقدمة: شجب الشرك وعبادة الأصنام.

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَارَكَ (كثر خيره) الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ (محمد) لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا[1]، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا[2]. (أما قريش) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ، وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا[3].

2- اتهامهم النبي بافتراء القرآن، وتعييره بكونه يأكل الطعام ...

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا (القرآن) إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ! فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا[4]. وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا، فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا[5]! قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا[5]. وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ؟ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا[6]، أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا! وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا[8] (انظر التقديم). انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا[9] (إلى الفهم والإيمان). تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا[10].

3- كذبوا بالبعث: وجاء الرد بمشاهد من الجنة والنار.

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ (بيوم القيامة)، وَأَعْتَدْنَا (أعددنا) لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا[11]، إِذَا رَأَتْهُمْ (النار السعير) مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا[12]. وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا(1) ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ (مقيدين) دَعَوْا (تمنوا) هُنَالِكَ ثُبُورًا[13] (هلاكا)! (يقال لهم) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا[14]. قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ؟ كَانَتْ لَهُمْ (للمتقين) جَزَاءً وَمَصِيرًا[15] : لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ، كَانَ (هذا) عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا[16]. وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ (من الملائكة) فَيَقُولُ (الله لهؤلاء الملائكة) : أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ[17]؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا[18] (هالكين). فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ (كذبكم الملائكة) بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا (دفعا للعذاب عنهم) وَلَا نَصْرًا (لأنفسهم). وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ (يا مشركي قريش) نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا[19]. وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ! وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً، أَتَصْبِرُونَ(2)!؟ وَكَانَ رَبُّكَ

1- المعنى: إذا كانت النار منهم بعيدة سمعوا صوت غلياتها، وإذا ألقوا فيها وجدوا مكانا ضيقا.

2- اختلف تفسير الطبري لهذه الآية عن تفسير الزمخشري : فالطبري يقول بصددها: "وامتحناكم أيها الناس بعضكم ببعض، جعلنا هذا نبيًا وخصصناه بالرسالة، وهذا ملكا= وخصصناه بالدنيا، وهذا فقيرا وحرمناه الدنيا، لنختبر الفقير بصبره على ما حُرِم مما أعطيه

بَصِيرًا[20]. وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا؟ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا[21] (تجاوزا الحد). يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ (يوم القيامة) لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ: حِجْرًا مَحْجُورًا[22] (3)، وَقَدِمْنَا (قصدنا) إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنثُورًا[23]: أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا[24]، وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا[25]. الْمُلْكُ -يَوْمَئِذٍ- الْحَقُّ لِلرَّحْمَانِ، وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا[26]. وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ : يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا[27]، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا[28]. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا[29].

4- الرسول يشتكي! والرد: كذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين.

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا[30] (كذبوا به وأعرضوا عنه! وجاء الجواب): وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنْ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا[31]. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا (هلا) نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً! كَذَلِكَ (لم ننزله مرة واحدة) لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا[32] (4).

الغنيّ، والملك بصبره على ما أعطيه الرسول من الكرامة، وكيف رضي كل إنسان منهم بما أعطى وقسم له، وطاعته ربه مع ما حرم مما أعطى غيره : فمن أجل ذلك لم أعط محمدا الدنيا، وجعلته يطلب المعاش في الأسواق، ولأبتليكم أيها الناس، وأختبر طاعتكم ربكم وإجابتكم رسوله إلى ما دعاكم إليه بغير عَرَض من الدنيا ترجونه من محمد أن يعطيكم على اتباعكم إياه، لأني لو أعطيته الدنيا، لسارع كثير منكم إلى اتباعه طمعا في دنياه أن ينال منها". أما الزمخشري ففسر الآية كما يلي: "يقول: وجرت عادتي وموجب حكمتي على ابتلاء بعضكم أيها الناس ببعض: إنه أبتلى المرسلين بالمرسَل إليهم، وبمناصبتهم لـــهم العداوة، وأقاويلـــهم الخارجة عن حدّ الإنصاف، وأنواع أذاهم، وطلب منهم الصبر الجميل". وواضح عند المقارنة أن الطبري تجاوز السياق إلى تكريس نوع من "ليس في الإمكان أبدع مما كان" كقانون يحكم الفقر والغنى وما إلى ذلك. أما الزمخشري فقد حصر المسألة في سياق صراع النبي عليه السلام مع قريش. وبالتالي فالآية عنده لا تقرر حكما عاما وإنما هي محصورة في مجال ما دعاه : "وهذا تصبير لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما قالوه واستبدعوه، من أكلـــه الطعام ومشيه في الأسواق بعد ما احتج عليهم بسائر الرسل".

3- قيل : كان الرجل، في الجاهلية، إذا رأى الرجل الذي يخاف منه القتل في الأشهر الحرم يقول: "حجرا محجورا"، أي حرام عليك التعرض لي في هذا الشهر، فلا يبدؤه بشر.

4- مما قيل في ذلك: "كان القرآن ينزّل عليه جوابا لقولهم: ليعلم محمد أن الله يجيب القوم بالحق عما يقولون. ويعني بقوله: لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ لنصحح به عزيمة قلبك ويقين نفسك،

ولَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ (يعترضون به على القرآن) إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا[33]. (هؤلاء المشركون المعترضون) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ، أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا[34] (مكانهم في جهنم أكثرا شرا كما كان سبيلهم في الدنيا أكثر ضلالا).

5- تذكير بأقوام كذبوا رسلهم... وقريش كالأنعام أو أضل سبيلا!

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا[35]، فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا[36] (بإغراقهم في البحر). وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا[37]. وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا (أممًا) بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا[38]. وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا[39] (مزقنا وأهلكنا). وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ(5). أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا (في طريقهم) بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا[40] (بعثا). وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ (ما) يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا (يستهزئون، ويقولون) أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا[41]؟ إِنْ (إنه) كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا (ثبتنا) عَلَيْهَا. وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا[42]! أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا[43]، أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا[44]!

6- آيات تدل على أنهم لا يعقلون... وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا!

أَلَمْ تَرَى إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ (جعله طويلا في الصباح) وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا! ثُمَّ جَعَلْنَا (حركة) الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا[45]، ثُمَّ قَبَضْنَاهُ (في الظهر) إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا[46]؟ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا[47]، وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا[48]، لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا[49]. وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ (الماء) بَيْنَهُمْ (في الوديان) لِيَذَّكَّرُوا (ليعتبروا) فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا[50]. وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا[51]. فَلَا تُطِعْ الْكَافِرِينَ، وَجَاهِدْهُمْ بِهِ

ونشجعك به. وقوله وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا يقول: وشيئا بعد شيء علمناكهُ حتى تحفظنه. والترتيل في القراءة: الترسل والتثبت" (الطبري).

5- قريش تمر في طريقها إلى الشام للتجارة على إحدى تلك القرى التي أهلك الله أهلها بالمطر القوي. يقال هي قرية سدوم، سكنى قوم لوط.

(القرآن) جِهَادًا كَبِيرًا[52]. وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ (خلط ماء الأنهار بماء البحار): هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ (عذب) وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ (شديد المرورة)! وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا[53]، (لا البحر يغزو الأنهار فتصبح مالحة، ولا العكس)، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ (الْمَنِيِّ) بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا[54]. (ومع ذلك) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ! وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا[55] (حليفا للشيطان ضده).

7- قل ما أسألكم على القرآن أجرا إلا إيمانكم به.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا[56]! قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا[57] (فإيمانه هو أجري). وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا[58]. الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، (إنه) الرَّحْمَانُ! فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا[59] (من يعرف الدين، أهل التوراة أو جبريل). وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَانِ، قَالُوا وَمَا الرَّحْمَانُ؟ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا؟ (من غير أن نعرفه)، وَزَادَهُمْ نُفُورًا[60] (لأن مسيلمة الحنفي خصمهم القبلي التاريخي "ربيعة"، شرق الجزيرة، كان يدعو الله "الرحمان") تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا (منازل النجوم) وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا (الشمس) وَقَمَرًا مُنِيرًا[61]، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً (أحدهما يخلف الآخر) لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ (يستنتج من ذلك وجود صانع حكيم) أَوْ أَرَادَ شُكُورًا[62] (يعبد الله، فيهما، ويستريح).

8- خاتمة: رفضوا عبادة الرحمان فبين لهم خصال عباد الرحمان!

وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ (هم) الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا[63]، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا[64]، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا[65] (لازما)، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا[66]، وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ (ما ينفقون) بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا[67] (وسطا)، وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا[68]، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا[69] إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا[70]. وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ

يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا[71] (6)، وَالَّذِينَ لايَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا[72]، وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا (لم يتعاملوا معها) صُمًّا وَعُمْيَانًا[73] (بل واعين متدبرين)، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا[74]، أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ (الدرجة العالية في الجنة) بِمَا صَبَرُوا، وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا[75]، خَالِدِينَ فِيهَا، حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا[76]. قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ (ادعاؤكم أن له شركاء) فَقَدْ كَذَّبْتُمْ، فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا[77] (أداء جزاء هذا الكذب) (7).

- تعليق

جمعت هذه السورة جملة من الاعتراضات كان كفار قريش يعترضون بها على النبي عليه السلام فردت عليها بلهجة قوة، وحادة أحيانا. وقد تناولت هذه الردود قضايا تخص العناصر الأساسية التي أكد عليه القرآن في السور السابقة مثل التوحيد والنبوة ومشاهد القيامة، ثم ختمت بتعداد خصال عباد الرحمان، ردا على قريش الذين اعترضوا على هذا الاسم ورفضوا أن يكون من أسماء الله. وقد سبق أن بينا أن مسليمة الحنفي من شرق الجزيرة كان قد تنبأ وسمى إلهه الرحمان، وأن رفض قريش لهذا الاسم قد يرجع إلى التنافس القبلي التاريخي بين "مُضَر" سكان غرب الجزية و"ربيعة" سكان شرقها، وقد فصلنا القول في ذلك في "الاستطراد" الذي ختمنا به المرحلة الأولى (بعد سورة قريش رقم 27). جاء القرآن إذن ليغير هذا التأثير القبلي على تصور قريش لـ"الرحمان"، فجعل الرحمان أحد أسماء الله الحسنى، فأوضح أن عباد الرحمان لا يتحددون بالجغرافيا أو بالتاريخ أو بالانتماء القبلي بل يتميزون بخصال عالية، فقدمت ما يشبه أن يكون دستورا في الأخلاق للمسلمين. قسم منه يخص علاقة الإنسان مع الله، وقسم يتناول علاقة الناس بعضهم ببعض.

6- ذُكروا أن هذه الآية جاءت جوابا لقوم من المشركين أرادوا الدخول في الإسلام، وكانوا قد اقترفوا هذه الذنوب فاستفتَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك". انظر التقديم.

7- اختلف المفسرون في فهم هذه الآية، والذي نختاره أنه خطاب لقريش: والمعنى تلك خصال عباد الرحمان، أما انتم أيها المشركون فربي لا يكترث بكم، لولا أنكم تفترون عليه وتنسبون إليه البنين والبنات شركاء... وتكذبون رسله. من هذه الجهة سيعبأ بكم ويكون الحساب لزاما.

القسم الأول: 1- يشرح معنى العبادة والهدف منها : يعبدون الله وحده لا شريك له.. 2-يخافون عقابه. 3- إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِه لَمْ يعرضوا عنه.
لقسم الثاني: 1-التواضع : "يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا". 2-التسامح: "إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا".3-التوسط في المعاش: "إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا". 4- لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ. 5- لَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ عقابا، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا. 6- لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ... 7- وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا فلا ينساقون معه. 8- يطلبون ذرية صالحة... 9- يجعلون من أنفسهم قدوة للمتقين ونموذجا لهم يحتذى.

هذا ولابد من التذكير هنا بما سبق أن قلناه في الاستطراد الذي ختمنا به سور المرحلة الأولى، والذي خصصناه لألفاظ "الرب، والله، والرحمان". إن استعادة ما قلنا هناك يدفع بنا إلى طرح السؤال التالي: إذا كانت تلك هي خصال "عباد الرحمان" فما هي خصال "عباد الله".

هنا يجب الرجوع إلى معنى "العباد". قال الراغب الأصفهاني في كتابه "مفردات القرآن: "العبودية: إظهار التذلل. والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى. ولهذا قال: "لا تعبدوا إلا إياه" (الإسراء-23).

ثم يضيف: "والعبادة ضربان: عبادة بالتسخير، وهي عامة للمخلوقات، وهي الدلالة الصامتة الناطقة المنبهة على كونها مخلوقة، وأنها من خلق فاعل حكيم، كقوله: "ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون" (النحل-49). وعبادة بالاختيار، وهي لذوي النطق (الإنسان)، وهي المأمور بها في نحو قوله: "اعبدوا ربكم" (البقرة-21)، "واعبدوا الله" (النساء-36).

"والعبد يقال على أربعة أضرب: الأول: عبد بحكم الشرع، وهو الإنسان الذي يصح بيعه وابتياعه، نحو: "العبد بالعبد" (البقرة-178)، و "عبدا مملوكا لا يقدر على شيء" (النحل-75). الثاني: عبد بالإيجاد، وذلك ليس إلا لله، وإياه قصد بقوله: "إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا" (مريم-93). والثالث: عبد بالعبادة والخدمة، والناس في هذا ضربان: [الأول] : عبد *لله مخلص*، وهو المقصود بقوله: "واذكر عبدنا أيوب) (ص-41)، "إنه كان عبدا شكورا" (الإسراء-3)، "تنزل الفرقان على عبده" (الفرقان-1)، "على عبده الكتاب" (الكهف-1)، "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان" (الحجر -42)، "كونوا عبادا لله" (آل عمران-79)، "إلا عبادك منهم المخلصين" (الحجر-40)، "وعد الرحمن عباده بالغيب" (مريم-61)، "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا" (الفرقان-63)، "فأسر بعبادي ليلا" (الدخان -23)،

"فوجدا عبدا من عبادنا" (الكهف-65). و[الثاني] عبد *للدنيا وأعراضها*، وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها، وإياه قصد النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: "تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار".

"وعلى هذا النحو يصح أن يقال: ليس كل إنسان عبدا لله، فإن العبد على هذا بمعنى العابد، لكن العبد أبلغ من العابد، والناس كلهم عباد الله بل الأشياء كلها كذلك، لكن بعضها بالتسخير وبعضها بالاختيار، وجمع العبد الذي هو مسترق: عبيد، وقيل عبدَى، وجمع العبد الذي هو العابد عباد، فالعبيد إذا أضيف إلى الله أعم من العباد. ولهذا قال: "وما أنا بظلام للعبيد" (ق-29)، فنبه أنه لا يظلم من يختص بعبادته ومن انتسب إلى غيره من الذين تسموا بعبد الشمس وعبد اللات ونحو ذلك".

تخلص من هذه التحديدات أن الفرق بين "عباد الرحمان" و"عباد الله" يتحدد باتجاه العلاقة بين الخلق والخالق: فاتجاه العلاقة في قولنا "عباد الله" هي من الخلق إلى الخالق: المخلوق يعبد الله بالتسخير أو بالاختيار. أما في قولنا: "عباد الرحمان" فاتجاه العلاقة هو من "الرحمان الرحيم" إلى المرحوم. ومن هنا كانت خصال "عباد الرحمان" تقتضي الاقتداء بصفات الرحمان وتتلخص في سلوك "الرحمة" بمخلوقات الله. وفي الحديث: "ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء".

45- سورة فاطر

- تقديــــم

وردت أخبار عن ما قيل إنه من "أسباب" نزول هذه السورة، ونحـــن نـــدرج بعض هذه الروايات لأنها تعبر عن جوانب من حياة النبي الاجتماعية وعــن بعــض الأسئلة التي كانت تطرح عليه. وهي في الجملة من نوع الأسئلة التي ما زال البـــدو يطرحونها في مثل هذه الأحوال: أقصد أنهم يفعلون ذلك بالفطرة وبدون تعقيــدات أو "بروتوكول". عن ابن عباس قال : "نزلت هذه الآية: "أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَـرَآهُ حَسَنًا، فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ. فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَـسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ" (الآية 8) حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهــم أعــز دينك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام فهدى الله عمر وأضل أبا جهل، ففيهما أنزلت. ومعنى هذا أن هذه السورة نزلت قبيل إسلام عمر في وسط الـسنة الخامــسة للنبوة. ومما روي بصدد آيات هذه السورة أن رجلا قال: يا رسول الله إن النوم ممــا يقر الله به أعيننا في الدنيا فهل في الجنة من نوم؟ قال : لا، إن النوم شريك المــوت، وليس في الجنة موت. قال فما راحتهم؟ فأعظم ذلك رسول الله صلى الله عليه وســلم وقال : ليس فيها لغوب كل أمرهم راحة، فنزلت: "وَقَالُوا (أهل الجنة) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّــذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ، الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ (الجنة) مِنْ فَضْلِهِ لَــا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ (تعب) وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (إعياء) (34-35).

هذا من جهة ومن جهة أخرى قيل إن قريشا كانت تقول (قبل بعثة محمـــد) : "لو أن الله بعث فينا نبيا ما كانت أمة أطوع لخالقها ولا أسمع ولا أشد تمسكا بكتابهـــا منا، فأنزل الله "وَأَقْسَمُوا (قريش) بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُــونُنَّ أَهْــدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ" (اليهود) وكانت اليهود تستفتح بالنبي الجديد (تستقوي بمجيئه علـــى خصومهم لأنهم كانوا يجدون ذلك في كتبهم)، فيقولون : "إنا نجــد نبيــا". وتــضيف الآية: "فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا، اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ الـسَّيِّئِ، وَلَـــا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ".

- نص السورة

1- مقدمة: الله يرسل الرسل، وما يفتح من الرحمة فلا ممسك لها...

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ (خالق) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ، مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ(1). يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[1]. مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا، وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ (القوي) الْحَكِيمُ[2] (يتصرف بحكمة).

2- نعمة الخلق والإيجاد ... ونعمة الرزق من السماوات والأرض.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ: هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ، يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (2). لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ[3] (تنصرفون). وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ[4] يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ[5] (الشيطان: وظيفته التغرير). إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ[6] (جهنم). الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ[7]. أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا(3)، فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ[8]. وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، كَذَلِكَ النُّشُورُ[9] (البعث: يخرج الناس من القبور كما يخرج النبات من الأرض بعد المطر). مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا،

1- من الملائكة من له جناحان ومنهم من له ثلاثة ...

2 -الرازي: نعمة الله مع كثرتها منحصرة في قسمين نعمة الإيجاد، ونعمة الإبقاء. فقال تعالى: "هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ" إشارة إلى نعمة الإيجاد في الابتداء. وقال تعالى: "يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ" إشارة إلى نعمة الإبقاء بالرزق إلى الانتهاء.

3- المعنى: أيكون الذين كفروا والذين آمنوا وعملوا الصالحات متساويين: أيكون الذي زين الشيطان له الكفر فسار عليه كمن لم يغتر بالشيطان فاجتنب الكفر؟ يشهد لهذا المعنى قوله : "أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ" (محمد: 14).

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ (يرفع قيمته) (4). وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ (المؤامرات) لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ[10] (يفسد). وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ (آدم)(5) ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا، وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ، وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ. إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ[11]. وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ(6) (يكسر العطش) سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ (شديد الملوحة) وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا (السمك) وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً (لؤلؤا) تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ (بالتجارة) وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[12]. يُولِجُ (يدخل) اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ. وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ (الأصنام) مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ[13] (لفافة النواة)؛ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ (يتبرؤون من إشراككم لهم في الألوهية مع الله)، وَلَا يُنَبِّئُكَ (بحقيقة الأمر) مِثْلُ خَبِيرٍ[14] (الله).

3- لا تزر وازرة وزر أخرى، وما أنت بمسمع من في القبور!

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ[15]. إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ[16]، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ[17]. وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَإِنْ تَدْعُ (نفس رجل) مُثْقَلَةٌ (بوزرها) إِلَى حِمْلِهَا (أحدا إلى مساعدتها عليه) لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى، إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ. وَمَنْ تَزَكَّى (تطهر من الشرك) فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ[18]. وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ[19]، وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ[20]، وَلَا

4- "كان كفار مكة يقولون نحن لا نعبد من لا نراه ولا نحضر عنده، لأن البعد من الملك ذلة، فقال تعالى: إن كنتم لا تصلون إليه، فهو يسمع كلامكم ويقبل الطيب، فمن قُبِل كلامه وصعد إليه فهو عزيز ومن رُدَّ كلامه في وجه فهو ذليل، وأما هذه الأصنام فلا يتبيَّن عندها الذليل من العزيز إذ لا علم لها، فكل أحد يمسها" (الرازي).

5 - الخلق من تراب (أو من الطين) يفسر في الفهم "العلمي" القديم على مثال تكوُّن الدود في التراب والطين ...

6- أصل البَحر (في اللغة) كلُّ مكانٍ واسعٍ جَامعٍ للمَاءِ الكَثيرِ، ويصدق هذا على الأنهار الكبرى مثل النيل والفرات.

الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ[21] (الجنة والنار)، وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ، إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ، وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ[22] (الكفار المعرضون لا يسمعون، هم كالموتى فلا تأسف لعدم استجابتهم). إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ[23]. إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ[24]. وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ (صحف كصحف موسى) وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ[25] (التوراة)، ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ[26] (أنت تعرف العقاب الذي نزل بهم)! أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ (ألم ترى في الجبال طرقا شقت ملونة بلون الصخر) بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ (صخور) سُودٌ[27]، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ (ألم ترى فيها ما هو) مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ. إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (الذين يلاحظون ما في الكون من كائنات بديعة دالة على صانعها)، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ[28]. إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ[29]، لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ[30].

4- الناس ثلاثة: مقصر غير ملتزم، ملتزم مقتصد، مسابق للخيرات..

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ (الدين) هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ (من الديانات السماوية) إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ[31]. ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ (أي هذا الدين لهؤلاء) الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا (أي من بلغته الدعوة إلى الإسلام) فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ (لا يلتزم به) وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ (لا يتجاوز الواجبات)، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ[32]: جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ[33]. وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ[34]، الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ (الجنة) مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ (تعب) وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ[35] (إعياء). وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا. كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ[36]. وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ (يصرخون مستغيثين) فِيهَا (في جهنم، قائلين): رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ. (يقال لهم) أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا (زمنا كافيا) يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ (خصوصا) وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ. فَذُوقُوا، فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ[37]. إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ

الصُدُور[38]. هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا (كرها وغضبا)، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا[39].

5- ماذا خلق شركاؤكم ... يؤخرهم إلى أجل مسمى!

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الْأَرْضِ؟ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ؟ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ؟ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ (المشركون) بَعْضُهُمْ بَعْضًا (بشفاعة أصنامهم) إِلَّا غُرُورًا[40] (باطلا). إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ (=ما) أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا[41]. وَأَقْسَمُوا (قريش) بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ (اليهود)، فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا[42]، اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ، وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ. فَهَلْ يَنْظُرُونَ (ينتظرون) إلا سُنَّةَ الأَوَّلِينَ (إهلاكهم كما أهلك الأولون)؟ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا[43]. أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (من قوم عاد وثمود الخ) وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً! وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا[44].

6- خاتمة : ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا لانقرضوا منذ البداية.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ (المقصود الإنسان منذ آدم الذي كان أول من عصى) بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ (من نفس). وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا[45] (يغفر ذنوب من تاب، ويوازن بين الحسنات والسيئات).

- تعليق

بدأت السورة بطرح العلاقة بين الله والعالم وفي مركزه الإنسان. الله خالق العالم فهو الإله ولا إله غيره: إنه مشرف على العالم ومدبر لأموره. هو في السماء العليا يرسل الملائكة بالعدد المطلوب تنزل بالوحي وغيره، فيفتح من الرحمة بالقدر الذي يراه مناسبا للإنسان، والرحمة تشمل الوحي والعلم والمعرفة والحياة وبما به قوامها.

وانطلاقا من هذه المقدمة تعرض السورة بواسطة خطاب جدلي موجه إلى قريش كيف أن الله أنعم عليهم نعمتين: نعمة الإيجاد، إذ لم يكونوا شيئا فخلقهم بشرا يسمعون ويبصرون ويفهمون ويعقلون فيسِمُوْن على غيرهم من الكائنات. ونعمة الرزق، خلق لهم ما به قوام حياتهم من المأكل والملبس وسخر مخلوقات أخرى كثيرة لفائدتهم، وجعل الظواهر الطبيعية كتعاقب الليل والنهار الخ لفائدتهم... وإذن فمن الواجب عليهم أن يعترفوا بهذه النعم وأن لا يكفروا بها، ولا يليق بعقلاء مثلهم أن يعبدوا أصناما ويجعلوها شركاء لله وهم يعرفون أنها من صنع أيديهم وأنها لا تضر ولا تنفع ولا تشفع، بل لا تسمع ولا تبصر... مثل هذا الكفر والجحود ظلم للنفس وظلم للنعم ولذلك لابد من حسابهم، وسيكون ذلك بعد قيام القيامة التي يكذبون بها ظلما. ألا يعرفون أن الله الذي خلقهم وأنعم عليهم لم يفعل ذلك عبثا، بل ليبلوهم ويختبرهم، ثم يجازيهم يوم الحساب حيث "لا تزر وازرة وزر أخرى" لا أحد يحمل ذنوب غيره ولا أحد يحاسب عليها غير مقترفها...

ثم تتوجه السورة بالخطاب إلى الرسول لتسليه وتثبت فؤاه وتقوي عزيمته طالبة منه الصبر والمثابرة ومواصلة تبليغ رسالته. أما كونهم يكذبونه ويرفضون الاستجابة لدعوته فذلك ما حصل للأنبياء السابقين الذي خاضوا معارك الفهم والإفهام مع أقوامهم، وكان النصر حليفهم في نهاية الأمر؟ أما المصرُّون على العناد والتكذيب والذين بلغ بهم الاستكبار أن تآمروا على رسلهم مخططين لقتلهم فقد جاءهم الهلاك من عند الله، إما بواسطة كوارث طبيعية أو بوضعهم في موضع يجعل الهلاك حتما عليهم.

أما غير هؤلاء الذين كذبوا وأعرضوا، ففضلوا الهدى على الضلال فآمنوا وانكبوا على عمل الصالحات، فمنهم متهاون مقصر، ومنهم من اقتصر على ما يجب، ومنهم السباقون إلى عمل الخير.

وتختم السورة بالرد على سؤال طالما طرحه خصوم الدعوة المحمدية، سؤال فيه نوع من التحدي، يقولون: أين هذا الوعد والوعيد الذي يكرره علينا محمد؟ ويأتي الجواب: الأمر يتعلق بحساب وجزاء مؤجل إلى أجل، الله وحده يعرفه. ولو أن الله أردف الحساب والجزاء بكل فعل يفعله الناس لما بقي على الأرض أحد. إن آدم أول من عصى، ولو عاقبه الله يوم عصى لا انقطع وجود البشر. ولكن ألهمه التوبة فتاب عليه، وترك بني آدم يتناسلون، -ومعهم الكائنات الأخرى لأنها خلقت ليسخروها في حياتهم- وذلك من أجل أن يتيح لذرية آدم فرصة الحياة بدون تكرار خطيئة آدم ولا الشعور بثقلها. فالتوبة محتها، والتوبة تمحي ذنوب كل من تاب واستقام.

44- سورة مريم

- تقديـــم

رتبت هذه السورة -سورة مريم- قبل سورة طه. وتفيد الروايـــات أن هـــذه الأخيرة نزلت قبيل إسلام عمر بن الخطاب، وكان إسلامه ما بين الخامسة والـــسادسة من البعثة. وبالتالي تكون سورة مريم قد نزلت خلال السنة السادسة، أي في ظـــروف الهجرة إلى الحبشة. وفي هذه الحالة يمكن أن يكون جعفر بن أبي طالب -الذي كـــان على رأس المهاجرين إلى الحبشة كما سنرى- قد أخذ معه هذه الـــسورة (حفظـــا أو مكتوبة) فالروايات تؤكد أنه قرأها أو قسما منها على النجاشي (ملك الحبـــشة الـــذي كان مسيحيا) عندما سأله عما يقول القرآن الكريم عن مريم،[1] وبالتالي عن طبيعـــة عيسى الذي تقول عنه النصارى إنه ابن الله. هذا وتضم السورة أجزاء مـــن قـــصص أخرى مما يدخل في موضوعها المركزي، موضوع التوحيد وإبطال الشرك.

ربما كان من المفيد التذكير بأننا نقتصر هنا على القصص الواردة في القرآن المكي، خصوصا وقصة مريم قد ورد قسم منها في القرآن المكي وقسم فـــي القـــرآن المدني. وقد سبق أن قلنا إن للقرآن في القصص التي يعرضها زمانا خاصا بـــه هـــو زمان الدعوة. أما زمان القصة المفترض فيه أن يكون موازيا للزمن الطبيعـــي فهـــو جملة أحداث يذكر منها القرآن في كل مقال ما يناسب المقام. ومقام الدعوة في مكـــة غير مقام الدولة في المدينة، وما يناسب تطور الدعوة قد يختلف عما يناسب تطـــور الدولة. وهكذا فما ذكرته هذه السورة من قصة مريم لا يخص مـــريم بمفردهـــا بـــل يخص عيسى ابنها أيضا، وبالتحديد حملها به من غير أن يَمسسْها بشر، كما سنرى. والهدف إبراز هذا الجانب/المعجزة في القصة كبرهان على"التوحيد" ضدا على الشرك، سواء اتخذ شكل عبادة الأصنام كما هو حال قوم إبراهيم ومن سار على دربهـــم، أو شكل ادعاء أن لله ولدا، بما في ذلك تثليث النصارى وعبادة الملائكة بوصـــفها بنـــات الله كما كان الحال عند العرب.

1- انظر التفاصيل في التعريف بالقرآن الفصل الثاني.

- نص السورة

1- مقدمة: زكريا الشيخ يطلب ابنا: يئس من الإنجاب وامرأته عاقر.

بسم الله الرحمن الرحيم

كهيعص[1] (هذا) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا[2] (2)، إِذْ نَادَى (زكريا) رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا[3]، قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي (ضعفت صحتي) وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ (بدعائي إياك من قبل) رَبِّ شَقِيًّا[4] (خائبا). وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ (الذين يلونني في النسب مثل بني العم) مِنْ وَرَائِي (بعد موتي، أن يبدلوا الدين) وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا (منذ زمن الشباب) فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا[5] (ولدا، على غرار ما نقول : ولي العهد)، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا[6].

2- الله يستجيب ويبشره بغلام أتاه الحكمة والنبوة؟

(فأجابه الرب) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا[7] (3). قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا[8] (نهاية السن)! قَالَ: كَذَلِكَ (سيكون)! قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا[9]. قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً (علامة عندما تحمل امرأتي) قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا[10]. فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ (المسجد) فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ (أشار إليهم) أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا[11]. (ولد يحيى، وبعد أن كبر وصار رجلا خاطبه الله) يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ (التوراة) بِقُوَّةٍ (بجد وحزم). وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ (الحكمة) صَبِيًّا[12] وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً (طهارة من عندنا) وَكَانَ تَقِيًّا[13] وَبَرًّا (محسنا) بِوَالِدَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا[14]. وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا[15].

2- المعنى: هذا ذكر الرحمة التي خصّ ربك بها عبده زكريا. وزكريا المقصود هنا هو زوج خالة مريم أم عيسى عليه السلام. وكان من أنبياء بني إسرائيل ولكن ليس له كتاب في التوراة، وقد روى قصته بتفصيل الحواريّ "لوقا" في إنجيله. فهو إذن غير زكريا الأول الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد والذي له كتاب في التوراة.

3- أي سميه يحيى. ولم نجعل هذا الاسم لغيره من الأنبياء السابقين.

3- ويهب الولد لمريم دون أن يمسسها رجل!

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ انتَبَذَتْ (اعتزلت) مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا[16]، فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا، فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا (جبريل) فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا[17]. قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَانِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا[18] (4). قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا[19]. قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُنْ بَغِيًّا[20] (زانية). قَالَ كَذَلِكِ (سيكون)! قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ، وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا، وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا[21] (قرر الله ذلك). فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا[22]، فَأَجَاءَهَا (ألجأها) الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ: قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا[23]. فَنَادَاهَا (جبريل) مِنْ تَحْتِهَا (من أسفل منها) أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا[24] (نهرا)، وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا[25]، فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا! فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا[26]. فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا[27] (ذنبا عظيما)، يَا أُخْتَ هَارُونَ(5) مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا[28]. فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ (إلى الصبي: أن كلموه)! قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ (هو) فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا[29]؟ قَالَ (الصبي عيسى) إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا[30]، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ، وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا[31]، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا[32]، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا[33].

4- حقيقة أمر عيسى : ما كان لله أن يتخذ من ولد!

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، (وذلك هو) قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ[34] (يشكون: فقالوا عيسى ابن الله)، مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ! سُبْحَانَهُ! إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ[35]. (قال عيسى) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا

4- إن كان يرجى منك أن تتقي الله وتخشاه.

5- اختلفوا في من هو هارون هذا، إذ لا يمكن أن يكون هو هارون أخ موسى لبعد المسافة الزمنية بينها وبينه. وروي عن المغيرة ابن شعبة قال: «بعثني رسول الله إلى أهل نجران فقالوا: أرأيت ما تقرؤون "يَاأُخت هَـرُونَ" وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال المغيرة: فلم أدر ما أقول. فلما قدمت على رسول الله ذكرت ذلك له، فقال: ألم يعلموا أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم". إذن فالمقصود شخص آخر سمي باسم إبراهيم.

صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ[36]. فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ (فِرَق النصارى) مِنْ بَيْنِهِمْ. فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ[37] (يوم القيامة)، أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ! يَوْمَ يَأْتُونَنَا (ما أسمعهم وما أبصرهم به يوم القيامة بعد أن كانوا في الدنيا صما عميا، لا يصدقون). لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[38]، وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ (الحساب) إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[39]، إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ[40].

5- إبراهيم يرفض عبادة الأصنام، والله يهب له إسحق ويعقوب.

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ[(6)] إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا[41]، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا[42]، يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا[43]، يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَانِ عَصِيًّا[44]، يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا[45]، قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ؟ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ، وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا[46]. قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا[47]، وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا[48]. فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، وَكُلًّا (منهم) جَعَلْنَا نَبِيًّا[49] وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا[50].

5- وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس، هم من أنبياء الله

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا[51]، وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا[52] وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا[53]. وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا[54]، وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا[55]. وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا[56]، وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا[57]. أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ (يعقوب) وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَانِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا[58].

---

6 – بعد أن أثبتت السورة الوحدانية لله ضدا على اعتقاد النصارى في أن عيسى ابن لله، تنتقل إلى إبراهيم شيخ الأنبياء لتبرز مقاومته للشرك...

6- أقوام جاءت بعدهم: بعضهم كفروا، وبعضهم تاب وآمن...

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا[59] (ضلالا وهلاكا)، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا[60]، جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَانُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ (من غير أن يعاينوها)، إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا[61] (آت لا ريب فيه)، لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا، وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا[62]، تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا[63].

7- الوحي ينزل على من اختاره الله، ويومُ القيامة يا قريش، آتٍ.

(قال جبريل) (7) وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ، لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ (يعلم ما سبق وما سيأتي) وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا[64]. رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ، هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا[65] (ندا ومثيلا)!؟. وَيَقُولُ الْإِنسَانُ(8): أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا[66]، أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا[67]. فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ، ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا[68] (على رُكبهم: ج. ركبة)، ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ (فرقة) أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَانِ عِتِيًّا[69] (جرأة)، ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا[70] (أحق بأن يلقوا في جهنم). وَإِنْ مِنكُمْ (ما منكم يا مشركي مكة) إِلَّا وَارِدُهَا (جهنم)! كَانَ (هذا) عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا[71] (لأنهم اختاروا الشرك وأعرضوا عن القرآن)، ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا[72]. وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا[73] (النادي، جماعة)؟ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ (قوم) هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا (متاعا ومالا) وَرِئْيًا[74] (ومنظرا). قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَانُ مَدًّا (في الدنيا) حَتَّى إِذَا رَأَوْا (جاءهم) مَا يُوعَدُونَ (من الحساب)، إِمَّا الْعَذَابَ (في

7- يربط المفسرون بين هذه الآية وبين انقطاع الوحي عن النبي لبعض الوقت بعد سؤال قريش له عن أهل الكهف وذي القرنين والروح الخ. وفي رأينا أن هذه الآية مرتبطة بالسياق السابق. فبعد أن عددت السورة الرسل الذين خصهم الله برسالاته قال (جبريل) : ما نتزل إلا بأمر ربك : ما نأتي بالوحي إلا بأمر الله، وبأمره جئناك أنت دون غيرك من رجال قريش.

8- أحد كبار خصوم الدعوة المحمدية، اختلفوا في اسمه.

الدنيا) وَإِمَّا السَّاعَةَ (قيام القيامة)، فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا (هل الجنة أم النار) وَأَضْعَفُ جُندًا[75] (جند الجنة أم شياطين الدنيا). وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا[76] (ما يرد عليهم). أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا[77] (قيل: اسمه العاصي بن وائل من خصوم الدعوة المحمدية)، أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا[78] (أبرم عقدا مع الله)؟ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ، وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا[79]، وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ (سيحمل في سجله يوم الحساب) وَيَأْتِينَا فَرْدًا[80] (بدون ما يعتز به من مال وأولاد).

8- لقد أهلكنا قبلهم أمما تعبد الأصنام... فهل تراها أو تسمعها؟

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا[81] (أعوانا لهم وشفعاء)! كَلَّا، (يوم القيامة سينطق الله أصنامهم) سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا[82] (ويتبرؤون منهم). أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا[83] (تدفعهم إلى المعاصي)! فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا[84]. يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا[85] (راكبين)، وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا[86] (يمشون عطشى)، لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا[87] (بشهادة أن لا إله إلا هو). وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا[88]! لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا[89]؛ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا[90] (بسبب) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا[91]. وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا[92]، إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا[93]. لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا[94]، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا[95]. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا[96].

9- خاتمة: أنزلناه بلسان قومك وجعلناه على طريقتهم ومعهودهم ...

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ (الكتاب) بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا[97]. وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ، هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا[98] (صوتا خفيا)؟.

- تعليق

يدور الخطاب في هذه السورة حول محور واحد، محور التوحيد وإبطال الشرك. وهكذا فالهدف مما أوردته من قصة زكريا ومريم وعيسى هو إبطال التثليث الذي يجعل لله ولدا وشريكا. الله هو الذي أعطى، على غير العادة، ولدا للشيخ المسن زكريا على الرغم من العقم الذي أصيبت به امرأته. والله هو الذي خرَق العادة مرة أخرى فأعطى لمريم ابنا من دون أن يمسسها بشر، تماما كما أن الله هو الذي خلق آدم من طين وأنه الذي سيبعث الموتى للحساب والجزاء. هذه القدرة على خرق العادة ليست لأحد من المخلوقات بما فيها الإنسان والملائكة، فبالأحرى الأصنام التي تصنع من حجر وغيره من الجمادات فتبقى جامدة مثلها لا تسمع ولا ترى ولا تقدر على فعل شيء. وهذه الأصنام التي تعبدها قريش قد عبدتها أمم قبلها فأرسل الله رسلا يبينون للناس تفاهتها وعدم معقولية عبادتها، وعلى رأسهم شيخ الأنبياء إبراهيم والأنبياء من ذريته من إسحاق·وإسماعيل إلى عيسى ومحمد بن عبد الله ... ومع ذلك فقريش ماضون في التمسك بأصنامهم يتعقدون أنها تمثل الملائكة التي يعتبرونها بنات الله، وأنها ستشفع لهم! فلا تعجل عليهم إن مصيرهم جهنم في نهاية الأمر، شأنهم شأن الأقوام الذي كذبوا رسلهم والذين لم يبق منهم لا ما يرى ولا ما يسمع.

هذه البيانات، سواء ما كان منها من قصص الأنبياء مع أقوامهم أو مما ذكرناه من عن عبادة قريش للأصنام بوصفها شفعاء تمثل على الأرض "بنات الله" في السماء، قد أوحيناها إليك، ويسرناها بلغة قومك وطريقتهم في الخطاب كي يسهل تبليغهم وإقامة الحجة عليهم. فإذا لم يستجيبوا فلا تقلق. فلقد مضت أمم مثلهم أهلكناها ففنيت، ولم يعد يسمع منها صوت ولا يحس منها حركة.

45- سورة طــه

- تقـــديم

أهم ما ورد بصدد هذه السورة هو ربطها بهجرة المسلمين إلى الحبشة وبإسلام عمر بن الخطاب، فعن ابن إسحاق: أن إحدى النساء المسلمات المهاجرات إلى الحبشة قالت: إنها بينما كانت تستعد لهذه الهجرة إذ أقبل عليها عمر بن الخطاب الذي قالت عنه إنه كان ممن يؤذي المسلمين، فسألها إلى أين الرحيل؟ قالت: "نعم والله لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله مخرجا". قالت : فقال : صحبكم الله". (وكان ذلك حوالي منتصف السنة الخامسة للنبوة).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى قال ابن إسحاق : "وكان إسلام عمر فيما بلغنى أن أخته فاطمة بنت الخطاب قد أسلمت وأسلم بَعْلُها، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان خَبَّابُ بن الأرَت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يُقرئها القران، فخرج عمر يوما متوشحا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطا من أصحابه قد ذُكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريب من أربعين، ما بين رجال ونساء[1]، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب (وكان قد أسلم قبل أيام)، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق، وعلي بن أبَى طالب، في رجال من المسلمين رضي الله عنهم، ممن كان أقام من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشه، فلقيه نُعَيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال : أريد محمدا هذا الصابئ (المنحرف عن دين قومه)، والذي فرّق أمرَ قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله. فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف (قبيلة الرسول عليه السلام) تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرَهم؟ قال : وأي أهل بيتى؟ قال : خَتَنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عَمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب : فقد، والله، أسلما وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما. قال : فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه، وعندهما خبابُ بن الأرَتِّ معه صحيفة، فيها: "طه" يُقرئهما إياها، فلما سمعوا حس عمر، تغيب خَبَّاب في مخدع لهم، أو في بعض البيت،

1- في الروض الأنف: كان عدد المسلمين بضعة وأربعين رجلا، وإحدى عشرة امرأة. وعن اب عباس: " كان أسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وستّ نسوة؛ فأسلم عمر وصاروا أربعين".

وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فَخِذِها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خَبَّاب عليهما، فلما دخل قال : ما هذه الهَيْنَمَة (كلام لا يفهم) التي سمعت؟ قالا له : ما سمعتَ شيئا، قال : بلى! والله لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه! وبطش بخَتَنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وخَتَنه : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى، وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون آنفا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتبا، فلما قال ذلك، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها، قال : لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردَّنَّها إذا قرأها إليها. فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه ... فأعطته الصحيفةَ، وفيها: "طه" [2]، فلما قرأ منها صدراً، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! فلما سمع ذلك خباب خرج إليه، فقال له : يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدعوةِ نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول : " اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام (أبو جهل)، أو بعمر بن الخطاب"، فالله الله يا عمر! فقال له عند ذلك عمر: فدلني يا خبَّاب على محمد حتى آتيَه فأسلم، فقال له خَبَّاب : هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه. فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله (ص) وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله (ص)، فنظر من خَلَلِ الباب فرآه متوشحا السيف، فرجع إلى رسول الله (ص) وهو فَزِعٌ، فقال : يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذنْ له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه (وكان حمزة عم النبي قد أسلم قبل ذلك بنحو أسبوع). فقال رسول الله (ص) : ائذنْ له، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله (ص) حتى لقيه في الحجرة، فأخذ حُجْزَته (موضع شد الإزار)، أو بمجمع ردائه، ثم جَبَذه به جَبْذَة شديدة، وقال : ما جاء بك يا بن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنْزِلَ الله بك قارعة. فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله؛ قال : فكبَّر رسول الله (ص) تكبيرةً عَرَفَ أهلُ البيت من أصحابه أن عمر قد أسلم . فتفرق أصحابُ رسول الله (ص) من مكانهم، وقد عَزُّوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة عم النبي، وعرفوا أنهما سيَمْنَعان رسول الله (ص)، وينتصفون بهما من عدوِّهم.

2 – وفي رواية أقل شهرة: أن عمر قرأ من سورة الحديد وهذا لا يستقيم، لأن هذه السورة نزلت في المدينة وفيها ما يؤيد كونها مدنية.

قال ابن إسحاق: "فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم". ثم ذكر رواية ثانية عن رواة مكيين قالوا إن عمر كان يقول : "كنت للإسلام مباعداً، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أحبها وأسَر بها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش ... فخرجت ليلة أريد جلسائي أولئك في مجلسهم ذلك، قال : فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحداً فقلت : لو أني جئت فلانا الخمار، وكان بمكة يبيع الخمر، لعلي أجد عنده خمراً فأشرب منها. قال : فخرجت فجئته فلم أجده . قال : فقلت : فلو أني جئت الكعبةَ فطفت بها سبعا أو سبعين قال : فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسول اللّه (ص) قائم يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلاه بين الركنين : الركن الأسود، والركن اليماني . قال : فقلت حين أتيته : واللّه لو أني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمعَ ما يقول فقلت : لئن دنوت منه أستمع منه لأرَوِّعنّه؛ فجئت من قِبلِ الحِجَر (الكعبة)، فدخلت تحت ثيابها، فجعلت أمشي رُوَيْدا ورسول اللّه (ص) قائم يصلي يقرأ القرآن، حتى قمت في قبلته مُستقبلَه، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة. قال : فلما سمعت القرآن(3) رقَّ له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام فلم أزل قائما في مكاني ذلك، حتى قضى رسول اللّه (ص)، ثم انصرف، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبى حُسَين، وكانت طريقَه، حتى يَجزع (يقطع) المسعَى، ثم يسلك بين دار عباس بن عبد المطلب، وبين دار ابن أزهر بن عبد عَوْف الزهري، ثم على دار الأخنس بن شَرِيق، حتى يدخل بيته. وكان مسكنُه (ص) في الدار الرَّقْطاء (الملونة) التي كانت بيدي معاوية بن أبي سفيان. قال عمر رضي اللّه عنه : فتبعته حتى إذا دخل بين دار عباس، ودار ابن أزهر، أدركتُه، فلما سمع رسول اللّه (ص) حسي عَرَفني، فظن أني إنما تبعته لأوذيه فنهمني (زجرني) ثم قال : ما جاء بك يا بن الخطاب هذه الساعة؟ قال : قلت : لأومن باللّه وبرسوله، وبما جاء به من عند اللّه قال : فحمد اللّه رسول اللّه (ص)، ثم قال : قد هداك اللّه يا عمر، ثم مسح صدري، ودعا لي بالثبات، ثم انصرفتُ عن رسول اللّه (ص)، ودخل رسول اللّه (ص)وسلم بيته".

وأضاف ابن إسحاق : وكان عبد اللّه بن مسعود يقول: ما كنا نقدر على أن نصليَ عند الكعبة، حتى أسلم عمرُ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه، وأن كان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول اللّه (ص) إلى الحبشة" (قيل في الهجرة الأولى).

3- وفي رواية أخرى أن السورة التي كان يقرؤها النبي عليه السلام هي سورة "الحاقة" وهذا مشكوك، فيه لأن هذه السورة هي من أواخر ما نزل في مكة حسب لوائح ترتيب النزول، وبالتالي يفصلها عن تاريخ إسلام عمر أزيد من خمس سنوات!

روايتان مختلفتان حول إسلام عمر: الأولى بطلتها أخته، والثانية بطلها هو نفسه. الأولى منسوبة إلى أهل المدينة والثانية منسوبة إلى أهل مكة. وناقل الروايتين واحد، إنه ابن إسحاق كاتب السيرة النبوة! فأي الروايتين أقرب إلى الصحة؟

لنلاحظ أولا سكوت معظم كتب الحديث والسيرة عن الرواية الثانية، ومنهم من قال إن راويها مجهول الخ. أما نحن فنرجح أن تكون الروايتان صحيحتين معا، أما الأولى فلشهرتها ووقوع الاتفاق عليها. وأما الثانية فلأنها يمكن النظر إليها على أنها تتمة للأولى.

ذلك لأنه من الممكن افتراض أنه بعد إعجاب عمر بالقرآن عندما قرأ سورة طه أو قسما منها في بيت أخته خرج وهو ينوي فعلا الذهاب إلى الرسول (ص) ليعلن إسلامه. ومعروف عن عمر أنه كان في الجاهلية يكثر من شرب الخمر، وأنه لم يكف عنها نهائيا إلا بعد نزول الآية الثالثة التي تقطع بتحريمها (اجتنبوه. في المدينة). فمن الممكن جدا أن يكون عمر قد أراد أن "يخفف" عن نفسه بشرب الخمر –التي لم تكن محرمة في الإسلام يومئذ– الشعور بثقل التحول الذي قرر القيام به، وذلك بالدخول في الإسلام بعد أن كان على سبيل قريش في الضغط على المسلمين، كما ورد ذلك في كلام أخته في الرواية الأولى. من أجل ذلك اتجه إلى الخمار الخ، ولما لم يجد أحدا اتجه إلى المسجد لعله كان ينوي الاستماع إلى مزيد من القرآن فصادف بغيته، حيث كان النبي عليه السلام يصلي ويقرأ القرآن. ويمكن أن نفترض أن ذهاب عمر إلى بيت أخته كان مساء في وقت متأخر وأنه لم يخرج منه إلا حوالي منتصف الليل ... ليجد حانات مكة فارغة من روادها ... ويجد النبي (ص) في المسجد يصلي وقد اقترب الصبح ...

– نص السورة

1– مقدمة: القرآن تذكرة لمن يخشى... فلا يشقيك إعراضهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

طه[1]، **مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**[2] (لتحزن لكون قومك لم يستجيبوا، فما هو) **إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى**[3] **تَنْزِيلًا** (قرآنا نزل) **مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا**[4]. (هو) **الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**[5] (4)، **لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي**

4– جري ويجري نزاع حول هذه الآية بين الفرقة المشبهة، أي الذين تشبهون الله بالإنسان فينسبون له ما ينسب للإنسان من الأوضاع الجسمانية، فقالوا : استوى على العرش جلس=

الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى[6] (تحت الأرض). **وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ** (بالشكوى من إعراض قومك عنك، أو لم تجهر به) **فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى**[7]، **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**[8].

2- مثال مما عاناه موسى من فرعون في سبيل أداء الرسالة.

أ- الله يكلم موسى: إن الساعة آتية لتجزى كل نفس بما تسعى.

وَهَلْ (وقد) **أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى**[9]، **إِذْ رَأَى نَارًا** (وكان قادما من مدين في اتجاه مصر وقد ضل الطريق، وكان الليل شتاء باردا) **فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا** (أبصرت) **لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ** (للتسخين) **أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى**[10] (من يرشدنا إلى الطريق). **فَلَمَّا أَتَاهَا** (وصل النار) **نُودِيَ** (عليه) **يَا مُوسَى**[11]: **إِنِّي أَنَا رَبُّكَ، فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ** (احتراما) **إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ** (المسمى) **طُوًى**[12]، **وَأَنَا اخْتَرْتُكَ** (رسولا) **فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى**[13] (إليك) : **إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**[14]، **إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا** (5) **لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى**[15]، **فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى**[16] (فتهلك).

ب- عصا موسى: تعريفه بها ...

(سأله الله) **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى**[17]، **قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى**[18] (كالدفاع عن النفس). **قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى**[19]. **فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى**[20]! **قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى**[21] (نعيدها عصا عادية كما كانت)، **وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ** (جنبك) **تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، آيَةً أُخْرَى**[22]، **لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى**[23] (تحول العصا حية ثم رجوعها عصا عادية بمجرد إدخال اليد في الجيب، من آيات الله الكبرى).

ج- إرساله إلى فرعون .. وطلبه أخاه هارون

اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى[24] (استعبد قسما من شعبه). **قَالَ** (موسى) **رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي**[25]، **وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي**[26]، **وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي**[27]، **يَفْقَهُوا**

عليه كما يجلس الملوك على عروشهم. أما مناهضو التشبيه من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم فيلتمسون للآية معنى مجازيا، فيفسرون الاستواء على العرش بمعنى الملك كما في "ملك الناس" و"ملك يوم الدين" الخ. وهناك من أهل السنة من يتوقف عن التدقيق في معنى الاستواء، ويقول : "الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة" (روي عن الإمام مالك).

5- في القاموس المحيط: تكونُ "كاد" بمعنى أرادَ: "أكادُ أُخفِيها": أريدُ إخفاءها.

قَوْلِي[28]، وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي[29]، هَارُونَ أَخِي[30]، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي[31]، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي[32]، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا[33]، وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا[34]، إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا[35]. قَالَ : قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى[36].

د- تذكيره بطفولته: وما جرى له إلى أن كلمه الله

وَلَقَدْ مَنَنَّا (أنعمنا) عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى[37] (عندما ولدت وكان فرعون يقتل أولاد بني إسرائيل خوف أن يكون منهم من يقضي على ملكه)، إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ (في المنام) مَا يُوحَى[38]: أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ[(6)] فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ (نهر النيل) فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ (هو فرعون، وذلك ما حدث). وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي (جعلتك محبوبا) وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي[39] (لتكون عيني عليك، تحرسك). (ولا تنس) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ (لتبحث عنك وتجدهم أحضروا المرضعات لك فرفضتهن) فَتَقُولُ (لهم أختك) هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ؟ (فقبلوا، فجاءتك بأمك) فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ. وَقَتَلْتَ نَفْسًا (ولا تنس أيضا أنك **قتلت** رجلا من أقباط مصر وخفت من عقاب فرعون) فَنَجَّيْنَاكَ مِنْ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا (اختبرناك بأمور أخرى فخلصناك) فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ (في الموعد الذي قدرناه) يَا مُوسَى[40]، وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي[41] (رسولا).

هـ- إرساله ومعه هارون إلى فرعون في مهمة

اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا (تتوقفا) فِي ذِكْرِي[42]، اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى[43]، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى[44]. قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا (يبادرنا بالعقوبة) أَوْ أَنْ يَطْغَى[45] (يقتلنا). قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى[46]، فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ، قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ، وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى[47]. إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى[48]. قَالَ (فرعون) فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى[49]؟ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ (صورته) ثُمَّ هَدَى[50]. قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى[51] (فمن كان ربها)؟ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ؛ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى[52]. الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا (طرقا) وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى[53]، كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

---

6 - قلنا لها -عندما ولدتك وخافت أن يقتلك فرعون في جملة من يولد- ضعيه في التابوت واقذفي التابوت في النيل.

لِأُولِي النُّهَى[54] (العقل)، مِنْهَا (الأرض) خَلَقْنَاكُمْ (خلق آدم من طين وأنتم ذريته تعيشون من خيراتها)، وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ (حين ينقضي أجلكم) وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً (مرة) أُخْرَى[55] (يوم تقوم القيامة للحساب والجزاء).

و- موسى ينتصر على السحرة. وفرعون يتهمهم بالتواطؤ معه

وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ (فرعون) آيَاتِنَا (معجزات موسى) كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى[56]، قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى[57]، فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى[58] (يقع بيننا وبينك على مسافة واحدة). قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ (العيد) وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى[59]. فَتَوَلَّى (ذهب) فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ (سحرته) ثُمَّ أَتَى[60]. قَالَ لَهُمْ (للسحرة) مُوسَى: وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ (يهلككم) بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى[61]، فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى[62] (وتشاوروا)، قَالُوا (بعضهم لبعض) إِنْ هَذَانِ[(7)] لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى[63] (العالية في فن السحر) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا (متحدين)، وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى[64] (من انتصر على الآخر). قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى[65]؟ قَالَ بَلْ أَلْقُوا، (فألقوا) فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى[66]. فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى[67]. قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى[68]، وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ، وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى[69] (وكذلك حدث).

ز- السحرة يؤمنون برب موسى، ويتوعدون فرعون...

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا، قَالُوا: آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى[70]. قَالَ (فرعون لهم) آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ! إِنَّهُ (موسى) لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ (تواطأتهم معه)، فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا (أنا أو رب موسى) أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى[71]. قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ، وَالَّذِي فَطَرَنَا [(8)]! فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ (افعل ما تشاء)، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا[72] (حكمك مقصور على الحياة الدنيا). إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى[73]. (قالوا) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ

---

7 – حسب قواعد النحو يجب أن تكون العبارة: "إن هذين لساحران"، وقد استعمل القرآن هنا لغة يأتي أهلها بالألف في المثنى في الجر والرفع والنصب.

8 – نرجح الرأي القائل إن جملة "والذي فطرنا": قسم.

رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا[74]، وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا[75]، جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى[76] (تطهر من الآثام). وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ (اخرج ليلا) بِعِبَادِي (بني إسرائيل) فَاضْرِبْ لَهُمْ (فشق لهم بعصاك) طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ(9) يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا (من فرعون) وَلَا تَخْشَى[77] (غرقا). فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ (الماء) مَا غَشِيَهُمْ[78] (من الغرق والتلف)، وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى[79] (فقدهم وما اهتدى إليهم).

ح- فتنة السامري: صنع لبني إسرائيل صنما فعبدوه، وموسى يغضب.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى[80] (10)، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى[81]، وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى[82]. (ذهب موسى للقاء ربه ثانية ليأخذ التوراة، فقال له:) وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى[83]؟ قَالَ: هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي. وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى[84]. قَالَ: فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ[85] (11). فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا، قَالَ : يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا؟ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي[86] (وعدكم لي بالبقاء على دين الله) ؟ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا (بإرادتنا) وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا (أثقالا) مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ(12) فَقَذَفْنَاهَا. فَكَذَلِكَ (يقول الله لموسى) أَلْقَى السَّامِرِيُّ[87] (الحلي في النار) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ، فَقَالُوا (السامري وأتباعه) هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ[88] (نسيه موسى فذهب يطلبه). (يخاطب الله موسى) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ (لا يرد العجل) إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا[89]! وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَانُ، فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي[90]. قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ (على عبادته) حَتَّى

9- خلاف بين المفسرين وبين الباحثين المعاصرين: هل يتعلق الأمر بالنيل أم بالبحر الأحمر؟

10 -الْمَنّ: نبات يؤكل كالحلوى. وفي التوراة انه يشبه بذر الكزبرة يتساقط على الأرض ليلا، وكان بنو إسرائيل يجمعونه ويصنعون منه خبزا ذا طعم خاص . والسلوى الطير السماني. قيل يسافر في بمجموعات كبيرة من إفريقيا متجها شمالا.

11 - السامري: قيل من قبيلة السَّامِرَة، قبيلة من قبائل بني إسرائيل، رجل التقوا به فحبب إليهم عبادة الأصنام وصنع لهم صنما على صورة عجل فعبدوه.

12 - أي حلي قوم فرعون كانوا استعاروها منهم بعلة عرس فبقيت عندهم.

يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى[91]. قَالَ (موسى بعد رجوعه) : يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ، إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا[92]، أَلَّا تَتَّبِعَنِي (وتتركهم)؟ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي[93]؟ قَالَ يَبْنَؤُمَّ (يا ابن أمي) لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي، إِنِّي خَشِيتُ (لو اتبعتك أن يتبعني فريق منهم ويبقى فريق وحينئذ) أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ (تنتظر) قَوْلِي[94] (رأيي في ذلك). قَالَ (موسى) فَمَا خَطْبُكَ (ما شأنك) يَا سَامِرِيُّ[95]؟ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ (جبريل) فَنَبَذْتُهَا (ألقيتها) وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي[96] (13). قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ (ما دمت حيا) أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ (عقابك أن لا تمس أحدا ولا يمسك أحد)(14) وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا (يوم القيامة) لَنْ تُخْلَفَهُ، وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا[97]، إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا[98].

3- تلك قصص السابقين، وقد أعطيناك القرآن فلا تعجل بتنفيذ وعيده

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا[99]، مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا[100]، خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا[101]. يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا[102] (من تأثير النار)، يَتَخَافَتُونَ (يتسارّون) بَيْنَهُمْ : إِنْ لَبِثْتُمْ (في القبر) إِلَّا عَشْرًا[103] (من الليالي). نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ (المدة التي مكثوها) إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً (أقربهم إلى الصواب) إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا[104] (15). وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ (كيف تصير يوم القيامة)؟ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا[105]، فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا[106] (مستويا)، لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا[107] (ارتفاعا)، يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ (أي الناس الخارجون من قبورهم يتبعون إسرافيل المنادي بقيام الساعة) لَا عِوَجَ لَهُ (لا يبتعدون عنه) وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَانِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا[108]، يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا[109] (=شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله).

---

13 - قال: إنه رأى دابة جبريل فأخذ من موضع حافرها قبضة من تراب وألقاها فتحولت إلى صورة الصنم، آملا أنه بفعله ذاك يصير ما لا روح له ذا روح، وأنه رأى قوم موسى يطلبون منه أن يجعل لهم إلها، فحدثته نفسه أن يكون ذلك العجل إلههم.

14 - قالوا: فكان يهيم في البرية وإذا مس أحدا أو مسه أحد أصابتهما الحمى.

15 - هذا القائل: قوله قريب من الصواب لأنه أدرك أن مدة إقامتهم في القبر لا تساوي شيئا بالنسبة لخلودهم في جهنم.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا[110]. وَعَنَتِ (خضعت) الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا[111]، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا[112] (لحقه). وَكَذَلِكَ (معطوف على "كذلك نقص) أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا (كررنا) فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا[113] (عبرة بهلاك من قبلهم)، فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ. وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ (بتنفيذ وعيده) مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ(16) وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا[114].

4- آدم استسلم للشهوة، وتلك حال قريش. والحساب يوم القيامة.

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ (أن لا يأكل من الشجرة) فَنَسِيَ (وأكل) وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا[115] (إرادة حازمة تكبح جماع الرغبة)، وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى[116]، فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى[117]، إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى[118]، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى[119] (تضرك شمس الضحى). فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ : قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ(17) وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى[120]، فَأَكَلَا (هو وامرأته) مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا (ظهرت عورة كل منهما للآخر) وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ (أخذا يلصقان) عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ، وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى[121]، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى[122] (18)، قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ (يا بني آدم) عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ (سيأتيكم) مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى[123]، وَمَنْ أَعْرَضَ

16- ذهب المفسرون في تفسير هذه الآية مذاهب شتى، بعضهم يربطها بأحداث وقعت في المدينة وهذه سورة مكية باتفاق! وآخرون تجاهلوا السياق تماما... وفي رأينا أن الآية متصلة بما قبلها وما بعدها كما يلي: "وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (فإذا كان لم يحدث لهم ذكرا ولم يؤمنوا ولم يهلكهم الله كما فعل بالأقوام الماضية، فإن ذلك ليس راجعا إلى أن الله لم يستطع حملهم على الإيمان أو لم يقدر على إهلاكهم. كلا، إنه يمهلهم كما أمهل الذين من قبلهم) : فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ (أن يخلف وعده، فانتظر حتى ينزل عليك القرآن كله ثم احكم بعد ذلك:) وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ (بتنفيذ وعيده) مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ (كله) وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا". وتأتي قصة آدم ونسيانه ... ثم عقابه بإخراجه من الجنة ثم قبول توبته ... يأتي ذلك متمما للسياق وصلا بقوله تعالى (لاحقا) " فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ... وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ (فئات من قريش) زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ..."

17 - يخلد من يأكل منها. وفي التوراة : "شجرة المعرفة"

18 - هذه التوبة أسقطت ما تعتبره المسيحية بـ"الخطيئة الأصلية"، خطيئة آدم المذكورة.

عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا (فيها ضيق حال) وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى[124]. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا[125]. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى[126]. وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى[127].

5- خاتمة: اصبر على ما يقولون، ولا تمدن عينيك إلى ما عندهم.

أَفَلَمْ يَهْدِ (يتبين) لَهُمْ (لقريش) كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ (الأقوام) يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ (تمشي قريش أثناء أسفارهم جنب مساكن أولئك الأقوام) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى[128] (لمن له عقل). وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ (بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة) لَكَانَ لِزَامًا (العقاب لازما لهم في الدنيا) وَأَجَلٌ مُّسَمًّى[129] (وفي تاريخ نحدده لهم). فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى[130] (بما تناله عن ذلك من الثواب)، وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ (وأنت تعاني من الفقر) إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ (فئات من قريش)، زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا، لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ (لينشغلوا فيه ويطغوا به)، وَرِزْقُ رَبِّكَ (وسيأتيك في المستقبل) خَيْرٌ وَأَبْقَى[131]. وَأْمُرْ أَهْلَكَ (زوجتك) بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا (لا نكلفك البحث عن الرزق) نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى[132]. وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ! أَوَلَمْ تَأْتِهِم (في القرآن) بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى[133]؟ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ (من قبل أن ننزل القرآن) لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى[134]! قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ (الكل ينتظر ما سيحصل) فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى[135].

- تعليق

تنطلق هذه السورة من مقدمة تسلي النبي عليه السلام وتثبت فؤاده وتهون عليه ما يلقاه من إعراض قريش، وتؤكد له أن الله لم ينزل عليه القرآن ليجعل منه مادة للمعاناة والشقاء، ولا ليطلب منه فرضه على قريش؛ فالقرآن إنما هو "تذكرة لمن يخشى" الله، أما من أصر على كفره وعاند فسيلقى جزاءه من عند الله. وكي تؤكد السورة هذه التسلية تسلك مرة أخرى سبيل القصص، ففي القصص عموما تسلية من حيث هو قص يشد انتباه المستمع إلى أحداثه وأبطاله ويبعده عن هموم اللحظة

الحاضرة، والقصص القرآني يتميز بخاصيتين أخريين على مستوى التسلية، تناسبان حال الرسول عليه السلام. فمن جهة بطل القصة رسول مكلف مثله برسالة تحمل تذكرة، ومن جهة أخرى قوم يعارضون ذلك الرسول ويمنعون في عناده وإيذائه، ومن جهة ثالثة تكون النتيجة دوما تعرض الطرف الطاغي المصر على رفض دعوة الرسول للعقاب في الدنيا فضلا عن عقاب الآخرة.

والقصة التي وردت في هذه السورة هي قصة موسى مع فرعون. وقد سبق أن نزل قسم منها، هو نواتها، في سورة الأعراف[19]. وإذا كانت هذه السورة التي نحن ضيوف عليها تستعيد هيكل القصة من سورة الأعراف لتضيف إليها عناصر جديدة تخص تجربة موسى في طفولته وشبابه، فإنها كسابقتها الأعراف [20] تعود لتخاطب الرسول عليه السلام وتقول له: تلك هي الآيات/المعجزات التي خصصناها للأنبياء السابقين، أما أنت فقد أعطيناك القرآن فهو معجزتك، تقرأ فيه كيف فعل ربك بالأقوام الذين كذبوا رسلهم ونوع الوعيد الذي ينتظر مشركي قومك من قريش، وهو وعيد سيتحقق لا محال. لكن لا تستعجل تنفيذه، إن الله يمهلهم لحكمة: قد يسلم بعضهم، وإن لم يفعلوا فستكون الحجة عليهم أضخم وأقوى. إن قومك يتبعون أهواءهم، فهم سجناء فيها كما اتبع آدم هواه، وبما أنه أبو البشرية جمعاء ومن أجل أن لا ينقطع الجنس البشري في المهد، ويفسد نظام العالم الذي أقامه الله لخدمة الإنسان، فقد ألهمه الله التوبة. ولما تاب آدم غفر الله له، وأخبر ذريته بما جرى حتى يكون لهم عبرة. لقد منحناهم فرصة التوبة ولكن إلى أجل. إلى يوم الحساب. فلا يهمك ما يقولون عنك وما يتهمونك به، ولا يهمك ما يتمتعون به في الدنيا، فذلك متاع فان. وسيحاسبون عليه، وستجزى الجزاء الأوفى، أنت والمؤمنون لك، يوم لا ينفع مال ولا بنون.

19-انظر تفاصيل عن قصة موسى في القرآن: <u>التعريف بالقرآن</u>. قسم القصص في القرآن المكي المرحلة الثالثة: قصة موسى وفرعون.

20- انظر أعلاه: سورة الأعراف الفقرات 15-16-17.

48- سورة الواقعــة

- تقديـــم

روي أنه لما نزلت "إذا وقعت الواقعة" وذكر فيها "ثلة من الأولين وقليل من الآخرين" قال عمر: يا رسول الله، ثلة من الأولين وقليل منا (ولم يكن عمر قد أسلم مع الأولين فقد أسلم في السنة الخامسة للنبوة. فأمسك آخر السورة سنة، ثم نزلت "ثلة من الأولين وثلة من الآخرين" فقال رسول الله (ص) : يا عمر تعال فاسمع ما قد أنزل الله "ثلة من الأولين وثلة من الآخرين". وهذه الرواية إن صحت تدل على أن هذه السورة نزلت حوالي السنة السادسة للنبوة أو بعدها، وهذا ينسجم مع ما ذكرناه عن سورة طه وأنها نزلت حوالي السنة الخامسة والنصف عند الهجرة الأولى إلى الحبشة،أي قبل هذه بمدة قصيرة مما يزكي ترتيبهما متتابعتين أو متقاربتين. كما روي أنهم كانوا يعجبون بوادي وَجّ وظلاله وطلحه وسدره، فأنزل الله "وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين، في سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود".

نص السورة

1- مقدمة: الناس عند قيام القيامة ثلاثة أصناف:

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ[1] (قامت القيامة) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ[2] (لن يكذب وقوعها أحد) . خَافِضَةٌ (بعض الناس إلى النار) رَافِعَةٌ[3] (آخرين إلى الجنة)(1). إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا[4] (اهتزت بقوة) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا[5] (وفتت تفتيتا) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا[6]، وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا (أصنافا) ثَلَاثَةً[7] : فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ، مَا أَصْحَابُ

1- يُحدد موقع جهنم في "أسفل سافلين" (الأرض السفلى) وموقع الجنة في "أعلى عليين" فوق السماوات تحت العرش.

الْمَيْمَنَةِ[8]؟ (هم الذين يأتون وسجلات أعمالهم بيمينهم فيذهبون إلى الجنة)! وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ، مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ[9]؟ (عكسهم إلى النار)، وَالسَّابِقُونَ، السَّابِقُونَ[10]؟ (هم السباقون إلى الإيمان والعمل الصالح)(2) ، أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ[11] (إلى الله بقلوبهم وانشغاله به)، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ[12].

2- نعيم الجنة : السابقون المقربون، وأصحاب اليمين.

ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ[13] وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ[14] (3) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ[15] (منسوجة بالذهب)، مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ[16]. يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ[17] (يهرمون ولا يموتون)، بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ[18] (من خمر جارية)، لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ[19] (لا يصيبهم الصداع من شربها ولا يسكرون)، وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ[20]، وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ[21]، وَحُورٌ عِينٌ[22] (جوار كبير بياض أعينها) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ[23]: جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[24]. لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا (الجنة) لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا[25] (كلاما فاحشا ولا ما يوجب التأثيم) إِلَّا قِيلًا (قولا) سَلَامًا سَلَامًا[26]. وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ[27] فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ[28] (مقطوع شوكه) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ[29] (شجر الموز مصفوف متلاصق) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ[30] وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ[31] وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ[32]، لَا مَقْطُوعَةٍ (بل هي موجودة باستمرار) وَلَا مَمْنُوعَةٍ[33] (غالية) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ[34]. إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً[35] (الحور العين: خلقناهن من دون ولادة) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا[36] (عذارى)، عُرُبًا أَتْرَابًا[37] لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ [38] (عاشقات لهم متساويات في السن). ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ[39] وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ[40] (جماعتان متساويتان: جواب على احتجاج عمر . انظر التعليق).

3- أصحاب الشمال : في سموم وحميم ... كانوا ينكرون البعث.

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ[41]؟ : (هم الذين يعانون) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ[42] (ريح حارة ودخان)، وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ[43]، (دخان شديد السواد) لَا بَارِدٍ

2- هنا شبه تواز مع آية سورة فاطر رقم 32: "فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ".

3- اختلف المفسرون في معنى الآية: بعضهم يجعل "ثلة من الأولين" بمعنى كثير من المسلمين الأولين السابقين إلى الإسلام وهم فقراء في الغالب"، و"قليل من الآخرين" (الذين أسلموا بعدهم)، وهذا المعنى يتفق مع ما روي عن عمر في الموضوع (انظر التقديم). وهو الأقرب إلى السياق.

وَلَا كَرِيمٍ[44]. إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ[45]، وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ[46] (وهو الشرك)، وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ[47] أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ[48]؟ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ[49] لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ[50]. ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ[51] لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ[52]. فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ[53]، فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ[54]، فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ[55] (شرب الإبل). هَذَا نُزُلُهُمْ (ما أُعِدَّ لهم) يَوْمَ الدِّينِ[56] نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا (هلا) تُصَدِّقُونَ[57]. أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ[58] (تصبون في الأرحام من مني) ؟ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ[59]؟ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ، وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ[60] (في الخلق، وقادرون) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ[61] (من الهيئات والأشكال). وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا (هلا) تَذَكَّرُونَ[62] (تقرون أن الله خلقكم! فلماذا لا تقرون أنه قادر على إعادة خلقكم)؟ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ[63]؟ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ[64]؟ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ[65] (تندمون وتستغربون ما حدث بكم ولقلتم): (وتقولون) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ[66] (صار ما أنفقناه على الحرث غرما علينا)، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ[67] (أصبحنا محرومين من رزقنا): أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ[68]. أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ (السحاب) أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ[69]؟ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا (ملحا) فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ[70]؟ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ[71] (تشعلون)؟ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا (التي تحترق) أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ[72]؟ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً (تذكر بنار جهنم) وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ[73] (للمسافرين). فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ[74].

4- قرآن كريم في كتاب مكنون، أفبهذا تكذبون؟ ...

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ[75]، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ[76]! إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ[77] فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ[78] (في اللوح المحفوظ) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ[79] (الملائكة)، تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ[80]. أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ[81] (مكذبون)، وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ (المطر الذي ينزله الله) أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ[82] (فلا تقولون إنه من الله، بل تقولون سقينا من نوء كذا)[4]، فَلَوْلَا (هلا) إِذَا بَلَغَتِ (الروح) الْحُلْقُومَ[83] وَأَنْتُمْ

4- كانت العرب تضيف الأمطارَ والرياحَ والحرَّ والبردَ إلى الأنواء وهي الساقط من النجوم جهة المغرب أو جهة المشرق، فيقولون سُقينا بنوء كذا...

(أيها المشركون) **حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ**[84] (إليه) **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ، وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ**[85] (لا ترونها)! **فَلَوْلَا** (هلا) **إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ**[86] (أي أحرارا تتصرفون كما تريدون لا حدود لقدرتكم) **تَرْجِعُونَهَا** (الروح) **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**[87] (هلا تردون الروح إلى الميت؟ لا! **ليس في مقدوركم ذلك. أما مصيره بعد أن تقبض روحه فواحد من ثلاثة).**

5- خاتمة : جزاء الأصناف الثلاثة

فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ[88] (السابقين المذكورين قبل) **فَرَوْحٌ** (راحة) **وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ**[89]، **وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ**[90] **فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ**[91] (فهو في السلامة مثلهم، وقد سبق وصف حالهم)، **وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ**[92] **فَنُزُلٌ** (فسيستقبل بشراب) **مِنْ حَمِيمٍ**[93] (من جهنم)، **وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ**[94] (ويلقى به فيها). **إِنَّ هَذَا** (الذي ذكرنا) **لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ**[95] (اليقين الحق)، **فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**[96] (نزه ربك من الظلم، لقد أعطى لكل ما يستحق).

- تعليق

تناولت السورة موضوع المعاد، وتحدثت عن أصناف المصير يوم القيامة فجعلتها ثلاثة : نعيم السابقين المقربين إلى الله بقلوبهم وأعمالهم يتجنبون الكبائر والصغائر، ومصير أصحاب اليمين الذين زادت حسناتهم على سيئاتهم، ووجهتهم الجنة، ومصير المكذبين الضالين ووجهتهم جهنم. لقد تحدثنا في الاستطراد، الذي ختمنا به المرحلة الثانية من مسار التنزيل في مكة، عن خطاب الجنة والنار في القرآن المكي بوصفه سلاح الدعوة المحمدية ضد قريش بما فيه من وعيد وتخويف من جهة، وما يقوم به، من جهة أخرى، من تسلية المسلمين وتثبيتهم وترغيبهم في العمل الصالح، بما يتضمنه من وعود تنسيهم حالة الضغط والحرمان التي كانوا موضوعا لها. وقلنا إن هذا الأسلوب الذي يجمع بين الترغيب والتخويف يوضحه القرآن في غير ما آية، مثل قوله تعالى: "وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا، إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (الأعراف 56).

وغني عن البيان القول إن من حق هذه السورة أن ترتب مع سور المرحلة الثانية التي ركزت سورها على موضوع المعاد، وليس ضمن سور المرحلة الثالثة التي نتحرك فيها والتي يقع التركيز فيها على إبطال الشرك وتسفيه عقول عبدة

الأصنام. ولكن بما أننا لم نجد سندا في المرويات يسمح بتغير ترتيبها فضلنا تركها في رتبتها ضمن السور التي تركز على إبطال الشرك وإقرار التوحيد. وقد رأينا أن في السورة ما يبرر موقعها ضمن هذه المرحلة، ذلك أنه يخيل إلينا أن القصد الأول في السورة ليس تأكيد البعث والحديث عن الجنة والنار، وإنما هو بيان درجات أصحاب الجنة بالتمييز بين السابقين الأولين الذين قضوا السنين الماضية على بدء الدعوة، وقد بلغت زمن نزول هذه السورة ست سنوات أو يزيد قضوها في الاضطهاد والتعذيب ومنهم من اضطر إلى الهجرة إلى الحبشة... أقول التمييز بين هؤلاء وبين الذين أسلموا حين بدأ الإسلام ينتشر ويتقوى خصوصا بعد إسلام شخصيات مثل حمزة وعمر، اللذين كان إسلامهما نقطة تحول في مسار الدعوة . وكما تساءل عمر قائلا: "يا رسول الله، ثلة من الأولين وقليل منا"، كما رأينا في التقديم، فلا يستبعد أن يكون أحد المسلمين الأولين قد تساءل قبل نزول السورة طارحا القضية في اتجاه آخر : قضية السبق في الإسلام، خصوصا ومن بين الذين أخذوا يلتحقون بالإسلام رجال شاركوا قبل إسلامهم في إيذاء المسلمين السابقين؟ وقد رأينا عمر يهجم على أفراد من أسرته لأنهم أسلموا (تقديم السورة السابقة). نستنتج من ذلك أن ترتيب هذه السورة قد تحكم فيه الجو الذي حدث في أوساط المسلمين عند إسلام عمر بن الخطاب.

49- سورة الشعراء

- تقديم

لعل أهم ما ورد في شأن هذه السورة أمران: أولهما يتعلق بقوله تعالى مخاطبا رسوله الكريم: "وأنذر عشيرتك الأقربين"، وقد وردت في هذا الشأن روايات لعل أهمها ما يلي: فعن عائشة: قالت: لـما نزلت هذه الآية: وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِـينَ" قال رسول الله (ص): "يا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ المُطَّلِبِ يا فاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّد يا بَنِي عَبْد المُطَّلِبِ إنّي لا أمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللّهِ شَيْئا، سَلُونِي مِنْ مالي ما شِئْتُمْ". وقيل لما نزلت هذه الآية: خاطب عليه السلام قريشا فقال: "يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أنْفُسَكُمْ مِنَ اللّهِ، لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللّهِ شَيْئا، يا بَنِي عَبْدِ مَنافٍ لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللّهِ شَيْئا، يا عَبّاسُ بَنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ لا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللّهِ شَيْئا، يا فاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ الله لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللّهِ شَيْئا، سَلِينِي ما شِئْتِ، لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللّهِ شَيْئا". وفي رواية أخرى: أنه عليه السلام "علا صخرة من جبل، فعلا أعلاها حَجَرا، ثم قال: يا آلَ عَبْدِ مَنافاه، يا صَباحاه، إنّي نَذِيرٌ، إنَّ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ مَثَلُ رَجُلٍ أتَى الجَيْشَ، فَخَشِيَهُمْ عَلى أهْلِهِ، فَذَهَبَ يَرْبَؤُهمْ، فَخَشِيَ أنْ يَسْبِقُوهُ إلى أهْلِهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِهِمْ: يا صَباحاه". وفي أخرى: "صعد النبي (ص) على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال (النبي): "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي". قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد". فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا". قيل: "فنزلت: "تبت يدا أبي لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب" (انظر التعليق). وهناك من يأخذ هذه الروايات على أنها تتحدث عن اجتماعات متعددة بين النبي (ص) ورجال من عشيرته الأقربين، وليس عن اجتماع واحد. ومما يذكر في هذا الشأن أنه: "لما نزلت: "وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ"، بدأ بأهل بيته وفصيلته، فشق ذلك على المسلمين، فأنزل الله: "وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِينَ".

والشيء الثاني يتعلق بقوله تعالى في هذه السورة: "والشعراء يتبعهم الغاوون". قيل: "كان شعراء بمكة يهجُون النبي (ص) منهم النضر بن الحارث، والعوراء بنت حَرب زوجُ أبي لهب ونحوهما، وهم المراد بآيات "الشعراء".

- نص السورة

1- مقدمة: عن قريش وإصرارها على التكذيب

بسم الله الرحمن الرحيم

طسم[1] تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ[2]. لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ (مهلكها غما) أَلَّا يَكُونُوا (قريش) مُؤْمِنِينَ[3]. إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً (حجارة أو ظلاما أو...) فَظَلَّتْ (تظل) أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ[4]. وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَانِ مُحْدَثٍ (متجدد، متكرر) إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ[5]. فَقَدْ كَذَّبُوا، فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[6] (البعث والمصير). أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ[7]، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ[8]، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[9].

2- ومن الأنباء التي جاءتهم متكررة نبأ موسى وفرعون:

أ- فرعون يجادل موسى حول "رب العالمين".

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[10]، قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ[11]؟ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي[12]، وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ[13] (ليذهب معي)، وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ (كان قد قتل قبطيا) فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ[14]. قَالَ كَلَّا، فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ[1] مُسْتَمِعُونَ[15]، فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ[16]، (يقول لك) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ[17]؟ قَالَ (فرعون) أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ[18]، وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ (قتلك قبطيا) وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ[19]. قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا (ضربت الرجل)، وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ[20] (لم أكن أعلم أن ضربي إياه سيؤدي إلى قتله). فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ، فَوَهَبَ

1- موسى وهارون وفرعون.

لِي رَبِّي حُكْمًا (علما) وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ[21]. وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ (استعبدت) بَنِي إِسْرَائِيلَ[22]؟ قَالَ فِرْعَوْنُ، وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ[23] (الذي بعثك إلي)؟ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ مُوقِنِينَ[24]. قَالَ (فرعون) لِمَنْ حَوْلَهُ: أَلَا تَسْتَمِعُونَ[25]؟ قَالَ (موسى) : رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ[26]. قَالَ (فرعون لحاشيته) : إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ[27]! قَالَ (موسى) : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ[28]. قَالَ (فرعون) لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ[29]. قَالَ (موسى) : أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ[30]؟ قَالَ (فرعون) فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ[31].

ب- موسى يلقي عصاه وينتصر على السحرة.

فَأَلْقَى (موسى) عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ[32] (عظيم)، وَنَزَعَ يَدَهُ (من جيبه) فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ[33]. قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ[34]، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ، فَمَاذَا تَأْمُرُونَ[35]؟ قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ (أخر أمرهما) وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ[36] (يجمعون السحرة)، يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ[37]. فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ[38]. وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ[39]؟ (تعالوا اجتمعوا) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ[40]. فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ[41]؟ قَالَ نَعَمْ، وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ[42]. قَالَ لَهُمْ مُوسَى : أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ[43]، فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا : بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ[44]. فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ[45] (يموهون)، فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ[46]؟ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ[47]، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ[48]. قَالَ (فرعون لهم) آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ؟ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ (تواطأتم معه)، فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ: لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ[49]. قَالُوا لَا ضَيْرَ، إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ[50]. إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ"[51].

ج- خروج موسى وبني إسرائيل وغرق فرعون

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى (بعد أن قضى سنين يدعو فرعون وقومه ولم يستجيبوا) أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي (بني إسرائيل)، إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ[52] (يتبعكم فرعون وقومه لردكم). فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ[53] (جامعين له الجيوش وقال لهم) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ[54]. (أي بنو إسرائيل عددهم قليل)، وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ[55]

(مقلقون)، وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ[56] (محتاطون). فَأَخْرَجْنَاهُمْ (أخرج الله فرعون وجيوشه) مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ[57]، وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ[58] (ليتبعوا بني إسرائيل). كَذَلِكَ (كان)، وَأَوْرَثْنَاهَا (بهلاكهم) بَنِي إِسْرَائِيلَ[59]. فَأَتْبَعُوهُمْ (لحقوا بهم) مُشْرِقِينَ[60] (وقت شروق الشمس)، فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ[61] (من طرف فرعون وجنده)، قَالَ (موسى) كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِي[62]. فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ (انشق) فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ (الجبل) الْعَظِيمِ[63]. وَأَزْلَفْنَا (قربنا) ثَمَّ الْآخَرِينَ[64] (فرعون وقومه)، وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ[65]، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ[66] (2)، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ[67]، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[68].

2- ... وأنباء صراع إبراهيم مع قومه حول الأصنام ...

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ[69]، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ[70]، قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ[71]. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ[72]، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ[73]. قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ[74]. قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ[75] أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ[76]! فَإِنَّهُمْ (الأصنام) عَدُوٌّ لِي (ولا أعبد) إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ[77]، الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي[78]، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي[79]، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي[80]، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ[81]، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ[82]. رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا (علما) وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ[83]، وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ[84]، وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ[85]، وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ[86]، وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ[87]، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ[88]، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ[89]. وَأُزْلِفَتِ (قربت) الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ[90]، وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ[91]، وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ[92]، مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ[93]، فَكُبْكِبُوا (ألقي بهم) فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ[94]، وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ[95]. قَالُوا (آلهة المشركين) وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ[96]، تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[97]، إِذْ نُسَوِّيكُمْ (الخطاب إلى ما كانوا يعبدون) بِرَبِّ الْعَالَمِينَ[98]، وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ[99] (الشياطين)، فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ[100]، وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ[101]، فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً (رجعة

2- فرعون لم يغرق كما ورد في سورة أخرى.

أخرى) فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[102]. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ[103]، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[104].

3- ... وأنباء نوح مع قومه ... والطوفان.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ[105]، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ[106]، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ[107]، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي[108]، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ[109](3)، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي[110]. قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ[111] (الفقراء والضعفاء)، قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[112]، إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ[113]. وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ[114]، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ[115] (4). قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ[116]. قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ[117]، فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا (احكم بيننا) وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[118]، فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ[119] (الممتلئ)، ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ[120]. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ[121]، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[122].

4- ... وأنباء عاد ومصيرهم ...

كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ[123]، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ[124]، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ[125]، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ[126]، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ[127]. أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ (مكان مرتفع) آيَةً (بناء) تَعْبَثُونَ[128] (تسرفون)، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ (خزانات للماء) لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ[129]، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ[130]، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ[131]. وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ[322]، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ[133]، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ[134]، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[135]. قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ[136]، إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ

3- ربما كانوا يعرضون عليه المال والجاه إن هو كف عن أصنامهم، كما فعلت قريش مع النبي عليه السلام.

4- كذلك قالت قريش للنبي (ص) فجاءهم الجواب من القرآن : "وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ" (الأنعام 52)

الْأَوَّلِينَ[137]، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ[138]. فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ[139]، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[140].

5- ... ثمود ومصيرهم ...

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ[141]، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ[142]، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ[143]، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي[144]، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ[145]، أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ[146]، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ[147]، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ[148] (عذب)، وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ[149] (مترفين)، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي[150]، وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ[151]، الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ[152]. قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ[153]، مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ[154]، قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ[155] وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ[156]، فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ[157]. فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ[158]، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[159].

6- ... وأنباء قوم لوط ومصيرهم ...

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ[160]، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ[161]، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ[162]، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي[163]، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ[164]. أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ[165]، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ[166]. قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ[167]، قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ[168] (المبغضين)، رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ[169]، فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ[170]، إِلَّا عَجُوزًا (امرأته) فِي الْغَابِرِينَ[171] (أهلكناها)، ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ[172]، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ[173]، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ[174]، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[175].

7- ... وأنباء قوم شعيب ومصيرهم...

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ[176]، إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ[177]، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ[178]، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي[179]، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ

إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ[180]. أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ[181]، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ[182]، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ[183]، وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ (والخليقة) الْأَوَّلِينَ[184]. قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ[185]، وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ[186]، فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا (أجساما) مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ[187]. قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ[188]، فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ (الحريق)، إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[189]. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ[190]، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[191].

8- خاتمة: تأكيد النبوة، وأنذر عشيرتك الأقربين

وَإِنَّهُ (القرآن) لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ[192]، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ[193]، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ[194]، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ[195]، وَإِنَّهُ (الذكر القرآني) لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ[196] (كالتوراة والإنجيل). أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ (لمشركي مكة) آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ[197] (يعرفون مجيء محمد النبي الأمي) ؟ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ[198]، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ[199]. كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ (جعلنا القرآن) فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ[200]: لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ[201]، فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[202]، فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ[203] (ممهلون حتى نؤمن)؟ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ[204] (ألم يكونوا يستعجلونه)؟ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ[205] ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ[206]، مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ[207]؟ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ[208]، ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ[209]. وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ (بالقرآن) الشَّيَاطِينُ[210]، وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ[211]! إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ[212]، فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ[213]. وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ[214]، وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ (ألِنْ معاملتك) لِمَنِ اتَّبَعَكَ (أي لمن يستجيب لك منهم وصاروا) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[215]، فَإِنْ عَصَوْكَ (أي أهلك وعشيرتك) فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ[216] (5). وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ[217]، الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ[218] (للصلاة)،

5- في هذا الآيات ما يثير التباسا في الفهم. وقد حدث ذلك لبعض المفسرين. ومكمن الالتباس موضعان: أولهما عبارة : "لمن اتبعك من المؤمنين"، والمفروض أن المؤمنين جميعا يتبعونه فلماذا استعمال "من" هنا وهي تفيد "البعض"؟ وثانيهما عبارة "فإن عصوك"!=

وَتَقَلُّبَكَ (تحركك قائما راكعا...) فِي السَّاجِدِينَ[219] (المصلين)، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[220]. هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ[221]، تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ[222] (كالكهنة والمنجمين والذين يهجون النبي من الشعراء)، (الشياطين) يُلْقُونَ السَّمْعَ (أي ما سمعوه إلى الكهنة) وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ[223]. وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ[224]، أَلَمْ تَرَى أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ[225]، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ[226]، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا (للنبي والقرآن) مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا[(6)]. وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ[227].

تعليق

تكتسي هذه السورة أهمية خاصة لورود آية "وأنذر عشيرتك الأقربين" الشيء الذي يشير، على صعيد مسار الدعوة، إلى ابتداء لحظة جديدة، هي الانتقال من دعوة الأفراد سرا وجهرا إلى دعوة الجماعة. والجماعة التي أمر النبي بالبدء بها هي "عشيرته الأقربين". وقد رأينا في التقديم تفصيل ذلك. وقد قدر بعض الرواة أن عدد الذين حضروا ليستمعوا إليه بلغ أربعين شخصا، والغالب أنهم جميعا قد سمعوا بنبوة الرسول عليه السلام وكان فيهم المؤمنون وغير المؤمنين. وقد حدد بعضهم تاريخ هذه الاجتماع في السنة الرابعة أو الخامسة. وهذا تقدير فيه نظر! لأن إسلام حمزة وعمر والهجرة الأولى إلى الحبشة، وهي أحداث وقعت في النصف الثاني من السنة الخامسة، كان قد مر عليها وقت. وإذن فلعل الأقرب إلى الصواب أن يقال إن ذلك حدث في السنة السادسة ونيف.

وهنا لابد من التذكير بأن المفسرين والرواة يقدرون الأمور حسب ترتيب المصحف ولذلك نجدهم يربطون بين رد فعل أبي لهب بعد الاستماع إلى خطاب النبي (ص) في الأقربين من عشيرته، وهو قوله "تبا لك، ألهذا جمعتنا" (يا محمد)، أقول يربطون ذلك بـــ "نزول" سورة "المسد" التي ذكروها في موقع الجواب منه عليه

فعلى من يعود الضمير؟ وسبب الالتباس هو عدم الارتباط بالسياق ككل من قوله : "وأنذر عشرتك". وقد انتبه الزمخشري إلى المعنى الكلي الذي يعطيه السياق فقال في معنى الآيات المذكورة: " أنذر قومك فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض لـــهم جناحك، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالـــهم من الشرك باللـــه وغيره".

6- كان في مكة شعراء يهجُون النبي صلى الله عليه وسلم منهم النضر بن الحارث، والعوراء بنت حَرب زوجُ أبي لهب وغيرهما... وكان هناك شعراء مسلمون يردون عليهم وهم المستثنون في الآية.

السلام على أبي لهب. وسورة المسد من أوائل السور (رقم 6 في لوائح ترتيب النزول. انظر تعليقنا بصددها: سورة المسد رقم 3). ويكفي أن يقارن المرء بين ترتيب النزول وترتيب المصحف ليلاحظ الفرق الزمني بين سورة المسد وسورة الشعراء وسورة الحجر التي ورد فيه قوله تعالى "اصدع بما تؤمر"، وهذه الآية تذكر في كتب التفسير والسيرة قبل "أنذر عشيرتك الأقربين"، مع أنها نزلت بعدها. ذلك أن ترتيب هذه السور الثلاث في المصحف هو كما يلي : سورة الحجر رقم 15 وسورة الشعراء رقم 26 وسورة المسد، 111. أما في ترتيب النزول فالسور المذكورة مرتبة كما يلي: المسد 6 الشعراء 47 الحجر 54 فالترتيبان معكوسان. والنظرة تختلف عند اعتماد أحدهما مكان الأخر. فسورة الشعراء تقع قبل سورة الحجر في ترتيب النزول وبالتالي فـ"انذر عشيرتك الأقربين" نزلت قبل "اصدع بما تؤمر" أما سورة المسد فهي سابقة لهما بمسافة طويلة.

بقي أن نشير إلى العلاقة بين مقدمة السورة التي ورد فيها قوله تعالى: "لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ (مهلكها غما) أَلَّا يَكُونُوا (قريش) مُؤْمِنِينَ"[3]، وبين خاتمها التي وردت فيها الآية التي نحن بصدد : "وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ". وقد سبق أن نبهنا إلى أهمية الانتباه إلى العلاقة بين المقدمة والخاتمة في السور.

فالمقدمة تطرح الموضوع الذي سيدور عليه الخطاب في السورة، ليأتي بعدها ما هو بمثابة التحليل لذلك الموضوع، ثم تأتي الخاتمة بالنتيجة من التحليل.

وبناء عليه يمكن القول إن النبي كان حين نزول السورة في حالة نفسية قلقة بسبب إعراض قريش عن الاستجابة وإصرار خصوم الدعوة الكبار، أمثال أبي جهل وأبي لهب الخ، على محاربتها بكل الوسائل، فجاءت هذه السورة لتنبه النبي أولا إلى أنه يجب أن لا يقلق ولا "يحمل الهم القاتل"، وأن عليه أن يتأسى بتجارب الأنبياء السابقين، التجارب التي عرضتها هذه السورة بشكل مركز، مكررة ما ورد سابقا من قصص الأنبياء، في فقرات مستقلة تنتهي كل منها بقوله تعالى: "إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ". (عزيز قوي شديد على المكذبين، رحيم بالمؤمنين). وواضح أن استعادة مجمل القصص التي سبقت حكايتها إنما المقصود منه التخفيف من قلق الرسول لكون قومه لم يستجيبوا للدعوة، كما ورد ذلك في مقدمة السورة : "لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ (مهلكها غما) أَلَّا يَكُونُوا (قريش) مُؤْمِنِينَ"[3].

وتأتي خاتمة السورة لترتبط بمقدمتها من جديد ولتؤكد للنبي أن القرآن الذي يُعرضون عنه وينكرون أن يكون من عند الله هو فعلا تنزيل من "رب العالمين، نزل به الروح الأمين" (جبريل). والدليل على ذلك أن معانيه وقصصه وتعاليمه هي نفسها

التي جاءت بها الكتب السماوية السابقة، وبإمكان قريش أن تتأكد من ذلك لدى علماء بني إسرائيل فهم يجدون في التوراة ما في القرآن كما أن فيها إخبار بمجيء محمد النبي الأمي قبل ظهوره. والفرق بين الكتب السماوية وبين القرآن هو أنه لم يلحقه تغيير وقد نزل "بلسان عربي مبين" ليفهمه العرب، ولو جاءهم بلسان أعجمي لما فهموه... يلي ذلك تهديد ووعيد لمشركي قريش، ثم دعوة النبي أن "انذر عشيرتك الأقربين". يلي ذلك بيان أن القرآن ليس من إيحاء الشياطين ولا هو بتخرصات المنجمين والكهان.

وهكذا تختم بثلاثة أمور : الأول دعوة الرسول إلى الثبات على موقفه: "فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ"213. والثاني دعوته أن "أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ"214. والثالث التأكيد له بأن الله يراه ويرعاه، وأن لا يهتم بهجاء الشعراء المشركين له ولا بمن يرددون شعرهم : "وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ224، أَلَمْ تَرَى أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ225، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ226 ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا (للنبي والقرآن) مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا(7). وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ"227.

وهذا نرى أن السورة كلها تدور حول ما بدأت به : "لَعَلَّكَ (يا ممد) بَاخِعٌ نَفْسَكَ (مهلكها غما) أَلَّا يَكُونُوا (قريش) مُؤْمِنِينَ". هدفها تبديد ذلك الهم وتسلية حامله وتثبيت فؤاده وتقوية عزيمته.

بقي علينا أن نشير إلى الطابع الخاص ب"بنية" هذه السورة، ولعل الزمخشري هو الوحيد بين المفسرين الذي لاحظه وأبرزه. قال: "كل قصة من القصص المذكورة في هذه السورة كتنزيل برأسه. وفيها من الاعتبار ما في غيرها، فكانت كل واحدة منها تُدلي بحق في أن تختم بما اختتمت به صاحبتها. ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم وأبعد من النسيان. ولأن هذه القصص طُرقت بها آذان ووُقِرت عن الإنصات للحق، فكوثِرت بالوعظ والتذكير ورُوجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذناً أو يفتق ذِهناً". وهذا الذي لاحظه الزمخشري ينطبق في الحقيقة على سبع سور متتابعة أولها هذه، وسنعود إلى هذا الموضوع في الآخرة منها.

7- كان في مكة شعراء يهجُون النبي صلى الله عليه وسلم منهم النضر بن الحارث، والعوراء بنت حَرب زوجُ أبي لهب وغيرهما... وكان هناك شعراء مسلمون يردون عليهم وهم المستثنون في الآية.

48 - سورة النمل

- تقديم

لم يرد شيء يذكر عن هذه السورة سوى أنها مكية باتفاق، وأنها من السور التي تحمل أكثر من اسم واحد، إذ تسمى سورة سليمان أيضا، وأنها نزلت بين سورة الشعراء وقبل سورة القصص، كما في لوائح ترتيب النزول. ولعل غياب روايات أسباب نزول الآيات عن هذه السورة أن القسم الأعظم منها استعادة لقصص سبق أن قصها القرآن في سور سابقة (مع التوسع في قصة سليمان). أما باقي السورة فهو تقريع للمشركين. وهذه السورة تشبه في بنيتها السورة السابقة (انظر التعليق).

- نص السورة

1- مقدمة: إنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم

بسم الله الرحمن الرحيم

طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ[1]، هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ[2]، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ[3]. إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ[4] (يتحيرون)، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ[5]. وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ[6] (فذكرهم بالقصص التالية).

2- إلى فرعون ... فانظر كيف كان عاقبة المفسدين!

إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا (رأيت) سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ (نهتدي به بعد أن ضللنا الطريق) أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ[7] (تستدفئون). فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا (أي موسى) وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[8]. يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[9]. وَأَلْقِ عَصَاكَ! فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ (حية) وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ (لم يرجع). يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي

لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ[10]، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ[(1)] فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ[11]. وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ. (اذهب) فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ[12]. فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً (فاعلة مؤثرة) [(2)] قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ[13]. وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ، ظُلْمًا وَعُلُوًّا (جحدوا بها ظالمين متكبرين بعد أن تأكدوا منها)، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ"[14]

3- بلقيس: إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ... وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ!

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ[15]. وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ[16]. وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ[17] (يجمعون ويساقون)، حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ[(3)] قَالَتْ نَمْلَةٌ : يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[18]، فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ[19]. وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ، فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ (هو) مِنَ الْغَائِبِينَ![20] لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي (إلا إذا استطاع أن يأتيني) بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ[21]. فَمَكَثَ (الهدهد زمنا) غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ

1- قد يكون المراد هنا هو موسى: فقد ظلم بقتله القبطي ثم بدل حسنا بعد سوء، أي تاب.

2- في التوراة: أن إله موسى ضرب فرعون وقومه عشر ضربات (بعشر آيات) قبل أن يذعن فيسمح لبني إسرائيل بالخروج مع موسى إلى فلسطين. كان فرعون يتوسل بعد كل ضربة إلى موسى ليدعو ربه ليمحو الضربة، واعدا إياه بإطلاق سراح بني إسرائيل، وبمجرد ما تزول الضربة ينكث فرعون وعده فتأتي الضربة الثانية وهكذا إلى عشر ضربات هي: الأولى ضرب موسى بعصاه ماء النيل (أو البحر) فتحول إلى دم، الثانية دعا موسى ربه فسلط الله على فرعون وقومه الضفادع، وفي الثالثة سلط عليهم البعوض فغزا بيوتهم، وفي الرابعة هاجمتهم أسراب من الذباب، وفي الخامسة أهلك الله مواشيهم كلها، وفي السادسة أصيبوا بدماميل متقيحة، وفي السابعة أمطروا بعواصف من البرَد، وفي الثامنة غزاهم الجراد، وفي التاسعة خيم عليهم ظلام كثيف، وفي العاشرة أهلك جميع الأبكار من مصر، أبكار البشر وأبكار الحيوان... وبعد هذه أذعن فرعون وسمح لبني إسرائيل بالخروج. (التوراة: سفر الخروج، 10/7) والقرآن أشار إلى تسعة زائدا العصا فالمجموع عشرة.

3- يقال: بالشام.

(لسليمان): أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ (قبيلة في اليمن) بِنَبَإٍ يَقِينٍ[22]: إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ (هي الملكة بلقيس) وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ[23]؟ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ[24]: (زين لهم الشيطان) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ (ما هو مختبئ) فِي السَّمَاوَاتِ (المطر) وَالْأَرْضِ (النبات) وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ[25]. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ[26]. قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ[27]! اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ[28] (كيف سيكون جوابهم)، (ذهب الهدهد وألقى إلى بلقيس الكتاب، فقرأته وخاطبت قومها) قَالَتْ: يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ[29] (ونصه): إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ[30]، أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ[31]. قَالَتْ (الملكة بلقيس) يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِي[32] (إلا بمحضركم). قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ، وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ[33]. قَالَتْ: إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ[34] (4). وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ (5) فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ[35]. فَلَمَّا جَاءَ (رسول بلقيس) سُلَيْمَانَ قَالَ: أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ! فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم، بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ[36] (أنتم محتاجون إليها). ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا (لا يستطيعون مقاومتهم) وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ[37]. قَالَ: يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ[38] (مستسلمين)؟ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ: أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ[39]. قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ (عالم من أهل الكتاب) أَنَا آتِيكَ بِهِ (بعرشها) قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ (في رمشة عين)، فَلَمَّا رَآهُ (رأى سليمان العرش) مُسْتَقِرًّا عِندَهُ، قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ. وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ[40]. قَالَ (سليمان) نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا (أي غيّروه إلى حال لا تتعرف

4- اختلف المفسرون في "وكذلك يفعلون" هل هو من قولها، "أي عادة الملوك المستمرة تلك من الإفساد والتذليل، وكانت ناشئة في بيت الملك، فرأت ذلك وسمعت. ذكرت ذلك تأكيداً لما ذكرت من حال الملوك. وقيل: هو من كلام الله إعلاماً لرسوله صلى الله عليه وسلم وأمته، وتصديقاً لإخبارها عن الملوك إذا تغلبوا". وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس.

5- تريد اختباره بالهدية، إن قبلها فهو ملك وإن رفضها فهو نبي".

عليه إذا رأته) نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ[41]. **فَلَمَّا جَاءَتْ** (الملكة أروها العرش): **قِيلَ** (لها) **أَهَكَذَا عَرْشُكِ؟ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ.** (فقال سليمان) **وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ**[42]. **وَصَدَّهَا** (عن الإسلام: الإيمان بالله) **مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ**[43]. **قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ** (حوضا من زجاج) **فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً** (ماء) **وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا** (كي لا يبتل ثوبها)، **قَالَ** (لها سليمان) **إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ** (حوض من زجاج) **قَالَتْ : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**[44] (6).

4- قوم ثمود: أقسموا أن يقتلوا النبي صالح ... فدمر الله بيوتهم!

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ (مؤمنون به ومكذبون) **يَخْتَصِمُونَ**[45]، **قَالَ** (للمكذبين) **يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ؟ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**[46]، **قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ** (من المؤمنين). **قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ** (7) **بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ**[47].

6- ذكر بعض المفسرين الذين ينقلون عن الاسرائيليات أن الملك سليمان تزوجها الخ. أما في التوراة فقد ورد أنه "عِندَمَا بلغت أخبار سليمان "مَسامع مَلِكَة سَبأ، قَدمت لتلقي عَليه أسْئلةً عَسِيرَةً، 2فوَصَلَت أورُشَليمَ فِي مَوكِبٍ عَظِيمٍ جِداً، وَجِمال مُحمَّلةٍ بأطياب وذهب وفير وحِجارةٍ كريمةٍ... 4ولَمَّا رَأت مَلِكة سَبأ كل حِكمة سُليمان، وشَاهَدت القَصْرَ الَّذي شَيَّدَهُ، 5ومَا يُقدَّمُ عَلى مائدَتِه مِنْ طعَامٍ، ومَجلِس رِجال دَوْلَتِهِ، ومَوقِف خُدَّامِه وملابسهِمْ... 6قالت له: إنَّ الأَخبارَ التِي بَلَغَتنِي فِي أَرْضِي عَنْ أُمورِكَ وحِكمتِكَ هِي حقًّا صَحيحةٌ. 7ولَمْ أُصَدِّقْها فِي بادِئِ الأَمْرِ حتَى جِئت وَشاهَدْت، فوَجَدْت أَنَّ مَا بَلَغَنِي لا يُجاوِزُ نِصفَ الحَقِيقَةِ، فَقَدْ رَأَيْت أَنَّ حِكمتَكَ وَصَلاحَكَ يَزِيدَانِ عمَّا سَمِعْتهُ مِنْ أَخبارِكَ... 10وأَهْدَتِ المَلِكَ مِئةً وَعِشرِينَ وَزْنَةً (نحْوَ أَرْبَعَةِ آلافٍ وثَلاثِ مِئةٍ وعِشرِينَ كِيلو جِراماً) مِنَ الذَّهَب وأَطْيَاباً كَثِيرَةً وَحِجارَةً كريمَةً، فكانَتِ التوابِل التِي أهدَتهَا مَلِكَةُ سَبأ للمَلِكِ سُلَيمَانَ مِنَ الوَفْرَةِ بحَيْث لَمْ يُجْلَبْ مِثْلُهَا فِي مَا بَعْد". ولم يرد ما يفيد أنه تزوجها على الرغم مما ذكرت التوراة من أن "سُلَيمَانُ أُوْلِعَ بنِسَاءِ غَرِيبَاتٍ كَثِيرَاتٍ، فَضْلاً عَنِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ، فَتَزَوَّجَ نِسَاءً مُوآبِيَّاتٍ وَعَمُّونِيَّاتٍ وأَدُومِيَّاتٍ وَصِيدُونِيَّات وَحِثِّيَّات، 2وكُلُّهُنَّ مِنْ بَنَاتِ الأُمَمِ التِي نَهَى الرَّبُّ بَنِي إِسْرَائيل عَنِ الزَّوَاج مِنْهُمْ قَائِلا لَهُمْ: «لا تَتزَوَّجُوا مِنهُمْ وَلا هُمْ مِنكُمْ، لأَنَّهُمْ يُغْوُونَ قُلوبَكمْ وَرَاءَ آلِهَتِهِمْ». وَلَكِنَّ سُلَيمَانَ التَصق بهِنَّ لفرْطِ مَحبَّتِهِ لَهُنَّ. 3فَكَانَت لَهُ سَبْعُ مِئَةِ زَوْجَةٍ، وثَلاث مِئَةِ مَحْظِيَّةٍ، فَانحَرَفْنَ بقَلبِهِ عَنِ الرَّبِّ. 4فاستَطعْنَ فِي زمَنِ شَيْخُوخَتِهِ أَنْ يُغْوِينَ قَلبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخرَى" فعبد ... عَشْتَارُوثَ آلِهَةَ الصِّيدُونِيِّينَ، ومَلكُومَ إِلَهَ العَمُّونِيِّينَ البَغِيض، 6وارْتَكَبَ الشرَّ فِي عَيْنَي الرَّبِّ، ولَمْ يَتبَعْ سَبيلَ الرَّبِّ بكمَالٍ كمَا فَعَل أَبُوهُ دَاوُدُ". (كتاب الملوك الأول).

7- شؤمكم عند الله: يعني هو السبب في التشاؤم والتفاؤل.

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ (مدينة ثمود: الحجر) تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ[48]، قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ (أقسموا بالله) لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ (نقتلهم ليلا) ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ[49]. وَمَكَرُوا مَكْرًا، وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[50] (8). فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ[51]. فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا (بسبب ظلمهم، تعرفها قريش لأنها في طريقهم إلى الشام) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[52]، وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ[53].

5- قوم لوط: قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حجرا

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ[54]؟ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ[55]. فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ[56]. فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ[57] (قضينا أن تكون منهم)، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا (حجارة) فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ[58].

6- أَاللَّهُ خَيْرٌ أم ما يُشْرِكُونَ؟... هم قوم منحرفون!

قُلْ (يا محمد) الْحَمْدُ لِلَّهِ (على هلاك كفار الأمم الماضية) وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى. أَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا (أم ما) يُشْرِكُونَ[59]، أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ، مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا! أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ (هل من إله آخر أعان الله على ذلك)، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ[60] (عدلوا عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام)؟ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (هادئة) وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ (جبالا) وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ (النيل العذب والبحر الأحمر المالح) حَاجِزًا (حجز كلا منهما فلا يدخل في مجرى الآخر)؟ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[61]، أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ؟ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ؟ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ[62]. أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ؟ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ[63]. أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ

8- خططوا حيلة وخططنا حيلة، فكان هلاكهم.

مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ؟ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ[64]. قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ. وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ[65]. بَلْ ادَّارَكَ (هل أدرك) عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ؟ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ[66].

7- لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا، أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ[67]؟ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ، إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ[68]! قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ[69]. وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ[70]. وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ[71]، قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ (قريب منكم) بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ[72]. وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ[73]، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ[74]، وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ[75]. (ومن الأمور الغائبة عن الناس أخبار الماضي مثل اختلاف بني إسرائيل): إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ[76] (9)، وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ[77]. إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ (يوم القيامة) بِحُكْمِهِ (علمه وعدله) وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ[78]. فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ[79]. إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ[80] (خصوصا إذا ابتعدوا). وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ! إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ[81]. وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ[82] (10).

---

9 – وذلك أنهم اختلفوا في كثير من الأشياء تخص دينهم.

10– ذهب المفسرون في شر ح هذه الآية مذهبا لا يتسق مع أسلوب القرآن في الدعوة والإقناع، والذي جرهم إلى ذلك ما انتقل إليهم من الموروث القديم وأساطير الأولين حول ما نسج حول "دابة" يقال إنها هي التي يبتدئ بها قيام الساعة. ومثل هذا التفكير لا يتسق مع منهج القرآن. ونحن نرى أن الرجوع إلى السياق يغني عن جميع تلك الخزعبلات. فلقد وصف قريش بالصمم والعمي: "إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ" فهم كالدواب، ففي هذا الإطار يجب فهم الآية أعلاه: "وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ"، والمعنى: هم لا يسمعون كلام العقل فهم دواب، من أجل ذلك قررنا أنه يوم تقوم القيام وينادون للحساب نبعث بدابة تكلمهم، وتخبرهم أن الناس الناجين يوم القيامة كانوا في الدنيا يوقنون بآيات الله. هم دواب فلا يفهمون إلا كلام الدواب. وهذا على سبيل السخرية.

8- قيام الساعة وجهنم للمشركين: هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ.

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ[83] (يجمعون بردّ آخرهم إلى أولهم ثم يساقون)، حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ (لهم الله) أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا؟ أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[84]؟ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ[85]. أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا! إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[86]. وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ[87] (صاغرين). وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ : صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ، إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ[88]. مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ[89]، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[90].

9- خاتمة: فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِه وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ.

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي[(11)] حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ[91]، وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ . فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ[92]، وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[93].

- تعليق

تنطلق هذه السورة كسابقتها من الإشارة إلى آيات القرآن "تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ"، والمقصود العلامات والحجج والمعجزات التي خص الله بها أنبياءه وقص أخبارها في هذه السورة. ثم تخاطب السورة الرسول عليه السلام لتؤكد له أن أخبار هذه الآيات تأتيه من الله بواسطة جبريل": وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ"، وليس من الشياطين كما يدعي الكهان والقصاص أنهم يتلقون منها أكاذيبهم.

11- قرئ: "التي" أي مكة التي عظم الله حرمتها؛ أي جعلها حرما آمنا؛ لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصاد فيها صيد، ولا يعضد فيها شجر".

بعد ذلك تأخذ السورة عرض هذه الآيات فتذكر بتكليم الله موسى وتلكيفه بفك أسار بني إسرائيل من عسف فرعون والخروج بهم من مصر... ومن قصة موسى تنتقل إلى سليمان وقصته مع الملكة بلقيس ملكة اليمن وما تحمله تلك القصة، التي يقصها القرآن لأول مرة، من دروس وعبر... ثم تعود إلى قصة صالح مع قومه ثمود فتضيف عناصر جديدة بالنسبة لما ورد عنها في السورة السابقة، ثم تذكر بقصة لوط، لتتجه بعدها إلى قريش باللوم والتقريع على عبادتهم الأصنام، مطالبة إياهم أن يستعملوا عقولهم، فيقارنوا بين ما يخلق الله وما يعطي، وبين أصنامهم التي يعبدون وهي لا تسمع ولا تنفع... ثم تخاطب الرسول وتنصحه بعدم الانشغال بهم : "وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ" لتتخلص إلى التأكيد على البعث والحساب والعقاب. والتأكيد على أنهم سينالون جزاءهم يوم تقوم الساعة.

وأخيرا تختم السورة مستعيدةً ما طرحته في المقدمة طالبة من الرسول (ص) أن يعبد الله ويتلو القرآن: "فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنْ الْمُنْذِرِينَ"

واضح إذن أن هذه السورة تُثَنِّي السورة السابقة وتكررها شكلا ومضمونا، وأيضا على صعيد فواتح السورة : السورة السابقة فاتحتها الحروف ط. س. م والسورة الحالية فاتحتها الحرفان: ط. س. والسورة التالية فاتحتها ثلاثة كالأولى : ط. س. م ، ولذلك تسمى هذه السور بـ"الطواسين".

49- سورة القصص

- تقديم

يذكر المفسرون أن قوله تعالى في هذه السورة : "إنَّكَ لا تَهدي مَن أَحبَبتَ" نزل في أبي طالب لما حضرته الوفاة وطلب منه الرسول أن يسلم، فامتنع... وورد في إحدى الروايات أنه: لما مات أبو طالب اشتدّ ذلك على النبيّ (ص) فقالوا للنبي: ما تنفع قرابة أبي طالب منك؟ فقال: «بَلى والّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنه السّاعَةَ لَفِي ضَحْضاحٍ مِنَ النّارِ، عَلَيْهِ نَعْلانِ مِنْ نارٍ، تَغْلي مِنْهُما أُمُّ رأسه، وما مِنْ أهْلِ النّارِ مِنْ إنْسانٍ هُوَ أهْوَنُ عَذَابا مِنْهُ، وَهُوَ الّذِي أنْزَلَ اللّهُ فِيهِ إنّكَ لا تَهْدِي مَنْ أحْبَبْتَ، وَلَكِنّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ، وَهُوَ أعْلَمُ بالمُهْتَدِينَ" (رواه الطبري). ومثل هذا الكلام من الصعب تصديق صدوره عن النبي (ص) علما بأن أبا طالب هو الذي تكفل به منذ صغره وأنه هو الذي حماه من أذى قريش إلى أن توفي. ونحن لا نستبعد أن تكون هذه الرواية موضوعة. فأبو طالب هو ولد علي بن أبي طالب، وكان الطالبيون أي العلويون في نزاع مع العباسيين حول الخلافة كما هو معروف. أما في رواية أخرى فقد ورد العكس، قالوا : قال له الرسول : "لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك"، وأضاف بعضهم : فأنزل الله عز وجل "ما كانَ للنَبِيِّ وَالَّذينَ آمَنوا أن يَستَغفِروا للمُشركينَ وَلَو كانوا أُولي قُربى" وهذه الآية مدنية من سورة التوبة. أما سورة القصص فهي مرتبة في لوائح ترتيب النزول تحت رقم 49، وموقعها في هذه الرتبة يدل على أنها نزلت قبل وفاة أبي طلب بسنتين أو ثلاث. ومما يوهن الرواية التي تربط بين آية سورة القصص وآية سورة التوبة وجود روايات أخرى تجعل سبب نزول آية التوبة مناسبات أخرى (انظر التفاصيل في الطبري).

- نص السورة

1- مقدمة: آيات الكتاب ... ونريدُ أنْ نَمُنَّ عَلَى الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ...

بسم الله الرحمن الرحيم

طسم[1]. تِلْكَ آياتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ[2]. نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[3]: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ

طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ[1] إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ[4]. وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ (بنو إسرائيل: بتخليصهم من فرعون) وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً (ملوكا)[2] وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ[5] وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ[3]، وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ[6] (وهو أن يفنى ملكهم على يد موسى. هامان: رئيس جيش فرعون).

2- قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ (كبراء القوم) يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ...

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ[7]. فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا (بدون أن يخطر ببالهم ذلك)، إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ[8]. وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ (وقد همَّ على قتل الصبي موسى، اجعله) قُرَّةُ عَيْنٍ لِي. لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[9] (بما سيكون نتيجة لذلك). وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى (لما علمت بالتقاطه) فَارِغًا (إلا منه) إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ (حتى إنها كادت أن تصرح بأنه ابنها) لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[10]. وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ (استقصي أخباره)؛ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ (عن بعد) وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[11]. وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ (فصار لا يقبل أية مرضعة)، فَقَالَتْ (لهم أخته) هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ[12]. (فوافقوا، وذهبت لتأتي بأمه) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[13]. وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا (حكمة) وَعِلْمًا (نبوة)، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[14]. وَدَخَلَ (موسى) الْمَدِينَةَ (مدينة فرعون) عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ : هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ، فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى (ضربه بجمع كفه) فَقَضَى عَلَيْهِ. قَالَ (موسى) هَذَا (العمل أي قتله الرجل) مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ[15]. قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي، فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ

---

1 - انظر سورة الأعراف (رقم 39) هامش 25

2- "وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً" (المائدة 20).

3- يسيطرون على بلدان، كما حدث زمن داوود وسليمان.

الرَّحِيمُ[16]. قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا (معينا) لِلْمُجْرِمِينَ[17]. فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ (ما سيفعلون به بعد قتله الرجل)، فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ (يستغيث به من جديد على قبطي آخر) قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ (غاو للقتل) مُبِينٌ[18]. فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا (للمستغيث ولموسى)، قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ، إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ، وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ[19] (4). وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى، قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ (كبراء القوم) يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ(5) فَاخْرُجْ (من المدينة) إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ[20]. فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ (بحذر)، قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[21]. وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ (نحو) مَدْيَنَ(6) قَالَ : عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ[22]. وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً (جماعة) مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ (ماشيتهم)، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ (قريبا منهم) امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ (تمنعان أغنامهما من الماء). قَالَ مَا خَطْبُكُمَا (ما بكما)؟ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ (يصرف رعاة الأغنياء غنمهم بعد الشرب) وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ[23] (لا يقوى على سقي الغنم). فَسَقَى لَهُمَا (من بئر أخرى) ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي، لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ، فَقِيرٌ[24]. فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، قَالَتْ : إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا. فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ (قصة قتله القبطي وخوفه أن يقتلوه) قَالَ (له شعيب) لَا تَخَفْ! نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[25]. قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ (اجعل منه أجيرا يرعى غنمنا)، إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ[26] (فهو قوي أمين). قَالَ (شعيب لموسى): إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ (أزوِّجك) إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَةَ حِجَجٍ (أن تكون أجيرا راعيا لي ثماني سنين) فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ (تبرعا)، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ. سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ[27]. قَالَ (موسى ليكن) ذَلِكَ.

---

4 – سمع ذلك القبطي عتاب موسى لصاحبه فعلم أن القاتل هو موسى، فانطلق إلى فرعون فأخبره بذلك، فأمر فرعون الذباحين بقتل موسى فاتجهوا إليه.

5 – يتشاورن لقتلك بالقبطي الذي قتلته أمس.

6 - وهي مدينة نبي الله شعيب، وهو مثله من نسل إبراهيم.

بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ، فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ (ليس في أي المدتين قضيت ضرر بي) وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ[28].

3- فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ (المدة التي التزم بها مع شعيب) وَسَارَ بِأَهْلِهِ (بزوجته، بنت شعيب، إلى مصر) آنَسَ (أبصر) مِنْ جَانِبِ (جبل) الطُّورِ نَارًا! قَالَ لِأَهْلِهِ (وكان قد ضل الطريق) امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ (يرشدنا إلى الطريق)، أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ[29] (تستدفئون). فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ (جانب) الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ[(7)] أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ[30]، وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ! فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ (حية) وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ. (ناداه الله) يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ[31]. اسْلُكْ (ادخل) يَدَكَ فِي جَيْبِكَ (جيب قميصك) تَخْرُجْ (العصا) بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ (يدك، تتحرر) مِنَ الرَّهْبِ. فَذَانِكَ (العصا واليد) بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ[32]. قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي[33]؛ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا (معينا) يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ[34]. قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا؛ بِآيَاتِنَا، أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا، الْغَالِبُونَ[35]. فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى، وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ[36]. وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ[37]. وَقَالَ فِرْعَوْنُ : يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ (الكبراء) مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ (وزيره) عَلَى الطِّينِ (اطبخ الطين واصنع منه آجورا) فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا (مكانا عاليا، هرما؟) لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ[38]. وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ[39]. فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ[(8)] فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ[40]، وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً

7- التي كان عندها لقاؤه مع الله. وقيل إن الصوت كان يأتيه من داخلها، وهي شجرة "العليقة" التي يقال إن النار كانت تنبعث منها دون أن تحترق.

8 - انظر تفصيل ذلك في التعريف بالقرآن. القصص في القرآن. قصة موسى وفرعون. السورة السابقة

يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ (إلى ما يؤدي إلى جهنم)، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ[41]. وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ[42] (المُبعَدين). وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ (التوراة) مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ (الأمم) الْأُولَى، بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[43].

4- وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ...

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ (من جبل طور) إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ (كلفناه بالرسالة)، وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ[44] (ما كنت يا محمد حاضرا وإنما قصصنا عليك ذلك عبرة)، وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا (أمما بينك وبين موسى) فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ (طالت المدة على الناس فنسوا)، وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا (مقيما) فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا، وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ[45] (ذلك إليك بالوحي). وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا (موسى)، وَلَكِنْ (أطلعناك على ذلك) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ (هم العرب) لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[46]. وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ، فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا (هلا) أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[47]! فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا (هلا) أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى (كتابا منزلا دفعة واحدة)! أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ: قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا (تعاونا علينا)، وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ[48] (9). قُلْ (لقريش) فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا (من كتاب موسى وكتاب محمد) أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ[49]. فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ. وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ؟ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[50].

5- وصلنا القول لقريش من خلال النصارى الموحدين

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ (قصصنا لقريش خبر الأنبياء السابقين) لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[51]. (أما) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ (الرسول محمد فـ) هُمْ بِهِ

9- "أَوَلَمْ يَكْفُرُوا ...". من المفسرين من جعل الضمير يعود على قريش وأوردوا لتعزيز ذلك "سبباً للنزول" مؤداه: "أن أهل مكة بعثوا رجالا منهم إلى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن أمر محمد (ص) فأجابوهم : "إنا نجده في التوراة بنعته وصفته"، فلما رجع مبعوثو قريش إلى مكة وأخبروا أهلها بما قال اليهود، قالوا: "إنا بكلٍّ من الكتابين كافرون".

يُؤْمِنُونَ[52] (10). وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ[53]. أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ[54]. وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ[55].

6- إنك لا تهدي من أحببت، التعرض للأصنام.

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ (قيل الإشارة إلى عميه أبي جهل وأبي طالب) وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ[56]. وَقَالُوا (قريش) إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا (تنتزع منا أرضنا). أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا (مكة) آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[57]. وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا (كفرت وتبخترت) فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ (مهدمة على الطريق إلى الشام)، لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ[58]. وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا (كبراها، عاصمتها) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ[59]. وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ[60]. أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا (في الآخرة) فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ[61] (للحساب، ثم النار). وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ (الله) فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ (الأصنام) الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ[62]؟ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ (الشياطين من ذرية إبليس الذين أضلوهم) رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ، كَمَا غَوَيْنَا : تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ[63]. وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ! فَدَعَوْهُمْ (استغاثوا بهم) فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ، وَرَأَوُا الْعَذَابَ. لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ [64] (لما رأوه)! وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ (الله) فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ[65]؟ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ (لم يعرفوا بما يجيبون) يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ[66]. فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ[67]. وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ[68]. وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ

10- ذكروا أن رجالا ممن أوتوا الكتاب من بني إسرائيل كانوا يؤمنون بالرسول محمد وينتظرون ظهوره. وأن آخرين من الشام وكانوا أئمة النصارى، فيهم أنزل الله تعالى هذه الآية والتي بعدها "أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا". وهؤلاء كانوا من النصارى الأريوسيين الموحدين. انظر التعريف بالقرآن. الفصل الأول والثاني.

وَمَا يُعْلِنُونَ[69]. وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[70]. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ! مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ[71]؟ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ! مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ[72]؟ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[73]. وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ[74]؟ وَنَزَعْنَا (أخرجنا) مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا (عليهم هو نبيهم) فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ، فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[75].

7- قارون وقوة المال ... والمصير.

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ (ثقيلة عليهم)، إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ[76]. وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ[77]. قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ (المال) عَلَى عِلْمٍ عِندِي[(11)]، أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ (الأمم) مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا، وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ[78] (لا يسألون لماذا اقترفوها، فالمهم أن الجريمة ثابتة). فَخَرَجَ (قارون) عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ، قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ[79]. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ: وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ[80]. فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ[81]. وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ : وَيْ كَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ! لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا! وَيْ كَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ[82]! تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ[83]. مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[84].

---

11 – المعنى: أعطاني ذلك مع كونه عالماً بي وبأحوالي فلو لم يكن ذلك مصلحة لما فعل، وعندي أن الأمر كذلك.

8- خاتمة: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ.

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ[(12)] لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ (إلى الجزاء) [(13)]: قُلْ (لهم) رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[85]. وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ[86] (لا تضعف ولا تيأس فيكون ذالك نصرا للكافرين)! وَلَا يَصُدُّنَّكَ (الضعف واليأس) عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ، وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[87]. وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[88].

- تعليق

تنطلق هذه السورة كسابقتها من تحديد موضوع الخطاب فيها فتشير إلى أنها ستعرض آيات ودلائل وحجج من "الكتاب الحكيم"، الذي يضم الحكمة المبثوثة في "كتاب التاريخ"، تاريخ الأنبياء مع أقوامهم، كما في كتاب الطبيعة التي ينطق نظامها واطراد أحوالها بدروس لمن يتفكرون. كان الغرض من الخطاب في السورة قبل الأخيرة، سورة "طسم" الأولى، طمأنة النبي عليه السلام والتخفيف من قلقه من استمرار قريش في الإعراض عن الإيمان به حتى بات يخشى من فشل دعوته؛ وكان الهدف في السورة الثانية (طس) فعل الشيء نفسه بالنسبة لأصحابه المؤمنين بإطلاعهم على آيات من القرآن فيها "هدى وبشرى للمؤمنين"، المقيمين للصلاة والمؤتين الزكاة والموقنين بالآخرة، بأن لهم الجنة. أما الذين لا يؤمنون بالآخرة المنساقين مع أهوائهم والذين لا يعرفون للحياة معنى آخر غير إشباع شهواتهم، فهم الذين سيخسرون في الآخرة ويكون مصيرهم العذاب.

12- فرض عليك القرآن: جعل القرآن من نصيبك، كما جعل التوراة من نصيب موسى. قارن الفرائض: توزيع الإرث.

13- اختلفت تأويلات المفسرين لهذه الآية، فمنهم من فسر "المعاد" هنا بوعد بالرجوع إلى مكة، ومنهم من قال إنه "الجنة" الخ، يدورون مع المعنى اللغوي للكلمة. أما نحن فنرى أن المعنى الذي يفرضه السياق هو "المعاد" بمعنى يوم الحساب والجزاء، الشيء الذي يعني أن النبي (ص) سيجازى يوم القيامة كبقية البشر، وأنه واقع هو الآخر كالبشر جميعا تحت طائلة الوعد والوعيد. والآيات التالية صريحة في هذا المعنى : قوله تعالى "فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ" وقوله: وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"، وهذا مصداقا لقوله تعالى في آيات أخرى مثل قوله: " وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا، إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا" (الإسراء 74-75).

أما موضوع السورة التي نحن ضيوف عليها، ثالثة الطواسين، فهو بيان كيف أن الله يريد أن يمن وينعم على الذين استضعفوا ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين، يمكنهم لهم في الأرض. وقد اتخذت السورة من قصة موسى مع فرعون وسيلة لهذا البيان ودليلا تاريخيا على صدقه وحتمية تحقيقه.

وهكذا تبدأ السورة في عرض تفاصيل هذه القصة من البداية : كان فرعون يقتل المواليد (الذكور) لطائفة من شعبه لأنه قيل له إن زوال ملكه وهلاك جنده وحاشيته سيكون على يد واحد من أولئك المواليد. ومن أجل إزالة هذا الطغيان هيأ الله الظروف لمولود لأحدى الأمهات من الطائفة المضطهدة حتى أصبح يعيش، ومعه أمه وأخته، في قصر فرعون تحت رعاية زوجة هذا الأخير. كان الهدف من ذلك تمكينه من الإفلات من المصير الذي فرضه فرعون على الذكور من مواليد بني إسرائيل... كبر موسى وصار شابا فهيأ له الله الظروف التي جعلته يقتل قبطيا، فيخاف أن يعتقل، ويهرب إلى مدين سيعيش مع نبيها الرجل الصالح شعيب الذي زوجه ابنته واقترح عليه البقاء معه عشر سنين قبل أن يعود هو وأهله إلى مصر. وفي الطريق إلى مصر كلمه الله تكليما وكلفه بالذهاب إلى فرعون والعمل على تحرير بني إسرائيل من طغيانه، والرجوع بهم إلى فلسطين التي كانوا قد غادروها إلى مصر زمن يوسف. ومع امتناع فرعون وجدله في كون موسى نبيا من عند الله، وإنكاره أن يكون هناك إله غيره، منح الله لموسى آيات معجزات مكنته من الخروج ببني إسرائيل من مصر. ولما علم فرعون بذلك لحق بهم يتقدمه جنوده فغرقوا في البحر بينما أنجى الله فرعون ليبقى ذكره درسا للطغاة ...

بعد هذه القصة تعود السورة إلى مخاطبة الرسول لتؤكد أن هذا الذي قصته عن فرعون هو وحي من الله إليه ورسالة إلى قومه قريش الذين تأخذ السورة في تقريعهم وتأنيبهم وتسفيه أصنامهم الخ. ثم تعود إلى قارون الذي كان من قوم موسى يمثل طغيان المال كما كان فرعون يمثل طغيان السلطة. وبينما كان يقيم حفلا ضخما إشهارا لثروته، إذا بالأرض تخسف به فما أنقذه ماله ولا المعجبون به: "وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ : وَيْ كَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ! لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا (بالقناعة) لَخَسَفَ بِنَا! وَيْ كَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ".

وأخيرا تختم السورة، مستعيدة موضوعها من المقدمة، مخاطبة الرسول عليه السلام: : "وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ[86] (لا تضعف فيكون ذالك نصرا للكافرين)! وَلَا يَصُدُّنَّكَ (الضعف واليأس) عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ، وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"[87].
واعلم أن "الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ" (انظر أعلاه هامش رقم 13).

50- سورة يونس

- تقديم

ذكر المفسرون مرويات في موضوع نزول بعض آيات هذه السورة وهي مرويات تنحصر فائدتها في كونها تشير إلى بعض جوانب العلاقة بين مشركي مكة والنبي عليه السلام. من ذلك ما رووه حول قوله تعالى في مستهل هذه السورة "أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرْ النَّاسَ". قالوا، عن ابن عباس: "لما بعث الله محمد رسولا أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم، فقالوا له : الله اعظم من أن يكون رسوله بشرا، فأنزل الله تلك الآية، وأنزل "وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا" الآية. فلما كرر الله عليهم الحجج قالوا : وإذا كان بشرا فغير محمد كان أحق بالرسالة! لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم يعنون الوليد بن المغيرة من مكة، ومسعود بن عمرو الثقفي من الطائف، فأنزل ردا عليهم : "أهم يقسمون رحمة ربك" الآية.

وفي قوله تعالى: "وَإِذَا تُتْلَى عَلَيهِم آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرجُونَ لِقَاءَنَا"،روي أنه نزل في خمسة من مشركي مكة، قالوا للنبي (ص): ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى. وقال بعضهم: نزلت في المستهزئين حين قالوا: يا محمد ائت بقرآن غير هذا، فيه ما نسألك.

والملاحظ أن جل هذه الروايات تذكر كمناسبات لنزول آيات أخرى، مما يؤكد ما سبق أن قلناه من أن ما يروى كأسباب نزول هو في الغالب اجتهادات الهدف من رواتها ربط آية أو آيات بحوادث سبقت أو تأخرت عن نزول الآية، وأن فائدة هذه المرويات تقع على محيط التفسير. من أجل ذلك يجب أن لا يتعدى الأخذ بها مجال الاستئناس لأخذ فكرة عن بعض جوانب تطابق أو توازي مسار التنزيل ومسار السيرة. أما الفهم فيجب الاعتماد فيه على السياق ومبدأ "القرآن يشرح بعضه بعضا" ومراعاة معهود العرب على العموم.

- نص السورة

1- مقدمة : أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ[1]. أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ! قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ[2]

2- كما يبدأ الخلق يعيده، والجزاء : الجنة أو النار.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ[3]؟ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا، وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا. إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ (في الدنيا) ثُمَّ يُعِيدُهُ (عند قيام الساعة) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ، وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ[4]. هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ (القمر)[(1)] مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ. مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[5]. إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ[6]. إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ[7]، أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[8]. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ[9]، دَعْوَاهُمْ فِيهَا: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ، وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ. وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[10].

3- جعلناكم خلائف في الأرض لننظر كيف تعملون.

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ (أي نتائج أعمالهم السيئة) اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ، (ولكن نمهلهم) فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ

1- لأن العرب كانوا يعتمدون السنين القمرية.

يَعْمَهُونَ[11] (يترددون متحيرين). وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ (مريضا مستلقيا) أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[12]. وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ (يا قريش) لَمَّا ظَلَمُوا، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ[13]. ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ (يا قريش) خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ[14].

4- قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا: ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ!

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ؟ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ؛ إِنِّي أَخَافُ، إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي، عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[15]. قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ(2) أَفَلَا تَعْقِلُونَ[16]! فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ! إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ[17].

5- يتخذون الأصنام شفعاء ويطلبون آية! ... مواقف انتهازية...

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ. قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ (أي كون الأصنام شفعاء عنده)؟ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ[18]. وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (أي لأصدر حكمه) فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ[19] (3). وَيَسْأَلُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ (معجزة) مِنْ رَبِّهِ!

2- عشت معكم أربعين سنة منذ ولادتي لم أدع النبوة حتى جاءني الوحي.

3- اختلف المفسرون في تأويل هذه الآية فرجع بها بعضهم إلى آدم وقالوا كان الناس على عهده أمة واحدة! منهم من قال كانوا على الكفر ومنهم من قال كانوا على الإيمان، وآخرون رجعوا بها إلى نوح بعد الطوفان الخ. ونحن نرى أن السياق يقتضي الانطلاق من أن الخطاب موجه إلى قريش : يشنع عليهم عبادة الأصنام والاعتقاد في شفاعتها، زمن الدعوة المحمدية، ثم يذكرهم بأن "الناس" والمقصود هنا قريش بالذات، والعرب عموما، كانوا أمة واحدة أي على دين إبراهيم -وهم يقولون إنه جدهم الأعلى- ثم اختلفت ذرية فكان منهم يهود ونصارى وكان منهم من بقي على إيمانه بالله ولكن اتخذوا الأصنام شفعاء لهم عنده. ولولا أن الله قرر تأجيل الحساب إلى يوم القيامة لحكم بينهم وسيكون العرب الذين يعبدون=

فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ، فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ[20]. (على أن هؤلاء الذين يطلبون آية ينسون الواقع التالي:) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا(4)، قُلْ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا. إِنَّ رُسُلَنَا (الملائكة) يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ[21]. (كما ينسون أنه) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ (السفن) وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ، دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (قائلين): لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ[22]. فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ (يمارسون الظلم والفساد) فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ.

6- بغيكم على أنفسكم ... والله يدعو إلى دار السلام.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، (هو مجرد) مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[23]. إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى، إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ، وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا (على حصادها والانتفاع بها)، أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا (حريقا أو زلزالا)) فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ (تزهر) بِالْأَمْسِ. كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[24]. وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ (التي لا تجري فيها مثل هذا الحرائق والكوارث) وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[25]. لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا (لهم) الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[26]. وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ (فالحساب :) جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا، وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ، مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ، كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ (ألبست) وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ

=الأصنام هم الخاسرون لأنهم خرجوا عن دين إبراهيم ورجعوا إلى دين قومه الذين حاربوه وأرادوا إحراقه.

4- يقول بعض المفسرين: إن الإشارة هنا إلى مطر بعد جفاف أصاب قريشا، نسبوه إلى الأنواء الخ. والظاهر أن معنى هذه الآية يتكرر في عدة سور، من ذلك مثلا قوله تعالى: "وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ" (الزمر 8)، وإذن فلا مبرر لتخصيص تلك الآية بمطر الخ. انظر أيضا قبله الآية 12 وبعده مثال الريح والسفن في البحر في الآية التي تلي هذه. وقوله "مكروا بآياتنا" أي فسروها بما ينسبونها لأصنامهم أو ما يعتقون فيه مصدرها كالأنواء وغيرها.

فِيهَا خَالِدُونَ[27]. وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا (ألزموا) مَكَانَكُمْ، أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ (أي الأصنام التي اتخذتموها شركاء مع الله)! فَزَيَّلْنَا (فرّقنا) بَيْنَهُمْ. وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ[28]، فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ[29]. هُنَالِكَ تَبْلُو (تختبر) كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ، وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ، وَضَلَّ عَنْهُمْ (ذهب) مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (يكذبون) [30].

7- الأصنام لا فعل لها ... فكيف تعبدونها؟

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ أَمَّنْ (أو قل من) يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ؟ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ (النبات) مِنَ الْمَيِّتِ (التراب) وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ (الخشب) مِنَ الْحَيِّ (الشجر)؟ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ؟ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ. فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ[31]! فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ. فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ[32] (تهربون). كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[33]. قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (حياة ثم موت ثم حياة)؟ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ[34] (تكذبون). قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ؟ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ، أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى؟ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ[35]. وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا. إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ[36].

8- يقولون افتراه! قل فأتوا بسورة مثله. قل: لي عملي ولكم عملكم.

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ (من الكتب السماوية) وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ[(5)] لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ[37]. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ؟ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[38]، بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ (لم يتبين نزوله ولم يتبين مآله بعد)! كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ[39]. وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ[40]. وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ، أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ[41].

5- معظم المفسرين على أن المقصود هو الكتاب المكنون في اللوح المحفوظ.

9- إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ (ولكن لا يؤمنون)! أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ[42]؟ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ، أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ[43]. إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[44]. وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ، قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ[45]. وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ (في الدنيا) بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ (من العذاب والهلاك) أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ (قبل ذلك) فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ، ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ[46]. وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ. فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ (يوم القيامة) قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[47]. وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[48]، قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ، إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ[49]. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا (ليلا) أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ[50]؟ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ! آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ[51]؟ ثُمَّ قِيلَ (يقال) لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ[52]! وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ؟ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ[53]. وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ، ظَلَمَتْ، (جميع) مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ (العذاب)! وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[54]. أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[55]. هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[56].

10- وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ! إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ[57]. قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ، فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا، هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ[58]. قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا! قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ[59]. وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ[60]. وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ (تفكر فيه) وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ (حول هذا الشأن) مِنْ قُرْآنٍ، وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ، إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا، إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ. وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي

كِتَابٍ مُبِينٍ[61]. أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[62]: الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ[63]، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ. لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ. ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[64]. وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ! إِنَّ الْعِزَّةَ (القوة) لِلَّهِ جَمِيعًا. هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[65]. أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ. وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ! إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ. وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ[66] (يتوهمون ويخمّنون). هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ[67]. قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا! سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، إِنْ (هل) عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا؟ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[68]؟ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ[69]. (الكذب ونتائجه) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ، ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ[70].

11- قال نوح: لا تمهلوني... وقد نجاه الله. فلا تيأس...

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ، فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً (لا تترددوا)، ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ (نفذوا ما أردتم) وَلَا تُنْظِرُونِي[71] (تمهلوني)؟ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ (تراجعتم) فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ[72]. فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ، وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا. فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ[73]. ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ. كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ[74].

12- لفرعون : أَلْآنَ؟! وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ!

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ[75]. فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ[76]. قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ: أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ[77]؟. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ (السيطرة على مصر)؟ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ[78]. وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ[79]. فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى: أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ

مُلْقُونَ[80]؟ فَلَمَّا أَلْقَوْا، قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ (هو) السِّحْرُ! إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ. إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ[81]. وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ[82]. فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ[83]. وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ[84]. فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[85]، وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ[86]. وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ (أنشآ) لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا، وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ (تلك) قِبْلَةً، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ[87]. وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، رَبَّنَا، لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ! رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ[88]. قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ [6] سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ[89]. وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا، حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ : آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ[90]. أَالْآنَ؟! وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ[91]! فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً. وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ[92]. وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ[93].

13- هل أنت شاك في قضيتك؟ هؤلاء لا يؤمنون ...!

فَإِنْ كُنْتَ (يا محمد) فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ (التوراة) مِنْ قَبْلِكَ (فهم يعرفون قصص أنبيائهم). لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ[94] (الشاكين). وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ[95]. إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ[96] وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ، حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ[97]. فَلَوْلَا (فهلا: لم يحدث أن) كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ

6- قال الزجاج من أهل اللغة: قوله: "وَلا تَتَبِعَآنِّ" موضعه جزم، والتقدير: ولا تتبعا، إلا أن النون الشديدة دخلت على النهي مؤكدة وكسرت لسكونها وسكون النون التي قبلها، فاختير لها الكسرة، لأنها بعد الألف تشبه نون التثنية". فعل مضارع مجزوم بلا الناهية دخلت عليه نون التوكيد.

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ[98] (7). وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْـأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ[99]. وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ (العذاب) عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ[100]. قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ[101]. فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ؟ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ[102]، ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا، كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ[103].

14- خاتمة: وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ...

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[104]. وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[105]، وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ[106]. وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ[107]. قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ[108]. وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ[109].

7- وهكذا فبعد الحكم العام والحتمي بالهلاك للأقوام الذين كذبوا رسلهم بما فيهم جنود فرعون تستثني السورة قوم يونس. فهم قد آمنوا قبل أن يروا العذاب. هذا، ولا تذكر هذه السورة، ولا القرآن كله، أي شيء عن قصة قوم يونس هؤلاء، غير أن المفسرين يروون: "أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام وترك ما هم عليه فأبوا. فقيل: إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيئس من إيمانهم. فقيل له: أخبرهم أن العذاب مُصبحهم إلى ثلاث (خلال ثلاثة أيام) ففعل، فقال قومه: هو رجل لا يكذب فارقبوه، فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم، وإن ارتحل عنكم فهو نزول العذاب لا شك؛ فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتأكدوا من صدق دعواه، فتابوا ودعوا الله ولبسوا المسوح وفرقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم، وردوا المظالم في تلك الحالة" (القرطبي) .. وقد وردت قصة يونس في التوراة واسمه هناك بالآرامية: يونان، وذلك في السفر المسمى باسمه، كما تمت الإشارة إليه في إنجيل متى. وما ذكره القرطبي هنا يلخص ما ذكر بشأنه في التوراة، مع اختلافات بسيطة. انظر إضافات من التوراة في هامش 4 سورة القلم أعلاه رقم 35

- تعليق

بعد مجموعة الطواسين الثلاثة المتتابعة -حسب ترتيب النزول- تأتي مجموعة "الر" (الأربعة المتتابعة منها وهي سور: يونس، هود، يوسف، الحجر)[8]. والمجموعتان تشكل مجموعة متميزة بتشابه بنياتها إلى درجة التطابق. إنها تنطلق جميعا من مقدمة تبدأ بالإشارة إلى "آيات الكتاب" (المبين... الحكيم)، لتنتقل بعد ذلك إلى التذكير بتجارب كفاح الأنبياء السابقين وكيف أن الله نجاهم من مكائد خصومهم، وأهلك المكذبين من أقوامهم، لتخلص بعد ذلك -أو قبله- إلى مواجهة قريش، مركزة على مسألتين أساسيتين: إبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام، وإثبات البعث والحساب والمصير: إما إلى الجنة وإما إلى النار. ثم تنتهي كل سورة من هذه المجموعة بما ابتدأت به، مستعيدة المقدمة في شكل جديد.

وهكذا، فهذه السورة (سورة يونس) التي انطلقت من قوله تعالى: "أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرْ النَّاسَ وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ"، تستعيد في الخاتمة مضمون تلك المقدمة في صورة جديدة وعلى مرحلتين: تبتدئ الأولى بقوله عز وجل: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ". أما الثانية فتختم السورة بتوجيه نفس الخطاب إلى النبي (ص) بصيغة جديدة ذات دلالة، قائلة: "وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ".

ولعل ما تتميز به هذه السورة عن أخواتها السابقات هو الإشارة مرارا إلى تحديات قريش للنبي (ص) وطلبهم منه أن يبدل القرآن ويعترف بالأصنام أو يأتي بمعجزات الخ، ويأتي الجواب يحمل تحديا واضحا لقريش: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ، فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِي". وهذا الجواب يلمح إلى مؤامرات كانت قريش تحيكها ضد النبي (ص) وأن النبي عليه السلام كان على علم بها فتحداهم القرآن على لسان نوح أن ينفذوها مؤكدا لهم أن النتيجة لن تختلف عن تلك التي جناها قوم نوح وهي إغراقهم. ثم تؤكد السورة ذلك بالتذكير بصراع موسى مع فرعون الذي انتهى بدوره إلى إغراق قوم هذا الأخير.

---

[8] - هناك سورة أخرى فاتحتها "الر" سورة إبراهيم وهي مكية وقد رتبت بين رتبة 69 ورتبة 72 في لوائح ترتيب النزول.

ومن أجل أن لا ييأس الرسول (ص) نهائيا من قومه تأتي الإشارة إلى قصة قوم يونس الذين تجنبوا المصير المحتوم الذي لقيه قوم نوح وقوم فرعون، وذلك بأن آمنوا بعد أن دعا عليهم يونس بالهلاك وتيقنوا أن يونس كان مخلصا في إنذاره لهم، إذ بادر فكان أول الهاربين من الهلاك الذي دعا به عليهم. وقد عانى يونس نفسه من عاقبة الهرب: فألقي به في البحر والتقمه الحوت. ولكن دعا ربه فأنقذه بأن رمى به البحر إلى الشاطئ، وكانت في ذلك نجاته هو الآخر.

وهذه الإشارة إلى قصة يونس تستعيد السورة مغزاها في مرحلة ثانية من خاتمها حيث يخاطب تعالى رسوله الكريم قائلا: "وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ". ثم يتوجه تعالى بمغزى قصة يونس إلى قريش أيضا طالبا من رسوله تبليغها إياهم: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ".

ومما يلفت الانتباه في القسم الذي أوردته السورة من قصة موسى وفرعون قيام موسى بدعوة الناس إلى التوحيد قبل أن يطلب من فرعون السماح لبني إسرائيل بالخروج معه من مصر إلى فلسطين. ذلك أن موسى، فما سبق من السور، كان يتجه رأسا إلى فرعون، لكن هذه السورة تقدم لنا معلومات جديدة تتلخص في كونه قام بالدعوة إلى الله كباقي الأنبياء ولم يقتصر على خوض المعركة مع فرعون من أجل تحرير بني إسرائيل من طغيانه. وهكذا تحدثنا هذه السورة عن دعوة موسى لآل فرعون وملأه إلى الإيمان بالله وأنهم رفضوا وقالوا: "أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا (موسى وهارون) الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ (السيطرة على مصر)؟ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ"[78]. وكما دعا كموسى آل فرعون قام بالدعوة في قومه بني إسرائيل: "فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ". ويخاطب موسى قومه: "يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ"[84]. فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[85]، وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ"[86]. حينذاك، أمر الله موسى وهارون أن يقيموا بيوتا لعبادة الله ويوجهوا الناس إليها: "وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ (أنشئا) لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا، وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ (تلك) قِبْلَةً، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ"[87].

وهنا يلتحق موسى بنوح وغيره من الأنبياء الذين تعرضوا للتكذيب والإعراض والعناد، لقد أصبحت وضعيته مثل وضعيتهم، فدعا على فرعون

وملأه بالهلاك : "وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، رَبَّنَا، لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ! رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ"[88]. قَالَ (الله) قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا (اثبتا) وَلَا تَتَّبِعَانِّ [(9)] سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ"[89]. وهكذا ينتهي أمر فرعون وملأه إلى الهلاك وهم يطاردون موسى وقومه: يغرق الجند الذين وضعهم فرعون في المقدمة ليحتمي بهم، "حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ : آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ"[90]. ويأتيه الجواب: "أَالْآنَ؟! وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ، وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ"[91]! فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً. وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ"[92]

وواضح أن هذا الاتجاه الجديد الذي أعطاه الوحي لقصة موسى والذي يكرر موقف نوح ويشير بصورة ضمنية إلى وضعية النبي (ص)، دليل على أنه عليه السلام كان يعاني عند نزول هذه السورة من ضغط شديد من طرف قريش -الشيء الذي يؤكد ما لاحظناه في السور السابقة. ومن أجل تسلية النبي (ص) والتخفيف عنه وتثبيت فؤاده، يخاطبه الوحي الإلهي : "فَإِنْ كُنْتَ (يا محمد) فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ (التوراة) مِنْ قَبْلِكَ (فهم يعرفون قصص أنبيائهم). لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ[94] (الشاكين). وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ"[95]. بعد ذلك يأتي هذا التأكيد "الحتمي": "إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ[96] وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ، حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ"[97].

هنا تتدخل تجربة قوم يونس الذين آمنوا في آخر لحظة، فجنبهم الله الهلاك كما رأينا. إذن ليست هناك حتمية: الهلاك لقريش غير حتمي، بل هناك إمكانية تجنب الهلاك وانتصار الدعوة.

9- قال الزجاج من أهل اللغة: قوله: "وَلَا تَتَّبِعَانِّ" موضعه جزم، والتقدير: ولا تتبعا، إلا أن النون الشديدة دخلت على النهي مؤكدة وكسرت لسكونها وسكون النون التي قبلها، فاختير لها الكسرة، لأنها بعد الألف تشبه نون التثنية": فعل مضارع مجزوم بلا الناهية دخلت عليه نون التوكيد.

54- سورة هود

- تقديم

روى البخاري عن ابن عباس عن قوله تعالى في هذه السورة "ألا إنهم يثنون صدورهم". قال : كان أناس يستحون أن يتخلوا (أن يذهبوا إلى الخلاء لقضاء الحاجة) فيُفْضوا بفروجهم إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم". وفي رواية أخرى أخرجها الطبري عن راو آخر قال: "كان أحدهم إذا مر بالنبي (ص) وسلم ثنى صدره لكيلا يراه". فنزلت. ويشير هذا المثال إلى ما أكدناه مرارا من أن روايات أسباب النزول هي في الغالب نتيجة لبحث الرواة عن سبب مناسب للآية، وليس من أجل فهم الآية على ضوء الواقعة التي يعتبرونها سببا للنزول. ذلك أن معنى الآية، موضوع الحديث هنا، واضح من السياق، فالضمير في "منه" في قوله تعالى " يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ" يعود إلى النبي (ص) كما رواية الطبري.

وفي رواية عن ابن مسعود أن قوله تعالى في هذه السورة : "وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات" نزل في رجل "أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي (ص) فأخبره، فأنزل الله هذه الآية، فقال الرجل ألي هذه ؟ قال النبي : لجميع أمتي كلها". وفي رواية أخرى أن رجلا "يقال له أبو اليسر" قال: "أتتني امرأة تبتاع تمرا فقلت : إن في البيت أطيب منه، فدخلت معي البيت، فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت رسول الله (ص) فذكرت ذلك له، فقال : أخلفتَ غازيا في سبيل الله في أهله بمثل هذا[1]؟ وأطرق طويلا حتى أوحى الله إليه فنزلت تلك الآية. ويسمى هذا الحديث الذي ورد في كتب التفسير والحديث بحديث "أبي اليسر".

والغريب أنهم يقولون إن أبا اليسر هذا كان من الأنصار، في المدينة، بينما الآية مكية. ولفظ الحديث يفيد أن الحادثة حدثت في المدينة بدليل قوله "أخلفت غازيا

1- يقال: "خَلَفْتُ الرجلَ في أهله إذا أقمتَ بعدَه فيهم وقمت عنه بما كان يفعله، والهمزة فيه للاستفهام".

في أهله؟ فالغزوات كانت في العهد المدني وليس في المكي. ولذلك كان لابد من التعامل بحذر مع "أسباب النزول"، فهي مفيدة فقط على مستوى فهم جوانب من السيرة وظروف التنزيل.

يمكن القول إذن لم يرد في المرويات ما يخص هذه السورة، فلا بد من الاعتماد عليها وحدها: على علاقتها بما تقدم وتأخر وعلى السياق الخ.

- نص السورة

1- مقدمة: القرآن أحكمت آياته ثم فصلت... إلى الله مرجعكم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الر (قل يا محمد: هذا) كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ(2) مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ[1] (بأمركم) : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ"[2]، وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ، ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ. وَإِنْ تَوَلَّوْا (فقل لهم) فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ[3]، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[4]. أَلا إِنَّهُمْ (يعني المشركين لا يريدون سماع هذا فتراهم) يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ (من النبي، لكي يتجنبوا التقاء بصرهم ببصره)! أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ (يتغطون بها) يَعْلَمُ (الله) مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[5].

2- خلق السماوات والأرض ليبلوكم أيكم أحسن عملا.

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا : كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ[6] (هو نفسه الكتاب الذي أحكمت آياته ثم

2- تعددت أقوال المفسرين حول هذه الآية بناء على أن لفظ "آية" معناه جزء من القرآن. أما نحن فنرى أن هذا اللفظ في القرآن كله يحيل إلى العلامات والمعجزات والدلائل والحجج التي يذكرها الله لحمل العقل البشري على التسليم بأن لهذا العالم صانعا هو الله تعالى وأنه على كل شيء قدير وأن البعث واقع الخ. وإذن فالمعنى أن هذا الكتاب يشتمل على دلائل وجود الله ودلائل البعث الخ، ثم عرضها فيه ببراهين محكمة ثم فصلت بالقصص والأمثال وما أشبه مما يدخل في معهود العرب، وأيضا بلسان عربي مبين.

فصلت). وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ (خلقهن وسخرهن لفائدتكم) لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا؟ وَلَئِنْ قُلْتَ (لهم) إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ[7]. وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ (مدة) مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ؟ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[8]. وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ[9]. وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ، بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ، لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي! إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ[10]. إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ[11].

3- قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ.. ووعيد وتهديد.

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا (لكونهم يقولون) لَوْلَا (هلا) أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ! إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ[12]. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ! قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ (يعني الأصنام) إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ[13]. فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا (الأصنام) لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ، وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ[14] (مقتنعون)؟ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا (فقط، وهم منكرو البعث) نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا (في الدنيا)، وَهُمْ فِيهَا (في الدنيا) لَا يُبْخَسُونَ[15] (لا ينقص لهم منها)، أُولَئِكَ (هؤلاء هم) الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ (لكونهم أنكروا البعث)، وَحَبِطَ (فسد) مَا صَنَعُوا فِيهَا (في الدنيا من أعمال صالحة)، وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[16] (3). أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ (يعني محمد عليه السلام) وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ (يتبعه شاهد من الله هو القرآن) وَمِنْ قَبْلِهِ (قبل القرآن) كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً، أُولَئِكَ (محمد والقرآن وكتاب موسى) يُؤْمِنُونَ بِهِ (بالله)، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ (المتحزبين ضد الإسلام) فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ، فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ (لا تشك في هذا)، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ[17]. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا؟ أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى

3- المعنى : "كل –من ينكر البعث– وأتى بعمل من الأعمال لطلب الأحوال الدنيوية فإنه يجد تلك المنفعة الدنيوية اللائقة بذلك العمل، ثم إذا مات فإنه لا يحصل له منه إلا النار ويصير ذلك العمل الدنيوي في الدار الآخرة محبطاً باطلاً عديم الأثر" (الرازي).

رَبِّهِمْ، وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ (يوم القيامة) هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ. (يقال في وجوههم) أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ[18]، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا (غير مستقيمة) وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ[19]. أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ (الله) فِي الْأَرْضِ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ، يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ (في الآخرة ،لأنهم باشتغالهم بالكذب على الله) : مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ (لحجج القرآن) وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ[20] (الحقيقة بعقولهم). أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ (باللجوء إلى عبادة الأصنام وترك عبادة الله) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[21] (ضاع منهم ما كانوا يكذبون على الله من قولهم مثلا إن الملائكة هم بنات الله وتمثلها الأصنام وهذه تشفع لهم). لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ[22]. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا (أنابوا واطمأنوا) إِلَى رَبِّهِمْ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[23]. مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ (الكافر من جهة)، وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ (المؤمن من جهة)، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا (هل يمكن المساواة بينهما حتى على صعيد المثل)، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ[24].

4- لَنْ يُؤْمِنَ يا نوح مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ (فقال لهم) إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ[25]: أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ[26]. فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا، وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا (من الفقراء والعبيد)، بَادِيَ الرَّأْيِ (اتبعوك من غير تفكير)، وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ[27]. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ (خفيت)، أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ[28]؟ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا، إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلَى اللَّهِ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا، إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ[29]. وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ[30]. وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ، وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا. اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ، إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ[31] (إن قلت ذلك). قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ[32]. قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ، إِنْ شَاءَ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ[33]. وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي -إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ- إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُم، هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[34]. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ! قُلْ إِنْ

افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي (كذبي)، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ[35] (بعبادتكم الأصنام). وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ[36] وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا، وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ[37]. وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ (وأخذ نوح في صنعه)، وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ[38]. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ[39] (لا يزول)، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ[(4)] قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ -إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ- وَمَنْ آمَنَ (احمله أيضا). وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ[40]. وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا، بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ[41]. وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ، وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ: يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ[42]. قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ! قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ. وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ (ابن نوح) مِنَ الْمُغْرَقِينَ[43]. وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي، وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ (السفينة) عَلَى الْجُودِيِّ (جبل اسمه الجودي)، وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[44]. وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ: رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي، وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ[45]. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ[46]. قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ[47]. قِيلَ (لنوح عندما وقفت السفينة) يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ (بالدنيا ويكفرون) ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ[48]. تِلْكَ (القصة) مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ، مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ[49].

5- هود لقومه: فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِي إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ.

وَإِلَى عَادٍ (أرسلنا) أَخَاهُمْ هُودًا، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ[50]. يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي

4- التنور: الوعاء الذي يخبز فيه. فاض التنور : فاض منه الماء كما يفيض عند غليان القدر، كناية على ارتفاع الماء على السفينة.

فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ[51]. وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ، وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ[52]. قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ، وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ[53]. إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ (أصابك) بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ! قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ[54] مِنْ دُونِهِ، فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِي[55] (لا تمهلوني). إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ: مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[56]. فَإِنْ تَوَلَّوْا (تتولوا) فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا، إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ[57]. وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ[58]. وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ[59]، وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ (كذلك)، أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ، أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ[60].

6- فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا.

وَإِلَى ثَمُودَ (أرسلنا) أَخَاهُمْ صَالِحًا، قَالَ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا، فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ[71]. قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا؟ أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ[62]. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ، فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ[63] (خاسرا). وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ[64]. فَعَقَرُوهَا فَقَالَ: تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ. ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ[65]. فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ (هلاك) يَوْمِئِذٍ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ[66]. وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ[67]. كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا، أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ، أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ[68].

7- قرية لوط: فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا...

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا (الملائكة) إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى (مبشرين بالولد)، قَالُوا: سَلَامًا. قَالَ سَلَامٌ. فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ[69] (سمين لاستضافتهم). فَلَمَّا رَأَى

أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ (لا يأكلون) نَكِرَهُمْ (لم يطمئن إليهم) وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً. قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ[70]، وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ (امرأة إبراهيم) فَضَحِكَتْ، فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ[71]. قَالَتْ يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ، وَهَذَا بَعْلِي (زوجي) شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ[72]. قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ[73]. فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى (أخذ) يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ[74] (يناقش مع الملائكة أمر إهلاكهم، خوفا على لوط)، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ (مشفق) مُنِيبٌ[75]. (نودي:) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا! إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ، وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ[76]. وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا (أولئك الملائكة) لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا (كان يعتقد أنهم من البشر وأن قومه سيسيئون إليهم)، وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ[77]. وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ، قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ (كزوجات من إتيان هؤلاء) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي (ضيوفي) أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ[78]؟ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ (في التعامل معهن حسب شهوتنا) وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ[79] (أي اللواط). قَالَ (أتمنى) لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً (لإخراجكم والإلقاء بكم بعيدا) أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ[80] (يمنعكم من الدخول علي) ؟ قَالُوا (الملائكة) يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ، لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ : فَأَسْرِ (أخرج) بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ (أثناءه)، وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ، إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ[81]؟ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا (القرية) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ[82]، مُسَوَّمَةً (عليها علامات تعرف بها) عِنْدَ رَبِّكَ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ[83].

8- وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا...

وَإِلَى مَدْيَنَ (أرسلنا) أَخَاهُمْ شُعَيْبًا، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ، وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ[84]. وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ[85]: (إن) بَقِيَّةُ اللَّهِ (من الحلال) خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ[86] (وما أنا بقادر على منعكم). قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا (من الأصنام) أَوْ (نترك) أَنْ نَفْعَلَ

فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ؟ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ[87]. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا؟ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْه، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ[88]. وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي (لا يكسبنكم شقاقكم عني) أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ[89]؟ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ، إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُود[90]. قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ! وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا، وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ! وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ[91]. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ (أقوى لديكم) مِنَ اللَّهِ، وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا؟ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ[92]. وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ (طريقتكم) إِنِّي عَامِلٌ (على طريقتي)، سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ، وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ[93] (منتظر) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا، وَأَخَذَتْ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ[94]، كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا (يقيموا فيها أحياء)! أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ[95].

9- فرعون يورد قومه يوم القيامة النار.. بئس الورد والمورود.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِين[96] إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه، فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ[97]، يَقْدُمُ قَوْمَهُ (يتزعم) يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمْ النَّارَ، وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ[98]، وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ (الدنيا) لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ[99] (ترادفت عليهم لعنتان).

10- ذلك من أنباء القرى نقصها عليك، وما ظلمناهم ...

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ، مِنْهَا قَائِمٌ (تدل عليها آثارهم) وَحَصِيدٌ[100] (ومنها ما اندثر نهائيا)، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ -الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ- مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ[101] (خسران). وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ[102]. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ، ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ[103]. وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ[104]، يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ[105]. فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي

النَّار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ[106]، خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ[107]. وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ[108] (مقطوع). فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ، مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ[109]. وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ[110]. وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا(5) لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ، إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ[111]. فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ، وَلَا تَطْغَوْا، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[112]. وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ، ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ[113]. وَأَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ (الصبح والمغرب) (6) وَزُلَفًا (أوقاتا، نوافل) مِنْ اللَّيْلِ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ، ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ[114]. وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ[115]. فَلَوْلَا (هلا) كَانَ مِنْ الْقُرُونِ (الأمم) مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنْ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، (لكن لم يكن منهم) إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ[116]. وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ[117]. وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ[118] إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ. وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ[119].

5- تعددت آراء اللغويين في معنى كلمة "لما" بالتشديد. وأوضح ما قيل بشأنها قراءتها "لمّاً" بالتنوين، من اللم، نظير قوله تعالى: "أكلا لما" أي جميعا... بمعنى: وإنَّ كلَّ ما يجمعون ليوفينهم ربك أعمالهم ...

6- أجمع المفسرون على أن الصلاة المطلوبة هنا هي الصلاة المفروضة (مرتان في اليوم ونوافل في الليل)، واختلفوا في كيفية تحديد طرفي النهار مع الصلوات الخمس التي ترسمت في المدينة. وذكر أن بعض الخوارج قالوا بصلاتين فقط بناء على ظاهر الآية أعلاه وأن "الخمس" لم تذكر في القرآن وإنما أخذت من الصحابة، وقد استنكره جمهور السنة هذا الرأي. ويروى أن نافع بن الأزرق زعيم أكبر فرق الخوارج سأل ابن عباس "هل تجد ميقات الصلوات الخمس في كتاب الله؟ قال: نعم: فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ المغرب، وَحِينَ تُصْبِحُونَ الفجر، وَعَشِيًّا العصر، وَحِينَ تُظْهِرُونَ الظهر. (الآية كما يلي: "فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ" (الروم 17-18). والسورة مكية وبعضهم يقول إن الآية 17 مدنية. وسنعود إلى الموضوع عند تناولنا لهذه السورة.

11- خاتمة : وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك.

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ (السورة) الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ[120]. وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ[121]، وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ[122]. وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[123].

- تعليق

تنتظم هذه السورة، كما هو واضح، في سلك السور السابقة، منذ سورة الشعراء؛ فهي إذ تبتدئ مثلها بالإشارة إلى موضوع السورة، وهو "آيات الكتاب"، تشرع في ذكر أركان العقيدة،: التوحيد، والخلق، والبعث، لتفصل القول فيها من خلال الجدل مع قريش والتذكير بقصص الأنبياء كشهادات تاريخية تؤكدها، فعرضت لقصة نوح وصراعه مع المكذبين من قومه، مبرزة أن قومه قد صمموا على تكذيبه مؤكدة له أن "لَنْ يُؤْمِنَ يا نوح مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ". ثم تنتقل السورة إلى صراع النبي هود مع قومه عاد، الصراع الذي انتهى إلي عزمهم على التخلص منهم فتحداهم قائلا: "فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِي إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ"، فأنجاه الله كما أنجى من بعده صالحا والذين معه من المؤمنين، ولوطا وشعيبا أنجاهما ومن معهما وأهلك الباقين المكذبين. أما فرعون الذي قاد قومه إلى الغرق وأنجاه الله بمفرده ليبقى عبرة فسيكون في مقدمتهم يوم القيامة يوردهم النار. ثم تعقب السورة على ما تقدم مخاطبة النبي عليه السلام : "ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ"، مؤكدة قوله تعالى: "وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ -الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ- مِنْ شَيْءٍ".

وتأتي الخاتمة لتستعيد مضمون المقدمة مع بيان الهدف مما ذكرته السور. يقول تعالى: "وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ (السورة) الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ. وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ، وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ".

تثبيت لفؤاد النبي (ص)، وتحد صريح لقريش بتنفيذ ما يقولون في مجالسهم من ضرورة التخلص من محمد عله السلام، أمران يتكرران خلال السور السابقة، وبصورة خاصة منذ سورة الشعراء التي ورد فيها "وأنذر عشيرتك

الأقربين"، إن ذلك يشير إلى الظروف الصعبة التي كانت الدعوة المحمدية تمر بها. وسنفصل القول في هذه الظروف بعد حين.

52- سورة يوسف

- تقديم

قيل إن اليهود بالمدينة بعثوا إلى زعماء قريش بمكة بسؤال يطلبون طرحه على النبي عليه السلام للتأكد من نبوته. يقول السؤال: أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر، فبكى عليه حتى عمي؟ قال الراوي: "فأنزل الله عز وجل سورة يوسف"جملة واحدة؛ فيها كل ما في التوراة من خبر وزيادة".

وفي رواية أخرى عن سعد بن أبي وقاص: أن أصحاب النبي (ص) سألوه أن يقص عليهم فنزلت سورة يوسف :"الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ، إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ" الخ (يوسف 1-4).

وفي السورة ما يؤكد أنها نزلت جوابا عن سؤال من نوع السؤال الأول، وليس لمجرد القصص.

- نص السورة

1- مقدمة : نحن نقص عليك أحسن القصص...

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ[1]، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ[2]. نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا (بوحينا) إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ[3].

2- رويا يوسف:... وتآمر إخوته... وبيعه لمسافر إلى مصر

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا (إخوته) وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ (أبوه وأمه) رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ[4]. قَالَ (أبوه): يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ

عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ[5]. وَكَذَلِكَ (إذا كتمت رؤياك) يَجْتَبِيكَ (يختارك) رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ (تعبير الرؤيا) وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ (أبيك) كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ: إِبْرَاهِيمَ (والد جدك) وَإِسْحَاقَ (جدك). إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[6]. لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ (عبر) لِلسَّائِلِينَ[7] (1)، إِذْ قَالُوا (أي أخوة يوسف) لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ (شقيقه الأصغر بنيامين) أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ (جماعة قوية)، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[8]. (قال بعضهم لبعض) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ[9]! قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ، وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ (ظلام) الْجُبِّ (البئر) يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ (المسافرين)، إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ[10]. قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ[11] (2). أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ (يمرح) وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ[12]. قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ[13]، قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ (جماعة) إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ[14]! فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ (صنيعهم) هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[15] (3)، وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ[17]، قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ، وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ[18]. وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ (قميص يوسف ملطخا) بِدَمٍ كَذِبٍ (غير دم يوسف)! قَالَ (أبوهم) بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ[19]. وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ (مسافرون من مدين إلى مصر) فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ (الذي يسقي لهم الماء) فَأَدْلَى دَلْوَهُ، قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ! (فعلم إخوة يوسف بذلك) وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً (اتخذوه بضاعة للتجارة) (4) وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ[19]. وَشَرَوْهُ (باعوه) بِثَمَنٍ بَخْسٍ، دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ، وَكَانُوا فِيهِ مِنْ الزَّاهِدِينَ[20]. وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ (من

---

1 - "أي لقد كان للذين سألوا عن خبر يوسف آية فيما أخبروا به.

2- في التوراة أن إخوة يوسف كانوا قد خرجوا يرعون غنما فأرسله أبوه ليأتيه بأخبارهم مع مواشيهم، فلما رأوه قادما نحوهم تآمروا عليه لمحاباة أبيهم له دونهم، إذ اشترى له قميصا أحمر...

3- المعنى: أوحينا إلى يوسف لتخبرنّ إخوتك مستقبلا بفعلهم هذا الذي فعلوه بك، وهم لا يُحِسُّون بذلك ولا يشعرون به.

4- المعنى: ولما علم إخوة يوسف بأخذ التجار له، لحقوهم وقالوا: هذا غلامنا هرب منا، فاشتروه منهم بثمن بخس. وفي التوراة: "قَالَ يَهُوذَا لإِخْوَتِهِ: «مَا جَدْوَى قَتْلِ أَخِينَا وَإِخْفَاءِ دَمِهِ؟ تَعَالَوْا نَبِيعُهُ إِلَى الإِسْمَاعِيلِيِّينَ (العرب من ذرية إسماعيل) وَنَبْرَءُ أَيْدِينَا مِنْ دَمِهِ فَوَافَقَهُ إِخْوَتُهُ عَلَى رَأْيِهِ.

أولئك التجار وهو) مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ: أَكْرِمِي مَثْوَاهُ، عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا. وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ (الرؤيا) وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[21].

3- راودته التي هو في بيتها عن نفسه... وانتشار الخبر...

وَلَمَّا بَلَغَ (يوسف) أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا (حكمة) وَعِلْمًا (نبوة)، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[22]. وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا (زوليخا زوجة حاكم مصر)[(5)] عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ! قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي (سيدي، زوجك، الذي اشتراني) أَحْسَنَ مَثْوَايَ (مقامي فلا أخونه) إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ[23]، وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ! كَذَلِكَ (حدث) لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ، (الخيانة والزنا) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ[24]. وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ (شقت) قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ، وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ، قَالَتْ: مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[25]. قَالَ (يوسف) هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي. وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا (أي طلب الزوج خبرة رجل من عندهم. فقال هذا الأخير) إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ (من أمام) فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ[26]، وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ[27]. فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ[28]. (قال الزوج عزيز مصر: حاكمها) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا (لا تحدث به أحدا، وخاطب زوجته) وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ[29]. (ومع ذلك شاع الخبر) وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي

5- في التوراة: "وَأَخَذَ الإِسْمَاعِيلِيُّونَ يُوسُفَ إِلَى مِصْرَ، فَاشْتَرَاهُ مِنْهُمْ مِصْرِيٌّ يُدْعَى فُوطِيفَارَ، كَانَ خَصِيَّ فِرْعَوْنَ وَرَئِيسَ الْحَرَسِ. 2وَكَانَ الرَّبُّ مَعَ يُوسُفَ، فَأَفْلَحَ فِي أَعْمَالِهِ، وَأَقَامَ فِي بَيْتِ سَيِّدِهِ الْمِصْرِيِّ". 7ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ أُغْرِمَتْ بِهِ زَوْجَةُ مَوْلاهُ فَقَالَتْ: «اضْطَجِعْ مَعِي». 8فَأَبَى وَقَالَ لَهَا: «هُوَذَا سَيِّدِي قَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُ فِي هَذَا الْبَيْتِ وَلَمْ يُشْغِلْ نَفْسَهُ بِأَيِّ شَأْنٍ فِيهِ... 10وَلَمْ يُذْعِنْ يُوسُفُ لَهَا مَعَ أَنَّهَا كَانَتْ تُلِحُّ عَلَيْهِ يَوْماً بَعْدَ آخَرَ. 11وَحَدَثَ يَوْماً أَنَّهُ دَخَلَ الْبَيْتَ لِيَقُومَ بِعَمَلِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْمَنْزِلِ أَحَدٌ، 12فَأَمْسَكَتْهُ مِنْ رِدَائِهِ وَقَالَتْ: «اضْطَجِعْ مَعِي». فَتَرَكَ رِدَاءَهُ بِيَدِهَا وَهَرَبَ خَارِجاً ... وَعِنْدَمَا رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ رَفَضَ وَهَرَبَ .. 14نَادَتْ أَهْلَ بَيْتِهَا وَقَالَتْ: «انْظُرُوا مَا جَرَى؟ هَذَا الْعِبْرَانِيُّ الَّذِي جَاءَ بِهِ زَوْجِي إِلَى الْبَيْتِ. شَرَعَ يُرَاوِدُنِي عَنْ نَفْسِي. دَخَلَ غُرْفَتِي وَحَاوَلَ اغْتِصَابِي، فَصَرَخْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي. 15وَعِنْدَمَا سَمِعَنِي قَدْ رَفَعْتُ صَوْتِي وَصَرَخْتُ، تَرَكَ رِدَاءَهُ مَعِي وَهَرَبَ خَارِجاً». 16وَأَلْقَتْ رِدَاءَهُ إِلَى جَانِبِهَا حَتَّى قَدِمَ مَوْلاهُ إِلَى بَيْتِهِ، 17فَقَصَّتْ عَلَيْهِ مِثْلَ هَذَا الْحَدِيثِ. ... 19فَلَمَّا سَمِعَ سَيِّدُهُ كَلامَ زَوْجَتِهِ وَمَا اتَّهَمَتْ بِهِ يُوسُفَ احْتَدَمَ غَضَبُهُ، 20فَقَبَضَ عَلَى يُوسُفَ وَزَجَّهُ فِي السِّجْنِ، حَيْثُ كَانَ أَسْرَى الْمَلِكِ مُعْتَقَلِينَ، فَمَكَثَ هُنَاكَ...

ضَلَالٍ مُبِينٍ[30]. فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ (أعدت) لَهُنَّ مُتَّكَأً (طعامًا يقطع بالاتكاء عليه بالسكين) وَآتَتْ (أعطت) كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ (ليوسف) اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ. فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ (بالسكين دون أن يشعرن لشدة تأثير جماله فيهن)، وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ! مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ[31]. قَالَتْ: فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ (امتنع). وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ[32]. قَالَ (يوسف) : رَبِّ! السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ، وَإِلَّا (إن لا) تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ (أمل) إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ[33]. فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[34]. ثُمَّ بَدَا لَهُمْ (للعزيز وأهله) مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ (العلامات التي تثبت براءة يوسف، فقرروا) لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ[35] (حتى لا تشيع القصة). وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ (غلامان للملك، ذات يوم) قَالَ أَحَدُهُمَا (وهو ساقي الملك) إِنِّي أَرَانِي (في المنام) أَعْصِرُ خَمْرًا، وَقَالَ الْآخَرُ (وهو المكلف بطعامه) إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ! نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ (يا يوسف)، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ[36].

4- يوسف في السجن مع ساقي الملك والمكلف بطعامه

قَالَ: لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا، ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي. إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ[37]، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ[38]! يَا صَاحِبَيِ (ساكني) السِّجْنِ! أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ[39]؟ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ. أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[40]. يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ (6) : أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا (يخرج ويعود لوظيفته يسقي سيده) وَأَمَّا الْآخَرُ (فسيخرج) فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ. قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ[41]. وَقَالَ (يوسف) لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا (الساقي) اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ (سيدك، أخبره أني هنا مسجون ظلما) فَأَنْسَاهُ

6- لم ترد في التوراة قصة النساء اللواتي قطعن أيديهم (فقرة 6) ولا دعوة يوسف للتوحيد (فقرة 7). أما ما سيأتي فقد ورد فيها كما في القرآن تقريبا.

الشَّيْطَانُ (الشيطان أنسى الساقي) ذِكْرَ (يوسف عند) رَبِّهِ فَلَبِثَ (يوسف) فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ[42].

5- حلم العزيز وتعبير يوسف له واعتراف امرأته بمراودة يوسف

وَقَالَ الْمَلِكُ (ملك مصر)[7] إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ! يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ[43]. قَالُوا أَضْغَاثُ (أخلاط) أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ[44]. وقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا (من السجينين وهو الساقي) وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ (وقد تذكر بعد مدة طويلة من النسيان طلب يوسف) أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِي[45] (إلى يوسف، فأرسلوه فقال له:) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ[46]! قَالَ: تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا (متتابعة) فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ (فلا تدرسوه كي لا يفسد) إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ[47]. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ (مجدبات) يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ (مما كنتم خزنتم) إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ[48] (تدخرون)، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ (بالمطر) وَفِيهِ يَعْصِرُونَ[49] (الأعناب. ورجع السجين إلى فرعون وأخبره بما قال يوسف). وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ (بيوسف)! فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ (لما جاء الرسول إلى يوسف) قَالَ : (يوسف) ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ (سيدك) فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ (لماذا فعلن ذلك)، إِنَّ رَبِّي (سيدي) بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ[50]. قَالَ (الملك لَهُن) مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ؟ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ. قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ: الْآنَ حَصْحَصَ (وضح) الْحَقُّ! أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ[51]. (أقول) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ (يوسف) أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ (وهو غائب عنا الآن) وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ[52]. (قال يوسف) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ[53]. (8)

7- يستعمل القرآن في هذه القصة لفظ "الملك" ولا يستعمل لفظ "فرعون" كما في التوراة. ويمكن تبرير ذلك بكون "فرعون" في القرآن رمز للطغيان كما هو الحال بالنسبة لفرعون في قصة موسى. أما هنا في قصة يوسف فالملك لم يكن طاغية بل بالعكس لقد تعاطف مع يوسف وولاه خزائنه ومنحه كامل ثقته وأكرم أهله عندما دعاهم إليه كما في آخر القصة.

8- اختلف المفسرون حول من تعود عليه الضمائر ابتداء من ("لم أخنه.. الخ"): هل على يوسف أم على العزيز أم على امرأته؟ معظم المفسرين يرجحون هذه الأخيرة. غير أن بعضهم قال إن الضمير=

6- إخوة يوسف يقدمون للتجارة في مصر ... ويتعرف عليهم!

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي. فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ"[54]. قَالَ (يوسف): اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ"[55] (9)، وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ[56]، وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ[57].

7- مجيء إخوة يوسف إلى مصر.. والتحاق أهله به

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ (في تجارة) فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ[58]، وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ (كان يعقوب قد أبقاه عنده) أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ[59]، فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ[60]. قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ (سنحاول إقناعه) وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ[61]. وَقَالَ (يوسف) لِفِتْيَانِهِ (لخدمه) اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ (دراهمهم التي أتوا بها لشراء السلعة) فِي رِحَالِهِمْ (أكياسهم) لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ

يرجع إلى يوسف، باعتبار أن يوسف كان قد "هم بها" فحل أزرار سرواله استعدادا لإتيانها، ثم ندم وتوقف. وبالتالي فالمتكلم في "لم أَخُنْهُ" هو يوسف: بمعنى أنه لم يخن الملك. وهذا في نظرهم ما يبرر قوله "وما أبرئ نفسي...". ونحن نرجح هذا ليس نظرا لما ذكر هؤلاء فحسب، بل أيضا لأن الآية الأخيرة وهي قوله : "إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيم" تقتضي أن يكون القائل هو يوسف، والسياق يمنع من أن يعود على الزوجة لأنها اعترفت أنها هي التي راودت يوسف عن نفسه معززة ذلك بقولها "وَلَمِنْ وإنه لمن الصَّادِقِين". أما ملك مصر فلا شيء يشير إلى أنه كان مؤمنا. يبقى إذن أن يكون يوسف هو القائل "وما أبرئ نفسي"، الخ، وهذا لا يمنعه السياق لأن السورة أكدت من قبل "وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا".

9- في التوراة: قَال يوسف: "33وَالآنَ لِيَبْحَثْ فِرْعَوْنُ عَنْ رَجُلٍ بَصِيرٍ حَكِيمٍ يُوَلِّيهِ عَلَى الْبِلاَدِ، 34وَلْيُقِمْ فِرْعَوْنُ نُظَّاراً عَلَى أَرْضِ مِصْرَ يَجْبُونَ خُمْسَ غَلَّتِهَا فِي سَنَوَاتِ الرَّخَاءِ السَّبْعِ. 35وَلْيَجْمَعُوا كُلَّ طَعَامِ سَنَوَاتِ الْخَيْرِ الْمُقْبِلَةِ، وَيَخْزِنُوا الْقَمْحَ بِتَفْوِيضٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَيَحْفَظُوهُ فِي الْمُدُنِ لِيَكُونَ طَعَاماً، 36وَمَؤُونَةً لأَهْلِ الأَرْضِ فِي سَنَوَاتِ الْمَجَاعَةِ السَّبْعِ الَّتِي سَتَسُودُ أَرْضَ مِصْرَ فَلاَ يَهْلِكُونَ جُوعاً». 37فَاسْتَحْسَنَ فِرْعَوْنُ وَرِجَالُهُ جَمِيعاً هَذَا الْكَلاَمَ. ... 39ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «مِنْ حَيْثُ أَنَّ اللهَ قَدْ أَطْلَعَكَ عَلَى كُلِّ هَذَا، فَلَيْسَ هُنَاكَ بَصِيرٌ وَحَكِيمٌ نَظِيرَكَ. 40لِذَلِكَ أُوَلِّيكَ عَلَى بَيْتِي، وَيُذْعِنُ شَعْبِي لِكُلِّ أَمْرٍ تُصْدِرُهُ، وَلَنْ يَكُونَ أَعْظَمَ مِنْكَ سِوَايَ أَنَا صَاحِبِ الْعَرْشِ»... 42وَنَزَعَ فِرْعَوْنُ خَاتَمَهُ مِنْ يَدِهِ وَوَضَعَهُ فِي يَدِ يُوسُفَ، وَأَلْبَسَهُ ثِيَابَ كَتَّانٍ فَاخِرَةً وَطَوَّقَ عُنُقَهُ بِطَوْقٍ مِنْ ذَهَبٍ، 43وَأَرْكَبَهُ فِي مَرْكَبَتِهِ الثَّانِيَةِ، وَنَادُوا: «ارْكَعُوا أَمَامَهُ». وَأَقَامَهُ وَالِياً عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. 44وَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «أَنَا فِرْعَوْنُ، وَلاَ أَحَدَ يُمْكِنُ أَنْ يُحَرِّكَ سَاكِناً فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ غَيْرِ إِذْنِكَ»... وَزَوَّجَهُ مِنْ أَسْنَاتَ بِنْتِ فُوطِي فَارَعَ كَاهِنِ أُونَ، فَذَاعَ اسْمُ يُوسُفَ فِي جَمِيعِ أَرْجَاءِ مِصْرَ."

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[62] (إلينا). فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا: يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ[63]! قَالَ: هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ، فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ[64]. وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ، قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي (أكثر من هذا:) هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا (نتسوق لهم) وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ (لأخينا بنيامين) ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ[65]. قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ (يحدث حادث لا تطيقونه)، فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ: اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ[66]. وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا (مصر) مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ (من طريق واحد حتى لا تكشفون) وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ. إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ[67]. وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا، وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ! وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[68]، وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ (يوسف) إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ (لا تحزن) بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[69]. فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ (الكأس الذهبي الذي يشرب فيه الملك) فِي رَحْلِ أَخِيهِ (بنيامين) !ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ (نادى مناد بعد انفصالهم عن مجلس يوسف) أَيَّتُهَا الْعِيرُ (أهل القافلة) إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ[70]، قَالُوا (وهم مقبلون عليهم) وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ[71]، قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ (كأس) الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ (جزاء من جاء به) وَأَنَا بِهِ (بالحمل) زَعِيمٌ[72] (ضامن وكفيل). قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ[73]. قَالُوا (المنادي وصحبه) فَمَا جَزَاؤُهُ (السارق) إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ[74] (إن وجدنا الكأس عندكم)؟ قَالُوا جَزَاؤُهُ: (يسترق) مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ، فَهُوَ جَزَاؤُهُ. كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ[75]، فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ (يفتشها) قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ (بنيامين)، ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ (ذاك)، كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ (صنعنا حيلة له لأخذ أخيه منهم) مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ (رقيقا بسبب السرقة) فِي دِينِ الْمَلِكِ (في العرف الذي يحكم به الملك لأن جزاء السارق كان الضرب والتغريم لا الاسترقاق) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ[76]. قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ (أي يوسف، قيل سرق لأمه صنما وكسره)، فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ. قَالَ (في نفسه) أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا (لسرقتكم أخاكم من أبيكم) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ[77]. قَالُوا يَا أَيُّهَا

الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ[78]. قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ[79]! فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا (يئسوا) مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا (اعتزلوا يناجي بعضهم بعضا)، قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ (أن تردوا أخاكم) وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ (بسبب تفريطكم) فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ (مصر) حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ[80]. ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ[81]، (رجعوا وقالوا ذلك لأبيهم وأضافوا) : وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ[82]، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا (بيوسف وأخويه) إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ[83]. وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ[84] (مغموم). قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ (لا تزال) تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا (مشرفا على الهلاك) أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ[85]. قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي (عظيم حزني) وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[86]. (قال لهم يعقوب): يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ (اطلبوا خبرهما) وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ (رحمته) اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ[87]. فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ (على يوسف) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ (القوي) مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ (بمال) فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ[88]. قَالَ: هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ[89]. قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ؟ قَالَ: أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي، قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا! إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ[90]. قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ[91]. قَالَ: لَا تَثْرِيبَ (عتاب) عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ[92]. اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ[93]. وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ (فارقت مصر) قَالَ أَبُوهُمْ (لمن كان معه) إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِي[94] (تسفهوني)! قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ (خطئك) الْقَدِيمِ[95]. فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ (بالقميص) أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[96]. قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ[97]. قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ[98]. (وذهبوا إلى مصر) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ: ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ[99]. فَرَفَعَ أَبَوَيْهِ

عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا، وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ (البادية) مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ (أفسد) الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي. إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ[100]، (قال يوسف) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ[101]. (10)

8- خاتمة: ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ... والتوجه إلى قريش

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ (يا محمد) وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ (عند إخوة يوسف) إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ[102]. ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ[103]، وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ (أهل مكة) وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ، وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ[104]. وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ (دالة على وحدانية الله) فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ[105]. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ[106] (يعبدون الأصنام ويعتقدون أنها ستقربهم من الله)، أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ (عقاب يغشاهم) مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[107]. قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ[108]. وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا (وليس ملائكة)، نُوحِي إِلَيْهِمْ، مِنْ أَهْلِ الْقُرَى! أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (من خلال ما تبقى من أطلالهم بعد أن دمرنا مدنهم)؟ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ[109]! حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ[110]. لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ (في الكتب كالتوراة) وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[111].

10- تستمر القصة في التوراة لتتحدث عن مقام آل يعقوب في مصر وسياسة يوسف الزراعية ثم وفاة يعقوب تتلوه وفاة يوسف. وبقصة يوسف ينتهي سفر التكوين ليبدأ سفر الخروج، خروج بني إسرائيل من مصر وبالتالي قصة موسى.

- تعليق

تندرج سورة يوسف في سلك السور الخمس السابقة، سواء على مستوى المنهج أو مستوى المضمون، أو فاتحة السور. فعلى مستوى الفاتحة تشكل هي والسورتان السابقتان مجموعة "الر". أما على مستوى المنهج فهي تبدأ، كالسور السابقة، بمقدمة تشعر بموضوع السورة، فتقرر أن هذه السورة عرض للدلائل والحجج التي في القرآن الذي نزل باللغة العربية لعل أصحاب هذه اللغة يستدلون منها على ما يؤكد صحة وصدق ما يدعو إليه الرسول محمد بن عبد الله من التوحيد والبعث والجزاء الخ: "الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ". والآيات التي ستعرضها تتعلق بقصة يوسف وإخوته التي وقع السؤال عنها مع ما تنطوي عليه من دروس وعبر.

بعد هذا تبدأ السورة في عرض أحداث القصة : إخوة يوسف حسدوه على المكانة التي كان يحظى بها عند أبيهم يعقوب فتآمروا لقتله، ولكن الله يسر له السبيل ليفلت من كيدهم : لقد أَجْمَعُوا أَنْ يطلبوا من أبيهم السماح لهم باصطحابه معهم عند خروجهم إلى البادية فيُلقون به في بئر، ثم يعتذرون لأبيهم بكون الذئب أكله في غفلة عنهم. ويمر بعض التجار على البئر فيعثرون على يوسف ويشترونه من أخوته ليبيعوه بدورهم في مصر، لينتهي الأمر به إلى قصر والي مصر حيث تقع زوجة هذا الأخير في غرامه فتراوده عن نفسه، ويمتنع إخلاصا للثقة التي وضعها فيه الوالي. وتكذب الزوجة على زوجها متهمة يوسف بأنه هو الذي رَاوَدَهَا وأراد اغتصابها فيلقي به زوجها في السجن... ثم تتضح الحقيقة فيما بعد. كان يوسف عارفا بتأويل الأحلام وعرف عنه ذلك في قصر الوالي وبلغ الخبر فرعون الذي كان يبحث عمن يؤول له حلما أقلقه فيدعى يوسف إلى قصر فرعون ليفسر له حلمه. كانت هذه المقدرة على تأويل الأحلام هي التي أخرجته من السجن، ثم الالتحاق بفرعون الذي قلده شؤون مصر.

ويحدث جفاف في أرض كنعان حيث يقيم يعقوب والده، ويقصد إخوته مصر للتسوق، ويعرف يوسف إخوته ويستدرجهم إلى أن عرف منهم أخبار والده وأهله، فيأمر باستقدامهم إليه في مصر حيث عاشوا معه في سعة وهناء.

وخلال عرض أحداث القصة تقوم السورة بنشر الدعوة، الدعوة إلى دين إبراهيم، دين التوحيد وإبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام، وذلك من خلال عظة يلقيها يوسف داخل السجن على مسامع ساقي الملك وخازنه اللذين وجدهما هناك سجينين معه، عظة يشرح فيها دينه ويقول: "إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ

بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ[37]، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ[38]. يَا صَاحِبَيِ (ساكني) السِّجْنِ! أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ[39]، مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" [40].

ثم تأتي الخاتمة لتعرض بهذه المناسبة، وبخطاب مباشر مركز، ما عرضته سور سابقة من أسس الدعوة المحمدية وأهدافها (الآيات 102–110)، ولتؤكد للرسول عليه السلام أن الضائقة التي يعاني منها قد عانى من مثلها الرسل السابقون حتى إنهم كادوا ييأسون. وفي مثل هذه اللحظة، لحظة القرب من اليأس، يأتي النصر فجأة. قال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا، نُوحِي إِلَيْهِمْ، مِنْ أَهْلِ الْقُرَى" (فتعرضوا للتكذيب والإعراض) "حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ"[110].

وتختم السورة بأن تستعيد، على صعيد المنهج، القضية المطروحة في المقدمة، بعد أن أجابت عن السؤال الذي طرح. يقول تعالى: "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ (في الكتب كالتوراة) وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[111].

التوحيد، الأصنام، التصوير

أولا : التوحيد

ابتدأت الدعوة إلى التوحيد من اللحظة الأولى في مسار الدعوة المحمدية، لحظة "اقرأ باسم ربك الذي خلق". فمنذ تلك اللحظة والدعوة المحمدية تطرح تصورا جديدا للألوهية سرعان ما حددته تحديدا لا لبس فيه عندما طلبت قريش من النبي عليه السلام أن "ينسب ربه"، بمعنى أن يعرِّف بموقعه في سلسلة الآلهة التي كانوا يعبدونها! فجاء الجواب ليقطع الصلة تماما مع التصورات الوثنية التي كانت للعرب عن الألوهية وليعلن تميزه الجذري عن اليهودية والنصرانية، الديانتين التوحيديتين اللتين تؤمنان بإله واحد وفي نفس الوقت تقيم فِرَقُها نوعا من التعدد في الذات الإلهية عن طريق مفهوم "النسب". فإله اليهودية خاص بهم وحدهم وهم يعتبرونه "أبا" لهم متصلا بهم وحدهم إن لم يكن من حيث الوجود فمن حيث الرعاية الأبوية، مما جعل علاقتهم به تتطور إلى علاقة قبيلة برئيسها ومدبر شأنها، بينما ذهبت بعض فروعهم إلى اعتبار أحد قادتهم (عزرا، وفي القرآن عزير) ابنا لله. أما المسيحية فقد تصورت الألوهية "أقانيم"، أو قل "عناصر" أو "مكونات" ثلاثة: الأب والابن وروح القدس: الأب هو الله، وعيسى ابنه، والروح التي جعلت من مريم تلد من دون أن يمسسها بشر وجعلته نبيا يوحى إليه هو الروح القدس (جبريل في الإسلام). فكان الله عندهم "ثالث ثلاثة" حسب تعبير القرآن.

لقد قطعت الدعوة المحمدية عندما سئل النبي عليه السلام أن "ينسب ربه" مع فكرة "النسب"، سواء كان ماديا أو معنويا أو روحيا، فقال تعالى: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ". هذا التعريف ينفصل انفصالا

نهائيا مع التصورات الدينية التي كانت في ذلك الوقت، خاصة الوثنية منها. أما اليهودية والمسيحية اللتان قامتا ضد الوثنية وحاربتاها فقد احتفظ القرآن بعلاقة معهما، علاقة "التوحيد"، الشيء الذي يعني الاعتراف بنفس الإله لجميع البشر هو إله إبراهيم و"رب العالمين"، لا ولد له لا من الملائكة أو من البشر. وبما أنه لم يكن في مكة زمن البعثة المحمدية يهود ولا نصارى (إلا ما قد يكون من أفراد قليلين، مقيمين كعبيد أو زوار تجار أو قسيسين) فلقد بقيت العلاقة بين الإسلام واليهود والنصارى الذين كانوا يتسمَّون بـ "أهل الكتاب" محصورة على مستوى "الكتاب" ـ أعني العقيدة كما تقررها التوراة ـ من دون زيادات ولا تأويلات تخرج بها عن دين إبراهيم. وبالتالي فالعلاقة معهم كانت سلمية، أو على الأقل غير صدامية، إلى أن هاجر رسول الإسلام إلى "يثرب" حيث تسكن قبائل يهودية قديمة؛ حينئذ سيقع الاحتكاك وتبرز الفروق ويبدأ النزاع والصراع كما سنري في مرحلة قادمة.

وإذن فمسألة التوحيد التي ركز عليها القرآن في هذه المرحلة الثالثة من الدعوة المحمدية (بعد مرحلة إقرار النبوة والربوبية والألوهية، ومرحلة التأكيد على البعث والجزاء)، ستخص "أم القرى ومن حولها" وهم العرب الذين يدينون بالشرك وعبادة الأصنام. وبما أن القرآن قد نزل على نبي عربي وبلسان عربي يوجه الخطاب إلى خصوم هم الماسكون في بلاد العرب بزمام "السيادة"، بالدين والتجارة، فإن المعنيين أولا بالدعوة التوحيدية، قبل غيرهم، هم هؤلاء أنفسهم الذين رأوا في الدعوة المحمدية حركة داخلية تمس مصالحهم، فتجندوا لمقاومتها بالسخرية والاستهزاء ثم بصد الناس عنها وإيذاء الملتحقين بها في أنفسهم وأموالهم. وكما يحدث عادة فالدفاع عن المصالح المادية والمعنوية من طرف جماعة ماسكة بزمام الأمور في شعب من الشعوب لا يتم بصورة مباشرة إلا في حالة الحروب والصراعات، أما قبل أن تصل الأمور إلى هذا المستوى فأصحاب المصالح يختارون للدفاع عنها ميدانا يقدمون فيه هذا الصراع بوصفه دفاعا عن ما هو مشترك بين الجماعة صاحبة السيادة ومن تقع عليهم هذه السيادة. وفي مكة حيث كان الانفصال تاما أو شبه تام بين المستكبرين (وهم زعماء القبائل الكبرى الممسكون في الوقت نفسه بالاقتصاد الديني -عائدات الحج- والتجاري) وبين المستضعفين (الذين كانت أغلبيتهم من أبناء القبائل الضعيفة والموالي والعبيد)، فإن ما كان يجمع هؤلاء بأولئك هو "الدين" أعني عبادة الأصنام. ومن هنا كان الدفاع عنها ومقاومة من يهاجمها ويهاجم القائمين عليها والمعتقدين فيها أشبه بـ"الواجب الوطني" الذي يقوده في الغالب كبراء الوطن و"أهل الحل والعقد".

من هذا الوصف السريع للواقع الذي قامت فيه الدعوة المحمدية ندرك أي مجهود يتطلبه تغيير هذا الواقع، وأية تضحيات يتحتم القيام بها لتحقيق النصر عليه. والذين يتتبعون السيرة المحمدية ويتعرفون على أصناف الضغط والعسف والطغيان التي مارستها قريش على النبي وصحابته -ولم يبلغوا المائة إلا بعد عشر سنوات جلهم كانوا قد هاجروا إلى الحبشة مما جعل حِمل الدعوة يستقر على كتف الرسول (ص) وحده تقريبا، أقول إن الذين يتتبعون السيرة النبوية المحمدية من خلال ذلك، ومن خلال مسار نزول القرآن وبالارتباط معه، لا بد أن يدركوا، مهما كان دينهم أو ميولهم العقدية والإيديولوجية والسياسية، أنه إذا كان التاريخ هو الذي يصنع الرجال فإن الرجل محمد بن عبد الله نبي الإسلام هو وحده صنع التاريخ.

ربما كان الإعلان عن هذه النتيجة التي سيخرج بها قارئ هذا الكتاب -إن سلك معنا منهج الفهم والتفهم- سابقا للأوان الآن، إلا أن طرحها كمشروع منذ الآن سيفيد بدون شك في فهم وتفهم مقدار الجهد العملي والمعنوي الذي كان لابد منه لشق الطريق نحو الوصول إليها. كانت الدعوة المحمدية في المرحلتين السابقتين (تثبيت النبوة وإقرار البعث) تتحرك على "هامش الوجود" في مكة. أما في هذه المرحلة الثالثة، مرحلة إبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام فقد رأيناها تتحرك بقوة داخل ذلك الوجود، تخلخله: تهاجم، وترد على الهجوم.

ويبقى أن نختم هذه المرحلة باستطراد يتناول تاريخ هذا الموضوع الذي جرى حوله الصراع، موضوع "الأصنام" : ما حقيقتها وما تاريخها كما نظر إليه الباحثون المسلمون بعد انتصار الإسلام عليها وقيام تاريخ آخر ألقى بها في سلة "ما أهمله التاريخ". وما "أهمله التاريخ" في هذا المجال كما في غيره، كثيرا ما يساعد النبشُ فيه على فهم هذا "التاريخ" نفسه.

ثانيا: الأصنام

1- الأصنام، الأوثان، الأنصاب

تقول المعاجم العربية: الصَّنَمُ، ما اتُّـخِذَ إلهاً من دون الله، فإذا كان له جسم وصورة على شكل إنسان فهو صَنَمٌ تحديدا. أما الوَثَنَ فهو ما كان له جُثَّة من خشب أو حجر أو فضة يُنْـحَت ويُعْبَد. أما إذا كان حجرا على غير صورة فهو نُصب (بالضم والفتح). قالوا "لــم يكن حيٌّ من أحياء العرب إلا ولها صنمٌ يعبدونها يسمونه أُنثى بنــي فلان"؛ وكانت الأنصاب حول الكعبة يذبح لها بغير اسم الله. وقيل إن من

لم يقدر على اتخاذ صنم له أو بناء بيت للعبادة نصب حجرا أمام الكعبة، أو في مطاف له قداسة معينة، ثم طاف حوله، ومن هنا تسميتهم الأنصاب. قيل كان الواحد منهم إذا سافر أخذ معه أربعة أحجار يتخذ أحدا ربًا، ويجعل الثلاثة الباقين قِدرا، فإذا رحل عن المكان ترك تلك الأحجار وأخذ أخرى وفعل بها مثل ذلك.

ويبدو أن اللفظين "وثن" و"صنم" مشتركان بين اللغة العربية ولغات سامية أخرى كما رأينا في اسمي الجلالة : "الله" و"الرحمان". وبالتالي فهما معربان: الصنم من "سلم" Selem وهذه الكلمة تعني "صورة: باللغة العبرية، و"إله الورد" في الآرامية. هذا بينما التمس اللغويون العرب للفظ "وثن" أصلا في اللغة فقالوا هو من: "وثن بالمكان" بمعنى أقام فيها[1].

2- الأصنام في الكعبة : صور إبراهيم ومريم

كان بالكعبة عند ظهور الإسلام عدد هائل من الأصنام، ففي صحيح مسلم (كتاب إزالة الأصنام) أن النبي عليه السلام : "دَخَلَ مَكَّةَ (عند فتحها)، وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ نصباً، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ كَانَ بِيَدِهِ. وَيَقُولُ "جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً" (الإسراء: 81). "جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِىءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ"» الآية (سبأ: 49). وروى الأزرقي في كتابه "أخبار مكة" أن النبي (ص) دخل الكعبة يوم الفتح وفيها صور الملائكة وغيرها، فرأى صورة إبراهيم، فقال: "قاتلهم الله، جعلوه شيخا يستقسم بالأزلام" فكسرها. ثم رأى صورة مريم، فوضع يده عليها، وقال: امحوا ما فيها (في الكعبة) من الصور إلا صورة مريم". وفي رواية أخرى: "أن قريشا كانت قد جعلت في الكعبة صورا، فيها عيسى ابن مريم ومريم عليهما السلام"، وأن امرأة "من غسان حجت في حاج العرب، فلما رأت صورة مريم في الكعبة قالت : بأبي وأمي إنك لعربية. فأمر رسول الله (ص) أن يمحوا تلك الصور، إلا ما كان من صورة عيسى ومريم". وبعد كسر الأصنام وإحراقها بعث الرسول عليه السلام، لهدم أصنام القبائل، سرايا كان على رأسها بعض كبار الصحابة مثل علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد والمغيرة بن أبي شعبة الخ.

3- عبادة الأصنام عبادة قديمة

وعبادة الأصنام وما في معناها قديمة قدم الإنسان، ويطلق عليها في مقابل الديانات التوحيدية اسم "الوثنية" paganism، ومن الصعب جدا إرجاع عبادتها التي

1- المصادر حول الأصنام كثيرة: منها ما ورد في التفاسير وفي قصص الأنبياء وفي كتب التاريخ والأدب والأخبار. ومن الكتب كتاب الأصنام للكلبي وكتاب أخبار مكة للأزرقي...

انتشرت في الجزيرة العربية إلى عصر واحد أو مصدر واحد، خصوصا وقد كانت هذه الجزيرة على اتصال مستمر مع الحضارات القديمة: شرقا وغربا وجنوبا وشمالا.

وكما رأينا فالقرآن الكريم يتحدث عن عبادة الأصنام منذ نوح، وأن إبراهيم عليه السلام قد شن ثورة على الأصنام داعيا إلى عبادة الله وحده وأنه -بمساعدة ابنه إسماعيل- قد بنى الكعبة في مكة وجعل منها مركزا للدين الحنيف دين التوحيد.

يقول المؤرخون العرب إن إسماعيل تزوج من قبيلة جرهم، وأن أحد رجال هذه القبيلة وهو مضاض بن عمرو الجرهمي تزوج بنت إسماعيل وبنى الحرم الذي منح مكة مكانتها الدينية، فحدث تحالف بين الإسماعيليين والجرهميين وانتشروا في الحجاز. وكان التحالف من نوع التحالف بين الدين والقبيلة، وشيئا فشيئا سلّم الإسماعيليون السلطة السياسية إلى الجرهميين، الذين استبدوا بالملك مع مرور الزمن و"فسقوا" في مكة.

وبسبب "السيل العرم" الذي عرفته اليمن وخراب سد مأرب (يقال تهدم أول مرة علم 542م ثم انهار نهائيا عام 750م) هاجرت إحدى القبائل اليمنية التي كان على رأسها حارثة بن عمرو الملقب بـــ "خزاعة" إلى الشمال. فاستولت على مكة والحرم وأجلت عنها قبيلة جرهم. ثم استولى عمرو بن لحي، حفيد خزاعة، على السيادة في مكة متحالفا مع بني إسماعيل وتولى حجابة البيت، وصار كاهنها، وهو الذي يُرجع إليه الإخباريون العرب استقدام الأصنام إلى مكة من جدة والشام واليمن ونشر الوثنية فيها. ويقال هو الذي أتى بـــ "هُبل" وهو من كبار أصنام الكعبة. وبعد عمرو بن لحي آل أمر مكة إلى قصي بن كلاب الجد الخامس للنبي عليه السلام الذي تزوج من بنت خليل الخزاعي قريب عمرو بن لحي.

يذكر الأزرقي عن ابن إسحاق أن عمرو بن لحي نصب صنم الخلَصة بأسفل من مكة، فكانوا يلبسونها القلائد، ويهدون إليها الشعير والحنطة، ويصبون عليها اللبن، ويذبحون لها، ويعلقون عليها بيض النعام؛ ونصب على الصفا صنما يقال له نهيك مجاود الريح، ونصب على المروة صنما يقال له مطعم الطير ... ونصب مناة على ساحل البحر (الأحمر) مما يلي قديدا، وهي التي كانت للأزد وغسان، يحجون إليها ويعظمونها، فإذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا من مِنى، لم يحلقوا إلا عند مناة، وكانوا يُهلّون لها، ومن أهلّ لها لم يطف بين الصفا والمروة ؛ لمكان الصنمين اللذين عليهما: نَهيك مجاود الريح، ومطعم الطير. فكان هذا الحي من الأنصار يُهلون بمناة، وكانوا إذا أهلّوا بحج أو عمرة لم يُظِل أحدا منهم سقف بيت حتى يفرغ من حجته أو عمرته، وكان الرجل إذا أحرم لم يدخل بيته، وإن كانت له فيه حاجة تسور من ظهر بيته؛ لأن لا يجن (يستر) رتاج الباب (ما فيه يغلق) رأسه.

فلما جاء الله بالإسلام، وهدم أمر الجاهلية، أنزل الله تعالى في ذلك: "وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى" (البقرة 189). قال: وكانت مناة للأوس والخزرج وغسان من الأزد ومن دان بدينهم من أهل يثرب وأهل الشام، وكانت على ساحل البحر من ناحية المشلل بقُديد" (قرب مكة). كما ينقل الأزرقي عن الكلبي: أن "مناة كانت صخرة لهذيل، وكانت بقُديد"، وأن "اللات والعزى ومناة كانت في كل واحدة منهن شيطانة تكلمهم وتتراءى للسَّدَنَة، وهم الحَجَبَة". ويبدو أن الاستيلاء على الكعبة كان من طموحات ملوك اليمن، فعلاوة على حملة أبرهة والي الحبشة "عام الفيل"، حاول ملوك اليمن التبابعة، الاستيلاء على مكة مرات، على ما يذكر الإخباريون.

4- الأصنام في اليهودية والمسيحية.

لم يكن الإسلام هو وحده من بين الديانات التوحيدية الذي شن حملة على الأصنام والعبادة الوثنية. ففي التوراة والأناجيل مثل ذلك. ففي سفر التثنية من التوراة أن موسى قال لبني إسرائيل بعدما صنعوا لهم صنما "عجلا" أثناء غيابه لملاقاة ربه لأخذ الألواح : "إِيَّاكُمْ أَنْ تَنْسَوْا عَهْدَ الرَّبِّ إِلَهِكُمُ الَّذِي قَطَعَهُ مَعَكُمْ وَتَنْحَتُوا لأَنْفُسِكُمْ تِمْثَالاً لِصُورَةِ مَا مِمَّا نَهَاكُمُ الرَّبُّ إِلَهُكُمْ عَنْهُ. 24لأَنَّ الرَّبَّ إِلَهَكُمْ هُوَ نَارٌ آكِلَةٌ وَإِلَهٌ غَيُورٌ. 25وَإِذَا أَنْجَبْتُمْ بَنِينَ وَأَحْفَاداً وَمَكَثْتُمْ طَوِيلاً فِي الأَرْضِ، ثُمَّ غَوَيْتُمْ فَنَحَتُّمْ لَكُمْ تِمْثَالاً لِصُورَةِ شَيْءٍ مَا، وَارْتَكَبْتُمُ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ إِلَهِكُمْ لإِثَارَةِ غَيْظِهِ، 26فَإِنَّنِي أُشْهِدُ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ، أَنَّكُمْ تَنْقَرِضُونَ سَرِيعاً مِنَ الأَرْضِ الَّتِي أَنْتُمْ عَابِرُونَ نَهْرَ الأُرْدُنِّ إِلَيْهَا لِتَرِثُوهَا، وَلَنْ تَطُولَ بِكُمُ الأَيَّامُ عَلَيْهَا، إِذْ لاَبُدَّ أَنَّكُمْ حِينَئِذٍ هَالِكُونَ. 27وَيُشَتِّتُكُمُ الرَّبُّ بَيْنَ الأُمَمِ فَتُصْبِحُونَ أَقَلِّيَّةً بَيْنَ الشُّعُوبِ الَّتِي يَسُوقُكُمْ إِلَيْهَا. 28وَهُنَاكَ تَعْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ خَشَبٍ وَحَجَرٍ مِنْ صَنْعَةِ أَيْدِي النَّاسِ، مِمَّا لاَ يُبْصِرُ وَلاَ يَسْمَعُ وَلاَ يَأْكُلُ وَلاَ يَشَمُّ... 3وَلاَ تُصَاهِرُوهُمْ (عبدة الأصنام) فَلاَ تُزَوِّجُوا بَنَاتِكُمْ مِنْ أَبْنَائِهِمْ، وَلاَ أَبْنَاءَكُمْ مِنْ بَنَاتِهِمْ، 4إِذْ يُغْوُونَ أَبْنَاءَكُمْ عَنْ عِبَادَتِي لِيَعْبُدُوا آلِهَةً أُخْرَى... اهْدِمُوا مَذَابِحَهُمْ وَحَطِّمُوا أَصْنَامَهُمْ وَقَطِّعُوا سَوَارِيَهُمْ وَأَحْرِقُوا تَمَاثِيلَهُمْ".(سفر التثنية 1420 – 1220ق.م).

وفي سفر أشعيا (القرن الثامن قبل الميلاد) نقرأ : "6هَذَا مَا يَقُولُهُ الرَّبُّ الْقَدِيرُ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ وَفَادِيهِ: «أَنَا هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ، وَلاَ إِلَهَ غَيْرِي... هَلْ هُنَاكَ إِلَهٌ غَيْرِي؟ هَلْ هُنَاكَ صَخْرَةٌ أُخْرَى لاَ عِلْمَ لِي بِوُجُودِهَا؟ 9كُلُّ صَانِعِي التَّمَاثِيلِ لاَ جَدْوَى مِنْهُمْ، وَمُشْتَهَيَاتُهُمْ لاَ طَائِلَ مِنْهَا... 18إِنَّهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ وَلاَ يُدْرِكُونَ، إِذْ غُشِيَ عَلَى عُيُونِهِمْ فَلاَ يُبْصِرُونَ، وَأُغْلِقَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يَفْهَمُونَ".

أما في النصوص المسيحية فنقرأ في "أعمال الرسل" لـ"لوقا": "نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الصَّنَمَ لَيْسَ بِإِلَهٍ مَوْجُودٍ فِي الْكَوْنِ، وَأَنَّهُ لاَ وُجُودَ إِلاَّ لإِلَهٍ وَاحِدٍ. 5حَتَّى لَوْ كَانَتِ الآلِهَةُ الْمَزْعُومَةُ مَوْجُودَةً فِي السَّمَاءِ أَوْ عَلَى الأَرْضِ وَمَا أَكْثَرَ تِلْكَ الآلِهَةَ وَالأَرْبَابَ! 6فَلَيْسَ عِنْدَنَا نَحْنُ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ هُوَ الآبُ الَّذِي مِنْهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَنَحْنُ لَهُ؛ وَرَبٌّ وَاحِدٌ هُوَ يَسُوعُ الْمَسِيحُ الَّذِي بِهِ كُلُّ شَيْءٍ وَنَحْنُ بِهِ ... 14لِذَلِكَ، يَاأَحِبَّائِي، اهْرُبُوا مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ. ... 21أَيُّهَا الأَوْلاَدُ الصِّغَارُ، احْفَظُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الأَصْنَامِ! ... 8أَمَّا الْجُبَنَاءُ وَغَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْفَاسِدُونَ وَالْقَاتِلُونَ وَالزُّنَاةُ، وَالْمُتَّصِلُونَ بِالشَّيَاطِينِ وَعَبَدَةُ الأَصْنَامِ وَجَمِيعُ الدَّجَّالِينَ، فَمَصِيرُهُمْ إِلَى الْبُحَيْرَةِ الْمُتَّقِدَةِ بِالنَّارِ وَالْكِبْرِيتِ (جهنم)، الَّذِي هُوَ الْمَوْتُ الثَّانِي» (أعمال الرسل)[2].

ولا بد من الإشارة هنا إلى الدور الذي كان لانتشار الحضارة اليونانية في المنطقة، وبالخصوص دياناتها الشعبية الوثنية التي كانت تستعمل التماثيل (تمثيل آلهتها في السماء على الأرض بواسطة الصور المجسمة والنحت الخ)، فهذه الديانة الشعبية الإغريقية هي التي كانت مستهدفة في "أعمال الرسل" والأناجيل، ولربما كان ذلك الاستهداف مظهرا من مظاهر صراع الإمبراطورية الرومانية مع الحضارة اليونانية، خاصة عند قيام بيزنطة المسيحية واحتوائها للكنيسة. وكما يحدث عادة فالقضاء على مظهر من مظاهر حضارة مغلوبة كثيرا ما يصحبه انفتاح على مظهر آخر من مظاهرها، يكون بمثابة فتح مضاد للحضارة الغازية. وهكذا، ففي الوقت الذي كان فيه "الرسل" في المسيحية يشنون حملة واسعة ضد "أصنام" الوثنية الإغريقية، كانت الفلسفة اليونانية تقوم بعملية غزو مضاد للمسيحية في قلب عقيدتها ففرضت فيها إشكاليتها الفلسفية المعبر عنها بـ "مشكل صدور الكثرة عن الوحدة" وأعطتها قالبا دينيا فلسفيا تم التعبير عنه بـ"التثليث"، وقد سبق أن بينا كيف حصل ذلك مع "بولس خلال تبشيره في بلاد اليونان والأقاليم المتأثرة بها : "بلاد الوثنيين" [3]

ثالثا- الأصنام والتصوير في الإسلام...

شن القرآن -كما تتبعنا في فصول هذه المرحلة وسنرى المزيد في المراحل القادمة- حملة واسعة عنيفة ضد عبادة الأصنام والأوثان، وبشكل عام عبادة غير

---

2 - تحاول الترجمة الدولية الجديدة التي نعتمدها أن تقترب من ألفاظ القرآن وعباراته بأسلوب يخلو من الركاكة التي تطبع الترجمات القديمة. لكن المعنى يتوافق تماما مع أسلوب الطبعة التي تصدرها دار الكتاب المقدس في العالم العربي، بيروت.

3- انظر التعريف بالقرآن: الفصل الأول الفقرة 3

الله- ولكنه لم يعرض في أية آية للمصورين، سواء مصوري الأصنام أو غيرها. مما يؤكد أن قصد الشارع من إزالة الأصنام، سواء من الكعبة أو من غيرها هو الحيلولة دون عبادتها بوصفها شركاء وليس بوصفها مجرد صور. وقد سبق أن أشرنا إلى منعه عليه الصلاة والسلام تمزيق صورة مريم وعيسى أثناء كسر وتمزيق أصنام الكعبة عقب فتح مكة، وأنه (ص) أمر بتكسر وتمزيق الصورة التي كانت تمثل نبي الله إبراهيم لأنهم صوروه وهو يستقسم بالأزلام وهو شيء محرم في الإسلام وبالتالي يتناقض مع دين إبراهيم أصل الأديان السماوية.

وعندما أزيلت الأصنام من مكة وقام المسلمون بتوجيه من النبي (ص) بحملات لكسرها وتمزيقها وإحراقها لدى القبائل في جزيرة العرب كان من الطبيعي أن تستمر الحملة عليها فكريا، حرصا على عدم عودة الناس إلى عبادتها. ودخل المسلون في مرحلة الفتوحات، وجلها كانت في بلدان كان أهلها إما يعبدون الأصنام ويقيمون لها التماثيل وإما يعبدون الله ويقيمون لأنبيائهم صورا رمزية غير مقرونة بالعبادة كما كان الحال في صورتي مريم وعيسى في الكعبة. وكان من الطبيعي أن تستمر الحملة الفكرية على الأصنام حتى لا تنتشر ويعود المسلمون الجدد إلى عبادتها، فرويت أحاديث تحرم التصوير جملة، أشهرها حديث بلفظ: "إنّ أشدّ الناس عذاباً عندَ الله يوم القيامةِ المصوّرونَ"، وحديث آخر رووه بلفظ : "إنَ الذينَ يصنعونَ هذه الصُوَر يُعذّبون يومَ القيامة، يقالُ لهم: أحيوا ما خلَقْتم».

وقد علق ابن حجر على لفظ الحديث الأول بقوله : وقد استشكل كون المصور أشد الناس عذاباً مع قوله تعالى: "ادخلوا آل فرعون أشد العذاب" (غافر: 46) فإنه يقتضي أن يكون المصور أشد عذاباً من آل فرعون؟ ثم يورد جواب الطبري على هذا الاستشكال، يقول فيه: "إن المراد هنا من يصور ما يعبد من دون الله وهو عارف بذلك، قاصداً له، فإنه يكفر بذلك، فلا يبعد أن يدخل مدخل آل فرعون. وأما من لا يقصد ذلك فإنه يكون عاصياً بتصويره فقط". كما ذكر رأي القرطبي وجاء فيه: "إن الناس الذين أضيف إليهم «أشد» لا يراد بهم كل الناس بل بعضهم، وهم من يشارك في المعنى المتوعد عليه بالعذاب، ففرعون أشد الناس الذي ادعوا الإلهية عذاباً، ومن يقتدي به في ضلالة كفره أشد عذاباً ممن يقتدي به في ضلالة فسقه، ومن صور صورة ذات روح للعبادة أشد عذاباً ممن يصورها لا للعبادة".

واضح أن هذا الاستشكال لا يمس صميم الموضوع وإنما يناقش "لفظ" أشد العذاب وكيف يفهم انطلاقا من أن وزر التصوير لا يوازن وزر فرعون الذي جاء الوعيد له في القرآن بهذا اللفظ. أما "العذاب"، شديدا كان أو غير شديد، فهو لا يصيب إلا من صدر في تصويره عن قصدٍ له علاقة بالعبادة. وفي عصرنا، وفي بلاد

الإسلام خاصة، لا أعتقد أن هناك من يصور صورة أو تمثالا للعبادة، سواء تعلق الأمر بما له روح أو بما ليس له روح. ولا يقصد المصورون اليوم أي نوع من الشرك مع الله في تصوير الأشياء: فكما أن الحداد يصنع آلات لها أشكال وصور معينه كالفأس والمحراث والمفتاح والأواني الخ، من أجل الاستعمال وتسخير الطبيعة، وكما يصنع الصائغ أدوات الزينة، ويصنع الخياط الثياب المزركشة، والحذاء الأحذية المنمقة، والطهاة الطعام بأشكاله المختلفة، يرسم المصور والنحات صورا ونقوشا وتماثيل لحاجة الإنسان من الناحية الجمالية والفنية دون أن تكون لذلك أية علاقة بالدين والعبادة. والمبدأ الحاكم في هذا الميدان، كما في غيره من الميادين، هو أن "الأعمال بالنيات"، أعني المقاصد. فكل ما يقصد به أي نوع من أنواع الشرك بالله فهو محرم، لا لأنه رسم أو صورة أو تمثال، بل لأن الشرك بالله يمارس بواسطته. أما ما عدا ذلك فهو من الصنائع التي يقوم بها الإنسان إما لإنعاش جسمه أو لإنعاش روحه وتوسيع أفق تفكيره وتنمية إحساساته والتسلية على نفسه. بعضها يدخل في الضروري من المعاش وبعضها يدخل في التحسينات والتكميلات وبعضها للزينة. "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ... قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (الأعراف 32-33).

وعلى هذا فالحديثان السابقان إنما يشهد لهما القرآن بالصحة إذا كان القصد من التصوير داخلا في مضمون قوله تعالى: "وأن تشركوا بالله...". أما إن كان التصوير للزينة فهو يدخل في مضمون قوله تعالى: "قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده"، خصوصا وقد نزلت هذه الآية في عرب الجاهلية الذين كانوا يحرمون على أنفسهم لبس الثياب في المسجد الحرام عند الطواف بالكعبة. يقول الطبري في شرح هذه الآية: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلّم: قُلْ يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يتعرّون عند طوافهم بالبيت، ويحرّمون على أنفسهم ما أحللت لهم من طيبات الرزق: مَنْ حَرَّمَ أيها القوم عليكم زِينَةَ اللّهِ التي خلقها لعباده أن تتزينوا بها وتتجملوا بلباسها، والحلال من رزق الله الذي رزق خلقه لمطاعمهم ومشاربهم".

فهرس القسم الأول

كتب المؤلف

حسب تاريخ صدورها

1 ـ **العصبية والدولة** : معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي 1971 .
2 ـ **أضواء على مشكل التعليم بالمغرب** 1973 .
3 ـ **مدخل إلى فلسفة العلوم** : جزآن 1976 (الأول : تطور الفكر الرياضي والعقلانية المعاصرة. الثاني : المنهاج التجريبي وتطور الفكر العلمي).
4 ـ **من أجل رؤية تقدمية لبعض مشكلاتنا الفكرية والتربوية** 1977 .
5 ـ **نحن والتراث** : قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي 1980 ترجم الى الاسبانية والتركية.
6 ـ **الخطاب العربي المعاصر** : دراسة تحليلية نقدية 1982 .
7 ـ **تكوين العقل العربي** : 1984 . (ترجم إلى التركية وتحت الترجمة إلى الفرنسية).
8 ـ **بنية العقل العربي** : 1986 . (ترجم إلى التركية وتحت الترجمة إلى الفرنسية).
9 ـ **السياسات التعليمية في المغرب العربي** 1987 .
10 ـ **إشكاليات الفكر العربي المعاصر** 1988 .
11 ـ **المغرب المعاصر** : الخصوصية والهوية : الحداثة والتنمية 1988 .
12 ـ **العقل السياسي العربي** : 1990 (ترجم إلى التركية والفرنسية).
13 ـ **حوار المغرب والمشرق** : حوار مع د. حسن حنفي 1990 .
14 ـ **التراث والحداثة** : دراسات ومناقشات 1991 .
15 ـ **مقدمة لنقد العقل العربي** نصوص مترجمة إلى اللغة الفرنسية تحت عنوان :
Introduction à la critique de la Raison arabe : traduit de l'arabe et présenté par Ahmed Mahfoud et Marc Géoffroy, éd. La Découverte. Paris 1994.
ترجم إلى الإيطالية والإنجليزية والبرتغالية، والإسبانية واليابانية والإندونيسية.
16 ـ **المسألة الثقافية** 1994 .
17 ـ **المثقفون في الحضارة العربية والإسلامية**، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد 1995 .
18 ـ **مسألة الهوية** : العروبة والإسلام ... والغرب 1995 .
19 ـ **الدين والدولة وتطبيق الشريعة** 1996 .
20 ـ **المشروع النهضوي العربي** 1996 .
21 ـ **الديموقراطية وحقوق الإنسان** 1997 .
22 ـ **قضايا في الفكر المعاصر** 1997 .
23 ـ **التنمية البشرية والخصوصية السوسيوثقافية** 1997 (نشر الأمم المتحدة، الإسكوا، ترجم إلى الإنجليزية).
24 ـ **وجهة نظر** : نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر 1997 .
25 ـ **حفريات في الذاكرة**، من بعيد ! 1997 .
26 ـ **الإشراف على نشر جديد لأعمال ابن رشد الأصيلة مع مداخل ومقدمات تحليلية** وشروح إلخ 1997-1998 (فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، تهافت التهافت، كتاب الكليات في الطب، الضروري في السياسة : مختصر سياسة أفلاطون).
27 ـ **ابن رشد** : سيرة وفكر 1998 .
28 ـ **العقل الأخلاقي العربي** : دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية، 2001.
29 ـ **في نقد الحاجة إلى الإصلاح** 2005 .
30 ـ **سلسلة مواقف**.
31 ـ **مدخل القرآن الكريم** : التعريف بالقرآن، 2007.

الثمن : 80 درهما